سلسلة
الكنائس المسيحيّة الشرقيّة
٣

صفحات من تاريخ المسيحيّين العرب قبل الإسلام

الأب سهيل قاشا

مَنشورَاتُ المكتَبَة البُولسِيَّة
٢٠٠٥

صفحات من

تاريخ المسيحيّين العرب

قبل الإسلام

سلسلة

الكنائس المسيحيّة الشرقيّة

٣

صفحات من تاريخ المسيحيّين العرب قبل الإسلام

الأب سهيل قاشا

٢٠٠٥

طبعة أولى

٢٠٠٥

*

منشورات المكتبة البولسيّة

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب. ١٢٥

هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦

بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣

زحلة – الحمراء بلازا – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

الإهداء

إلى الشِبْلَيْن العَزِيزَيْن
والأمْجَدَين

وَلَدَي أخي جَنَان
أَنمار وتَغلِب
اعتزازًا
وتكريمًا

س. ق.
٢٠٠٥/٦/١

تقديم

ما زال الباحثون والمؤرّخون، يهتمّون بتاريخ العرب قبل الإسلام، ويجتهدون في البحث والكشف عن مختلف الميادين والمجالات الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والدينيّة.

وما زالت تلك الميادين والمجالات مفتوحة، وستظلّ كذلك إلى مدًى بعيد. فتاريخ العرب ثريّ ثراء مدهشًا كتراثهم في التراث الأدبيّ.

لا يمكن لأحد أن ينكر ما للحياة الدينيّة والأدبيّة للعرب قبل الإسلام من أهمّيّة، وهو ما جعلها محلّ بحث الباحثين، واستكشاف المدقّقين والمحقّقين من الدارسين.

إنّ اهتمامنا بالمسيحيّة العربيّة منذ نشأتها في بلاد العرب، أثارنا في البحث والاستقصاء، فاستغرق مِنّا الساعات الطوال امتدت إلى سنين عديدة بنهاراتها ولياليها من أجل معرفة الحقيقة كما هي، لا كما يريدها بعض المنظّرين والمفكّرين، فينطلقون بأفكار مسبّقة على أساساتها الواقعيّة.

فالمسيحيّة شملت قبائل كثيرة وأحياء معروفة، كانت منتشرة في الجزيرة العربيّة والعراق والشام والجزيرة الفراتيّة، ويُعد أفرادها من ذوي الأصل العربيّ الخالص، أي من العرب الأقحاح. وهم الذين يعنوننا في هذه الدراسة دون مسيحيّي مصر، فمصر خارج اهتمامنا رغم انتمائها للمشرق المسيحيّ؛ ودون عرب اليوم المسيحيّين لكونهم في الأساس مستعربين، منحدرين من أجناس متعدّدة كالسريان واليونان. وهكذا فإنّ تنصُّر مثل تلك القبائل والأحياء العربيّة، لهو أمر يثير الاهتمام ويدعونا إلى إعطاء هذا الموضوع ما يستحقّه من عناية.

وإلى ذلك كلّه، فإنّ معرفة ماهيّة المسيحيّة العربيّة وهويّتها وتطوّرها منذ نشأتها في التاريخ، يتعلّق أمرها بالبحث عن جذور انخراط أولئك العرب الأقحاح في الديانة المسيحيّة. وعليه فلسنا أمام قضيّة بسيطة، ولا أمام موضوع وقعت دراسته مسبّقًا بصفة مستقلّة. بل إنّ الدارس يواجه صعوبات كبرى تتعلّق خاصّة بجمع مادّة دراسته. فهذه

المادّة مكتوبة في جزء كبير منها باللغة السريانيّة، وهي أيضًا مبعثرة في كتب كثيرة ولا تكفي الفهارس لضبطها. وليس أمامنا في هذه الحالة، إلاّ أن نقرأ تلك الكتب من بدايتها حتّى منتهاها لنحصل في آخر الأمر على كلمة أو كلمتين، أو خبر أو بضعة أخبار تعنينا، وربّما لا نحصل أحيانًا على أيّ شيء مفيد. ولا يسعنا هنا إلاّ أن نشير إلى كتب ضخمة مثل كتاب «الأغاني» و«تاريخ الطبريّ» و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير. وكتب الطبقات والتراجم، وما أُلّف عن الملل والنِحَل. وهذا كلّه تطلّب منّا جلدًا وصبرًا على جمع النتف المبعثرة هنا وهناك، والربط بينها لتكوين مادّة مستقلّة خاصّة بتاريخ جماعة المسيحيّين العرب الأقحاح وأحوالهم في الفترة السابقة للإسلام.

لقد ترك لنا المؤرّخون اليونانيّون في آثارهم معلومات ليست بالقليلة عن العرب. فالمؤرّخ سوزمينوس الذي كتب تاريخ الكنيسة في الأربعينات من القرن الخامس ذكر معلومات قيّمة عن تنصُّر العرب في القرنين الرابع والخامس الميلاديّين، وأحد مصادر سوزمينوس كان التاريخ الذي دوّنه سقراط[1].

ويرد في هذا التاريخ ذكر القبائل العربيّة التي كانت تعيش على حدود الفضاء الرومانيّ، وطرق تنصُّرها.

ولم يكن اعتناق العرب المسيحيّة موضع اهتمام مؤرّخي الكنيسة وحدهم، بل كان كذلك حتّى عند مؤلّفي سير القدّيسين. فمؤلّف سير الرهبان ونسّاك القفار أمثال كيرلّس السيتولوليسيّ الذي كان معاصرًا للقدّيس أفتيموس. نزل سنة ٥٤٤م. بدير هذا القدّيس حيث بقي هناك عشرة أعوام جمع خلالها ما استطاع جمعه عن ذلك القدّيس الذي نشط في نشر المسيحيّة بين العرب في الشرق الأدنى كما يذكر يوحنّا الأفسسيّ صاحب كتاب سير القدّيسين قبل الإسلام وقد توفّي عام ٥٨٧م، والـمَفْريان مار غريغوريوس يوحنّا بن العبريّ (+ ١٢٨٦) والمطران إيليّا برشينايا (+ ١٠٤٦) وغيرهم من المؤرّخين السريان.

أمّا المصادر المسيحيّة المدوّنة بالعربيّة فنخصّ منها تاريخ النساطرة أو تاريخ سِعِرْد، وهو لمؤلّف مجهول، وإن كان عربيًّا ينتمي إلى النساطرة، وتنتشر في ثنايا الكتاب

(١) هو شخصيّة علمانيّة يعيش في القسطنطينيّة ووضع تاريخًا للكنيسة في سبعة مجلّدات عرض فيها الأحداث من عام ٣٠٥ إلى عام ٤٣٩م. ويرد ذكر القبائل العربيّة لديه عند معالجته الأحداث في الإمبراطوريّة.

أخبار عن دور النساطرة في تنصير أهل اليمن والبحرين والحيرة ومِيْشان، وذكر المراكز المسيحيّة العربيّة في العراق، وأخبار نزاعات النساطرة واليعاقبة من أجل البحث عن أتباع بين العرب.

ويحتوي كتاب «فطاركة كرسيّ المشرق» لماري بن سليمان، وعمرو بن متّى، وصليبا بن يوحنان، والمأخوذ من مصنّف نسطوريّ عربيّ ضخم هو كتاب «المـَجْدَل» للاستبشار والجدل، على معلومات ثمينة بهذا المجال.

أمّا عن الدراسات المتعلّقة بموضوع المسيحيّة العربيّة فإنّ أهمّ ما يجدر ملاحظته بشأنها هو أنّ أغلب مؤلّفيها من رجال الدين. ثمّ إنّ هذه الدراسات في أغلبها قديمة أو منقوصة لاهتمامها بفترة معيّنة من تاريخ المسيحيّة العربيّة أو بفئة محدودة من المسيحيّين العرب أو لأنّها غير مقنعة لضعف الاستنتاجات التي توصّلت إليها أو لتحيّزها محاولة مثلاً تقديم القبائل المسيحيّة العربيّة في صورة معادية تمامًا للإسلام لإيهام القارئ بأنّ المسيحيّين العرب كانوا ينتمون إلى العالم المسيحيّ وبأنّ مصالحهم كانت لصيقة بهذا العالم، غاضّة النظر عن عروبة هؤلاء المسيحيّين، ودور ذلك في التأثير على سلوكهم السياسيّ والاجتماعيّ. ولنا أمثلة عديدة على هذا النوع من الدراسات «الموجّهة» و«المتحيّزة»، ومنها مصنّفات الأب لويس شيخو اليسوعيّ: «النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة» و«شعراء النصرانيّة قبل الإسلام» ونظيره «بعد الإسلام» وغيرها. وكذلك مؤلّفات الأب لامنس اليسوعيّ، وغيرهما من المؤلّفين المسيحيّين العرب والأجانب وإلى جانبهم المؤلّفون المسلمون.

وأخيرًا لا بدّ من ذكر أنّ الصعوبات المنهجيّة لم تكن الوحيدة التي اعترضتنا في التعامل مع المصادر والمراجع غير المتوفّرة بين يدينا، فاقتضى والحال هذه الوقت الكثير، امتدّ إلى أكثر من عشر سنين أمضيناها بين خزائن الكتب والمكتبات في لبنان والعراق.

وختامًا لا يسعنا ونحن نقدّم هذا العمل المتواضع إلاّ الإشادة بفضل من أعان على إنجازه، وأوّل من يتعيّن علينا شكره إدارة منشورات المكتبة البولسيّة، التي حفّزتنا على إتمامه وتعهّدت بنشره وإخراجه إلى عالم النور.

والله وليّ التوفيق.

دير يسوع الملك
أحد بشارة العذراء
٢٠٠٤/١١/٢١

المقدّمة

من المألوف أن يُشار إلى القرن الأوّل الميلاديّ من حيث انتشار المسيحيّة، بأنّه عصر رسل المسيح أو تلاميذه الذين كان لهم دور كبير مباشر في نشر المسيحيّة. وفي هذا الدور كان بيت المقدس المركز الأوّل للمسيحيّة.

ولم يمضِ وقت قصير حتّى كانت أنطاكية قد أصبحت أحد المراكز الرئيسيّة للكنيسة المسيحيّة، ومن المرجّح أنّ القدّيس بطرس هو الذي أسّس الكنيسة في هذه المدينة المهمّة التي كانت العاصمة الإداريّة لبلاد الشام.

وفي هذا الوقت وصلت المسيحيّةُ دمشقَ ومنها انتقلت إلى بلاد العرب القريبة، ولعلّ الذي قصده مؤرّخ المسيحيّة من بلاد العرب هنا حوران وجهاتٌ أخرى وصولاً إلى البتراء وتيماء.

وقد حفظت الرواية أنّ أوّل من بشّر بالمسيحيّة في (بيت أرامايي) كان مار ماري الذي قدم من الرُّها وجمع حوله فئة من الأتباع التي عملت على نشر المسيحيّة في الأجزاء الغربيّة من الأمبراطوريّة الساسانيّة.

وقد انتشرت المسيحيّة بين البدو، ويعود ذلك إلى الرهبان والنسّاك الذين عملوا بين هذه الفئات المتنقّلة.

ومن الرُّها انطلق التبشير بالمسيحيّة في أرض الرافدَين، وكانت اللهجة الرهاويّة الآراميّة (السريانيّة) قد أصبحت وسيلة أدبيّة لنشر المسيحيّة بين الناطقين باللغات الساميّة بما في ذلك العرب.

قد يكون التحدّث عن انتشار المسيحيّة في مصر وأرض الرافدين وبلاد الشام فيه شيء من الدقّة. لكن فيما يتعلّق بانتشار المسيحيّة في بلاد العرب، أي في الجزيرة بالذات، فالذي نملكه لا يعدو كونه نتفًا من المعلومات المغلّفة بكثير من القصص أوّلاً، ثمّ بالتفسير الذي أدخله الكتّاب العرب فيما بعد على ما حسبوا أنّهم اكتشفوا وجوده.

ونحن هنا، وبمحاولة متواضعة، نحاول إماطة اللثام عن بعض تلك الأخبار وتلك الروايات، لا سيّما ذات العلاقة المتينة بالمسيحيّة في بلاد الرافدين وبلاد الشام والجزيرة العربيّة.

قسّمنا البحث على ثلاثة محاور:

الأوّل: المسيحيّة في العراق، وقيام مملكة الحيرة وما قدّمته من مساندة للكنيسة المسيحيّة الشرقيّة (النسطوريّة).

الثاني: المسيحيّة في بلاد الشام، وقيام مملكة الغساسنة وما قدّمته من خدمات في تعضيد الكنيسة السريانيّة اليعقوبيّة (الأرثوذكسيّة).

الثالث: المسيحيّة في مكّة والمسيحيّة في نجران، وما جرى في هذين الموقعين من أحداث حتّى ظهور الإسلام.

وعليه ظهرت المسيحيّة، والوطن العربيّ تحت الاحتلال الأجنبيّ: العراق تحت سيطرة الفَرْثيّين (٢٥ ق.م. – ٢٢٤م) والوثنيّة سائدة في أنحائه، تتحكّم في رقاب الناس. أمّا بلاد الشام فتحت حكم البيزنطيّين (١٣٥م – ٦٣٨م) والجزيرة العربيّة لا سيّما اليمن ونجران تحت وطأة الأحباش.

إنتشرت المسيحيّة في العراق في بداية القرن الأوّل الميلاديّ. ويؤكّد أغلب المؤرّخين، أنّها انتشرت على يد مار أدّي أحد الرسل الاثنين والسبعين، وتلميذه مار ماري اللذين بشّرا في الرها ونصّيبين والجزيرة والموصل، وأرض بابل والسواد وبلاد العرب في المائة الأولى للميلاد، وأوردوا على قولهم النصوص الصريحة.

فيقول جاثليق المدائن طيمثاوس الأوّل ما معناه: كانت الديانة المسيحيّة منتشرة لدينا بعد صعود ربّنا إلى السماء بنحوٍ من عشرين عامًا[1].

وكتب المسعوديّ في كتابه التنبيه والإشراف: «والعباد، تذكر أنّ أوّل البطاركة السريانيّين الذين نزلوا كرسيّ المشرق على قديم الأيّام بعد صعود المسيح إلى السماء بنحو ثلاثين سنة، بعد توما أحد الاثني عشر، أدّي السليح قبل حدوث الخلاف بين النصارى، وهو أدّي برماري (كذا) من السبعين وهو نصّر أهل المدائن ودير قِنّي وكَشكَر وغيرها من

(١) مجلّة النجم ١٠: ١١.

السواد وبنى بيعتين إحداهما بالمدائن وجعلها كرسيًّا لمن يأتي بعده من البطاركة، ورسم ألاّ تتمّ البطركة لمن يُنصّب لها إلاّ في هذه البيعة وأخرى بدير قِنّي وقبره بها[2]».

ثم امتدّت المسيحيّة إلى ديار العرب في العراق: الحيرة، والمدائن، والأنبار، وعين التمر، وميشان، وعاقولا (الكوفة) وجرجرايا، وكلواذي، ومناطق أخرى.

ومن القبائل العربيّة التي تنصّرت في العراق: بنو عِجل بن لَجيم من قبائل بكر بن وائل. ومنهم حَنْظَلة بن ثَعلَبة بن سَيّار العِجْلي الذي قادهم في معركة ذي قار. وكان منها أيّام الأولين (أبجَر بن جابر) والد حَنْجار الذي بقي على مسيحيّته في الإسلام[3].

وذكر اليعقوبيّ أنّ «عليّة أهل الحيرة نصارى، فمنهم من قبائل العرب على دين النصرانيّة من بني تَميم آل عَديّ بن زَيد العباديّ الشاعر، ومن سُلَيم، ومن طيّ، وغيرهم[4]».

وهناك قبائل عربيّة أخرى انتشرت بها المسيحيّة مثل غسّان وتَنوخ وشيبان وتَغلِب، وبنو مَرينا وهم من لَخم وبَجيلة التي كانت من الأزْد[5]. وذلك بفضل المبشّرين من الرهبان الذين كانوا يعيشون بين أحياء العرب ويتجوّلون في البراري.

على ضوء ما سبق نضع هذا البحث بين يدي المطالع الكريم عسى أن ينال رضاه ونكون قد خدمنا كنيستنا المشرقيّة والعربيّة بأبنائها الميامين لإحياء تراثها العربيّ المسيحيّ العريق الثمين.

دير يسوع الملك

٢٠ تشرين الثاني ٢٠٠٣

(٢) **التنبيه والإشراف**، ص ١٤٩.

(٣) الدينوريّ، **الأخبار الطوال**، طبعة أولى، ص ٢٢٨.

(٤) **البلدان**، طبعة برل – لندن، ص ٣٠٩.

(٥) قدامة بن جعفر، **كتاب الخراج**، (١٩٦٥). إبن سلام، **الأموال**، (١٩٦٨) ص ٣٩. الجاحظ، **الحيوان**، ٧: ٢١٦. جواد عليّ، **المفصّل**، ٣: ١٧٠.

الفصل الأوّل
العرب والمسيحيّة

تركت المسيحيّة أثرها على القبائل العربيّة التي كانت تعيش في جوار الحدود البيزنطيّة، ذلك أنّها كانت الديانة الرسميّة لتلك الدولة، وكان ممّا ساعد على اعتناق العرب المسيحيّة التقاؤهم بالرهبان، مضافًا إلى هذا نشاط الدعاة والمبشّرين، بل ونشاط بعض الأفراد. ويفصّل القول في هذا، المؤرّخون والكتبة الكنسيّون، الذين هم على علم بأنّ العرب قد سرت بينهم الدعوة إلى المسيحيّة في القرنين الرابع والخامس على يد الرهبان الأرثوذكس بفلسطين وسوريّة وبين النهرين، وأنّ بعضًا من البدو الرُّحّل أصبحوا من الأتباع المتحمّسين لشمعون العموديّ. وهنا لا بدّ من وقفة قصيرة عند سيرة هذا الناسك الشهير.

تضمّ سيرة مار شمعون قصصًا عن القبائل العربيّة وملك الحيرة نعمان اللخمي. ويرد في سيرته (السريانيّة)[1] كذلك عن أنطيوخس بن سبينوس bar Sabinus أنّه زار شمعون العموديّ وحكى له عن النعمان. «فقد جاءه أنطيوخوس بن سبينوس الذي عيّن دوكًا لدمشق وقال لقداسته أمام الجميع: قدم النعمان إلى البادية القريبة من دمشق وهيّأ طعامًا دعاني إليه لأنّه لم يكن بينه وبين الرومان عداء في ذلك الحين. فلمّا جلسنا للطعام تطرّق الحديث إلى مار شمعون فابتدرني بالسؤال قائلاً: هذا الذي تدعوه مار شمعون أَرَبٌّ هو؟ فقلت له: لا بل عبدٌ للربّ. فقال لي النعمان: لمّا ترامت إلينا أخبار مار شمعون شرع

---

(١) وصلت إلينا في مخطوطة بمكتبة الفاتيكان وتحمل تاريخ ١٧ نيسان عام ٥٢١ وفقًا للتقويم الأنطاكيّ، وهو ما يوافق ١٧ نيسان عام ٤٧٣ ميلاديّ. وقد نشرت هذه السيرة في مجموعة السمعانيّ اعتمادًا على المخطوطة التي تحمل الرقم ١٦٠. وثمّة مخطوطة أخرى لهذه السيرة تقرب كثيرًا من المخطوطة الأولى التي ترجع إلى القرن السادس وهي مودعة تحت الرقم ١٤٤٨٤ dda بالمتحف البريطانيّ وقام بنشرها بيجان. ومن هذا يتبيّن أنّ كلتا المخطوطتين تعودان إلى زمن قريب من فترة حياة مار شمعون. وإنّ مصادر سيرته تعتمد على قصص المعاصرين وشهود العيان. وتحدّد الروايات السريانيّة بدقّة تاريخ موت شمعون العموديّ على أنّه حدث في يوم الأربعاء الثاني من شهر أيلول عام ٧٧٠ من التقويم السلوقيّ، وهو ما يوافق الثاني من شهر أيلول عام ٤٥٩ للميلاد.

عربنا في الذهاب إليه. وجاء إليّ أعيان حيرتنا وقالوا لي: إن أذنت لهم بزيارته فسيذهبون إليه ويتنصّرون وينضمّون إلى الروم وينتفضون عليك ويهجرونك. فأمرت بجمع أهل حيرتي كافّة وقلت لهم: لو جَرؤ أحد منكم على الذهاب إلى مار شمعون قطعت رأسه ورؤوس أهل بيته، ثمّ أذنت لهم بالانصراف. وفي منتصف الليل وأنا نائم بخيمتي رأيت رجلاً مهيبًا لم أرَ مثله أبدًا، وكان معه خمسة آخرون. فلمّا رأيته انخلع قلبي واصطكّت ركبتاي فسجدت له».

واستمع النعمان إلى تقريع شمعون الذي ظهر له في منامه وأخذ نذرًا على نفسه بألاّ يحول بين أعرابه وبين زيارة شمعون أو الدخول في المسيحيّة، وقال إنّه إن لم يكن في خدمة ملك الفرس لذهب بنفسه إلى شمعون ونال التعميد على يده.

وفي الخاتمة قال النعمان: ثمّ أمرت بالبِيَع فبُنِيَت، وبالأساقفة والقسس فأُحضروا إلى حيرتي وقلت لهم: من أراد أن يتنصّر فليفعل دون خشية. ومن أراد البقاء على وثنيّته فليُترك وشأنه.

من هذه القصّة نستنتج أنّ المسيحيّة كانت قد وجدت طريقها إلى العرب الخاضعين لسلطان اللخميّين. أمّا عن البيعة التي شيّدتها هند بالحيرة فيقف دليلاً عليها رقيم من عهد خسرو أنو شروان حفظه لنا ياقوت الحمويّ، وإن جاء متأخّرًا بأكثر من قرن عمّا ورد بالرواية المتعلّقة بسيرة مار شمعون[٢].

وفي سيرة مار شمعون التي دوّنها تُيودور القُورشيّ أخبار عن حياته، للعرب فيها نصيب. فيقال إنّهم قدموا إليه في جماعات تقدّر الواحدة منها بالمائتين وبالثلاثمائة، بل وبألف شخص أحيانًا، وقد تمّ تنصيرهم جميعًا. وفي خلال تدافعهم للحصول على البركة على يد تُيودور الذي كان هناك بأمر شمعون فقد دفعوا بهذا الأسقف حتّى وقع على الأرض ولم يستطع تنظيم صفوفهم إلاّ بمشقّة بالغة[٣].

كذلك كان تُيودور شاهدًا لحادث آخر، وذلك حين جاءت إحدى العشائر ترجو من مار شمعون أن يرسل بركته إلى فيلارخهم (شيخهم)، غير أنّ عشيرة أخرى كانت حاضرة هناك دخلت معها في نزاع وأصرّت على أنّ ذلك الشيخ لا يستحقّ البركة، لأنّه رجل

(٢) ياقوت، **معجم البلدان**، طبعة أوروبّا، ج٢ ص ٧٠٩.

(٣) تيودور، **سيرة مار شمعون**، رقم ١٤ ص ١١.

غير عادل، وأنّ شيخهم هو الذي يستحقّها دون منازع. وقد اضطرّ أسقف قورش[٠] للتدخّل ليفضّ الشجار وليقنع العرب بوضع حدٍّ للنزاع وألاّ يهاجم بعضهم بعضًا، مؤكّدًا لهم أنّ باستطاعة مار شمعون أن يمنح البركة إليهما معًا[٤].

واستجابة لرجاء أحد الفيلارخات (الشيوخ) قام مار شمعون بمعالجة رجل أصيب بالفالج قرب مدينة ملليتيقة (الرقّة)، القلعة المعروفة، وكان ذلك الشيخ هو الذي أحضره إلى مار شمعون[٥].

ويحكي تُيودور الأسقف أيضًا قصّة تتّصل بعربيّ آخر كان قد نكث عهد المسيحيّة الذي أعطاه، رجا من القدّيس العون[٦]. كما يحكي عن إحدى ملكات السرقينيّين التي طلبت البركة من مار شمعون، وأحضرت معها رضيعها ليباركه[٧].

ومن ثمّ فإنّ الأسطر التالية، من سيرة مار شمعون المدوّنة بالسريانيّة، ليس المقصود منها إحداث تأثير بلاغيّ في نفس القارئ بقدر ما هي إلى حدٍّ كبير انعكاس لحقيقة الوضع: «فليس في الوسع حصر عدد العرب الأقاصي ممّن لم يعرفوا طعم الخبز بل اقتصر غذاؤهم على اللحم، الذين قدموا لرؤية مار شمعون القدّيس وأخذوا منه تعاليم الدين فأصبحوا مسيحيّين واطّرحوا أصنام آبائهم ودخلوا في خدمة الله. وكم كان كبيرًا عدد البرابرة والأرمن والأوراتاي والوثنيّين والمتحدّثين بشتّى اللغات، الذين كانوا يأتون يومًا بعد يوم ليأخذوا التعميد وليؤمنوا بالله الحيّ. وليس في الوسع إحصاء أعداد العرب من ملوك وأعيان الذين أخذوا التعميد عن يديه وآمنوا بالله الحيّ واتّبعوا دعوة المسيح وعملوا بكلام القدّيس السعيد فشيّدوا البيع في مخيّماتهم[٨]».

من هذا يتبيّن أنّ مدوّن سيرة شمعون القدّيس قد خصّ العرب باهتمامه دون جميع

(٠) قورش أو القورسيّة أو القورشيّة، منطقة في سورية الشماليّة غربيّ حلب. إشتهرت بمناسكها في العصور المسيحيّة الأولى. فيها نشأ القدّيس مارون (+ ٤١٠). كانت من مدن الثغور على أيّام هارون الرشيد.

(٤) ذات **المصدر السابق**، ص ١١ رقم ١٤.

(٥) ذات **المصدر السابق**، ص ١١ رقم ١٤.

(٦) **المصدر نفسه**، رقم ١٥ ص ١٦.

(٧) شرحه رقم ١٩ ص ١٤. وهذه القصص نلتقي بها كذلك في سيرة مار شمعون التي دوّنها أنطونيوس.

(٨) نينا ڤكتوروڤنا پيغوليفسكيا: **العرب على حدود بيزنطية وإيران**، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، (الكويت ١٩٨٥) ص ٨٧.

الشعوب التي دخلت المسيحيّة، بل أنّه ركّز اهتمامًا أخصّ على أولئك العرب الذين دعاهم «بالأقاصي» وهم البدو الذين كانوا يتنقلون «بعيدًا» عن حدود الدولة البيزنطيّة، والذين لم يعرفوا الخبز ولم تكن لهم علاقة بالحضر وانحصر طعامهم في اللحم وحده. وبعد دخولهم المسيحيّة بنوا البيع في مخيّماتهم، ممّا يقف دليلاً على أنّ أسلوب حياتهم البدويّة ظلّ على ما هو عليه دون تغيير يذكر.

ولمّا مات مار شمعون عام ٤٧٣ حُمل جثمانه إلى أنطاكية في موكب مهيب على يد الأسقف مرطيري الأنطاكيّ يصحبه ستّة من الأساقفة. وعندما بلغ نعيه العرب تجمّعوا على ظهور إبلهم في أعداد كبيرة وأرادوا انتزاع جثمانه[٩]. هذا وقد التفّ حول شمعون العموديّ أثناء حياته جماعات بكامل عددها من العرب من مختلف القبائل فاعتنقوا المسيحيّة على يده وأخذوا التعميد منه، واتّجهوا برجاءاتهم وتوسّلاتهم إليه. كلّ هذا يقف شاهدًا على الصلة الوثيقة للعرب بالمسيحيّة وامتداد نفوذها آنذاك بين الكتل العربيّة وانتشارها على السواء في الوسط السريانيّ اليونانيّ والوسط العربيّ الوثنيّ. وقد كان للسريان دور كبير في خلق هذه الصلة. وكذلك في إدخال العرب إلى حضيرة المسيحيّة، خاصّةً وإنّ لغة العرب كانت مألوفة لديهم. ويغلب على الظنّ أنّ لهجة للتخاطب قائمة بذاتها، وهي أمشاج من الألفاظ السريانيّة والعربيّة، كانت سائدة بينهم. ومن الجدير بالذكر أنّ مار شمعون كان قد التقى، وهو في الحداثة وذلك بدير أوزيبونه، بمار أسقف الجبّول وكان سريانيًّا اسمًا ولغة، وتبادل الحديث معه ومع أخيه شَمْش، ويُفترض أنّ ذلك الحديث قد جرى بينهم باللغة السريانيّة. وقد تعرّض العرب لتأثير المسيحيّة بالذات لأنّها كانت أقرب إليهم. ومن ثمّ فيجب ألاّ يدهشنا ذلك.

يحدّثنا الراهب يوحنّا موسخ الذي مات حوالي عام ٦٢٢م. أنّه كان قد طوّف مع تلميذه صفرونيوس الذي أصبح فيما بعد بطريركًا على أورشليم، بالمخيّمات والأديرة بفلسطين وسوريّة ودوّن ما سمعه من أخبار النسّاك، كما دوّن وصفًا للأحداث التي كان شاهدًا لها. وكان يوحنّا على معرفة بلغة العرب الذين كانوا يتنقّلون في جماعات صغيرة أو أفرادًا، والتقوا غير مرّة بالرهبان. مثال ذلك أنّه يحكي لنا قصّة أحد النسّاك بفلسطين كان قد اقتسم طعامه مع «امرأة جائعة من السرقينيّين» لجأت إليه، فقام بأودها لبعض

(٩) أنطونيوس، **سيرة مار شمعون**، ص ٦٨ رقم ٢٩.

الوقت» كذلك حفظ الراهب يوحنّا شهادة تقول بأنّ العرب الوثنيّين كانوا يقدّمون القرابين البشريّة لآلهتهم، وهي حقيقة معروفة لنا من مصادر أخرى.

وفي عهد الإمبراطور مُوريقي، عندما «قام النعمان شيخ (ملك) السرقينيّين بالنهب» رأى أحد الرهبان وهو شيخ طاعن في السنّ يدعى نيقولا، ثلاثة من العرب يقبضون على فتاة السبي رائعة الجمال فتضرّعت إلى الراهب لينقذها، وعرض عليهم الراهب بأن يأخذوه مكانها، إلاّ أنّ العرب رفضوا محاولته لافتدائها بنفسه محتجّين بأنّهم وعدوا بإحضار إحدى الأسرى قربانًا للآلهة. غير أنّ «لعنة فجائيّة حلّت بهؤلاء العرب فوثب بعضهم على بعض وهكذا خلصت الفتاة التي أخذها الراهب نيقولا إلى مغارته».

وقد اكتسب الشهرة رقيم مدوّن باليونانيّة والسريانيّة والعربيّة عثر عليه بزَبَد ويحكي عن بناء مرطويل (مشهد/معبد) القدّيس سرجيوس الذي لا تزال أطلاله ماثلة في الفلاة الواقعة بين حلب والفرات ولا يتّفق متن اللغات الثلاث التي دوّن بها هذا الرقيم إلاّ في المحتوى العامّ. أمّا أسماء مؤسّسيه فيوجد ثمّة اختلاف حولها. ففي المتن السريانيّ مثلاً يرد أنّ الحجر الأساسيّ في البناء وضعه الداعي يوحنّا «طاب ذكره»، ومن الجليّ أنّه لم يكن في عداد الأحياء عندما تمّ نقش الرقيم. ويرد اسم الداعي في المتن اليونانيّ أيضًا. وأمّا تاريخ الرقيم فيرد على أنّه عام ٨٢٣ من التقويم السلوقيّ. وذلك في الرابع والعشرين من أيلول في السريانيّ وشهر غربيايه في اليونانيّ، وهو ما يتّفق مع عام ٥١٢ للميلاد. وقد دوّن النقش شخص يدعى مارا. أمّا مؤسّسو المعبد فهم: أنّا وأنطيوخ والأبّا سرجيوس. ولا يختلف المتنان اليونانيّ والسريانيّ إلاّ في بعض التفاصيل الضئيلة.

وأمّا المتن العربيّ فيبدأ بتصوير الصليب شأنه شأن المتنين السابقين. وهو لا يحوي سوى بضعة أسماء يبدو جليًّا أنّها لمسيحيّين عرب ممّن أخذوا طرفًا في تشييد البناء. وليست أسماؤهم بواضحة كلّ الوضوح. ويمكن أن نميّز من بينها اسم سرجيوس بن سعد واسم شخص آخر يدعى ابن امرئ القيس. غير أنّه من الجوهريّ في حدّ ذاته وجود أسماء عرب مسيحيّين وأيضًا الخصائص الپاليوغرافيّة للمتن.

وثمّة رقيم آخر مدوّن باليونانيّة والعربيّة تمّ العثور عليه بحوران في اللجا، وهو مؤرّخ بتقويم بصطريّ الذي يبدأ في الثاني والعشرين من أيّار عام ١٠٦ للميلاد. أمّا تاريخ تدوين الرقيم فيرد على أنّه عام ٤٦٣ الموافق لعام ٥٦٨ للميلاد. ويشهد المتن العربيّ بتشييد الرقيم بالصورة الآتية: «أنا سرحبيل بن ظلمو بنيت المرطويل سنت ٤٦٣».

وهناك شواهد أخرى موثوق بصحّتها تثبت اعتناق العرب للمسيحيّة، ويشغل المكانة الأولى بينها قرارات المجامع الكنسيّة. فرجال الدين الذين أخذوا طرفًا في مجمع ما ووافقوا على قراراته، وهم في العادة من الأساقفة، قد وقّعوا بأيديهم على تلك القرارات. ويشمل التوقيع اسم الشخص الموقّع واسم الأبرشيّة أو المدينة التي يمثّلها، ممّا يساعد على تحديد مراكز انتشار المسيحيّة. ويرد في قرارات مجمع القسطنطينيّة لعام ٣٩٤ والتي حفظت فقرات منها في «السنداغما الرابعة عشرة للألقاب» اسما اثنين من القدّيسين هما بغاديوس وأغابيوس، وهما قسّان من مدينة بصطرى نشب النزاع بينهما من أجل الكرسيّ الأسقفيّ لبلاد العرب. والمقصود بطبيعة الحال ولاية عرابية البيزنطيّة التي كانت قصبتها السياسيّة والكنسيّة هي مدينة بصطرى، التي كان للعرب صلة وثيقة بها.

وفي حيّز ولاية فينيقية اللبنانيّة، والتي كان كرسيّ مطرانيّتها بدمشق، كانت تدخل أسقفيّة أواريا، وهي بالسريانيّة حوارين. وكان يشرف عليها منذ عام ٤٥١ يوحنّا أسقف «عرب زيزايه» بحوارين والذي مات في المنفى بحرلان، وسبق أن أُبعد من حوارين بعد عام ٥١٨م. وبهذه الولاية نفسها وُجدت «أسقفيّة» أخرى للسِراقينيّين، كانت تقع في أغلب الظنّ في دومر فلسي Felsee. ويتعلّق الأمر ها هنا بمجموعة حوارين. ولدى يوحنّا الأفسسيّ رواية مفادها أنّ حوارين (أواريا) قد أعاد بناءها ماجن الشهير وأنّه هنا بالذات غدر بالمنذر الغسّانيّ. ولمّا كانت الأخبار المتعلّقة بهذه الأسقفيّة تعود إلى عهد مبكر، فقد أثيرت الشبهة بصدد هذه الرواية الأخيرة. أضف إلى هذا أنّ متن يوحنّا ينصّ على أنّ القرية التي تدعى حوارين قد حوّلها (ماجن السريانيّ) إلى مدينة أحاطها بسور وشيّد بها بيعة[10]. وبطبيعة الحال فإنّ تحصين القرية وبناء بيعة جديدة بها إنّما يقف دليلاً على أهمّيّتها، كما أنّ دعوة المنذر إليها بالذات يقف شاهدًا على وجود سكّان عرب فيها. ومن غير الممكن ألاّ تكون قد وجدت طريقها إلى العرب تلك المذاهب المختلفة التي تطوّر فيها الفكر الدينيّ للمسيحيّة، والذي اتّخذ في ارتباطه بالظروف السياسيّة الغالية بالشرق صورة انشقاقات عميقة. ولقد تأثّرت النزاعات العقائديّة الكبرى، بالخصائص الاجتماعيّة والعرقيّة والاقتصاديّة لتلك الشعوب التي دخلت ضمن سكّان الإمبراطوريّتين الفارسيّة والبيزنطيّة. فاشتدّت المنافسة بين المذاهب الكبرى وهي الأرثوذكسيّة والمونوفيزيّة

(١٠) تاريخ يوحنّا الأفسسيّ الموسوم باسم **سِيَر النسّاك**، ج٣ ص ٤٠ ترجمه لنا المرحوم والدي الشمّاس بطرس متّى قاشا وما زال مخطوطًا بخزانتنا.

واليعقوبيّة والنسطوريّة في القرنين الخامس والسادس من أجل السيطرة على عقول الناس. فالقسطنطينيّة والمناطق الملاصقة لها كانت تتمسّك بالأرثوذكسيّة، التي بسط الأباطرة حمايتهم عليها وكانت تمثّل سندهم الروحيّ. أمّا الولايات البيزنطيّة الغربيّة (الشرقيّة؟) بما في ذلك سوريّة ومصر فقد غلب عليها المونوفيزيّون. وعلى خلاف هذا انتشرت النسطوريّة في اتّجاه المشرق إلى حدٍّ ما داخل بلاد فارس والعراق حيث ظهر هذا المذهب الذي اتّبعه السريان بصورة خاصّة في هيئة دين اضطهدته الدولة البيزنطيّة.

والسريان الغربيّون في لغتهم من العرب[11] هم المسؤولون الأول عن اجتذاب العرب إلى النسطوريّة والمونوفيزيّة. أمّا الغساسنة الذين نزلوا الأراضي المتاخمة لولايات عرابية وفينيقية وتدمر وسوريّة فقد وقعوا تحت تأثير الأرثوذكسيّة والمونوفيزيّة المتعاديتين.

فما هي هذه المذاهب ولو بكلمة تعريفيّة موجزة:

١ – الآريوسيّة: تُنسب الآريوسيّة إلى الكاهن آريوس المصريّ الجنسيّة، الليبيّ المولد الذي ولد عام ٢٥٦م. وبدأ ينشر آراءه في مطلع القرن الرابع الميلاديّ، وذهب آريوس إلى أنّ الله الواحد لم يولد، وهو الواحد السرمديّ، ليست له بداية، وهو وحده الحقّ، وهو وحده الذي لا يموت، وهو وحده الحكيم اللطيف. أمّا ابن الله فليس في وسعه أن يحوز على الصفات المنفردة للآب، فهو مولود، وله بداية، وجاء زمان لم يكن فيه موجودًا"[12].

وكان يقول إنّ الله واحد غير مولود لا يشاركه شيء في ذاته تعالى، فكلّ ما كان خارجًا عن الله الأحد هو مخلوق من لا شيء بإرادة الله، ومشيئته. أمّا الكلمة (اللوغوس – المسيح) فهو وسط بين الله والعالم. كان ولم يكن زمان، لكنّه غير أزليّ ولا قديم، بل كانت مدّة لم يكن فيها (الكلمة) موجودًا، فالكلمة مخلوق بل إنّه مصنوع، وإذا قيل إنّه (مولود) فمعنى ذلك أنّ الله (تبنّاه)، ويؤدّي ذلك إلى أنّ (الكلمة) غير معصوم طبعًا، ولكنّ استقامته حفظته من كلّ خطأ وزلل، لكنّه دون الله مقامًا"[13].

ولموقف آريوس من طبيعة السيّد المسيح عُقد مجمع نيقية[14] بحضور الإمبراطور

(١١) نينا فكتوروفنا، **المصدر نفسه**، ص ٣١٧.
(١٢) أبو سيف يوسف، **الأقباط والقوميّة العربيّة**، بيروت – ١٩٨٦، ص ٦٦.
(١٣) الأب جورج قنواتي، **المسيحيّة والحضارة العربيّة**، بيروت بلان. ص ٢٦.
(١٤) مجمع نيقية: نيقية، مدينة قديمة في آسية الصغرى. عقد فيها مجمعان مسكونيّان: الأوّل: حَرَم آريوس عام ٣٢٥ وأعلن «قانون الإيمان»، والثاني: حَرَم محاربي الصور عام ٧٨٧. أصبحت عاصمة الإمبراطوريّة البيزنطيّة (١٢٠٤ – ١٠٦١) اسمها اليوم أزنيق.

قسطنطين شخصيًّا، وأصدر هذا المجمع المسكونيّ الأوّل المعروف بالنيقاويّ قانون الإيمان النيقاويّ كما يلي:

«نؤمن بإله واحد آب ضابط الكلّ، خالق السماء والأرض وكلّ ما يُرى وما لا يُرى، وبربٍّ واحدٍ يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، مولود من الآب أي من جوهر الآب، إله من إله، نور من نور، إله حقّ من إله حقّ، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، الذي به كان كلّ شيء ما في السماء وعلى الأرض، الذي من أجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسّد وتأنّس وتألّم وقام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وسيجيء ليدين الأحياء والأموات، وبالرّوح القدس».

وفي المجمع القسطنطينيّ الأوّل الذي عقد عام ٣٨١م. أُكمل هذا القانون.

وأدان المجمع النيقاويّ الأوّل الآريوسيّة معتبرًا أنّ أولئك الذين يقولون إنّه كان زمن لم يكن فيه وإنّه لم يكن قبل أن يولد، وإنّه صار من العدم أو من أقنوم آخر أو جوهر آخر وإنّ ابن الله مخلوق أو متغيّر أو متحوّل، فهؤلاء جميعهم تفرزهم الكنيسة. وحرم الآباء آريوس وأتباعه فأيّدهم قسطنطين في ذلك وحكم على آريوس بالإبعاد والنفي.

٢ - **النسطوريّة:** نسبة إلى الراهب نسطوريوس (نسطور) الذي انتُخب بطريركًا لكرسيّ القسطنطينيّة عام ٤٢١م، وهو لاهوتيّ من خرّيجي مدرسة أنطاكية، كان يؤمن بوجود طبيعتين في الكلمة: اللاهوت والناسوت. ويفصل بينهما فصلاً كاملاً (مسيحًا إلهيًّا ومسيحًا بشريًّا) واحدًا قبل التجسد وآخر بعده، وقد ربط بينهما اتّحاد أدبيّ بسيط، وقال إنّ عذاب الصليب لم ينل من الطبيعة الإلهيّة، بل انتصر على الطبيعة البشريّة فحسب، وإنّه (لا يحقّ لمريم العذراء أن تدعى والدة الإله بل أمّ يسوع لا غير).

وبسبب آراء نسطور هذه، ولأنّ الكنيسة الرسميّة اعتبرتها خطرة على القانون النيقاويّ ومخالفة له، عُقد مجمع أفسس عام ٤٣١م، واعتبر نسطُوريوس هرطوقيًّا وحرمه وعزله

عن رتبته البطريركيّة، فلجأ النساطرة إلى البلاد التي تحكمها الدولة الساسانيّة[١٥] غير المسيحيّة، والتي لم تكن تهتمّ كثيرًا بالتبشير الدينيّ أو بانتشار دياناتها، بل ربّما وجدت بالنساطرة اللاجئين أعوانًا لها محتملين ضدّ الإمبراطوريّة البيزنطيّة عدوّتها التاريخيّة، ولذلك استقبلت النساطرة وساعدتهم. وقد أسّس النساطرة مدرسة في الرها وأخرى في نصّيبين، وهما مدرستان لاهوتيّتان ومركزا دراسات وبحث. وقويَ نفوذهم وانتشر مذهبهم في العراق في (إمارة الحيرة والقبائل العربيّة) وفي شبه جزيرة العرب، وبلاد الهند وتركستان والتيبت والصين.

٣ - **المونوفيزيّة (أصحاب الطبيعة الواحدة):** لقد تصدّى بعض اللاهوتيّين من كنيسة أنطاكية للنسطوريّة وأعلنوا إيمان الكنيسة وعقيدتها بسرّ التجسّد في كتابات ومؤلّفات عدّة، وترأّس هذه الحملة بطاركة الإسكندريّة. ويعود الفضل في نهضة أصحاب الطبيعة الواحدة إلى الناسك والمطران (مار يعقوب البرادعي)[١٦]. أمّا الذي عزّز شأنها بمؤلّفاته اللاهوتيّة وبدفاعه عن عقيدتها فهو البطريرك مار سويريوس الكبير بطريرك أنطاكية[١٧].

يقول المؤمنون بالطبيعة الواحدة باتّحاد الطبيعتين الإلهيّة والإنسانيّة بدون اختلاط وامتزاج أو تبلبل. وقد رفض المجمع الخلقيدونيّ (٤٥١م) هذا الإيمان فانشطرت الكنيسة إلى شطرين، أحدهما مع هذا الإيمان وهي الكنائس السريانيّة في سوريّة وبلاد فارس والقبطيّة في مصر والأرمنيّة في أرمينيا، والثاني الكنائس البيزنطيّة والغربيّة التي كانت مع الاعتقاد بطبيعتين للسيّد المسيح. وهكذا تشكّلت ثلاث كنائس في الشرق: الكنيسة الملكيّة أي أتباع الملك في القسطنطينيّة والكنيسة اليعقوبيّة (الأرثوذكسيّة) وتتألّف من السريان والأقباط والأرمن والأحباش، والكنيسة النسطوريّة.

وقد انتشرت النسطوريّة في إمارة الحيرة وجنوب العراق وبادية الشام وبعض مناطق

---

(١٥) الساسانيّون، سلالة فارسيّة تنتسب إلى ساسان كانت الإلهة أناهيت هي على رأس الهرم (٢٢٤ أو ٢٢٦ - ٦٥١) أسّسها أردشير الأوّل (٢٢٤-٢٤١). أشهر ملوكها: شابور الأوّل (٢٤١ - ٢٧٢) انتصر على الإمبراطور الرومانيّ ڤاليريان، شابور الثاني ذو الأكتاف (٣١٠ - ٣٧٠) وكسرى أنو شروان الأوّل (٥٣١ - ٥٧٩) الذي غزا أنطاكية وأصلح البلاد.

(١٦) يعقوب البرادعيّ: أسقف الرها (٥٤١ - ٥٧٨) إليه تنتسب طائفة اليعاقبة وهم المونوفيزيت السريان لأنّه قضى حياته عاملاً على إقرار البدعة في سوريّة.

(١٧) سويريوس الأنطاكيّ: بطريرك أنطاكية (٥١٢ - ٥١٨) له مؤلّفات لاهوتيّة قيّمة وميامر ورسائل. توفّي عام ٥٣٨ م. راجع عنه كتاب البطريرك يعقوب الثالث.

الجزيرة السوريّة، وشرق الجزيرة العربيّة ولدى بعض نصارى اليمن والحجاز، كما انتشرت عقيدة الطبيعة الواحدة لدى الغساسنة وفي بادية الشام ولدى بعض القبائل العربيّة وفي الجزيرة السوريّة العليا (بين النهرين) وبيت عربابي، وبعض اليمن والحجاز أيضًا، وكانت القبطيّة في مصر وساحل أفريقيا الشرقيّ، والسريانيّة في أرمينيا وفي بعض المناطق السوريّة. وكانت هذه الكنائس جميعها على عداء دائم مع الكنيسة الرسميّة (الملكيّة)، يصعّده الخلاف اللاهوتيّ، والتنوّع القوميّ، والصراع الاجتماعيّ، خاصّة وإنّ أتباع هذه الكنائس جميعها كانوا من غير البيزنطيّين، فكلّهم مشارقة إمّا عرب أو سريان من بلاد الشام من أصول عربيّة أو من أقباط مصر أو من الأرمن.

إنتشار المسيحيّة في بلاد العرب

جاء في سِفر أعمال الرسل: «وكان جميعهم مبهوتين متعجّبين وهم يقولون: أما ترى هؤلاء المتكلّمين كلّهم إنّما هم جليليّون، فكيف يسمع كلّ واحد لسانه الذي ولد فيه، فرتيّون وماديّون وعيلاميّون،... والذين يسكنون ما بين النهرين واليهوديّة وقفدوقية وبلاد بَنطُوس وآسيا، وفروجيه وفمفولية ومصر وبلاد ليبوّة (ليبيا) القريبة من القيروان والروم المستوطنون، يهود ودخلاء وأقريطيشيّون وعرب نسمعهم ينطقون بألسنتنا بعظائم الله...» (أعمال٢: ٧ – ١١).

هذه إشارة واضحة إلى وجود عرب في أيّام المسيحيّة الأولى كانوا على تماسّ بما يجري في فلسطين. وسواء تنصّر هؤلاء العرب المشار إليهم أم لا، فإنّ وجودهم نفسه يؤكّد علمهم بالدين الجديد ومعرفتهم به منذ سنواته الأولى. وقد كتب جرجس أسقف القبائل العربيّة في منطقة بابل، وكان معاصرًا وصديقًا ليعقوب الرهاويّ، تعليقات على الكتب المقدّسة، ويرى شبرنجر في كتاب محمّد بن إسحق فقرة مأخوذة من ترجمة للإنجيل تمّت قبل الإسلام. وهذه الفقرة تتضمّن الآيات ٢٣ – ٢٧ من الإصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنّا.

إنتشرت المسيحيّة في بلاد العرب قبل الإسلام انتشارًا كبيرًا، ولكن كان المسيحيّون أفرادًا في قبيلة أو مجموعة منها، ونادرًا ما كانت القبيلة بكاملها على المسيحيّة. كما تفاوت تنصّر العرب بين منطقة وأخرى، فقد كان تنصّرهم كثيفًا نسبيًّا في نجران والحيرة وغسّان وبادية الشام وشمال سوريّة، بينما كان فرديًّا تقريبًا في الحجاز. إلاّ أنّ المسيحيّة كانت موجودة ومعروفة لدى العرب جميعهم.

ولا بدّ من الإشارة إلى أمر آخر هامّ، وهو أنّ تنصُّر الأفراد كان يأتي تلقائيًّا غالبًا إذا تنصّر ملوكهم أو أمراؤهم أو رؤساء قبائلهم (فالناس على دين ملوكهم).

ولم يكن التنصّر في أحيان كثيرة نتيجة اقتناع فرديّ أو مبادرة فرديّة. وكان تنصّر رئيس القبيلة نفسه يعود لأسباب عديدة قد تكون إيمانًا دينيًّا أو أسبابًا سياسيّة أو اقتصاديّة أو

شخصيّة: فقد تنصّر زعيم قبيلة الضجاعمة بعد أن دعا أحد الرهبان الله أن يرزقه ولدًا. وتنصّر النعمان ملك الحيرة بعد أن شُفي من مرض عصبيّ على يد أسقف مسيحيّ. والأمثلة كثيرة.

وفي الوقت نفسه كان الحوار اللاهوتيّ يتمّ بين الأساقفة والمقرّبين منهم وأغنياء القبيلة وقادتها. أمّا أفرادها فكان تنصّرهم بسيطًا دون تعمّق باللاهوت. وغالبًا ما أقلمت القبائل العربيّةُ المسيحيّةَ وطبعتها بطابعها، وأخضعتها لظروفها، وتأثّرت بتراثها الثقافيّ وبتقاليدها، وبعلاقاتها بجيرانها. فكانت مسيحيّتهم كأنّها مسيحيّة (خاصّة)، ابنة الظروف المحيطة بأتباعها من العرب.

كان الصراع موجودًا بين القبائل العربيّة التي على المذهب النسطوريّ والقبائل العربيّة على مذهب الطبيعة الواحدة، وكان ظاهره دينيًّا وأسبابه الحقيقيّة سياسيّة واقتصاديّة تعود إلى الصراع بين القبائل، خاصّة بين غسّان التي كانت على مذهب الطبيعة الواحدة ومن والاها من القبائل الأخرى، وبين الحيرة النسطوريّة ومن والاها. وما انقطعت الحروب بين المناذرة والغساسنة طوال عشرات السنين، وكانت تحرّكها أساسًا مصالح دنيويّة، لا دينيّة. كما كانت هذه الصراعات تعود لأسباب (دوليّة خارجيّة) تغذّيها الصراعات بين الإمبراطوريّة البيزنطيّة والإمبراطوريّة الساسانيّة، حيث ناصرت الأولى (مملكة غسّان الأرثوذكسيّة / اليعقوبيّة) لتكون رأس حربة لها موجّهة للجزيرة العربيّة للأسباب المعروفة (حماية طرق التجارة، حراسة التخوم)، وناصرت الثانية (مملكة) الحيرة النسطوريّة، وجعلتها وسيلتها لتحقيق الأهداف نفسها.

طرق انتشار المسيحيّة

في **نجران** انتشرت المسيحيّة انتشارًا واسعًا. ويروي الأخباريّون قصصًا متعدّدة ومتنوّعة، عن تنصّر أهل نجران. فبعضهم يَعْزِي ذلك إلى رجل صالح كان من أصحاب الحواريّين اسمه (فيميون)، جاء من اليمن متخفّيًا، فأظهر عجائب أمام حكّامها أدّت إلى إيمان الناس بدينه وأصبحوا مسيحيّين.

وتزعم المصادر السريانيّة والنسطوريّة أنّ تاجرًا من أهل نجران اسمه (حَنّان أو حيّان) قام أيام يَزدَجَرد الأوّل (٣٩٩ – ٤٢٠) بسفرة تجاريّة إلى القسطنطينيّة، ثمّ ذهب منها إلى الحيرة، وفيها تلقّى مبادئ المسيحيّة ودخل فيها، فلمّا عاد إلى نجران بشّر فيها بالمسيحيّة

حتّى تمكّن من نشرها بين حِمْيَر. وتُرجع تواريخ البطاركة هذه الحادثة إلى حوالي عام ٤٢٠م.

وذُكر أنّه في عهد البَطريق (سِيلاس) (٥٠٥ – ٥٢٣) هرب لاجئون من أصحاب الطبيعة الواحدة إلى الحيرة، غير أنّ النساطرة أجلَوهم عنها فذهب قسم إلى نجران، فنشروا مذهبهم بين الناس[1]. ولذلك كان في نجران مؤمنون من مذهب الطبيعة الواحدة إلى جانب النساطرة كما تؤكّد كلّ الروايات.

أمّا المؤرّخون المسيحيّون المحدَثون والمعاصرون مثل الأب لويس شيخو اليسوعيّ وآخرون، فيذكرون أنّ الرسل والمبشّرين قدموا إلى اليمن بطريق مصر والحبشة منذ القرن الأوّل والثاني من المسيحيّة، ويذكرون مَن هم هؤلاء الرسل والمبشّرين (متّى الرسول صاحب الإنجيل، والقدّيس بَرتُلماوس والقدّيس تُوما رسول الهند والفيلسوف بَنتانوس).

ولكن يبدو أنّ التبشير الفرديّ لعب دورًا ثانويًّا في تنصّر أهل نجران وأهل اليمن عامّة، وذلك لسببين:

الأوّل: وجود اليهوديّة في اليمن منذ وقت مبكّر، ومحاولة العرب المتهوّدين السيطرة على نجران، بسبب أهمّيّتها التجاريّة وأهمّيّة موقعها، فضلاً عن الصراع القبليّ الدائم، ورغبتهم السيطرة على اليمن كلّها، ممّا جعل النجرانيّين يبحثون عن سُبل كفيلة بصدّ هذه المحاولات، وحفظ استقلالهم أمام تهديد القبائل المتهوّدة، فتطلّعوا إلى التعاون مع الخارج، أي مع الأحباش على الطرف الآخر من البحر الأحمر، فتنصّروا بكثافة، خاصّة وأنّ المسيحيّة كانت موجودة فيهم. وتلاقت رغبتهم مع المطامع التاريخيّة للأحباش في احتلال اليمن والهيمنة عليها واتّباعها لهم. لذلك كان الأحباش عونًا لمسيحيّي نجران، وحلفاء أقوياء خارج الحدود. وكثيرًا ما تدخّل الأحباش عونًا لمسيحيّي نجران بتشجيعهم من الإمبراطوريّة البيزنطيّة وبمساعدة منها، تحت مزاعم نصرة المسيحيّين. وكان آخر تدخّل لهم بعد أن سيطر ذو نواس الحِمْيَريّ على نجران واضطهد المسيحيّين[2]، فتقدّم الأحباش وتغلّبوا عليه، وأقاموا دولة في اليمن تحت حكمهم عام ٥٢٢م بقيت قائمة حوالي نصف

---

(١) جواد عليّ، **المفصّل في تاريخ العرب** ج٦ ص ٦١٤، كذلك الطبريّ والمسعوديّ.

(٢) جاء في القرآن تخليدًا لهذه الحادثة في سورة البروج آية ٧: «قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود». وسوف نتناول هذا الاضطهاد في مكان آخر من هذا الكتاب.

قرن حتّى عام ٥٧٥م، وحاولوا توسيع نفوذهم في جنوب شبه الجزيرة العربيّة، وفي شمالها، حيث غزوة أبرهه لمكّة عام ٥٧٠م التي فشلت، ثمّ تراجع النفوذ الحبشيّ بعد أن طردهم الفرس متحالفين مع أهل اليمن.

الثاني: هو أنّ اكتشاف الرومان لطرق الملاحة في البحر الأحمر، ذي الجزر المرجانيّة الكثيرة، والتي كانت أسرارها (أي الطرق) بيد اليمنيّين، هذا الاكتشاف أفقد اليمنيّين السيطرة على الطريق التجاريّ البحريّ، وترافق ذلك مع خراب متتابع لسدّ مأرب[٣]، ممّا جعل تجارتهم – وهي المصدر الرئيسيّ لعيشهم – مرهونة بالخطّ التجاريّ البرّيّ مع الشام ومصر، ممّا يضطرّهم للتعامل مع الحجازيّين بزعامة قريش التي تسيطر على البيت الحرام مجمّع أصنام العرب، ومع العرب الآخرين في جنوب سوريّة. فكان لا بدّ لهم من إحياء الصلات وتمتينها مع قبائل عرب الجنوب التي كانت قد هاجرت إلى الشمال (الجزيرة العربيّة والشام) وخاصّةً الروابط الدينيّة. وهذا يفسّر محاولة مسيحيّي نجران بناء كنيسة مزاحمة للكعبة سمّوها (كَعبة نجران) زيّنوها بالحليّ، وقال فيها الأعشى:

وكعبة نجران حتم عليك — حتّى تناخي بأبوابها

تزور يزيدًا وعبد المسيح — وقيسًا هم خير أربابها

كما بنَوا كنائس في صنعاء (القُلَيس) وفي مَأرب وظَفَار. وفي رواية لابن الكلبيّ في أديان العرب أنّ كعبة نجران كانت قبّة من أَدَم من ثلاثمائة جلد. كان إذا جاءها الخائف أمِن، أو طالب حاجة قُضيت، أو مسترفد أُرْفِد؛ وكانت لعظمتها عندهم يسمّونها كَعبة نَجران، وتقع على نهر جران، وهي لعبد المسيح بن دَارِس بن عَديّ بن مَعقِل، وكان يستغلّ من ذلك النهر عشرة آلاف دينار، كانت القبّة تستغرقها. أي كان يتّفق عليها من غلّة ذلك النهر[٤]. ويروى أنّ قسّ بن ساعدة الإياديّ كان أسقفًا عليها[٥].

ربّما كانت علاقات أهل نجران بالقبائل العربيّة من أصول جنوبيّة التي سكنت شمال

(٣) مأرب: عاصمة المملكة السبئيّة الثانية (٦٥٠ق.م. – ١١٥م) اشتهرت بالسدّ المعروف باسمها، سدّ مأرب الذي شُيّد لتنظيم الريّ ووقاية العاصمة، من أخطار الفيضانات. ينسب خرابه إلى السيل العرم، غير أنّ الأرجح أنّه تهدّم إثر زلزال أو بركان أصاب المنطقة أو نتيجة للإهمال، علمًا أنّه خُرّب عدّة مرّات آخرها في القرن السادس الميلاديّ.

(٤) جواد عليّ، **المفصّل في تاريخ العرب**، ج٦ ص ٦١٦ وراجع **تاج العروس**.

(٥) و. جواد عليّ، **المفصّل ٦**، ص ٦١٦ عن لامانس.

الجزيرة والشام (اليعاقبة) والعراق (النساطرة)، هي واحدة من أسباب تواجد اليعاقبة والنساطرة معًا في نجران، وهذا ما يفسّر تواجد الخطّ الآراميّ إلى جانب الخطّ المُسنَد في بعض مناطق اليمن، والتزامًا بهذه الصلة، كان أساقفة نجران وحكّامها يشجّعون الناس على زيارة القدّيس سمعان العموديّ في شمال سوريّة، الذي كان يعظ على عمود له ويُجري عجائب كثيرة يرويها المؤرّخون العرب.

وبعد الإسلام، صالَحَ محمّد مسيحيّي نجران، وعقد معهم اتّفاقًا شاملاً صار أساسًا لعقود الذمّة فيما بعد، بين المسلمين والمسيحيّين في البلدان التي فتحها العرب المسلمون، وكان لعمر بن الخطّاب شأن مع مسيحيّي نجران، كما سنرى في موضع آخر من هذا الكتاب.

*

أمّا في سوريّة: فقد سكن العرب قبل الإسلام بمدّة طويلة، واستوطنوها منذ القرن الثاني الميلاديّ، وقد شدّتهم إليها خصوبة الأراضي السوريّة. وكانوا يأتونها على شكل موجات هجرة من الجزيرة العربيّة. ولم يلبثوا أن تمثّلوا لغة السوريّين الآراميّة / السريانيّة وحضارتهم وعباداتهم، فأسماؤهم وأسماء آلهتهم كانت أحيانًا آراميّة. وكانوا يستعملون اللغة الآراميّة في مراسلاتهم الدبلوماسيّة. وكانت المسيحيّة قد انتشرت بكثافة في سوريّة الطبيعيّة بعد أن تنصّر القيصر قسطنطين عام ٣١٣م. وصارت الدولة هي الراعي الرسميّ للديانة المسيحيّة، تشجّع أتباعها وتساعد كنائسها، وتدعم القبائل المتنصّرة، دعمًا ماليًّا وسياسيًّا وعسكريًّا. وفي الوقت نفسه تستخدم هذه القبائل لتحقيق مصالحها، وتنفيذ إستراتجيّتها.

يقول اليَعقوبيّ، إنّ قضاعة أوّل من قدم الشام من العرب فصارت إلى ملوك الروم فملّكوهم، فكان أوّل ملك لتَنُوخ بن مالك بن فَهْم، فدخلوا إلى دين المسيحيّة فملّكهم ملك الروم على مَن ببلاد الشام من العرب. ويقول المسعوديّ: وردت سَليح للشام فتغلّبت على تَنوخ وتنصّرت فملّكها الروم على العرب الذين بالشام. وذكر مؤرّخو المسيحيّة أسماء مطارنة عرب في مطلع القرن الثالث الميلاديّ، كما أشاروا إلى المساعدات التي كانت تقدّمها كنيسة روما إلى كنائس الديار العربيّة[٦]. ووصل أحد العرب وهو فيليبّوس (فيليب)

(٦) جورج قنواتي، ص ٤٥. لويس شيخو، **آداب النصرانيّة**، ص ٣١.

العربيّ إلى عرش إمبراطوريّة روما (٢٤٤ – ٢٤٩م) وهو من مواليد شهبا (جنوب سوريّة) التي كانت بلدة صغيرة تابعة لبُصرى، ورغم أنّ فيليب تصرّف كإمبراطور وثنيّ، إلاّ أنّه كان في الواقع مسيحيًّا، ومشهورة قصّته في أنطاكية عندما أراد المشاركة في صلاة سبت النور، فمنعه بطرك أنطاكية، (بابيلاس) إلاّ بعد أن يعترف، وقد قبل الإمبراطور، الذي يُظَنّ أنّ زوجته كانت مسيحيّة، أيضًا، وقد تحوّلت بلدته شهبا إلى مدينة وبُنيت وتوسّعت في عهده وسُمّيت باسمه (فيليبوبولس)، وقد حضر مطارنة عرب جميع المجامع التي عُقدت لبحث شؤون الديانة المسيحيّة، وانقسامات رجال الدين والكنائس، وذلك منذ بدأت هذه المجامع[7].

أمّا الغساسنة فهم قبائل عربيّة هاجرت من اليمن وسكنت جنوب سوريّة (حُوران والبَلْقاء) وتغلّبت على قُضاعة وسَليح وتنصّرت. وهم من آل جَفْنة. شكّلوا – بعد انتصارهم – إمارة في جنوب سوريّة وامتدّ نفوذ إمارتهم على جميع القبائل العربيّة في سوريّة من الرصافة حتّى يثرب، وسيطروا على هذه المناطق جميعها، وكانوا حلفاء للدولة البيزنطيّة، تدعمهم وتساعدهم وتحرّضهم على العرب الآخرين، كما كانوا على صلات بعرب الحجاز واليمن. وقد منح الإمبراطور جُستنيان، الحارث بن جَبَلَة الغسّانيّ عام ٥٢٩م، لقب فيلارك وبطريق وهو أعلى لقب بعد الإمبراطور نفسه وأعطاهم حكمًا ذاتيًّا يديرون من خلاله شؤون حياتهم، وكان الإمبراطور البيزنطيّ يعمّد أميرهم بالألقاب إلى أن ألغت بيزنطة الحكم الذاتيّ في نهاية القرن السادس وحكمتهم حكمًا مباشرًا.

قامت صراعات وحروب طويلة طوال القرن السادس بين الغساسنة اليعاقبة المتحالفين مع البيزنطيّين وبين اللخميّين النساطرة المتحالفين مع الفرس. ومن أشهر هذه المعارك معركة وقعت جنوب تدمر في النصف الأوّل من القرن السادس حوالي ٥٣٠م، وأخرى قرب قِنّسرين عام ٥٥٤م، وثالثة بالقرب من (الحيار) وسمّاها الحارث بن حِلِّزة في معلّقته المشهورة (يوم الحيارين). ويرى نُولدِكَه[8] أنّها نفسها معركة (يوم حليمة). وأخيرًا معركة (عَين أُبَاغ) المشهورة، هذا فضلاً عن المناوشات بين الطرفين التي لم تنقطع، وعن التهديد المتبادل، والافتخار المتبادل والعداء الذي لم يفتر. ولعب الأساقفة الغساسنة دورًا هامًّا

(٧) جورج قنواتي، ص ٤٥. وما بعد.

(٨) نوكدله (تيودور) (١٨٣٦ – ١٩٣٠) ولد في همبورغ. من مشاهير المستشرقين الألمان. إشتغل خصوصًا في اللغات السريانيّة والعربيّة والفارسيّة. له كتاب «تاريخ القرآن».

في نشر المسيحيّة في بلاد العرب، وبناء الأديرة، سواء في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم أو على طريق التجارة بين الحجاز والشام، وقد سكن رهبانٌ هذه الأديرة، وجعلوها محطّات استراحة للقوافل، فيها الماء والطعام والشراب، ومراكز لنشر الدعوة المسيحيّة بين رجال القوافل خلال إقامتهم. وما زالت آثار هذه الأديرة باقية حتّى الآن في مناطق جنوب سوريّة وشمال الحجاز، من دمشق حتّى تخوم الجزيرة العربيّة على طريق التجارة القديم، ممّا كان له أثر على التبشير بالمسيحيّة بين رجال القوافل، وعلى نقل الثقافة المسيحيّة إلى الجزيرة العربيّة. وأرسلت الكنيسة والأساقفة الغساسنة عشرات الأساقفة إلى بلاد العرب المجاورة، وإلى الجزيرة العربيّة ليبشّروا بالمسيحيّة، وسمّي هؤلاء الأساقفة أساقفة الخيام أو أساقفة أهل الوبر. وكان مطران بُصرى وحده يشرف على عشرين أسقفًا انتشروا بين عرب حُوران وعرب غسّان. وكانت الكنيسة البيزنطيّة تموّل الأديرة وبعثات الأساقفة رغم خلافاتها مع الكنيسة المونوفيزيتيّة. وما هذا التمويل إلاّ لأسباب سياسيّة.

كان في جملة ما أسهم فيه رؤساء أديرة إقليم العربيّة وضع رسالة مضمونها دستور الإيمان، كتبها أولئك الرؤساء ووجّهوها إلى يعقوب البَرَادعيّ، ردّوا فيها على رأي يحيى النَحَويّ في تثليث الجوهر الفرد، وذلك بين السنتين ٥٧٠ و٥٧٨ للميلاد، وقد وقّعها ١٣٧ رئيسًا لـ١٣٧ ديرًا في إقليم العربيّة الممتدّ من شرقيّ بلاد الشام إلى الفرات[9]. وهذا العدد يؤكّد الانتشار الكثيف للمسيحيّة وللأديرة في بلاد العرب.

لقد تأقلم الغساسنة بسرعة مع الثقافة والتقاليد السوريّة فتنصّروا وكتبوا بالآراميّة وكانوا ركيكي اللغة[10] ولذلك لم يظهر بينهم شعراء فحول، وكانوا يشجّعون قدوم شعراء من مناطق أخرى مثل النابغة الذُبيانيّ والأعشى والمُرقّش وحَسّان الذي أصبح شاعرًا للرسول محمّد فيما بعد وغيرهم، ليمدحوهم ويخلّدوا أعمالَهم. وكان لهم لهجة خاصّة بهم غير لغة قريش التي سادت الحجاز[11].

أمّا عرب سوريّة الآخرون فقد كانوا منتشرين في البادية السوريّة، ومناطق غرب الفرات، والجزيرة العليا، وشمال سوريّة، وبعض مناطق البِقَاع وحمص وحلب وديار بكر وهي بلاد كبيرة واسعة تُنسب إلى بَكْر بن وَائِل... وحدّها ما غرب من دجلة إلى بلاد

(٩) جواد عليّ، **المفصّل**، ٦/٦٢٦. لويس شيخو.

(١٠) أحمد أمين، **فجر الإسلام**، ص ٢٢.

(١١) أبو الفرج الأصفهانيّ، **الأغاني**.

الجبل المطلّ على نصّيبين إلى دجلة... وقد يتجاوز دجلة إلى سِعِرْت (أو سِعِرد) وحيزان وحِنّي وما تخلّل ذلك من البلاد ولا يتجاوز السهل... وديار ربيعة بين الموصل إلى رَأْس عَين نحو بقعاء الموصل ونصّيبين ورَأْس عَين ودُنيسر والخابور جميعه، وما بين ذلك من المدن والقرى، وربّما جمع بين ديار بكر وديار ربيعة. وسمّيت كلّها ربيعة لأنّهم كلّهم ربيعة. وهذا اسم لهذه البلاد قديم، كانت العرب تحلّه قبل الإسلام في بواديه. واسم الجزيرة يشمل الكلّ... وديار مُضَر هي ما كان في السهل بقرب من شرقيّ الفرات نحو حرّان والرقّة[12]...

وكان يسكن هذه الديار بنو نزار وفيهم رَبيعة وتَغلِب القبيلة التي قيل في أهمّيّتها (لو تباطأ الإسلام لأكلت تغلب العرب) أو «لولا الإسلام لملكت تَغْلِب وبنو بكر.

أمّا بنو كلب فقد كانوا يسكنون غرب الفرات والسماوة، ووصلت ديارهم إلى تدمر والسلميّة وحمص. وكانت حرّان لبني تميم والرها لبني سُليم والخابور لبني عُقَيل في أعاليه ولبني مالِك وحبيب الباقي. وسكنت تغلب في الأسفل وبهراء وقسم من تَنُوخ في حمص، وكَنانَة (وهي من كلب) سكنت في حماه وَشَيْزَر. وكان السواد والجزيرة مسيحيّين من إياد. وكان حاضر قِنّسْرين لتنوخ منذ أوّل ما تنّخوا بالشام، نزلوه وهم في خيم الشعر ثمّ ابتغوا به المنازل: فدعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام فأسلم بعضهم وأقام على المسيحيّة بنو سَليح بن حَلوان. وإنّ جماعة من أهل ذلك الحاضِر أسلموا في خلافة أمير المؤمنين المهديّ[13].

وكان بقرب مدينة حلب حاضِر يدعى حاضِر حلب يجمع أصنافًا من العرب من تَنوخ وغيرهم، صالحهم أبو عُبَيْدَة الجَرّاح على الجزية[14] أي أنّهم كانوا مسيحيّين. كما كانت المسيحيّة في رَبيعة[15].

ومن قبائل العرب المتنصّرة بَكر وتَغلِب ولَخم وبَهْراء وجُذَام[16] وكان القدّيس سَرجيوس شهيد الرصافه شفيع بني تغلب. فقد قال الشاعر الأَخطَل التغلبيّ:

(١٢) ياقوت الحمويّ، **معجم البلدان**، ج٤ ص ٤٩٤.
(١٣) البلاذريّ، **فتوح البلدان**، ج١ ص ١٥٠.
(١٤) البلاذريّ، **فتوح البلدان**، ج١ ص ١٥١.
(١٥) راجع ابن قتيبة.
(١٦) **السيرة الحلبيّة**، ج٣ ص ٩٥.

لمّا رأونا والصليب طالعا   ومار سرجيس وموتًا ناقعا
وأبصروا راياتنا لوامعا   خلّوا لنا راذان والمزارعا

وقال الشاعر جَرير:

فبالصليب ومار سَرجيس تتّقي   شهباء ذات مناكب جمهورا

وعدّد ياقوت الحمويّ في معجمه[17] عشرات الأديرة في مناطق سكني القبائل العربيّة. وقد اكتُشف أثر مسيحيّ قرب حلب – أشرنا إليه في سابق كلامنا – كُتب عام ٥١٢م بثلاث لغات هي اليونانيّة والسريانيّة والعربيّة، حيث نُقر على حجر تذكار الشهيد القدّيس سرجيوس[18].

وقال ياقوت الحمويّ عن القريتين، إنّ سكّانهما نصارى[19]. ويقول ابن عساكر، أنّ بني كلب كلّهم نصارى[20]. وأسلمت كلب غير أنّ مَدَرَها كانوا نصارى[21]. وهم مسلمون في أخلاق نصارى[22]، وأنّ بعض من أسلم منهم كانوا يضربون الناقوس ويتردّدون إلى الكنيسة ليتعمّدوا فيها[23].

بالإجمال كان عرب سوريّة يدينون بالمسيحيّة[24]. وطبيعيّ أن يكون انتشار المسيحيّة في العرب ببلاد الشام واضحًا ظاهرًا أكثر منه في أيّ مكان آخر... فقد كان لعرب هذه الديار علاقة مباشرة واتّصال ثقافيّ بغيرهم من سكان هذه البلاد الذين دخل أكثرهم في الديانة المسيحيّة، والذين صارت هذه الديانة، ديانة بلادهم الرسميّة، بعد دخول الروم فيها واتّخاذهم النصرانيّة دينًا رسميًّا للدولة منذ تنصّر أوّل قيصر من القياصرة وإصداره مرسوم ميلانو عام ٣١٣م، فكان من أوّل واجبات الروم السعي في تنصير الشعوب الخاضعة لهم، لا تقرّبًا إلى الله وحده، بل لتمكين سلطانهم عليهم وإخضاعهم روحيًّا لهم. ولهذا

(١٧) ياقوت الحمويّ، **معجم البلدان**، ج٢
(١٨) لويس شيخو، **المصدر نفسه**.
(١٩) ياقوت الحمويّ، **معجم البلدان**، ج٤ ص ٣٣٦.
(٢٠) إبن عساكر، **تاريخ دمشق**.
(٢١) ياقوت الحمويّ، **معجم البلدان**.
(٢٢) إبن الفقيه، **كتاب البلدان**.
(٢٣) إبن قتيبة، **المصدر نفسه**.
(٢٤) دوزي المستشرق الهولنديّ.

كان من سياسة البيزنطيّين نشر المسيحيّة بين أتباعها في الخارج وإرسال المبشّرين والاعتماد عليهم ومدّهم بالأموال لنشر الدعوة وتأسيس مكاتب للتبشير[٢٥].

إذن لقد وجدت المسيحيّة لها سبيلاً بين عرب بلاد الشام والعراق. وانتشرت بين عرب بلاد الشام بنسبة تزيد على نسبة انتشارها بين عرب العراق وهو شيء طبيعيّ، فقد كانت بلاد الشام تحت حكم البيزنطيّين وديانتهم الرسميّة هي الديانة المسيحيّة، وكانوا يعملون على نشرها وترويجها بين شعوب (إمبراطوريّتهم) وبين الشعوب الأخرى، لا سيّما التي لها مصالح اقتصاديّة معها. ففي نشر المسيحيّة بينهم وإدخالهم فيها، تقريب لتلك الشعوب منهم، وتوسيع لنفوذهم السياسيّ بينهم، وتقوية لمعسكرهم المناهض لخصومهم الفرس... ولهذا سعت القسطنطينيّة لإدخال العرب في المسيحيّة، وعملت كلّ ما أمكنها عمله للتأثير على سادات القبائل لإدخالهم في دينها، بدعوتهم لزيارة كنائسها وبإرسال المبشّرين اللبقين إليهم، لإقناعهم بالدخول فيها، وبإرسال الأطبّاء الحاذقين لمعالجتهم، للتأثير عليهم بذلك في اعتناق المسيحيّة[٢٦].

وقد نشرت المسيحيّة تعاليمها بين العرب وأوجدت فيهم من يميل إلى الرهبنة وبيني الأديرة... وكان القسس والرهبان يردون أسواق العرب، ويعظون ويبشّرون، ويذكرون البعث والحساب، والجنّة والنار. وقد ورد في القرآن كثير من الآيات تحكي أقوالهم وتفنّد مذاهبهم، ممّا يدلّ على انتشار هذه التعاليم بينهم[٢٧].

أمّا في عرب العراق وغرب الفرات فقد حفظ لنا تيودور القارئ قصّة يكرّرها ثيوفانس في حوليّاته تحت أحداث عام ٦٠٠٥ للخليقة الموافق عام ٤٩٦/٤٩٧ للميلاد وتتعلّق بـ «المنذر بن ماء السماء اللخميّ» قول غير مقبول بأيّة حال من الأحوال، حتّى وإن وجد هذا الرأي قبولاً لدى بعض الباحثين. ذلك أنّ المنذر اللخميّ كان وثنيًّا وبقي على وثنيّته. أمّا فيما يتعلّق بوجود فيلارك عربيّ آخر يحمل اسم المنذر في ذلك العهد فليس هناك ما يؤيّد ذلك في مصادر أخرى. لهذا فقد افتُرض أنّ اسم الفيلارك قد تعرّض للتحريف وأنّ المقصود إنّما هو الحارث الغسّانيّ، غير أنّ هذا يتناقض بوضوح مع حقيقة أنّ الحارث

(٢٥) جواد عليّ، **المصدر نفسه**، ج٦ ص ٥٩٠.

(٢٦) جواد عليّ، **المصدر نفسه**، ج٦ ص ٥٩٠ – ٥٩١.

(٢٧) أحمد أمين، **فجر الإسلام**، ص ٢٧.

كان من أنصار المونوفيزيّة الغيورين. ولو افترضنا جدلاً أنّ هذه القصّة محض افتراء، إلاّ أنّ مجرّد ظهورها يتّفق مع ظروف الأحوال في ذلك العهد. وهي ترد في الصورة التالية:

«ولمّا تهيّأ فيلارك العرب للتعميد أرسل سويرس النجس[٢٨] اثنين من الأساقفة لإدخاله في بدعته ولكنّ العناية الإلهيّة تدخّلت في تعميده على يد رجل من الأرثوذكس الذين قبلوا قرارات المجمع». ولقد جهد أساقفة المونوفيزيّة في تحويل الفيلارك عن الأرثوذكسيّة، ولكنّ المنذر وضع حدًّا لمحاولتهم بسرده لحكاية هزليّة مفادها أنّه بلغه للتوّ خبر موت كبير الملائكة ميخائيل، فردّ عليه الأساقفة بأنّ هذا أمر مستحيل. عند ذلك سألهم كيف يقولون إذن بطبيعتين للمسيح طبيعة إلهيّة وأخرى بشريّة «في حين لا يموت حتّى الملائكة» فانسحب الأساقفة الذين بعث بهم سويرس في خجل.

وتقف هذه القصّة دليلاً على اشتداد حدّة الخلاف بين الأرثوذكس والمونوفيزيّين. كما تكشف عمّا بذله الجانبان من جهد في اجتذاب العرب إلى مذهبهما. والمنذر الذي مرّ ذكره كان فيلاركًا لبيزنطة، ومن المحتمل أنّه ينتمي إلى الغساسنة. وإذا بدا أن كان للعرب ميل إلى الأرثوذكسيّة في نهاية القرن الخامس، فقد مال الغساسنة في القرن السادس وخاصّة الحارث بن جبلة إلى مساندة المونوفيزيّة وأتباعها. ولم تكن المونوفيزيّة مذهبًا فلسفيًّا وعقائديًّا فحسب، بل ارتبطت كذلك باتّجاه سياسيّ انعكست فيه إلى حدّ ما النزعة الانفصاليّة داخل الولايات التي رجّح فيها عدد السكّان غير اليونان في الإمبراطوريّة، كالسريان والأقباط. وهؤلاء «المشارقة» كما دعا أنفسهم رجال الكنيسة المونوفيزيّون، كانوا معارضين لمصالح دوائر معيّنة بولايات الإمبراطوريّة. وكانت تلك الدوائر تدور في فلك الأرثوذكسيّة الرسميّة، ووقعت تحت تأثير النفوذ اليونانيّ واللغة اليونانيّة والفلسفة اليونانيّة بل والنظام الحكوميّ البيزنطيّ أيضًا، وقد عُرف هؤلاء باسم الملكيّين أي أنصار الإمبراطور (الملك).

عُرف السريان بغيرتهم في نشر العقيدة والتبشير بها، وكانوا قريبين من حيث اللغة إلى العرب فحملوا إليهم عقيدتهم وتعاليمهم. وما أشرنا إليه من قبل بصدد مشاركة الحارث بن جَبَلَة في نشاط المونوفيزيّين وما أبداه من غيرة في الدفاع عن مصالحهم، كلّ ذلك

(٢٨) هكذا ورد في النصّ، وهذا تهجّم عنيف وبدون حقّ من الكاتب على الأسقف ولكن روح التعصّب الأعمى هي التي دفعته إلى ارتكاب هذا الخطأ الشنيع، لهذا أتينا بتعليقنا هذا.

سيعاون على تفهّم الدور السياسيّ الذي أخذه على عاتقه، ومن ثمّ فليس في الوسع تجاهل شخصه. ولقد اكتسب رجال الدين المونوفيزيّون تأييد دوائر عريضة من بين سكّان الولايات وبالعاصمة البيزنطيّة نفسها. وكان العرب حتّى في هذه الحال تلامذة للسريان؛ ويكفي أن نشير إلى تعلّقهم الشديد بيعقوب البرادعيّ الذي أولاه الدرجة نفسها من التوقير «الملك الحارث» نفسه.

وأثر السريان لم تستطع أن تتحاشاه الحيرة ذاتها؛ ولقد جهد كلّ من النساطرة والمونوفيزيّين في كسب أنصار لهم وسط اللخميّين، بل ونجحوا في هذا. وتحكي الحوليّات العربيّة المسيحيّة عن صِدام وقع هناك بين الطرفين. هذا وقد اضطهدت حكومة الإمبراطور يوسطين المونوفيزيّين، فألقي بعضُهم في غياهب السجون وهرب بعضهم الآخر إلى سوريّة. كذلك أحاطت صعوبات جمّة بمحاولة المونوفيزيّين للاختفاء بإيران. وقد أفلح بعض منهم في الهرب إلى الحيرة، وهناك طلب منهم الجاثليق شيلا[٢٩] الاعتراف بطبيعتين للمسيح وإلاّ تعرّضوا للطرد والإبعاد. غير أنّ المونوفيزيّين وجدوا التعضيد من الحجّاج بن قيس أحد أهالي الحيرة «وكان مقرّبًا إلى المنذر ملك العرب». فلم يعبأوا لطلب شيلا. فلمّا كتب يوسطين إلى المنذر يطلب إليه «إخراج» الهراطقة، اتّخذ هذا من الإجراءات ما اضطرّ بعضهم إلى الهرب وبعضهم الآخر إلى الاختفاء[٣٠] وقد توجّه شطر منهم إلى نجران/ببلاد العرب الجنوبيّة حيث كانت تشرق تعاليم يوليان أستاذ سويرس الأنطاكيّ[٣١] وقد جرت هذه الأحداث على عهد بطريركيّة يوحنّا القبادوقي[٣٢] (وكان قد تمّ تنصيبه عام ٥١٨ ومات في عام ٥٢٠) الذي قام بتحريم

(٢٩) شيلا: خلف بابي سنة ٥٠٣ بمساعي بوزاق أسقف الأهواز. ولمّا تولّى شيلا الرئاسة نازع السريان المونوفيزيّين ونفاهم من بلاد فارس فناضل عنهم زينون وأنسطاس (٤٩١–٥١٥) وساعداهم. ولمّا ملك يوسطينوس الأوّل سنة ٥١٨ ضيّق على السريان فقصد نخبة منهم وفي مقدّمتهم شمعون الأرشاميّ بلاد الفرس والحيرة فعضدهم الحجّاج بن قيس الحيريّ صاحب المنذر بن النعمان ملك الحيرة واجتذبوا جماعة من العرب إلى مذهبهم. فشقّ ذلك على رؤساء النساطرة وادّعوا بأنّ المونوفيزيّين متحزّبون للروم. فقبض ملك الفرس على شمعون وأصحابه واعتقلهم في نصّيبين مدّة سبع سنوات. وتوفّي شيلا الجاثليق سنة ٥٢٣.

(٣٠) جاء في «أخبار بطاركة كرسيّ المشرق» ما نصّه: «ونفى يوسطنوس الملك جميع الهراطقة وحبسهم وهرب كثير منهم إلى الشام وكتب بنفي من يعتقد غير الجوهرين ووافى بعضهم الحيرة وخرج شيلا الجاثليق إليهم وفضح اعتقادهم وكتب يوسطينوس إلى النعمان بإخراج المنفيّين عنده ففعل «ص ٤٨».

(٣١) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ٣١٩.

(٣٢) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ٣٢٠.

سويرس ويعقوب البرادعيّ، تنفيذًا لأوامر يوسطين. وثمّة روايات تشير إلى أنّ الهراطقة قد قاموا بنشر دعوتهم في عاصمة اللخميّين وفي وسط الحِمْيريّين. وأحد هؤلاء واسمه سرجيوس أقام بحِمْير ثلاثة أعوام وبارك هناك الأسقف موسى[٣٣].

كلّ هذا يشير إلى استفحال حدّة النزاع المذهبيّ بين رجال الدين، والذي شمل دوائر شتّى من سكّان الشرق الأدنى في تلك الأزمنة، ووجد العرب أنفسهم في وسط دوّامة الاتّجاهات الثلاثة للمسيحيّة لذلك العهد، والتي لم يقف تأثيرها على (عرب بيزنطة) و(عرب الفرس) وحدهم بل امتدّ إلى الحميريّين أيضًا. كذلك وُجد رباط مشترك يربط بين هذه الدول التي تحدّث سكّانها لغة واحدة وإن لم تخلّ من اختلاف بين لهجاتها. كما ربطت بينها أيضًا التزامات سياسيّة بالإضافة إلى اعتماد بعضها على بعض. كلّ هذا كان أكبر بكثير ممّا افتُرض عادة، كما حدث، وإن دلّلنا عليه في حينه.

فاللخميّون أقاموا مملكتهم في الحيرة بين الجزيرة العربيّة والعراق، وهم عرب يمنيّون هاجروا من جنوب الجزيرة العربيّة، وتنصّروا على المذهب النسطوريّ. ورغم أنّ المسيحيّة لم تكن ديانة الفرس إلاّ أنّها انتشرت في العراق لأنّ الفرس لم يكونوا يبشّرون بدينهم، ولم يكن يهمّهم دخول الناس فيه، إذ عُدّت المجوسيّة ديانة خاصّة بهم... ثمّ إن المسيحيّة التي انتشرت فيها لم تكن من المسيحيّة المتشيّعة للروم، ولهذا لم تجد الدولة الساسانيّة ما يهدّد سياستها بالأخطار، فغضّت النظر عنها[٣٤]. وكان النظام المتّبع أنّ عرب الحيرة يقدّمون الطاعة لملك فارس، وهو يولّي عليهم أميرًا من أنفسهم وعليهم أن يحموا فارس من كلّ مغير من نواحيهم، والفرس مقابل ذلك يعفونهم من دفع الأتاوة[٣٥]. وفوق هذا كان عرب الحيرة أكثر استقلالاً، فهم لا يرتبطون بفارس إلاّ بما توجبه المعاهدات عليهم. وقد اعتاد ملك الفرس أن ينصّب أميرًا من قبيلة لخم، وإذا مات الأمير عيّن من يختاره من بيته. وكان عرب الحيرة إذ ذاك في رخاء يحسدهم عليه غيرهم من العرب لخصب أرضهم، وغنى إقليمهم، وكانوا هم الصلة بين الفرس وعرب الجزيرة يحملون إليهم التجارة الفارسيّة ويبيعونها في أسواقهم، ويبشّرون بالفرس ومدنيّتهم[٣٦].

(٣٣) إسحق أرملة، **مراجعة أسواق حمدان**، ص ٣٢٠ – ٣٢٥.

(٣٤) جواد عليّ، **المصدر نفسه**، ص ٤٢–٤٣.

(٣٥) أحمد أمين، **فجر الإسلام**، ص ١٦.

(٣٦) أحمد أمين، **فجر الإسلام**، ص ١٧.

وكما رأينا، كان المناذرة على صراع وحروب مع الغساسنة في جنوب سوريّة، وقامت بينهم معارك عديدة دامية، وكان الصراع قبليًّا ودخل فيه العامل الدينيّ (المناذرة نساطرة، والغساسنة يعاقبة) كما أثّرت فيه المصالح الحيويّة لكلّ من الطرفين المتصارعين، وتشجيع حماتهما الفرس والبيزنطيّين على استمرار الصراع، وكأنّها حرب بالوكالة عن الدولتين العظميَين. واستمرّ تحالف اللخميّين مع الفرس حتّى ظهور الإسلام، إذ كان عليهم حماية خطّ التجارة مع جنوب الجزيرة والمحيط الهنديّ، إلاّ أنّ علاقتهم بالفرس كانت علاقة تعاقديّة حسب معاهدات واتّفاقات، تضمن لهم حكمًا ذاتيًّا تحت أمير منهم يعيّنه الفرس، ولكنّ هؤلاء ما لبثوا أن ألغوا هذه الاتّفاقات، وعيّنوا حاكمًا فارسيًّا مباشرًا على اللخميّين في عام ٦٠٢م وأسروا النعمان الثالث، وألغوا إمارة اللخميّين. وكان المنذر بن النعمان هو آخر أمراء اللخميّين عند مجيء الفتح الإسلاميّ، وصالح خالد بن الوليد المنذر على دفع الجزية.

لم يكن اللخميّون وحدهم في الحيرة ومناطقها، فقد كان هناك بنو تَنوخ (وتنوخ اسم لعدّة قبائل اجتمعوا قديمًا بالبحرين وتحالفوا على التناصر وأقاموا هنا وسُمّوا تَنوخًا)[٣٧] وهي قبيلة هامّة من قبائل العرب. وكانت هناك أيضًا بَهْرة وبعض إياد ووائل، ومن قادتهم المشهورين حَنْظَلة بن ثَعْلَبة من بكر بن وائل وقد ساهم في معركة ذي قار[٣٨]، وهناك شَيبان كَعْب بن عَديّ التنوخيّ (وهو من مسيحيّي الحيرة، كان أبوه أسقفًا على مدينة الحيرة) وكان هو يتعاطى التجارة، وله شركة في التجارة في الجاهليّة مع عمر بن الخطّاب الخليفة، في تجارة البَزّ، وكان عقيدًا له، قدم المدينة في وفد من أهل الحيرة إلى النبيّ محمّد)[٣٩]. وجميع هذه القبائل صالحت خالد بن الوليد على دفع الجزية عند فتح الحيرة عام ٦٣٢م، أي أنّها كانت مسيحيّة.

يختلف المؤرّخون حول تاريخ دخول النصرانيّة إلى الحيرة، فبعضهم يبعده إلى وقت مبكّر (أواسط القرن الرابع الميلاديّ) والبعض الآخر يجعله بالقرن الخامس، ومن المرجّح أنّ هذا الأخير هو الأصحّ، لأنّه القرن الذي انشقّت فيه النسطوريّة، وبدأت تنتشر في العراق بعد هجرتها من سوريّة واعتبارها مذهبًا هرطوقيًّا، وعلى أيّة حال فمن المؤكّد أنّ النصرانيّة كانت على انتشار واسع في الحيرة في القرن السادس الميلاديّ.

(٣٧) راجع ابن خلّكان في **وفيّات الأعيان**.
(٣٨) ذو قار، موضع ماء بين واسطة والكوفة، عنده تواقع العرب (بنو وائل) مع الفرس (أوائل القرن السابع).
(٣٩) جواد عليّ، **المصدر نفسه**، ج٦ ص ٥٩٦.

نشطت كنيسة الحيرة النسطوريّة نشاطًا تبشيريًّا واسعًا، فأرسلت المبشّرين إلى مختلف المناطق العربيّة: إلى البحرين وهَجَر وحَضْرَمَوْت واليمن وغيرها، وقامت ببناء الأديرة في مختلف هذه المناطق: كان أهل ثلاثة بيوتات يتبارَون في البِيَع وربّها، أهل المنذر بالحيرة، وغسّان بالشام، وبنو الحارث بن كَعْب بنجران، وبنَوا دياراتهم (أديرتهم) في المواضع النزهة الكثيرة الشجر والرياض والغدران، وجعلوا في حيطانها الفسافس وفي سقوفها الذهب والصور[٤٠].

وأدرج ياقوت الحمويّ في معجم البلدان أسماء عشرات الأديرة التي كانت قائمة في مناطق التجمّعات القبليّة أو على طريق التجارة إلى جنوب الجزيرة العربيّة والمحيط الهنديّ. وما من شكّ في أنّ هذه الأديرة لعبت دورًا تبشيريًّا كبيرًا بين القبائل العربيّة بسبب اختلاط الرهبان بالناس. ولأنّ معظم الأديرة كانت محطّات استراحة إلزاميّة لقوافل التجارة بسبب مواقعها وإمكانيّاتها، فضلاً عن أنّ بناءها وتزيينها كانا يدهشان أهل الوبر، ويجعلانهم يحسّون بعظمة الدين الذي يعود إليه الدير. ومن أهمّ الأديرة وأشهرها دير هند الكبرى وهو بالحيرة، بنته هند أمّ عمرو بن هند (ابن المنذر بن ماء السماء)، وكان في صدره مكتوب: الملكة بنَت هذه البيعة الملكة هند بنت الحارث بن عمرو بن حُجْر بنْت الأملاك وأمّ الملك عمرو بن المنذر أمة المسيح وأمّ عبده وبنت عبده في ملك الأملاك خُسْرَو أنوشِروان في زمن مار أفرايم الأسقف، فالإله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحّم عليها وعلى ولدها، ويقبل بها وبقومها إلى إقامة الحقّ ويكون الله معها ومع ولدها دهر الداهر[٤١].

وقد خرّجت مدينة الحيرة عددًا من رجال الدين، مثل مار إيليّا وأصله من الحيرة بُني على اسمه دير في الموصل، والقدّيس حنانيشوع، وهو من عرب الحيرة ومن عشيرة الملك النعمان، والقدّيس مار يوحنّا، وهوشاع الذي حضر مجمع إسحق الجاثليق عام ٤١٠م، وشمعون الذي أمضى أعمال مجمع (يهبالاها) الذي انعقد عام ٤٨٦م، وشمعون الذي حضر مجمع آفاق وإيليّا المنعقد سنة ٤٨٦م وأمضى في سنة ٤٩٧م مجمع (آباي) و(نرساي) الذي تحزّب سنة ٥٢٤م لنرساي الجاثليق هند (أليشع) و(أفرام) و(يوسف)،

(٤٠) البلاذريّ، **فتوح البلدان**، ج٢ ص ٥٣٨.
(٤١) البلاذريّ، **المصدر نفسه**، ج٢ ص ٥٤٢.

وقد حضر مجمع (إيشوعياب الأرزني) الذي انعقد عام ٥٨٥م، وشمعون بن جابر الذي نصّر الملك النعمان الرابع في سنة ٥٩٤م[٤٢].

كان لعرب الحيرة وأمرائهم وتاريخهم أثر كبير في الأدب العربيّ والحياة العقليّة للعرب عامّة، فأحاديث جُذَيْمَة الأَبْرَش وأساطير الزبّاء (وهما من الحيرة قبل إنشاء إمارتها) والخَوَرْنَق والسَّدِير والتغنّي بهما وبعظمتهما، والأقاصيص حول سِنِمّار باني الخَوَرْنَق والأمثال التي ضُربت فيه، ويوما النعمان: يوم نعيمه ويوم بؤسه، كلّ هذه وأمثالها شغلت جزءًا كبيرًا من الأدب العربيّ، وكلّها تتعلّق بعرب الحيرة وحياتهم[٤٣].

أمّا بلاد **الحجاز ونجد**: فقد كانت التشكيلة الاجتماعيّة في الحجاز ونجد تختلف عن المجتمعات الثلاثة الرئيسة الأخرى: اليمن، بلاد غسّان والحيرة. فقد كانت هذه المجتمعات الأخيرة أكثر تمدّنًا وتحضّرًا من سكّان الحجاز ونجد الذين كان أغلبهم من أهل الوبر، بينما كانت في مناطق المجتمعات الثلاثة الآنفة الذكر مدن مستقرّة إلى جانب القبائل المتنقّلة مثل نجران وظَفار وبُصرى وتدمر. ولكن لم تكن الحجاز ونجْد خالية من المدن بل كان بها مكّة ويثرب والطائف وغيرها.

إنّ موقع المجتمعات الثلاثة على تخوم الجزيرة، مجاورة لإمبراطوريّات كبرى: فارس وبيزنطة والحبشة، جعلها تعقد صلات تجاريّة وثقافيّة وحضاريّة مع هذه الإمبراطوريّات، وأدّى ذلك مع أسباب أخرى، إلى اختلاف تقاليدها وثقافتها ولهجاتها وكتابتها وديانتها عن مثيلاتها في الحجاز ونجد، وقد كان هناك في الواقع مجتمعات لكلّ منها خصوصيّته، رغم الإطار العامّ الذي يجمعها.

سكنت الحجاز ونجد قبائل عربيّة كبيرة، فقبيلة طيء كانت تسكن جَبَلياجا وسلمى (جبلي طيء)، وطيء من أشهر القبائل العربيّة، حتّى إنّ السريان والفرس كانوا يسمّون العرب طيئًا[٤٤]. وكان بنو الحارث يسكنون الجنوب الشرقيّ للطائف، وبنو وائل وبنو حنيفة في اليمامة، وخُزاعة في الحجاز ومنهم الأوس والخَزْرَج. وجُهَيْنة وعُذْرَة في وادي أَضَم في الحجاز، وأسد في اليمامة وشمال وادي الرِمّة، وقيس غيلان ومنها هَوازن وسُليم،

(٤٢) د.جواد عليّ، **المصدر نفسه**، ج٦ ص ٥٩٧.

(٤٣) أحمد أمين، **فجر الإسلام**، ص ١٨.

(٤٤) أحمد أمين، **فجر الإسلام**، ص ٢٠.

ومنهم غَطَفان (عبس وذبيان) في الجزء الغربيّ من نجد، وهَزيل سكنت جبالاً قريبة من مكّة، وكِنانة (ومنها قريش) كانت تسكن جنوب الحجاز.

لم تنتشر المسيحيّة في الحجاز ونجْد كما انتشرت في مناطق التخوم العربيّة، لا من حيث عدد المتنصّرين، ولا حتّى بالمفهوم اللاهوتيّ نفسه، أو أسلوب التعامل معها إيمانًا وسلوكًا. ولكن الأخباريّين يؤكّدون وجود مسيحيّين في نجد والحجاز قبل ظهور الإسلام. إنتشرت المسيحيّة بينهم بطرق ثلاث:

الأولى: الهجرة والتبشير، حيث بدأ التبشير المسيحيّ نتيجة لهجرة المسيحيّين المبكّرة إلى جزيرة العرب، ويرى بعض المؤرّخين أنّ أوّل هجرة مسيحيّة بدأت عام ٧٠م بعد تدمير أورشليم، ثمّ توالت الهجرات كلّما حصل اضطهاد في فلسطين: هجرات مسيحيّة ويهوديّة. وهجرات مجموعات عقائدها مزيجٌ من اليهوديّة والمسيحيّة وجدت سبيلها إلى جزيرة العرب مثل الأبيونيّين والناصريّين والكسائيّين. فالأبيونيّون جماعة من قدماء اليهود المتنصّرين، ومعتقداتهم مزيج من اليهوديّة والمسيحيّة، وهم يعتقدون بوجود الله الواحد خالق الكون، وينكرون رأي بولس الرسول في المسيح، ويحافظون على حرمة يوم السبت. وبعضهم آمن أنّ المسيح بشر، وأنكر الصلب، وأنّ الذي صُلب هو غير المسيح، وقد شُبّه على من صلبه. والناصريّون اعترفوا بألوهيّة المسيح وحافظوا على شريعة موسى. أمّا الكسائيّون فقد كانوا يحافظون على الختان وحرمة يوم السبت، وكانوا يتوجّهون بصلاتهم نحو بيت المقدس، ويعتقدون بوجود إله واحد وباليوم الآخر وبالملائكة[٤٥]. وبالإجمال كانت هناك هجرات لمسيحيّين اضطهدتهم بيزنطة أو اختلفت معهم، بالإضافة إلى أنّ المناذرة والغساسنة، بشّروا في الجزيرة وبنوا أديرة على خطوط التجارة وفي المدن الحجازيّة، وأرسلوا رهبانًا، قاموا بعمليّات تبشير.

الثانية: الرقيق، الذي كان كثيرًا في نجد والحجاز، بعضه من الحبشة، ومعظمه من أنحاء الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وكان معظم الأرقّاء مسيحيّين لهم دينهم وثقافتهم المتطوّرة، وكانوا يقرأون ويكتبون مطّلعين على حضارة الرومان واليونان والفرس. وقد لعبوا دورًا هامًّا في نشر المسيحيّة. وقد ذكرت كتب الأخبار عديدًا من أسماء هؤلاء الرقيق، وفصّلت في الأدوار التي لعبوها، وبدورهم الديني والثقافيّ، حتّى إنّ المشركين اتّهموا الرسول

(٤٥) د. جواد عليّ، **المصدر نفسه**، ج٦ ص ٦٣٤ — ٦٣٦.

محمّدًا في بدء الدعوة بأنّه يأخذ منهم «ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلّمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجميّ وهذا لسان عربيّ مبين» (سورة النحل، آية ١٠٣).

الثالثة: التجارة، حيث كان الحجازيّون والنجديّون يسيطرون على مقاطع عامّة من طرق التجارة بين المحيط الهنديّ وجنوب الجزيرة العربيّة من جهة، وبين الشام والعراق ومصر من جهة أخرى؛ ثمّ ما لبثوا أن سيطروا هم أنفسهم على العمليّة التجاريّة برمّتها، وأخذوا يسيّرون القوافل، حتّى أصبحت التجارة مصدرًا هامًّا من مصادر عيشهم إضافة إلى الرعي وبعض الزراعة، وكانت مكّة وسيّدتها قريش في نهاية القرن السادس الميلاديّ، سيّدة لخطّ التجارة الغربيّ بلا منازع. وقد جعلتهم التجارة يتّصلون بعرب اليمن وعرب بلاد الشام ومعظمهم من المسيحيّين، فضلاً عن اتّصالهم بأطراف الدولة البيزنطيّة وأقباط مصر، ممّا أدّى بهم إلى الإطّلاع على المسيحيّة وفلسفتها ولاهوتها وانقساماتها، وعلى حضارات وثقافات أخرى غير ثقافتهم وأكثر منها تقدّمًا، فضلاً عن تماسّهم مع الرهبان في الأديرة على طريق القوافل. ويشير المؤرّخون والأخباريّون العرب جميعهم إلى لقاء محمّد عبدالله مع راهب بُصرى (بحيرا) عندما كان محمّد فتًى يافعًا يرافق قافلة قريش المتّجهة إلى دمشق.

إنتشرت النصرانيّة بين قبائل نجد والحجاز فكان مسيحيّون في بني شيبان ومنهم النابغة الشيبانيّ، وكانوا في إياد ومنهم قسّ بن ساعدة الإياديّ، ويقال إنّه كان أسقف نجران، والبعض يقول أسقف مكّة، وهو أوّل من قال (أمّا بعد) و(البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر)، وكان خطيب العرب كافّة، وإنّ الرسول قال فيه(يحشر أمّة وحده) أو يرحم الله قسًّا إنّي لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمّة واحدة)[٤٦].

وتنصّر من العرب قوم من قريش من بني أَسَد بن عبد العُزّى عثمان بن الحُوَيْرِث بن أسد الذي قدم على قيصر فتنصّر وحسنت منزلته عنده، ومنحه لقب بطريق وأراد تنصيبه ملكًا على مكّة، ولكنّ قومه أبوا عليه ذلك، فلم يتمّ له مراده[٤٧]. وبعث له من دسّ له السمّ وهو في ديار الغساسنة.

(٤٦) د. جواد عليّ، **المصدر نفسه**، ج٦ ص ٤٦٦.

(٤٧) **سيرة ابن هشام**، ج١ ص ٢٤٣.

ومنهم أيضًا وَرَقَة بن نَوْفَل بن أَسَد: وكان ورقة قد تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل[٤٨]. وكان يكتب الكتاب العربيّ، والكتاب العبرانيّ من الإنجيل[٤٩].

وتنصّر من بني ثَقيف أميّة بن أبي السلط، وهو أوّل من قال (باسمك أللّهمّ). وترى ديوانه مشحونًا بتعاليم المسيحيّين مع منقولات متعدّدة عن الأسفار المقدّسة، كسفر الخليقة وخلقة آدم وسقوط الأبوين الأوّلين بإغراء الحيّة والطوفان وذكر الأنبياء والملائكة والسيّد المسيح ومريم العذراء[٥٠]. وكان شاعرًا مات دون أن يُسلِم، وسافر إلى الشام واتّصل بأهلها، وآوى إلى الأديرة ورجال الدين يسألهم عن مشكلات دينيّة، وكان قارئًا كاتبًا[٥١].

ومن ثَقيف أيضًا تنصّر الحَارث بن كِلْدة طبيب العرب في وقته. ومن الخَزْرَج كان على المسيحيّة أبو قيس صَرْمَة بن أَنَس بن مَالك من بني عَديّ بن النجّار من الخزرج. وروى ابن الأثير في أسد الغابة عن أنّه (ترهّب في الجاهليّة ولبس المسوح) وكان يلقّب بالراهب، وتنصّر كثرة من بني طيّ منهم عَديّ بن حاتم الطائيّ الذي بقي على مسيحيّته حتّى بعد مجيء الإسلام وقابل الرسول وصليبه المذهّب على صدره.

وقد نقل الأب لويس شيخو اليسوعيّ عن الأزرقيّ[٥٢] في أخبار مكّة قوله: إنّه كانت توجد مقبرة للمسيحيّين في مكّة في دير المَقْلَع على طريق بئر عَيْنَه بذي طَوَى، والمقلع هو الجبل الذي بأسفله مكّة على يمين الخارج إلى المدينة؛ وإنّه كانت توجد كنيسة نسطوريّة في عكاظ، وأخرى في طيّ، وثالثة في كِنْدة في نجد، وكان دير سعد في بلاد غَطَفان ودير عمرو في جبال طيّ[٥٣]، ويرى بعض المؤرّخين والمسيحيّين منهم خاصّة أنّه لولا وجود مسيحيّين في يثرب لما ورد ذكرهم في رثاء شاعر الرسول حسّان.

فرحت نصارى يثرب ويهودها   لمّا توارى في الضريح الملحد

(٤٨) **موجز سيرة ابن هشام**، ص ٤٨.

(٤٩) اليعقوبيّ، **تاريخ**، ج١ ص ٢٩٨. إبن الأثير، **الكامل**، ج٢ ص ٢٣٨.

(٥٠) لويس شيخو، **المصدر نفسه**، ص ١٢٠.

(٥١) أبو الفرج الأصفهانيّ، **كتاب الأغاني**، ج٤ ص ١٢١.

(٥٢) الأزرقيّ، **أخبار مكّة**، ص ٥٠١.

(٥٣) لويس شيخو، **المصدر نفسه**، ص ١١٨.

وروى بعض الأخباريّين أنّ الرسول وضع يده في الكعبة، على صورة مريم العذراء والسيّد المسيح عندما أريد إزالة الصور من جدرانها، وتحطيم الأصنام. ويروي ابن الوليد محمّد بن عبدالله الأزرقيّ عن هذه الحادثة الرواية التالية: فلمّا كان يوم فتح مكّة دخل رسول الله البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطّلب فجاء بئر زمزم ثمّ أمر بثوب فبُلّ بالماء وأمر بطمس تلك الصور فطُمست. قال: ووضع كفّيه على صورة عيسى بن مريم وأمّه عليهما السلام وقال: امحوا جميع الصور إلاّ ما تحت يديّ فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمّه[٥٤]...

وعلى كلّ حال كان للمسيحيّين في الحجاز ونجد وجود دون شكّ، كما كان لهم باللغات الأخرى كالسريانيّة والعبريّة واليونانيّة اطّلاع على التيّارات الفكريّة والثقافيّة.

الأفكار المسيحيّة في الجزيرة العربيّة

كانت الأفكار المسيحيّة قد تغلغلت قبيل ظهور الإسلام في قلب الجزيرة العربيّة، وفي مناطقها الحدوديّة، إلاّ أنّه لا يسعنا تحديد المناطق والقبائل التي كانت ملتزمة بهذه الديانة التزامًا فعليًّا حقيقيًّا. فقد وردت إشارات واضحة إلى الشعائر والتقاليد المسيحيّة في القصائد التي كان شعراء الجاهليّة يُلقونها، حتّى ذهب البعض إلى القول إنّ البلاد العربيّة برمّتها كانت على وشك الانضمام إلى الديانة المسيحيّة أو اليهوديّة إبّان ظهور الإسلام. إلاّ أنّ انتشار اليهوديّة كان في الواقع قد توقّف بسبب انعزال اليهود وتزمّتهم الدينيّ.

لقد أدّت النزاعات القائمة بين مختلف الفئات والمذاهب المسيحيّة، وعدم وجود رئاسة دينيّة موحّدة في الأرض العربيّة إلى الفشل في سبك العرب في قالب مؤسّسة اجتماعيّة، وإلى جعل المسيحيّة في حالة ضعف وعجز، ولا سيّما وإنّها لم تكن قد ترسّخت بعمق في نفوس هؤلاء العرب، حتّى إنّ شخصًا مثل عليّ بن أبي طالب لم يتردّد في القول عن المسيحيّين الذين كانوا يرفضون الانضمام إلى الإسلام: إنّهم لا يعرفون من المسيحيّة سوى أنّها تسمح لهم بشرب الخمر. فكانت مسيحيّتهم سطحيّة وضحلة. وكان ثمّة سبب آخر، وهو أنّ الذهنيّة العربيّة لم تكن تُبدي حماسًا كبيرًا في تقبّل المعتقدات المعقّدة التي كانت المسيحيّة تنادي بها، ولا نغالي إذا قلنا إنّه لولا عقيدة المسيح ابن الله، لكان من شأن التعاليم المسيحيّة الداعية إلى السلام والمحبّة أن تكتسب قلوب العرب. ولكان من شأن

(٥٤) الأزرقيّ، **أخبار مكّة**، ص ١١١ عن لويس شيخو، **المرجع نفسه**، ص ١١٧.

السلوكيّة المسيحيّة المنفتحة على جميع البشر دون تمييز بين الأعراق الألوان ومدعومة بمفهوم وجدانيّة الله التي لم يكن عرب الجاهليّة غرباء عنها، أن تؤدّي في ذلك المنعطف الحاسم من التاريخ إلى اتّساع في المنظور السياسيّ ما وراء الأطر القبليّة، وإلى المساهمة في الوقت ذاته في تلطيف الأخلاق العربيّة.

في نهاية الأمر، فإنّ المسيحيّة الناقصة بل المشوّهة عند العرب الذين لم يحيوها بعمق ولم يمارسوها بالتزام، هذه المسيحيّة حديثة العهد والمفتقرة إلى تنظيم جيّد والمتجزّئة إلى فئات متأخّرة متناحرة، تبدو لنا من وجهاتها السلبيّة وكأنّها ساهمت بدعم من اليهوديّة المتزمّتة في شقّ الطريق أمام الإسلام. فإنّها جرّدت العقول من عبادة الأصنام وبثّت فيها الأفكار التوحيديّة ولكنّها أخفقت في تقديم المُثُل العليا الصافية للعرب.

وحينما ظهر محمّد، كانت البلاد العربيّة قد نضجت لثورة دينيّة شاملة مهّدت لها المسيحيّة الواهية لدى البدو.

الفصل الثاني
مملكتان عربيّتان مسيحيّتان

الأولى: مملكة الحيرة

شغلت الحيرة مكانة خاصّة في تاريخ الشرق العربيّ في القرنين الخامس والسادس. فقد أثبتت هذه الدولة العربيّة التي كانت تقوم بدور العازل بين الدولتين الكبيرتين أنّها كانت دعامة من دعامات إيران الساسانيّة بوضعها قوّاتها العسكريّة تحت تصرّف الأكاسرة. غير أنّه من خطل الرأي أن يُظنّ أنّ «عرب الفرس» هؤلاء قد عاشوا تحت إمرة الفرس ولمصلحة إيران. فالمصادر ذات الوزن، وكذلك الرقوم الكتابيّة التي تمّ الكشف عنها منذ أمدٍ ليس بالبعيد، تتحدّث عن دولة الحيرة بوصفها دولة قويّة ذات شأن، لها مصالحها الخاصّة بها، سواء على الحدود مع بيزنطية بأرض الجزيرة (بيت نهرين) وسوريّة وفينيقية، أو بمناطق الجزيرة العربيّة نفسها كالحجاز «مهد الإسلام» ونجد، أو على طريق التجارة التي تعبر شبه الجزيرة من أقصاها إلى أدناها متّجهة صوب بلاد العرب الجنوبيّة. وتنال أهمّيّة خاصّة في هذا الشأن الرقوم المكتوبة بخطّ المُسنَد التي فتحت مجالات واسعة في دراسة تاريخ العرب قبل الإسلام رغمًا عن إيجازها الشديد، كما حظيت باهتمام خاصّ كذلك لأنّها تثبّت تواريخ الأحداث التي تتكلّم عنها.

عندما حدث سيل العَرِم أو بَثْق سدّ مأرب في أواخر القرن الأوّل الميلاديّ أو أوائل القرن الثاني[1]، نزحت قبائل عديدة من البلاد اليمنيّة واتّجهت نحو المناطق الشماليّة،

(١) يبدو أن سدّ مأرب قد انفجر مرّات عديدة بعد هذا التاريخ فقد تصدّع أيضًا سنة ٤٥٠م، وأُصلح. أمّا الكارثة الكبيرة التي يشير إليها القرآن (سورة سبأ: ١٥) فقد وقعت بعد عام ٤٥٠م وقبل سنة ٥٧٠م. ويُعزى انهياره إلى التآكل أو عمل الجرذان.



أو الشماليّة الشرقيّة، وكان بين النازحين رهط من أولاد مَعْن بن عدنان الذين تركوا وطنهم تِهامة، من بلاد اليمن ويمّموا شطر أرض الرافدَين (العراق)، طلبًا للمعيشة، وانتجاعًا للكلأ لقطعانهم. وكان من بينهم مالك وعمرو ولدا فهم بن تَيْم الله من قبيلة قُضاعة، فاتّفقت الأَزْد وقُضاعة على التحالف. فسُمّوا تنوخًا. وكانت نشأة مملكة التنوخيّين الأولى في القرن الثاني الميلاديّ، في عهد ملوك الطوائف أو الأشغانيّين الذين سُمّوا فرتيّين عامّة. ثمّ أعقبهم اللخميّون في بدء العهد الساسانيّ، ودام حكمهم حتّى قبيل مجيء الإسلام. فسُمّيت هذه المملكة التنوخيّين أو اللخميّين أو المناذرة أو آل نصر.

مدينة الحيرة

كانت مدينة الحِيرة عاصمة مملكة اللخميّين. وسُمّيت الحيرة أو البيضاء الروحاء. وتقع جنوبيّ الكوفة الحاليّة على بعد ثلاثة أميال منها. وهي اليوم ناحية تابعة لمحافظة القادسيّة (الديوانيّة). ونسب العرب بناءها إلى نبوخذ نصّر. ولكنّها خربت بعد موته، وانتقل عربها إلى الأنبار إلى أن جاءت قبائل أخرى وسكنتها.

يختلف العلماء في معنى اسم الحيرة. فمنهم من قال إنّه عربيّ معنًى، وإنّه مشتقّ من الحيرة، لأنّ تُبَّعًا لمّا قدم إلى المنطقة بجيوشه، ضلّ طريقه فتحيّر في هذا الموضع. ومنهم من قال إنّه من الحَيْر بمعنى الحمى والملجأ. ومنهم من ذهب إلى أنّه مشتقّ من فعل حار الماء أي تردّد لا يدري كيف يجري بالنظر إلى ركود الماء في مياه بحر النجف. إلاّ أنّ الرأي الأرجح أنّ الكلمة آراميّة النجّار «ܚܝܪܬܐ»، وهي المعسكر والدير والحصن[2].

إشتهرت الحِيرة بطيب هوائها وصفاء جوّها وصحّة تربتها، حتّى قيل «يوم وليلة في الحيرة خير من دواء سنة، بل سنتين».

وكانت واقعة على الضفّة اليمنى من الفرات، ومسيطرة على كلّ الجزء الشرقيّ من البادية. وقد ساعد الفرس في نشأة هذه المملكة بزعامة جماعة عربيّة من أصل يمنيّ لكي يصدّوا بذلك تدفّق العرب الرحّل من البلاد العربيّة. حظيت هذه الدولة، بمساندة الفرس وبحكم ذاتيّ كان في الواقع تابعًا للفرس غالبًا، وكان هذا يتوافق مع طموحات الفرس الإمبرياليّة وهي:

(٢) طالع يوسف غنيمة، **الحيرة، المدينة والمملكة العربيّة**، بغداد، ١٩٣٦، ص ١١.

١ – أن يضمنوا لهم موقعًا إستراتيجيًّا قويًّا مشرفًا على الصحراء الواقعة عبر الفرات، وذلك ضدّ خصومهم البيزنطيّين، وأن يصدّوا في الوقت ذاته تدفّق البدو التقليديّ من الداخل ويضمنوا الأمان لطرق المواصلات.

٢ – أن يضمنوا لإمبراطوريّتهم موقفًا تجاريًّا واقتصاديًّا مرموقًا، وذلك بسيطرتهم على تجارة القوافل في الداخل. فكانت الحيرة عاصمة اللخميّين تشرف في الوقت نفسه على إحدى أكبر الطرق التجاريّة نحو المحيط الهنديّ. ومن ثمّة إلى الشرق الأقصى، وعلى الطرق المؤدّية إلى اليمن وإلى جنوبيّ الجزيرة العربيّة عامّة.

سكّان الحيرة

لا شكّ أنّ العنصر العربيّ كان سائدًا في الحيرة. وذلك بالنظر إلى موقعها الجغرافيّ القريب من بادية الشام محطّ رحال البدو من العشائر والقبائل والبطون والأفخاذ العربيّة. وقد قسّم المؤرّخون العرب سكان الحيرة ثلاثة أصناف:

ثلث تنوخ، وهم كانوا أصحاب المظالّ وبيوت الشعر ينزلون غربيّ الفرات، فيما بين الحيرة والأنبار فما فوقها.

والثلث الثاني العِباد، وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها؛

والثلث الأخير الأحلاف، وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها، من لم يكن من تَنُوخ الوَبَر ولا من العِباد[3].

أمّا «العِباد» أو «العِباديّون» فكانوا قومًا من المسيحيّين من قبائل شتّى انفردوا من الناس في قصور ابتنوها لنفوسهم ظاهر الحيرة[4]. وسُمُّوا هكذا لأنّهم كانوا يعبدون الله متزهّدين. وجاء أيضًا في تعليل الاسم هذا، أنّ خمسة منهم وفدوا على كسرى (الأوّل) وكانت أسماؤهم تبتدئ بكلمة «عبد» وهم: عبد المسيح، عبد ياليل، عبد يسوع، عبدالله، عبد عَمرو. فقال كسرى: إنّكم عِباد كلّكم، فسُمّوا العِباد[5].

(٣) حمزة الأصفهانيّ، **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**، طبعة برلين، ص ٦٦.

(٤) إبن القفطيّ، **أخبار الحكماء**، طبعة مصر، ص ١٩٩.

(٥) البكريّ، **معجم ما استعجم**، كوتنحن ١٨٧٧، ص ١٨.

وقد اشتهر العِباد بمسيحيّتهم وبمعرفتهم القراءة والكتابة في عهد جهلها أكبر الشعراء النوابغ.

وكان في الحيرة أيضًا أقوام أخرى، منهم النبط واليهود والفرس.

قصورها

إشتهرت الحيرة بعماراتها الفخمة، وبقصورها الرائعة، ومنها:

«١» **الخَوَرْنَق:** الذي كان قصرًا شامخًا بظهر الحيرة، وقد تضاربت آراء الباحثين في أصل هذا الاسم ومعناه. والأرجح أنّه اسم فارسيّ يعني موضع الأكل والشرب. ودارت الأساطير حول بنائه. وأكثر العرب من ذكره في أشعارهم وأمثالهم، ويُعزى بناؤه إلى سِنِمّار، البنّاء الروميّ. وكان القصر في موقع بديع يشرف على النجف وما يليه من البساتين والنخل والجنان والأنهار.

«٢» **السَّدِير:** وهو القصر الذي يعقب الخورنق في العظمة، والبهاء، ويُنسب بناؤه إلى باني الخَوَرنق نفسه وهو النعمان بن امرئ القَيس المعروف بالنعمان الأعور والسائح. وقيل إنّه كان يحوي ثلاث غرف متداخلة، كان النعمان يلتزم فيها فرائض دينه.

وقال البعض إنّه كان بالقرب من الخورنق. وزعم غيرهم أنّه كان على مسافة بعيدة في الصحراء.

وكانت هناك قصور أخرى رائعة جاء ذكرها ووصفها لدى المؤرّخين والشعراء. ولم يبق منها الآن سوى أثر بعد عين.

ملوك الحيرة

حينما حلّ مالك بن فَهْم الأَزْديّ برهطه ديار العراق في نحو منتصف القرن الثاني الميلاديّ، كانت الدولة الأرشاقيّة (الفرتيّة) قد دبّ فيها الضعف والانحلال، فاغتنم العرب القادمون هذه الفرصة، واستولوا على المنطقة الواقعة بين الأنبار والحيرة، وأصبح «مالك» زعيمًا عليهم. فحكم على التنوخيّين الذين يسكنون الخيام ويُسمّون عرب الضاحية[٦].

(٦) الطبريّ، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٧ مصر، ص ٢٨.

واتّخذ منزله في الأنبار وبنى له قصرًا في الحيرة. وبقي في الحكم إلى أن رماه سُليمة بن مالك رمية بالنُبل، وهو لا يعرفه، وكان قد أحسن إليه. فقال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

جزاني لا جزاه الله خيرًا ... سُليمة إنّه شرًّا جزاني

أعلّمه الرماية كلّ يومٍ ... فلمّا اشتدّ ساعده رماني

وخلفه في الحكم أخوه عمرو بن فَهْم. ثمّ جاء جُذَيمة الأَبْرش أو الوَضّاح، وبه انتهت سلالة التنوخيّين. وتشرح التقاليد العربيّة انتقال الملك إلى قبيلة اللخميّين بهذه الأسطورة، أنّ رَقّاش أخت جُذَيمة تزوّجت من عَديّ اللخميّ، وجاء عمرو ثمرة هذا الزواج. وقد خَلَف عمرو خاله جُذَيمة في الحكم على الحيرة بعد أن قضت الزبّاء (زنوبيا) ملكة تدمر على جُذَيمة في إحدى المعارك.

إلاّ أنّ الحقيقة التاريخيّة تبدأ من امرئ القيس الذي خَلّد ذكره نقش النمّارة الذي وجد بين أطلال ضريحه[٧].

وأشهر ملوك الحيرة هو النعمان الأوّل (الأكبر – الأعور – السائح) الذي أتاح لسمعان العموديّ أن يبشّر بالمسيحيّة في بلاده. ولكنّه هو نفسه ظلّ وثنيًّا بغية إرضاء ملوك الفرس وقد عيّنه الفرس جنرالاً، ونال حظوة لدى يزدجرد الثاني الذي عهد إليه بتربية ابنه بَهْرام كُور[٨]. وقد ساعد المنذر الأوّل ابن النعمان الملك الفارسيّ بَهْرام كُور في استعادة عرشه.

وبعد المنذر الأوّل وابنه الأسود الذي أسره الفرس، جاء إلى الحكم المنذر الثاني أخو الأسود. وبعد أن حكم مدّة وجيزة، خلفه المنذر الثالث ابن المنذر الأوّل، ثمّ جاء إلى الحكم النعمان الثاني ابن الأسود وأميرة من قبيلة كندة. ولكنّه قُتل في معركة ضدّ الروم. فأقام الفرس مكانه شخصًا لم يكن من السلالة الحاكمة اسمه أبو يعقوب بن علقمة الدخيل. وخلفه امرؤ القيس الثالث ابن ماء السماء، وسُمّي هكذا بلقب أمّه ماء السماء، وقد غلب هذا اللقب على اسمها لحسنها وجمالها أو لكرمها ورقّة طبعها. وروى بعضهم أنّ المنذر لُقّب ابن ماء السماء لجوده وسخائه. كما أنّه عُرف بذي القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره.

(٧) يعود تاريخ نقش النمّارة إلى سنة ٣٨٢ وقد عثر عليه في سوريّة الجنوبيّة بالقرب من بصرى الشام. وجاءت الكتابة فيه نبطيّة واللغة عربيّة ممزوجة بالسريانيّة وهي تتكلّم عن امرئ القيس وتسمّيه ملك جميع العرب.

(٨) كور أو جور، هو الحمار الوحشيّ، وسمّي بهرام هكذا لولعه الشديد في صيد هذا الحيوان.

إستوى المنذر الثالث على عرش الحيرة سنة ٥١٤م، ودام حكمه حتّى سنة ٥٥٤م، ما خلا فترة وجيزة فيها استولى على العرش الحارث بن عمرو بن حُجْر آكل المُرار الكِنْديّ (٥٢٩ – ٥٣١). وكان المنذر الثالث شجاعًا قويّ الشكيمة، لا يستحيله الوعد، ولا يلويه الوعيد. ولكنّه كان خاليًا من كلّ عاطفة دينيّة وميّالاً إلى سفك الدماء. وسيكون عدوًّا رهيبًا للروم، ولكنّه شرع يُظهر شيئًا من التسامح للمسيحيّين وكانت امرأته هند من قبيلة غسّان مسيحيّة، وقد أسّست بضعة أديرة في أطراف الحيرة. وقد تغلغلت المسيحيّة في عهده في مملكته وبين أعزّائه. ولكنّ المنذر نفسه بقي وثنيًّا لا يتردّد في أن يقدّم للآلهة ضحايا بشريّة. ففي إحدى صولاته ضدّ الروم استولى على أربعمائة راهبة في منطقة حمص السوريّة وقدّمهنّ قرابين دون رحمة.

إنّ الدور المزعج الذي قام به الملك تجاه الروم حدا ملك الروم يوستنيانس إلى التفكير في خلق قوّة عربيّة مناوئة على الحدود السوريّة قادرة على مقاومة اللخميّين. وعهد بهذا الدور إلى قبيلة بني غسّان المسيطرة على الواحات المجاورة لسوريّة الجنوبيّة. وكانت هذه بداية الصراعات بين الغساسنة واللخميّين. وفي إحدى المعارك، تمكّن المنذر الثالث من أسر أحد أبناء الحارث الغسّانيّ وقام بتضحيته للعُزّى. إلاّ أنّ الغساسنة انتقموا منه حتّى قتلوه سنة ٥٥٤م. بالقرب من قِنّسْرين على الطريق المؤدّية من حلب إلى الرَّقّة.

خلفه في الحكم ابنه عمرو بن هند الكبرى، وهي ابنة عمّة امرئ القيس[٩] الشاعر الشهير. وكان عمرو شديد البأس جبّارًا. واشتهر بعدّة وقائع مع الروم والغساسنة وعرب اليمامة. وقصده الشعراء من مختلف القبائل. وأضحت الحيرة في عهده منتدى علم وأدب، وأقبلت عليه الوفود. وحكّمه العرب في شؤونهم وحسم النزاعات بينهم. وقد أصبح عمرو مسيحيًّا. إلاّ أنّ خلفاءه عادوا إلى الوثنيّة، غير أن المسيحيّة أصبحت منذئذ ديانة الأغلبيّة الساحقة في الحيرة. وكانت هذه الديانة منقسمة بين النسطوريّة واليعقوبيّة، وقد شرعت تتغلغل في الحيرة بواسطة سمعان الأرشميّ.

(٩) أمرؤ القيس (٥٠٠ – ٥٤٠؟) ولد في نجد وتوفّي في أنقرة. صاحب المعلّقة الأولى ومطلعها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ بسقط اللوى بين الدَّخول فحَوملِ.

من أشهر شعراء الجاهليّة بل أوّلهم منزلة. كان ابن حُجْر الكنديّ ملك بني أسد. قُتل أبوه فهمّ في المطالبة بالثأر واستعادة الملك فهرب من المنذر بن ماء السماء فسمّيَ «الملك الضليل»، ولجأ إلى السموأل في تيماء واستنجد بيوستنيانوس قيصر على أعدائه، فأكرمه ومنحه إمارة فلسطين لكنّه أصيب بأنقره بمرض كالجدري فسمّاه الرُّوان بـ «ذي القروح». طبع ديوانه لأوّل مرّة في باريس البارون دي سلان عام ١٨٧٧.

وتعاقب الملوك على عرش الحيرة:

فجاء قابوس ابن المنذر المسمّى فتنة العروس، ثمّ عقبه رجل فارسيّ دخيل يسمّى السَهْرب أو السَهْراب، وخلفه المنذر الرابع سنة ٥٨٢م. ولكنّه لم يستطع الاستواء على العرش حالاً لكونه وثنيًّا لا يرغب فيه المسيحيّون. ثمّ جاء سنة ٥٨٥م النعمان الثالث بن المنذر وهو المدعوّ أبو قابوس واهتدى رسميًّا إلى النسطوريّة عام ٥٩٤م مع جميع ذويه[١٠]. وكانت أختاه هند الصغرى ومريم مسيحيّتين مع والدتهما. وقد تعاونت جميعهنّ في تأسيس دير شهير. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحيرة برمّتها مسيحيّة نسطوريّة. في حين أنّ الغساسنة اعتنقوا اليعقوبيّة.

وبعد أن حارب النعمان الثالث جنبًا إلى جنب مع الفرس ضدّ الروم، تعرّض لسخط كسرى الثاني. ويقال إنّ ذلك كان لرفض النعمان إعطاءه حصانه في معركة النهروان، أو لرفضه إعطاءه أخته. فقرّر كسرى القضاء على هذا الملك الطموح وعلى مملكته اللخميّة التي اتّهمها بالنزعة إلى الاستقلال، فاستقدمه كسرى بالحيلة والغدر إلى قَطِسْفون، وهناك قضى عليه سنة ٦٠٢م (وقيل سنة ٦١٣) تحت أقدام الفيلة، أو بالسمّ حسب بعض الروايات. وقتل كسرى أيضًا أبناء النعمان، لكيْ يقضي على السلالة كلّها.

زالت مملكة الحيرة من الوجود، على الأقلّ كدولة مستقلّة، ووُضع على العرش إياس بن قُبيصة الطائيّ، يساعده حاكم فارسيّ، إلا أنّ الثورة ما عتّمت أن اندلعت بين عرب فارس وسرعان ما تبعهم في ذلك المستقرّون على حدود مملكة الروم. فوقعت الصحراء الشرقيّة في الفوضى التي كانت السلالة اللخميّة قد انتشلتها منها. فأضحى العرب في حالة حرب مستمرّة مع الفرس. وقامت قبيلة بكر العربيّة بمعركة ضدّ الفرس في ذي قار بالقرب من الكوفة بين سنة ٦٠٤ وسنة ٦١١م انتقامًا لمقتل النعمان، وأحرزت نصرًا ساحقًا على الجيوش الفارسيّة التي تساعدها قبيلتا تَغلِب وإياد العربيّتان المسيحيّتان. وكان لهذا الانتصار الباهر أصداء واسعة بين الجماهير العربيّة البدويّة. وبعد سنوات حينما يقبل الغزو من الحجاز سيجد على طريقه عربًا فخورين بعرقهم ومعتادين على النصر وتتأرجح قلوبهم بالحقد والاحتقار تجاه الفرس.

(١٠) كان المنذر قد تلقّى تربية مسيحيّة في قبيلة بني تميم المسيحيّة إلاّ أنّ هذه التربية كانت سطحيّة ولم تمنعه من اتّخاذ أكثر من زوجة والاحتفاظ ببعض الأخلاق الوثنيّة.

جدول ملوك الحيرة[١١]

أ – الملوك التنوخيّون:

١ – مالك بن فَهْم. ١٣٨ – ١٥٨

٢ – عَمرو بن فهم. ؟

٣ – جُذيمة الأبرش أو الوضّاح. ٢٠٨ – ٢٦٨

ب – الملوك اللخميّون أو المناذرة:

١ – عَمرو بن عديّ ٢٦٨ – ٢٨٨

٢ – أمرؤ القيس الأوّل ٢٨٨ – ٣٢٨

٣ – عَمرو الثاني ٣٢٨ – ٣٧٧

٤ – أوس بن قُلام ٣٧٧ – ٣٨٢

٥ – أمرؤ القيس الثاني ٣٨٢ – ٤٠٣

٦ – النُّعمان الأوّل (الأكبر) ٤٠٣ – ٤٣١
(السائح – الأعور – ابن الشقيقة)

٧ – المنذر الأوّل ابن النُّعمان الأوّل ٤٣١ – ٤٧٣

٨ – الأسود ٤٧٣ – ٤٩٣

٩ – المنذر الثاني ابن المنذر الأوّل ٤٩٣ – ٥٠٠

١٠ – النُّعمان الثاني ابن الأسود ٥٠٠ – ٥٠٤

١١ – أبو يَعقور عَلْقمة (دخيل) ٥٠٤ – ٥٠٧

١٢ – أمرؤ القيس الثالث ٥٠٧ – ٥١٤

١٣ – المنذر الثالث (ابن ماء السماء) ٥١٤ – ٥٥٤

١٤ – عَمرو بن هِند (ابن المنذر الثالث) ٥٥٤ – ٥٧٠

١٥ – قابوس بن المنذر ٥٧٠ – ٥٨١

١٦ – الشَّهْرَب أو السهْراب (دخيل) ٥٨١ – ٥٨٢
(فِيْشَهْرَت أو زيد)

١٧ – المنذر الرابع (ابن المنذر الثالث) ٥٨٢ – ٥٨٥

١٨ – النعمان بن المنذر ٥٨٥ – ٦٠٢
(النعمان الثالث أبو قابوس)

١٩ – إياس بن قُبَيْصَة الطائي ٦٠٢ – ٦١٧

٢٠ – أزْذَابه (فارسيّ الأصل) ٦١٧ – ٦٢٧

٢١ – المنذر الخامس (المغرور) ٦٢٨ – ٦٣٢
(ابن النُّعمان أبي قابوس)

وافتتح خالد بن الوليد الحيرة عام ٦٣٣م.

قائمة ثانية لملوك اللخميّين[١٢]

الملوك اللخميّون		الملوك الساسانيّون	
١ – أمرؤ القيس	٣٨٠ – ٤٠٤	أردَشير الثاني	٣٧٩ – ٣٨٢
		شابور الثالث	٣٨٣ – ٣٨٧
		بُهرام الرابع	٣٨٨ – ٣٩٨
		يَزْدَجَرْد الأوّل	٣٩٩ – ٤١٩
٢ – النُّعمان الأوّل ابن امرئ القيس	٤٠٥ – ٤٣٣		
٣ – المنذر الأوّل ابن النعمان	٤٣٠ – ٤٧٣	بَهرام الخامس	٤٢٠ – ٤٣٨
		يَزْدَجَرْد الثاني	٤٩٣ – ٤٥٦
		فَيروز	٤٥٧ – ٤٨٣

(١٢) عن سدني سمث Sidney Smith عن كتاب نينا فكتورفنا (العرب على حدود بيزنطة وإيران، ص ١٤٨ – ١٤٩).

الملوك اللخميّون		الملوك الساسانيّون	
٤ – الأسود بن المنذر	٤٧٤ – ٤٩٣	بَلاش	٤٨٤ – ٤٨٧
		قُباد	٤٨٨ – ٥٣٠
٥ – المنذر الثاني ابن المنذر	٤٩٤ – ٥٠٠		
٦ – النُّعمان الثاني ابن الأسود	٥٠٠ – ٥٠٣		
٧ – المنذر الثالث ابن النعمان	٥٠٥ – ٥٥٣	خسرو الأوّل	٥٣١ – ٥٧٧
٨ – عمرو بن المنذر	٥٥٤ – ٥٦٩		
٩ – قابوس بن المنذر	٥٧٧ – ٥٨٠	هرمزد الرابع	٥٧٨ – ٥٨٩
١٠ – سَهْراب			
١١ – المنذر الرابع ابن المنذر	٥٨٠ – ٥٨٣		
١٢ – النُّعمان الثالث ابن المنذر	٥٩٢ – ٦٠٤	خسرو الثاني	٥٩٠ – ٦٢٦
١٣ – حكّام فرس	٦٠٤ – ٦٢٦		
١٤ – المنذر بن النعمان (بالبحرين)	٦٢٦ – ٦٣١	متنافسون على العرش	٦٢٧ – ٦٣١

المسيحيّة في الحيرة

إنّنا لا نعلم بصورة قاطعة، متى دخلت المسيحيّة إلى الحيرة فكان سكّان هذه المنطقة، شأن سائر المناطق العربيّة الأخرى، يدينون بأديان الجاهليّة، ويقال إنّه كان لملكها جُذَيْمة الأبرش صنمان، يقال لهما الضّيزنان. وكان للوثنيّين من أهل الحيرة أصنام أخرى منها اللاّت والعُزّى وسَبَد والمُحَرِّق. وعرفت الحيرة عبدة القمر. كما أنّ البدعة المزدكيّة وجدت لها أنصارًا في الحيرة في فترة وجيزة. وكان فيها أيضًا عدد من اليهود. وقال أبو القاسم صاعد الأندلسيّ إنّ أهل قريش أخذوا الزندقة عن أهل الحيرة[١٣].

إلاّ أنّ الديانة المسيحيّة دخلت الحيرة في وقت مبكّر، وسرعان ما أصبحت الديانة السائدة فيها. وقلنا سابقًا إنّ الديانة المسيحيّة كانت قد انتشرت في ما بين النهرين في

(١٣) **طبقات الأمم**، ص ٦٧.

نهاية القرن الأوّل أو في مطلع القرن الثاني. ويقول الطبري إنّ امرأ القيس الأوّل (٢٨٨ – ٣٢٨) هو أوّل من اعتمد وتنصّر من اللخميّين، بينما يقول ابن خلدون: إنّ النعمان ابن الشقيقة (الأعور والسائح) (٤٠٣ – ٤٣١) هو أوّل من تنصَّر. إلاّ أنّ تنصّر الملوك اللخميّين لا يبدو مستمرًّا، فمنهم مَن كان يعود بسهولة إلى الوثنيّة. وهكذا تأرجح الدين المسيحيّ في البلاط الحيريّ. في حين أنّ معظم السكّان انضمّوا إلى المسيحيّة مع كثيرين من أهل البلاط والأشراف، وذلك منذ غروب القرن الرابع. وفي مطلع القرن الخامس تظهر الديانة المسيحيّة المنظّمة تحت رئاسة أسقف.

ويذكر كتاب المجامع الشرقيّة بعضًا من أساقفتها الذين شاركوا في مجامع الكنيسة الشرقيّة، هُوشاع (٤١٠)، شمعون (٤٢٤)، شمعون (٤٨٦)، إيليّا (٤٩٧)، نَرساي (٥٢٤)، أفرام الذي كان معاصرًا لهند الكبرى امرأة المنذر الأوّل (نحو ٥٤٠)، يوسف (٥٨٥)، شمعون بن جابر (٥٩٤)، يوئيل (٧٩٠).

هذا بالإضافة إلى عدد من الأساقفة الذين كانوا من أصل حيريّ، أمثال يوحنّا الأزرق، سَبْريشوع، خُوذاهُوي، وإيشُوعْداد[١٤].

ومنذ القرن الخامس، أصبحت الحيرة مركزًا دينيًّا هامًّا، بالإضافة إلى كونها مركزًا مرموقًا للتجارة والثقافة المسيحيّة، وقطبًا جذّابًا للبدو العائشين في البلاد العربيّة ما قبل الإسلام، وطريقًا للقوافل المنطلقة نحو آسيا الداخليّة، ومركزًا فيه تتفاعل الأفكار والمذاهب قبل انتشارها في قلب الجزيرة. ومن الحيرة انطلقت إرساليّات مسيحيّة على الطرق التجاريّة نحو البحرين وعُمان وغيرهما من البلدان الواقعة على الخليج العربيّ.

وفي الحيرة عُقدت مجامع كنسيّة لكنيسة المشرق (مثلاً مجمع داديشوع سنة ٤٢٤) وقد دفن في الحيرة عدد من جثالقة المشرق، مثل داديشوع (سنة ٤٥٩م)[١٥] وحزقيال (سنة ٥٨١م)[١٦] وبابُوي وآفاق (سنة ٤٩٦م)[١٧] وجرجيس (سنة ٦٨١م) وإبراهيم (سنة ٨٥٣م)[١٨].

(١٤) راجع **كتاب العفّة** لإيشوعدناح البصريّ، عدد ٨٣، ص ١٢٥، تحقيق القسّ (البطريرك) بولس شيخو. وكتاب إدّي شير كلدو واثور، ج٢، ص ٢٦٦.

(١٥) إدّي شير، كلدو واثور، ج٢ ص ١١٩.

(١٦) عمرو بن متّى، **أخبار مطارنة كرسيّ المشرق**، ص ٤٤.

(١٧) عمرو بن متّى، **المصدر السابق**، ص ٣٥.

(١٨) بطرس نصري، **ذخيرة الأذهان**، ج١، ص ٣٩٢.

وشُيِّدت في الحيرة كنائس جميلة حسنة البنيان، مزخرفة بالنقوش والفسيفساء، ورد ذكر بعض منها لدى المؤرّخين العرب: بيعة مار توما التي ذكرها صاحب الأغاني[١٩] وكنيسة الباعوثة، وبيعة دير اللج[٢٠] وكنيسة دير هند الكبرى، ودير هند الصغرى، وغيرهما من كنائس الديارات. وقد كشفت التنقيبات الأثريّة عن بعض من هذه الآثار المسيحيّة في الحيرة.

وتدلّ الديارات الكثيرة المنتشرة في الحيرة وضواحيها على مدى انتشار المسيحيّة في هذه المنطقة، بالإضافة إلى الديارات الأخرى الكثيرة التي أسّسها رهبان تخرّجوا في ديارات الحيرة وانطلقوا إلى أماكن قريبة أو بعيدة، نخصّ بالذكر منهم إيليّا الحبريّ الذي أسّس ديره الشهير بالقرب من الموصل (دير مار إيليّا أو دير سعيد) وقد عدّد يوسف رزق الله غنيمة واحدًا وعشرين من هذه الديارات في الحيرة[٢١].

وعلى أثر الجدالات التي دارت في القرن الخامس، تبنّت الحيرة المذهب الشرقيّ (النسطوريّة) أسوة بكنيسة فارس كلّها. إلاّ أنّ اليعاقبة أيضًا حاولوا الانتشار فيها. وقد قام شمعون الأرشميّ بجهود كبيرة في هذا الشأن واكتسب عددًا من الموالين لليعقوبيّة، حتّى صار لهم أسقف هناك باستمرار ما بين سنة (٥٥١ – ٦٥٠م) إلاّ أنّ اليعاقبة ظلّوا في الحيرة الأقليّة إزاء الأغلبيّة النسطوريّة الساحقة.

العلم في الحيرة

قامت الحيرة بدور رائع في تاريخ المنطقة وتاريخ العرب ونهضة اللغة العربيّة في القرون الأخيرة من الجاهليّة وفي صدر الإسلام. كما وأنّ للمدارس المسيحيّة الكبرى في الرّها ونصّيبين والمدائن وجُنْدَيسابور تأثير كبير على الحركة العلميّة في الحيرة.

أمّا الأديرة فيها، فكانت مراكز علم وإشعاع ثقافيّ ودينيّ. وقد خلق بلاط المناذرة، – الذي تشيد به الروايات العربيّة ما بعد الإسلام – تيّارًا من التبادلات الثقافيّة يمتدّ إلى البلاد العربيّة كلّها. فكان الشعراء والمغنّون من الجزيرة العربيّة قد اتّخذوا الحيرة مركزًا

---

(١٩) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج٢، ص ٣٠.
(٢٠) البكريّ، **معجم ما استعجم**، ص ٢٦٦.
(٢١) راجع **كتاب الحيرة**، ص ٤١ – ٤٩.

مفضّلاً لتنقّلاتهم ولنشر أعمالهم[٢٢]. وإلى هذا العهد ترقى التأثيرات التي مارستها الفكرة المسيحيّة السريانيّة على الأدب خاصّة في الأوساط العربيّة.

وهكذا فقد زوّدت المسيحيّة العرب بمستوًى رفيع من الثقافة والاحتكاك بالعلوم اليونانيّة بمختلف فروعها. وستكون هذه الثقافة في العصور الإسلاميّة الذهبيّة، إحدى ركائز الحضارة العربيّة – الإسلاميّة.

إنّ أهمّيّة المسيحيّة في الحيرة للبلاد العربيّة الداخليّة والجنوبيّة واضحة لمن له بعض الاطّلاع على الشعر العربيّ القديم. فشاعر مثل نابغة الذي تحتوي قصائده على أصداء عديدة من الأفكار المسيحيّة، كان قد أمضى خيرة سني حياته في الحيرة. وكان ثمّة شعراء آخرون مسيحيّون أو متعاطفون مع المسيحيّة انتشرت أشعارهم انتشارًا واسعًا بين عرب الجاهليّة قد عاشوا طويلاً في الحيرة، مثل الأعشى، أو حتّى قد أبصروا النور فيها، مثل عَديّ بن زيد. وكانت النخبة الروحيّة من البدو وشعرائهم يحبّون التردّد إلى الحيرة. ويقول صاحب الأغاني[٢٣]:

إنّ المرقّش الأكبر، وهو أبو عمر الشيبانيّ وأخاه حَرمَلَة، درسا الكتابة على مسيحيّ من أهل الحيرة. وإنّ زيد بن عَديّ قد حذق الكتابة العربيّة في الحيرة. وكان زيد هذا أوّل من كتب العربيّة في ديوان كسرى[٢٤]. وقيل إنّ أوّل من كتب من العرب بالعربيّة هو حرب بن أميّة بن عبد شمس، وقد تعلّم من أهل الحيرة. وتعلّم أهل الحيرة من أهل الأنبار[٢٥].

أمّا اللغة التي كانت تستعمل في الحيرة، فكانت السريانيّة للطقوس الكنسيّة وللأنباط منهم الذين يتكلّمونها في بيوتهم، واللغة العربيّة التي يتداولونها عامّة. وقيل إنّ المرقّش استعان بالحروف السريانيّة التي كان نصارى الأنبار والحيرة يستعملونها. فأصبحت الحروف العربيّة؛ ومن الأكيد أنّ «العِباد» كانوا أوّل العرب في استعمال الخطّ العربيّ.

---

(٢٢) لقد أمّ مجلس عمرو بن هند (٥٥٤ – ٥٦٩) أعظم الشعراء المعاصرين، أمثال طرفة بن العبد والحارث بن حِلِّزة وعمرو بن كلثوم، وهم من أصحاب المعلّقات السبع (طالع فيليب حتّي، **تاريخ العرب المطوّل**) بيروت ١٩٦٥، ص ١١١ ج١.
(٢٣) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج٥، ص ١٨١.
(٢٤) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج٢، ص ١٩.
(٢٥) السيوطيّ، **المزهر**، ج٢، ص ٢١٥.

إلاّ أنّ الملوك العرب، من المنطقة الشرقيّة أو الغربيّة، وتحت ضغط تأثيرات خارجيّة كانوا يميلون دومًا من جرّاء حضاراتهم العرقيّة والقوميّة إلى القيام بدورهم الخاصّ بهم، فإمّا إنّهم يتحزّبون لسلطة كبرى، وإمّا إنّهم يبحثون عن التخلّص من وصاية حماتهم الفرس أو البيزنطيّين. وهذا ما حدا الفرس إلى القضاء على مملكة اللخميّين سنة ٦٠٢م أو بعدها بمدّة وجيزة، وعلى أثر انتفاضة ملكها الأخير النعمان بن المنذر ضدّ كِسرى الثاني الفارسيّ. وأصبحت الحيرة منذ ذلك الحين تحت سيطرة الفرس المباشرة إلى أن احتلّتها الجيوش الإسلاميّة سنة ٦٣٢ بقيادة خالد بن الوليد. وظلّت الحيرة عامرة فترة أخرى، يتردّد إليها الخلفاء والوزراء، إلاّ أنّ تأسيس الكوفة بالقرب منها طغى عليها، فتضاءل شيئًا فشيئًا نفوذها، وفقدت أهمّيّتها.

الديارات في منطقة الحيرة

أشرنا – قبل قليل – في معرض حديثنا عن الديارات التي قامت في منطقة الحيرة. إنّنا نرغب هنا بالإشارة على بعض منها:

١ – دير ابن برّاق:

بظاهر الحيرة، قال الثروانيّ:

يا دير حنّة عند القائم الساقي　　إلى الخَورنق من دير ابن برّاق(٢٦)

٢ – دير ابن وَضّاح:

بنواحي الحيرة، وفيه يقول بَكر بن خارجة:

إلى الدساكر فالدير لمقابلها　　إلى الأُكيراح أو دير ابن وضّاح(٢٧)

٣ – ديارات الأساقف(٢٨):

هذه الديارات بالنجف ظاهر الكوفة، وهي أوّل الحيرة، وهي قباب وقصور بحضرتها

(٢٦) ياقوت الحمويّ، **معجم البلدان**، ج٢، ص ١١٩.
(٢٧) الحمويّ، **معجم البلدان**، ج٢، ص ١٢٠.
(٢٨) الديارات، جمع دير. والأساقف، جمع أسقف وهم رؤساء المسيحيّين.

نهر يعرف بالغَدير عن يمينه قصر أبي الخصيب، وعن شماله السدير... وفيه يقول عليّ بن محمد بن جعفر العلويّ الحمّانيّ:

كم وقفة لك بالخَور　　نق ما توازي المواقف
بين الغَدير إلى الد　　ير إلى ديارات الأساقف
فمدارج الرهبان في　　أطمار خائفة وخائف
دم كأنّ رياضها　　يكسين أعلام المطارف
وكأنّما غدرانها　　فيها عشور في مصاحف
بحريّة شتواتها　　برّيّة فيها المصائف(٢٩)

دير الأسكون:

وهو دير بالحيرة، راكب على النجف، وفيه قلاليّ وهياكل، وفيه رهبان يضيفون من ورد عليهم. وعليه سور عالٍ حصين، وعليه باب حديد ومنه يهبط الهابط إلى غدير بالحيرة، أرضه رضراض ورمل أبيض، وله مشرعة تقابل الحيرة لها ماء إذا انقطع النهر كان منها شرب أهل الحيرة(٣٠).

دير الأعور:

هو بظاهر الكوفة، شرقيّ القادسيّة؛ يروي الطبريّ، أنّ رستم قائد الفرس خرج «ونزل بحيال دير الأعور، ثمّ انصبّ إلى الملطاط، فعسكر ممّا يلي الفرات بحيال أهل النجف بحيال الخَورنق إلى الغريين(٣١)»، وذكر الحمويّ «بناه رجل من إياد يقال له الأعور من بني حُذَاقَة بن زَهْر بن إياد(٣٢)».

دير سرجيس وبكس:

في طَيْزَنَاباذ، وهو منسوب إلى راهبَين، وكان هذا الدير بطيزناباذ بين الكوفة والقادسيّة

(٢٩) الحمويّ، **معجم البلدان**، ج٢، ص ١٢٢.
(٣٠) الحمويّ، **معجم البلدان**، ج٢، ص ١٢٣.
(٣١) الطبريّ، **تاريخ**، ج١، ص ٢٥٥.
(٣٢) الحمويّ، **معجم البلدان**، ج٢، ص ١٢٤.

على حافة الطريق، وبينهما وبين القادسيّة ميل. وكانت أرضه محفوفة بالنخل والكروم والشجر والحانات والمعاصر، وكانت إحدى البقاع المقصودة والنزه الموصوفة وقد خربت الآن وبطلت وعفت آثارها وتهدّمت آبارها ولم يبقَ من جميع رسومها إلاّ قباب خراب وحجر على قارعة الطريق وتسمّيه الناس معصرة أبي نوّاس»(٣٣).

وكان هذا الدير من أحسن الديارات عمارة وأنزهها موضعًا»(٣٤).

دير الزَرنوق:

كان يسمّى باسم دير بَطْيزَنَابَاذ بين الكوفة والقادسيّة على وجه الطريق بينه وبين القادسيّة ميل»(٣٥). ويقول البكريّ إنّها بين موضع دون القادسيّة»(٣٦).

دير هِند الصغرى:

وقد بنته هند بنت النعمان: «ترهّبت فيه وسكنته دهرًا طويلاً، ثمّ عميت. وهذا الدير من أعظم ديارات الحيرة وأعمرها. وهو بين الخندق وحَضْرا (صحراء؟) بكر. ولمّا قدم الحجّاج الكوفة سنة ٧٤هـ/٦٩٣م قيل له إنّ بين الحيرة والكوفة ديرًا لهند بنت النعمان»(٣٧). ولمّا ولي بِشْر بن مَروان إمارة الكوفة «شقّ له نهرًا من الفرات، ولم يزل النهر يجري حتّى خرب الدير»(٣٨). ويروي البكريّ أنّ «هذا الدير يقارب بني عبد الله بن دَارِم بالكوفة ممّا يلي الخندق في موضع نزه»(٣٩).

دير هِند الكبرى:

وهو غير الدير السابق، وهو على طفّ النجف»(٤٠).

(٣٣) الشابُشتيّ، ص ١٥. ياقوت٢ : ٦٦٧، **مسالك الأبصار** ١ : ٢٨٤.
(٣٤) الشابُشتيّ، ص ١٥١.
(٣٥) ياقوت ٢ : ٦٦٣.
(٣٦) البكريّ، **معجم ما استعجم** ص ٤٩٣.
(٣٧) الشابُشتيّ، ص ١٥٧. **الأغاني** ص ١٣٥.
(٣٨) **مسالك الأبصار** ١ : ٣٢٣.
(٣٩) البكريّ، **معجم ما استعجم** ص ٦٠٥.
(٤٠) راجع البكريّ، ص ٦٠٧.

دير اللُّجّ

عند دير هند الكبرى»(٤١)، الذي بناه النعمان أبو قابوس، ولم يكن في ديارات الحيرة أحسن بناء منه ولا أنزه موضعًا»(٤٢).

دير ابن مَزعوق

وهذا الدير في وسطها وهو دير كثير الرهبان، حسن العمارة، أحد المتنزّهات المقصودة والأماكن الموصوفة»(٤٣).

دير الحَريق

بالقرب من دير ابن مزعوق، مائلاً نحو الشمال»(٤٤). سمّي بذلك لأنّه أُحرق في موضعه قوم ثمّ دفن فيه قوم من أهل من أحرق هناك»(٤٥).

دير عبد المسيح

بظاهر الكوفة، دير عبد المسيح بن بَقِيلَة الغسّانيّ «وهو بظاهر الحيرة بموضع يقال له الجَرْعة... وضُرب الدير بعد مدّة فظهر فيه أزج معقود من حجارة»(٤٦). وهو يسمّى أيضًا دير الجَرْعة»(٤٧). أمّا الجَرْعَة فيذكر ابن سعد أنّها بين الكوفة والحيرة»(٤٨). ويذكر ياقوت أنّها بين النَجَفَة والحيرة»(٤٩).

(٤١) (٤١) البكريّ، ص ١١٩٦.
(٤٢) البكريّ، ص ١١٩٥. **الأغاني** ج١١، ص ٣٦٥. ياقوت ٢ : ٦٩١.
(٤٣) الشابُشتيّ ص ١٤٨. **مسالك الأبصار** ص ١٣٥. ياقوت ٢ : ٧٠١.
(٤٤) **مسالك الأبصار** ص ٣٦١. ياقوت ٢ : ٦٥٢. وفيه يقول الثروانيّ:

ديـر الحريـق فـبيـعـة المزعـوق	بين الـغـديـر فـقـبّـة الـسنّيـقِ
أشـهـى إليّ مـن الصـراة ودورها	عند الصباح ومن رحى البطريقِ
فأغدو نباكر من ذخائر عتبة الخمـ	ـار مـن صـافي الـدنـان رحيـقِ
يا صاح واجتنب الملام أما ترى	سمجًا ملامك لي وأنت صديقي

(٤٥) **مسالك الأبصار** ص ٣١٦. ياقوت ٢ : ٦٥٢.
(٤٦) ياقوت ٢ : ٢٧٧.
(٤٧) ياقوت ٢ : ٦٥١.
(٤٨) **كتاب الطبقات** ٥ : ٢٢.
(٤٩) ياقوت ٢ : ٦٢.

ويذكر ابن منظور اسم موضع بالكوفة، كان فيه فتنة في عثمان بن عفّان[٥٠]. ويمكن التوفيق بين الروايتين بالقول إنّ الجرعة بين الكوفة والحيرة والنجف أي أنّها في شمال غربيّ الكوفة[٥١].

دير بَني مَرينا

بظاهر الحيرة. وكان من أخباره أنّ قيس بن سلمة بن الحارث بن عمرو بن حُجْر آكل المُرار أغار على ذي القرنين المنذر بن النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عَديّ فهزمه حتّى أدخله الخورنق ومعه ابناه قابوس وعمرو... ومكث ذو القرنين حولاً ثمّ أغار عليهم بذات الشقوق فأصاب منهم اثني عشر شابًّا من بني حُجْر بن عمرو كانوا يتصيّدون، وأفلت امرؤ القيس على فرس شقراء فطلبه القوم كلّهم فلم يقدروا عليه، وقدم المنذر الحيرة بالفتية فحبسهم بالقصر الأبيض شهرين، ثمّ أرسل إليهم أن اضربوا أعناقهم حيث ما أتاكم الرسول فأتاهم وهم عند الجفر فضربوا أعناقهم فسُمّي جفر الأملاك وهو موضع دير بني مرينا[٥٢].

دير حَنّة

هو دير قديم بالحيرة بناه المنذر لقوم من تَنُوخ يقال لهم بنو ساطع تقابله منارة عالية كالبرج تسمّى القائم لبني أوس بن عمرو بن عامر. وفيه يقول الثروانيّ:

يا دير حَنّة عند القائم الساقي — إلى الخورنق من دير ابن بـرّاق
ليس السلوّ وإن أصبحت ممتنعًا — من بغيتي فيك من شكلي وأخلاقي

ودير حنّة بالأُكيراح الذي قيل فيه:

«يا دير حنّة من ذات الأُكيراح».

هذا أيضًا بظاهر الكوفة والحيرة، لا أدري أهو هذا المذكور هنا أم غيره وقد ذكر شاهده في الأُكيراح(٥٣).

(٥٠) **لسان العرب**، ج ٩، ص ٣٩٧.
(٥١) **مجلة كلّيّة الآداب العراقيّة**، بغداد (١٩٦٢) ص ١٥ مقالة د. صالح أحمد العليّ.
(٥٢) ياقوت الحمويّ، **معجم البلدان**، ج٢، ص ١٢٧.
(٥٣) ياقوت الحمويّ، **معجم البلدان**، ج٢، ص ١٣٥.

وفي الحيرة أيضًا تذكر المصادر عددًا غير قليل من الأديرة، دون تحديد مواقعها بالضبط.

ومن هذه الأديرة: **دير علقمة**[٥٤] ولعلّه هو دير حَنْظَلة الذي يروي أبو الفرج الأصفهانيّ أنّه «من ديارات بني علقمة[٥٥]» **ودير السَّوا** «أي العدل» لأنّهم كانوا يتحالفون عنده فيتناصفون. وقال الكلبيّ هو منسوب إلى رجل من إياد وقيل هو منسوب إلى بني حُذَاقَة، وقيل السوا امرأة منهم، وقيل السوا أرض نُسب إليها الدير[٥٦].

وكذلك **الأُكيراح**، فيقول ياقوت: روى أبو سعيد البكريّ عن أبي جعفر أحمد بن الهيثم البَجَليّ «رأيت الأُكيراح وهو سبعة فراسخ من الحيرة ممّا يلي مغرب الشمس من الحيرة وفيه ديارات فيها عيون وآبار محفورة يدخلها الماء. وروى الخالديان أنّ الأُكَيْراح رُسْتَاق نَزِه بأرض الكوفة بالقرب منها ديران يقال لأحدهما دير مار عبدا، وللآخر دير حنّة وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض[٥٧]».

فأمّا **دير عبدا** فهو «ينسب إلى مار عبدا ابن حنيف بن وضّاح اللّيحانيّ، كان مع ملوك الحيرة. وهو دير ابن وضّاح[٥٨]». ويسمّيه الاصفهانيّ دير الأُكيراح[٥٩].

وقد ذكر في منطقة الحيرة أيضًا **دير ابن برّاق**[٦٠].

وممّا يذكر أيضًا أنّ جعفر الأملاك «هو موضع دير بني مرينا[٦١]».

وفي الحيرة أيضًا «قبّة الشقيق وهي من الأبنية القديمة بالحيرة على طريق الحجّ وبإزائها قباب يقال لها الشكوره جميعها للنصارى[٦٢]».

وبالقرب من قصر الدير **دير مارت مريم** «وهو دير قديم من بناء آل المنذر بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير، وبين قصر أبي الخصيب يشرف على النجف[٦٣]».

(٥٤) ياقوت ج٢، ص ٦٨١.
(٥٥) البكريّ ص ٥٧٧، ياقوت ٢: ٦٥٦.
(٥٦) **فتوح البلدان** ص ٢٨٣، ياقوت ٢: ٦٧٢.
(٥٧) ياقوت ج١، ص ٣٤٥ – ٣٤٦.
(٥٨) ياقوت ٢: ٦٩٩.
(٥٩) البكريّ، ص ٥٧٩.
(٦٠) ياقوت ٢: ٦٤٠.
(٦١) ياقوت ٢: ٦٥٦ – ٦٥٧.
(٦٢) الشابُشتيّ، ص ١٥٥، **مسالك الأبصار**، ص ٣٢٨.
(٦٣) البكريّ ص ٥٩٧، ياقوت ٢: ٦٩٢.

وبين قصر أبي الخصيب والدير تقع ديارات الأساقف[٦٤]، «وهذه الديارات بالنجَف ظاهر الكوفة وهو أوّل الحيرة، وهي قباب وقصور بحضرتها نهر يعرف بالغدير (السدير؟) عن يمينه قصر أبي الخصيب وعن شماله السدير[٦٥]».

وفي أسفل النجف دير فاثيون[٦٦]. وهو على طرف دير هند الكبرى.

ثمّ **دير الشاء:** على بعد فرسخ وميل من النخيلة يقع دير الشاء[٦٧]. ولمّا كان الفرسخ يساوي ستّة كيلومترات، فدير الشاء يبعد عن النخيلة حوالي سبعة كيلومترات ونصف، ولكنّنا لا نعرف في أيّة جهة من النخيل يقع، علمًا أنّ النخيلة قرية قرب الكوفة.

ودير عبد الرحمن: من الأماكن التي تذكر المصادر قرب النخيلة هو دير عبد الرحمن، فيذكر أبو مَخْنَف أن الحارث بن أبي ربيعة لمّا ثار ضدّ المختار الثقفيّ عسكر بالنخيلة، ثمّ خرج فنزل دير عبد الرحمن، ثمّ سار إلى سورًا[٦٨]. وقد عسكر في هذا الدير كلّ من الجَزْل[٦٩]، وعبد الرحمن بن الأشعث[٧٠].

ورد في فهرست الطبريّ اسم هذا الدير (دير عبد الرحمن بن أمّ الحَكَم) وعبد الرحمن هذا من كبار القوّاد الأمويّين في الشام، وقد قاد بعض الشواتي[٧١]. ووُلّي دمشق عندما ذهب عبد الملك بن مروان إلى عين الورد[٧٢] وكان مقرّبًا له[٧٣].

وأورد الطبريّ نصوصًا تعين على تحديد موقعه فهو يقول إنّ المختار عندما أرسل ابن الأشتر خرج ليودّعه «ومضى المختار إلى قناطر رأس الجَالوت وهو إلى جنب دير عبد الرحمن فإذا أصحاب الكرسيّ قد وقفوا على قناطر رأس الجالوت يستنصرون. فلمّا صار

(٦٤) الشابشتيّ، ص ١٥٢، ياقوت ٤: ١٠٧.
(٦٥) الشابشتيّ، ص ١٥٢، ياقوت ٢: ٦٤٢.
(٦٦) ياقوت ٢: ٦٩٣.
(٦٧) ياقوت ٢: ٦٧٣.
(٦٨) الطبريّ، ٢: ٧٥٩، **أنساب الأشراف** ص ١١٦ طبعة أهلورت.
(٦٩) الطبريّ، ٢: ٩٠٢.
(٧٠) الطبريّ ٢: ٩٣٠.
(٧١) الطبريّ ٢: ١٥٧.
(٧٢) الطبريّ ٢: ٧٨٤.
(٧٣) الطبريّ ٢: ٧٩١.

المختار بين قنطرة دير عبد الرحمن وقناطر رأس الجالوت وقف[٧٤]. وهذا يدلّ على أنّ قناطر رأس الجالوت قرب دير عبد الرحمن.

ويذكر الطبريّ عند الكلام عن سَير الأشعَث عندما أرسله الإمام عليّ لقتالهم «فعبر الجسر فصلّى ركعتين بالقنطرة ثمّ نزل دير عبد الرحمن ثمّ دير أبي موسى ثمّ أخذ على قرية شَاهِي ثمّ على رباها ثمّ على شاطئ الفرات[٧٥]».

ودير أبي موسى، ورد ذكره عند الكلام عن عدّة أحداث منها عندما ندب الإمام عليّ الناس للخروج لقتال الخوارج حيث طلب من الأشعث أن يخرج إلى دير أبي موسى ليتّخذه مقرًّا له، ثمّ تبعه الناس «فخرجوا حتّى قطعوا الجسر فمرّوا بدير أبي موسى[٧٦]».

ولمّا خرج يزيد بن أنس الذي أرسله المختار لأخذ الموصل تحرّك من الكوفة «وخرج معه المختار والناس يشيّعونه فلمّا بلغ دير أبي موسى وودّعه المختار وانصرف، فخرج يزيد بن أنس بالناس حتّى بات بسورًا ثم غدا بهم سائرًا حتّى بات بالمدائن[٧٧]».

ويتبيّن من هذه النصوص أنّ دير أبي موسى يقع شمالي دير عبد الرحمن بينه وبين سورًا.

ومن الأماكن المشهورة الواقعة في هذه المنطقة هو **دير الجماجم** الذي وقعت فيه المعركة المشهورة التي انتصر فيها الحجّاج على عبد الرحمن بن الأشعث، وقد وردت عدّة روايات في اشتقاق اسمه، فيروي أبو عُبَيدة أنّه سمّي كذلك «من أقداح من خشب كانت تعمل به[٧٨]».

ويقال إنّه سمّي بذلك لكثرة جماجم دفنت فيه على أثر معركة تختلف الروايات في الأطراف التي جرت بينها، فيروى أنّها جرت بين إياد والفرس[٧٩]. ويروى أنّها كانت بين

(٧٤) الطبريّ ٢: ٧٠٢.
(٧٥) الطبريّ ١: ٣٣٧٦.
(٧٦) الطبريّ ١: ٣٤٢٢، ٣٤٢٤.
(٧٧) الطبريّ ٢: ٦٤٤.
(٧٨) المعارف ص ١٥٦. البكريّ ص ٥٧٤. ياقوت ٢: ١١٢، ١٥٦. **النقائض** ص ٤١٢.
(٧٩) **فتوح البلدان** ص ٢٨٣. البكريّ ص ٢٧٠، ٥٧٣. **التنبيه والإشراف** ص ١٧٥.

حيَّين من قُضاعة[٨٠]. وهناك رواية أخرى تقول إنّها كانت بين إياد وبهراء[٨١]. ويذكر ياقوت: «أنّ الجمجمة، البير تحفر في سَبْخِه، فيجوز أنّه يكون الموضع سمّي به[٨٢]».

يقول أبو الفرج الأصفهانيّ إنّ دير الجماجم «هو دير بظاهر الكوفة على طريق البرّ الذي يسلك إلى البصرة[٨٣]». ويضيف ياقوت على هذا أنّه على سبعة فراسخ من الكوفة[٨٤]. غير أنّ قربه من دير قُرّة الذي يقع شماليّ الكوفة يدلّ على أنّ موقعه شماليّ الكوفة وليس في جنوبها.

ويقول الهَيثَم بن عَديّ أنّ دير الأعور هو دير الجماجم[٨٥]، غير أنّ تردّد ذكر الديرين في مصادر القرنين الأوّل والثاني الهجريّين يدلّ على أنّهما منفصلان. ولكنّه قد يدلّ على أنّ دير الجماجم قرب دير الأعور ولكنّه ناح عن الطريق العامّ.

وأخيرًا، من أديرة منطقة الحيرة، **دير قرّة**، ولقد ذكرنا أنّ ممّا يؤيّد وقوع دير الجماجم شماليّ الكوفة هو تأكيد المصادر التي بحثت موقعة دير الجماجم. على أنّ هذا الدير يقع قرب دير قرّة. وهذا الدير الأخير هو من ديارات الإياديّين[٨٦]. وهو منسوب إلى رجل اسمه قرّة من إياد[٨٧].

أمّا عن موقعه فيذكر ياقوت أنّه «ملاصق لطرف البرّ ودير الجَماجِم ممّا يلي الكوفة». ويقول الطبريّ: إنّ الفرس لّما انسحبوا من القادسيّة «لحقوا بدير قرّة وما وراءه، ونهض سعد بالمسلمين حتّى نزل بدير قرعلي (قرّة) من هناك من الفرس. وقد قدم عليهم وهو بدير قرّة عِياض بن غَنَم في مدده من أهل الشام. ثمّ إنّ الفرس هربت من دير قرّة إلى المدائن[٨٨]». ويذكر أيضًا عند الكلام عن موقعة دير الجماجم «وأقبل الحجّاج من البصرة فسار إلى البرّيّة حتّى مرّ بالقادسيّة والعذيب ومنعوه من نزول القادسيّة وبعث إليه عبد

(٨٠) الهمدانيّ ص ١٨٢ – ١٨٣.
(٨١) الهمدانيّ ١٨٢. **فتوح البلدان** ٢٨٣ عن الشرقيّ بن قطاميّ.
(٨٢) ياقوت ٢ : ١١٢.
(٨٣) البكريّ ص ٥٧٣.
(٨٤) ياقوت ٢ : ٦٥٢.
(٨٥) الهمدانيّ ص ١٣٥.
(٨٦) الهمدانيّ ص ١٣٥ عن الهيثم بن عديّ.
(٨٧) **فتوح البلدان** ٢٨٣.
(٨٨) الطبريّ ١ : ٢٣٥٧، ٢٣٥٨.

الرحمن بن محمّد بن الأشعث، عبد الرحمن بن العبّاس في خيل عظيمة من خيل المصريّين فمنعوه من نزول القادسيّة. ثمّ سايروه حتّى ارتفعوا على وادي السباع. ثمّ تسايروا حتّى نزل الحَجّاج دير قرّة. ونزل عبد الرحمن بن العبّاس دير الجماجم. ثمّ جاء ابن الأشعث فنزل دير الجماجم والحجّاج بدير قرّة. وقد كان الحجّاج أراد قبل أن ينزل دير قرّة أن يرتفع إلى هيت بناحية الجزيرة وأن يقترب من الشام والجزيرة. فلمّا مرّ بدير قرّة قال ما بهذا المنزل بعد من أمير المؤمنين وإنّ الفلاليج وعين التمر إلى جنبنا[٨٩]».

إنّ النصّ الأوّل عن سير الفرس يُظهر أنّ دير قُرّة يقع في طريق القادسيّة – المدائن – أي شمال الكوفة. أمّا النصّ الثاني فيُظهر أنّ دير قرّة قريب من الفَلاليج والنهرين أي شماليّ الكوفة. ولكنّ كلا النصّين لا يعيّنان موقعه بالضبط.

(٨٩) الطبريّ ٢ : ١٠٧٢.

الحركة الأدبيّة والشعريّة في مدارس الحيرة

لمملكة الحيرة منزلة رائعة في تاريخ العراق وتاريخ العرب، ونهضة آداب لغة الضادّ في بضعة قرون من الجاهليّة حتّى ظهور الإسلام، كما أنّ لتاريخ المسيحيّة في هذه المملكة شأنًا عظيمًا، لانتشارها في هذه الديار انتشارًا عجيبًا، حتّى دان بها الملوك اللخميّون المعروفون بالمناذرة – كما شرحنا سابقًا – وكان المناذرة في العراق عند ملوك العجم ما كان الغساسنة في سوريّة عند ملوك الروم.

ليس لدينا من المعلومات الضافية ما يؤهّلنا لعقد فصل كامل عن الحركة العلميّة والأدبيّة في الحيرة أيّام عزّها وازدهار ملكها، إلاّ أنّ نتف الأخبار المنثورة في مرويّات الأقدمين تُلقي أشعّة تضيء هذه المجاهيل، فتُظهر لنا حاضرة المناذرة مركز علم ومدارس أدب، ومدينة استنباط وإلهام وأمثال.

مدارس الحيرة

تعزّز الشواهد التاريخيّة، النهضة العلميّة في الحيرة. فقد جاء عن مدارس الحيرة في كتاب العفّة أنّ إيليّا الحيريّ، مؤسّس دير مار إيليّا بالموصل، درس العلوم الكهنوتيّة في مدرسة قريته[1]، ومار عبدا الكبير درس في مدرسة الحيرة[2]، وأنّ المرقّش الأكبر، وهو أبو عمر الشيباني، وأخاه حرملة درسا الكتابة على مسيحيّ من أهل الحيرة[3]. وكان يزيد بن عديّ قد حذق الكتابة العربيّة في الحيرة، وكان زيد هذا أوّل من كتب العربيّة في ديوان كسرى[4]. وكان يتعلّم أولاد الحيرة الكتابة والقراءة في مدارسهم في وقت كان يجهلها أكبر شعراء العربيّة. فمثلاً الشاعر المُتَلمِّس الشهير كان يجهلها، فطلب من صبيّ

(١) طبعة شابو، العدد ١٩.
(٢) أدّي شير، **تاريخ كلدو وآثور**، ٢: ٢٦٦.
(٣) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ٥: ١٨١.
(٤) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ٢: ١٩.

من أهل الحيرة أن يقرأ الصحيفة التي كتبها له الملك عمرو بن هند، وكان فيها هلاكه، فلمّا علم مضمونها هرب ونجا[٥].

وممّا يدلّ على أنّ المدارس كانت في الكنائس ما جاء عن خالد بن الوليد أنّه في مسيره من عين التمر وجد في بيعة قرية من قراها اسمها النّقيرة صبيانًا يتعلّمون الكتابة، وكان فيهم عمران مولى عثمان بن عفّان[٦]. وهذا ما يؤيّد ما قاله دوڤال: إنّ السريان المسيحيّين كانوا يذهبون للدراسة في المدارس الملحقة بالكنائس والديورة[٧]. وقد ذهب العرب إلى أبعد من هذا إذ قالوا إنّ أوّل من كتب منهم بالعربيّة حَرب بن أُميّة بن عبد شمس تعلّم من أهل الحيرة، وتعلّم أهل الحيرة من أهل الأنبار[٨].

الخطّ الحيريّ

لم يقتصر فضل الحيريّين على الدرس والتعليم في معاهدها، بل لهم مأثرة خالدة على اللغة العربيّة وكتابتها. فلقد كان للخطّ العربيّ تطوّرات قبل أن يصل إلى حالته الحاضرة. ومن أوّليّات تطوّراته الخطّ الحيريّ أو الأنباريّ أو الجزم. وقد شهد بذلك كثير من المؤرّخين العرب. قال البلاذريّ: «اجتمع ثلاثة نفر من طيء ببَقّة[٩]. وهم مَرَامِر بن مُرّة، وأَسْلَم بن سَدْرَة، وعامر بن جَدْرَة[١٠]، فوضعوا الخطّ وقاسوا هجاء العربيّة على هجاء السريانيّة فتعلّمه منهم قوم من أهل الأنبار ثمّ تعلّمه أهل الحيرة من أهل الأنبار. وكان بِشر بن عبد الملك أخو أُكَيْدَر بن عبد الملك بن عبد الجنّ الكنديّ ثمّ السُّكُونيّ صاحب دَوْمَة الجندل يأتي الحيرة فيقيم بها الحَيْن وكان مسيحيًّا فتعلّم بِشر الخطّ العربيّ من أهل الحيرة، ثمّ أتى مكّة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أميّة

---

(٥) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ٢١: ١٢٥.

(٦) **معجم البلدان**: مادّة «نقيرة».

(٧) روبنس دوفال، **الآداب السريانيّة**، ص ٤.

(٨) السيوطيّ، **المزهر**، ٢: ٢١٥.

(٩) بقّة، وهي مكّة أيضًا. ويذهب ابن النديم في الفهرست ص٤، إلى أنّهم كانوا يسكنون الأنبار.

(١٠) إنّ هذه ليست أسماء واضعي الخطّ بل ألقابهم الأدبيّة أو العلميّة لقّبهم بها المتخرّجون عليهم أو تلامذتهم بالسريانيّة. ولمّا جهل معناها العرب ظنّوها أعلامًا لهم فصرفوهم بها. والحقيقة أنّ اسم مُرار بن مرّة منحوت من (مارا ماري برماري) ومعناها «سيّد السادة ابن السيّد» وبعبارة عربيّة تقابل معنى السريانيّ «شيخ شيوخ العلم ابن حامل لواء العلم» وأمّا أسلم بن سدرة فهو تصحيف «شليما برسدرا» بمعنى «التامّ العلم الخطّاط» وعامر بن جدره تصحيف «عمرايا برجدارا» ومعناه «العمّار الحاذق أو الماهر» (راجع مجلّة لغة العرب مجلّد ٢: ٤٢٨).

بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مَناف بن زَهْرة كُلاب يكتب فسألاه أن يعلّمهما الخطّ فعلّمهما الهجاء ثمّ أراهما الخطّ فكتبا[١١].

اللغات في الحيرة

ممّا لا ريب فيه أنّ الحيريّين كانوا يتعلّمون أكثر من لغة واحدة فكانوا يُتقنون العربيّة لأنّها لغتهم، وكانوا يتعلّمون السريانيّة، وهي لغة بيعتهم وصلواتهم، كما أنّها لغة الأنباط منهم يتكلّمونها في بيوتهم.

إنّ مدارس الحيرة الدينيّة علّمت هذه اللغة، ونعرف أنّ الحيريّين ألّفوا كثيرًا فيها، ولكنّ طوارق الحدثان عفت ذكر معظم تلك الكنوز الأدبيّة ولم يصلنا من آثارها إلاّ النزر القليل. نسرد بعضها على سبيل المثال: فإنّ يوحنّا الأزرق، أسقف الحيرة في النصف الأخير من القرن السابع، ألّف رسائل وكتابًا في التهذيب الرهبانيّ[١٢]. وألّف حنين بن إسحق العِباديّ الحيريّ كتابًا في الطبّ ومعجمًا بهذه اللغة، وترجم من الكتب اليونانيّة إلى السريانيّة كما ترجم إلى العربيّة[١٣]. وألّف حْنَانِيْشوع بَرْ سَدُوشَاي، أسقف الحيرة حوالي سنة ٩٠٠م، معجمًا سريانيًّا استشهد به بَرْ بَهلول في كلّ صفحة من صفحات معجمه[١٤]. وألّف حْنَانِيْشُوع مباحث في الكتاب المقدّس أيضًا[١٥].

ولتناسق الموضوع ننقل ما جاء في كتاب الآداب السريانيّة[١٦]، رواية عن لِيشُوعْدَاد أسقف الحيرة، في ترجمة الكتاب المقدّس المعروفة بالبسيطة قال: إنّ العهد القديم ترجم في عهد سليمان النبيّ بطلب من حيرام ملك صور ما خلا أسفار الأيّام والأنبياء فإنّها ترجمت في عهد أبجر ملك مملكة الرُّها[١٧].

وكان بين الحيريّين من يتكلّم الفارسيّة للروابط السياسيّة والإداريّة والعلائق التجاريّة

---

(١١) البلاذريّ، **فتوح البلدان** ١: ٤٧١، السيوطيّ، **المزهر**، ٢: ٢١٥، **ومقدّمة ابن خلدون**، ص ٤٥٨، **والقدّ الفريد** لابن عبد ربّه، ٣: ٣.

(١٢) بطرس نصري، **ذخيرة الأذهان**، ١: ٢٧٨.

(١٣) دوڤال، **الآداب السريانيّة**، ص ٣٨٦.

(١٤) دوڤال، **الآداب السريانيّة** ص ٢٨٩.

(١٥) دوڤال، **الآداب السريانيّة** ص ٣٩.

(١٦) دوڤال، **الآداب السريانيّة**، ص ٣٤.

(١٧) السمعانيّ، المكتبة الشرقيّة، مجلّد ٣ك الفقرة الأولى: ٣٤ وما بعدها.

بين الحيرة ودولة الأكاسرة ولقرب عاصمتها من حاضرة المناذرة. ومن الشواهد التاريخيّة على معرفة الحيريّين اللغة الفارسيّة أنّ ترجمان القائد رستم الفارسيّ كان من أهل الحيرة اسمه عبّود ترجم بين رستم وبين المُغيرة سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م لا بل أنّ الآداب الفارسيّة العالية كانت معروفة في الحيرة فتعلّم النضْرُ بن الحَرْث بن كِلْدة في سفره إلى الحيرة غَلْوَاء رستم[١٨]. ولمّا رجع إلى الحجاز في صدر أيّام البعثة أخذ يقرأ أخبار العجم ويقول: «محمّد يأتيكم بأخبار عاد وثَمود وأنا آتيكم بخبر الأكاسرة» يريد بذلك أذى محمّد. وأُسر النَّضْر في واقعة بدر الكبرى وأمر محمّد عليّ بن أبي طالب فقتله لهذا السبب[١٩].

وكان بين الحيريّين من يعرف اليونانيّة، هذا فضلاً عن أنّ اليهود منهم كانوا يعرفون العبريّة.

ولم يجهل الحيريّون اقتباس العلم والمعرفة من الأصقاع المجاورة فكانوا يشدّون الرحال إلى نصّيبين وبلاد الروم حتّى القسطنطينيّة[٢٠]، أو كانوا يستدعون المعلّمين[٢١]، ويستقدمون الفنّانين من الأجانب[٢٢].

وللحيرة منزلة تاريخيّة في آداب اللغة العربيّة سواء أكان بالشعراء الذين أنجبتهم، أو بالشعراء الذين قصدوا ملوكها المناذرة للمدح والتقريظ ووصف البلاد والمعاهد، أو بالحوادث أو الوقائع التي تمّت في أرضها وقبائلها، فألهمت الشعراء مواضيع للمعلّقات والمجمهرات والقصائد. كما أنّ في اللغة العربيّة عشرات من الأمثال السائرة على الألسنة نشأت في الحيرة نفسها. ولتاريخ الخطابة العربيّة علاقة بملوك الحيرة. وها نحن نورد لمعًا ولمحًا من كلّ هذه الصنوف، وإن لم نتمكّن من الإحاطة بمجموعها.

الشعر والشعراء في الحيرة

من شعراء الحيرة عَديّ بن زيد العِباديّ[٢٣] (ت ٥٨٧م) وهو الذي ربّى النعمان بن

(١٨) الطبريّ ٤ : ١٠٩.
(١٩) C. Huart: Hist des Arabes 1:108.
(٢٠) راجع التصريح والتبريزيّ والأغاني، ١ : ٩ في الحاشية.
(٢١) لابور، النصرانيّة في فارس ٣٢٥.
(٢٢) الطبريّ، ٢ : ٧٥.
(٢٣) ترجمته في الأغاني، ٢ : ١٧ — ٤٠. شعراء النصرانيّة ص ٤٣٩.

المنذر، وتزوّج بهند بنت النعمان، وقتله بعد ذلك النعمان. وله منزلة في تاريخ الحيرة السياسيّ. وقد نظم القصائد الحسان، وأشهرها داليته، وهي من مجمهرات العرب ضمنّها أجود الحِكَم ومطلعها:

أتعرفُ رَسمَ الدار من أمّ مَعبدِ ... نعم ورماك الشوق قبل التجلُّد

ولعَدِيّ بن زَيد ولدان: زَيد[٢٤] وعَمرو، وكانا كلاهما شاعرين. واستعمل كسرى زيدًا عنده، وأمّا عمرو فقتل يوم ذي قار.

ومنهم عَديّ بن مَرينا[٢٥] معاصر عديّ بن زيد. وكان ابن مَرينا يحسد عديّ ابن زيد على تقدّمه عند النعمان فكتب إليه:

ألا أبـلـغ عـديًّـا عـن عـديّ ... فـلا تجزع، وإن رثت قـواكـا
هـيـاكـلـنـا تبرُّ لـغير فَـقْـدٍ ... لـتُـحـمـد أو يـتـمّ بـه غَـنـاكـا
فإن تـظـفـر فـلـم تـظـفـر حميدًا ... وإن تـعـطُـب فـلا يـبـعـد سـواكـا
نـدمت نـدامـة الـكـسـعـيّ لمّا ... رأت عيناك ما صنعت يداكا

ولامرئ القيس (٥٦٥ ت) صلات سياسيّة بالحيرة وقربى بملوكها. فإنّ جدّه الأعلى حُجْر آكل المُرار ملك كِندَه، حكم بَكرًا فانتزع من اللخميّين ما كان بأيديهم من أرض بكر بن وائل — وقد شرحنا ذلك سابقًا.

وهذا عمرو بن قُمَيْئة[٢٦] (+٥٦٠م) التجأ إلى مسيحيّي الحيرة، إذ راودته امرأة عمّه عن نفسه، فأنكر عليها طلبها تعففًا، فما عتّمت أن شكته ظلمًا إلى عمّه، فصار إلى اللخميّين، وقال لعمرو بن هند: إنّ قومي طردوني، فقال له: ما فعلوا إلاّ وقد أجرمتَ، وأنا أفحص عن أمرك فإن كنت مجرمًا رددتك إلى قومك. فغضب وهمّ بهجائه وهجاء قومه بني المَرْثَد. ثمّ أعرض عن ذلك ومدح عمّه واعتذر إليه.

(٢٤) الأغاني، ٢ : ٢٧، وشعراء النصرانيّة ص ٤٧٣.
(٢٥) الأغاني، ٢ : ٢٢، وشعراء النصرانيّة ص ٤٤٩.
(٢٦) الأغاني، للأصفهانيّ ١٦ : ١٥٨ — ١٦. وشعراء النصرانيّة ص ٢٩٣.

وكان المرقّش الأصغر[٢٧](+ ٥٧٠م) كلفًا بفاطمة بنت الملك المنذر، صاحب الحيرة، وقد أكثر من ذكرها في شعره، ومن قوله فيها:

ألا يا أسلمي لأحرِم لي اليوم، فاطما، ولا أبـداً ما دام وصـلـك دائـما

ومن شعراء إياد الذين حلّوا في الحيرة وأنشدوا قصائدهم نذكر أبا دُؤاد الإياديّ[٢٨]، وهو من قدماء شعراء الجاهليّة. وقد جعل بعضهم تاريخ وفاته سنة ٥٢٠م[٢٩]. ونقل عنه ياقوت الحمويّ في معجمه أبياتًا عن دير السَّواء[٣٠].

وقد جاء الحيرة المتلمّس، وهو جرير بن عبد المسيح الضبعيّ، وبقي مع ابن أخته طرَفة ابن العبد عهدًا عند ملكها عمرو بن هند ثمّ حقد عليهما وأراد إقصاءهما وإرداءهما، فدفع إلى كلّ منهما صحيفة إلى عامله في البحرين. فاعتقدا أنّ فيهما خيرًا. إلاّ أنّ المتلمّس لم يلبث أن أوجس شرًّا، فطلب إلى غلام من الحيريّين العِباديّين قراءتها فقرأها له، وإذا بها: «أمّا بعد فإذا أتاك المتلمّس بكتابنا هذا فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيًّا. ولّما علم بمضمونها ألقاها في النهر وهرب إلى الشام[٣١].

أمّا طرَفة فلم يرضَ بفضّ صحيفته، وذهب إلى البحرين فلقي فيها حتفه. وللمُتلمّس أشعار في مدح وذمّ عمرو بن هند وفي مدح الغساسنة.

وكانت وفاة المُتلمّس سنة ٥٨٠م[٣٢].

ومن الشعراء الذين ذهبوا إلى الحيرة عُبَيد بن الأبرص[٣٣] في عهد المنذر بن ماء السماء. ووافق وصول الشاعر المدينة يوم بؤس المنذر فقتله.

وتعلّم المُرقّش الأكبر المتوفّى سنة ٥٥٢م الكتابة في الحيرة، كما مرّ بنا[٣٤].

---

(٢٧) **الأغاني**، للأصفهانيّ ٥: ١٧٩ — ١٨٥. وشعراء **النصرانيّة** ص ٣٢٨.

(٢٨) **الأغاني**، للأصفهانيّ ١٥: ٩١.

(٢٩) جرجي زيدان، **الآداب العربيّة** ١: ٧٧ و١٥٥.

(٣٠) الحمويّ، **معجم البلدان**، مادّة دير «السواء».

(٣١) الثعالبيّ، **ثمار القلوب**، ص ١٧٢.

(٣٢) ترجمته في **الأغاني** ١٥: ١٤٥ و٢١: ١٢٥ وشعراء **النصرانيّة**، ص ٣٣٠.

(٣٣) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ١٩: ٨٤ — ٩٠. وشعراء **النصرانيّة**، ص ٥٩٦.

(٣٤) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ٥: ١٧٩ وشعراء **النصرانيّة**، ص ٢٨٢.

وجاء الحيرة المثقّب العَبْديّ[٣٥] (توفّي ٥٨٧م) ودخل على ملوك الحيرة ومدح منهم عمرو بن هند والنعمان أبا قابوس. ومن مدائحه لعمرو بن هند رائيّته المشهورة والتي مطلعها:

هل لهذا القلب سمع أو بصرُ أو تـناهٍ عـن حبيب يُـذكَّرُ

ونذكر منهم المنخّل اليَشكُريّ[٣٦] المتوفّى سنة ٥٩٧م. كان ينادم النعمان مع النابغة الذُبيانيّ، ويُنشده القصائد. وكان النعمان يكرّمه ويقرّبه إليه. غير أنّه كان يؤثر شعر النابغة على شعره. فسعى المنخّل بالنابغة وأوغر صدر النعمان عليه حتّى همّ بقتله. فهرب النابغة، وخلا المنخّل بمجالسته، إلى أن ارتاب النعمان منه، وقيل بل اتّهمه بامرأته المتجرّدة. فأخذه ودفعه إلى رجل من حرسه وصاحب سجنه يقال له عَكَب من بني تَغلِب ليقتله فعذّبه حتّى قتله.

وبين الشعراء الذين جاءوا الحيرة حنظلة الطائيّ (ت ٥٩٠م)[٣٧]. وحكايته معروفة مع المنذر بن ماء السماء مفادها: بلغ حنظلة الحيرة يوم بؤس المنذر، فأراد قتله بالرغم من أيادٍ بيضاء كانت لحنظلة على الملك. فاستمهله سنة حتّى يدبّر أمر بيته فأمهله بكفالة شريك بن عمرو. ولّما انقضى الحول أُعدّت العدّة لقتل شريك عوضًا عن الطائيّ. وقبل انتهاء اليوم أقبل حنظلة برًّا بوعده. فسأله المنذر: ما الذي جاء بك وقد أفلتَّ من القتل؟ قال: الوفاء. قال: وما دعاك إلى الوفاء؟ قال: إنّ لي دِينًا يمنعني من الغدر. قال: وما دِينك؟ قال: المسيحيّة. وعلى هذا تنصّر المنذر، وتنصّر معه أهل الحيرة أجمعون، على رواية الميدانيّ. ونسك بعد ذلك حنظلة، وبنى له ديرًا يعرف بدير حَنظلة. لم يبق إلاّ القليل من شعر حَنظَلة، وممّا رواه أبو الفرج بن الطيّب قوله:

ومهما يكن من ريب دهر فإنّني أرى قمر الليل المعذّب كالفتى
يُهلُّ صغيرًا ثمّ يعظم ضوؤُه وصورته، حتّى إذا ما هو استوى
وقرّبَ يخبو منوءَه وشعاعه ويمصحُ حتّى يستسرُّ فما يُرى

---

(٣٥) **شعراء النصرانيّة**، ص ٤٠٠ — ٤١٠.

(٣٦) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ، ١٨: ١٥٢ وشعراء **النصرانيّة** ص ٤٢١.

(٣٧) **الأغاني**، ٩، ٩٨، ١٩: ٧٨ و٨٨. وشعراء **النصرانيّة** ص ٩٢.

ولا يفوتنا الأسود بن يَعْفُر النَهْشَليّ[٣٨] المتوفّى سنة ٦٠٠م الذي كان مع خالد بن مالك عند النعمان، وأقام عنده مدّة ينادمه ويؤاكله. ثمّ مرض فبعث إليه النعمان رسولاً يسأله عن صحّته فقال:

نفع قليل إذا نادى الصدى أصلاً ... وحان منه لبرد الماء تغريدُ
وودّعوني فقالوا ساعة انطلقوا: ... أودى فأودى الندى والحزم والجودُ
فما أبالي إذا ما متّ ما صنعوا، ... كلّ امرئ بسبيل الموتِ مرصودُ

(٣٨) الأغاني، ١١: ١٢٨. وشعراء النصرانية، ص ٤٧٥.

إمارة كندة

كِنْدَة، أو كِدَّت، مجموعة من القبائل أصلها من الجنوب العربيّ، وكانت تشغل الجانب الشرقيّ من اليمن حيث كان مركزهم دمّون. وإنّ شطرًا من هذه القبائل قد اضطرّ إلى الهجرة وانتجاع مواضع وسط القبائل العربيّة الشماليّة. وتؤكّد معطيات الرقوم، الروابط وصلة التبعيّة التي كانت للكِنْديّين ببعض الدول والأحلاف القبليّة بجنوبيّ الجزيرة العربيّة. ومن هناك سلكوا الطريق القديمة المتّجهة شمالاً حتّى بلغوا نجدًا، ثمّ انتشروا بعيدًا فيما وراء ذلك حتّى بلغوا العراق وفلسطين وفينيقية وسوريّة.

كندة ومَذْحج ومَعَدّ بوسط الجزيرة العربيّة

من المعلوم أنّ حُجْرًا آكل المُرار كان أكثر ملوك كندة مهابة وسط مجموعة القبائل التي استقرّت بالشمال، وهو أوّل ملوك هذه الأسرة التي تسنّمت مكانة مرموقة. وقد سبقه على دست الحكم بعد هجرة الكنديّين إلى منطقة مَعَدّ، وذلك وفقًا لقول اليعقوبيّ، ما لا يقلّ عن خمسة ملوك توالوا على الحكم واحدًا بعد الآخر حتّى بلغت مدّة حكمهم ما بين المائة وخمسة وعشرين عامًا. ووفقًا لما جاء بالحوليّات البيزنطيّة فإنّ ارتقاء حُجْر العرش ينبغي العودة به إلى منتصف القرن الخامس الميلاديّ.

يخبرنا رقيم النَمّارة بأنّ امرأ القيس بن عمرو قام بحملة ضدّ (نجران مدينة شَمْر). أو كما قيل «توجّه ليخضع» نجران. وقد تمّت هذه الحملة قبل عام ٣٢٨م وهو عام موت امرئ القيس، وذلك في الوقت الذي كانت فيه نجران وقبائل حِمْيَر خاضعة لسلطان شَمْر. وعلى أيّة حال فإنّ امرأ القيس كان قويًّا للدرجة التي استطاع بها ان يهدّد دولة سبأ وذي ريدان خلال الفترة المضطربة للحرب الأهليّة. ولكي يحمي إيْلشَرَح أملاكه من امرئ القيس فقد وجّه قبيلة كِدَّت (كندة) إلى حدود اللخميّين التي كانت تمتدّ بعيدًا صوب الجنوب في أعماق الجزيرة العربيّة. ومن هنا برز مفهوم المسكن المؤقّت والمعسكر، وهو ما يتّفق مع مفهوم الحيرة وحيرتا. وهناك أيضًا رأي يقول بأنّ هذا الاسم أعطي لها من قبيل

الاستهزاء. وقد يكون المقصود بذلك هو المبنى المؤقّت والكوخ المصنوع من التبن (أي الخص)[١].

وقد قبض ملك كِنْدة مَلْكُمُ كبراءَها وجنّدهم على امرئ القيس بمدينة م ربّ قرب هـ ل ل عند حدود أملاكه. وقد اضطرّ جيش امرئ القيس إلى تقديم الرهائن استجابة لمطلب قبائل (كَلْدَة أو كِلْدَت) أو (كِنْدَة). أمّا عن بني هلال الوارد ذكرهم بالرقيم فإنّ هذه القبائل كانت تقيم بحَضْرمَوت، وبوادي عَمْد بالذات. وكانوا يسكنون الخيام المعهودة لدى القبائل العربيّة الشماليّة والمصنوعة من الشعر الأسود. وقد كان هذا الموضع هو أقصى مكان في الجنوب يبلغه هذا النوع من الخيام.

والغارات التي شنّت على القبائل الشماليّة قامت بها قبائل كندة الخاضعة للملكين إِيْلْشَرَح ويزبل. فلمّا تمّ القضاء على سلطان هذين الملكين «المغتصبَين» عقب هزيمتهما في حروب داخليّة طويلة اضطرّا إلى مغادرة الجنوب العربيّ، فاتّجه أحدهما صوب الشمال إلى نجد مع قبائل الأَزْد. ومن الجائز تمامًا أنّ شطرًا من قبائل كِنْدَة قد تحرّك معه آنذاك ودخلوا هناك في صدام مع بني مَعَدّ. فلو حدث أن حقّق الكِنْدِيون اقتحامهم لبلاد مَعَدّ قبل مائة عام أو مائة وخمسة وعشرين عامًا من تملّك حُجْر في منتصف القرن الخامس، فإنّ هذا يوافق عهد الاضطرابات التي تعرّض لها الجنوب العربيّ في بداية القرن الرابع الميلاديّ وذلك حين تنازع السلطة على سبأ وذي ريدان في وقت واحد معًا أفراد اسرتين ملكيّتين متباينتين يمثّل إحداهما إِيْلْشَرَح يهذب، ويمثّل الأخرى شمر يهرعش. وفي ذلك الوقت عينه مدّ ملك أكسوم يد العون إلى شَمَر الذي يأمل في استعادة سلطانه. كما تاقت إيثوبيا بدورها إلى إخضاع سبأ وذي ريدان لسلطانها[٢].

ومهما يكن من شيء فلا يزال موضع ثقة قول المؤرّخين العرب بأنّ كندة من قبائل من عرب الجنوب انتقل شطر منها إلى الشمال فحلّوا بالمناطق التي كانت تشغلها قبائل مَعَدّ بنجد. وفي القرن الخامس ثبّتوا أقدامهم على تخوم الإمبراطوريّة البيزنطيّة وصاروا دعامة لها في مجاهدة النفوذ المتصاعد للخميّين الذين وُجدوا تحت حماية إيران.

ويمكن القول بأنّ تحرُّك كندة صوب الشمال إلى المناطق التي شغلتها قبائل مَعَدّ إنّما كان جزءًا من عمليّة كبيرة امتدّت لعدّة قرون، ثمّ تلاها انتقال عامّ للقبائل العربيّة من الجنوب إلى الشمال داخل حدود الجزيرة العربيّة نفسها، بل وإلى أبعد من ذلك صوب

(١) نينا فكتورفنا، **العرب على حدود بيزنطة وإيران**، ص ١٥٣.
(٢) نينا فكتورفنا، **المصدر نفسه**، ص ١٥٦ – ١٥٨.

مناطق الشرق الأدنى الأخرى حتّى لم تعد هجرة كندة سوى حلقة في السلسلة العامّة لهذه التحرّكات. وتشهد الرقوم السبئيّة بأنّ شطرًا من قبائل كندة ظلّ يعيش باليمن. بينما شغل شطر آخر منها وضعًا هامًّا في شماليّ الجزيرة العربيّة وسط القبائل النازلة عن حدود بيزنطة وإيران[٣].

ويورد حمزة الأصفهانيّ في معرض سرده لملوك حِمْيَر اسم حسّان بن عمرو بن تُبّع[٤]. أمّا الطبريّ فيذكر في رواية يردّها إلى ابن سعيد أنّ تُبّع بن كَرَب الذي «كسا الكعبة» هو أوّل من ثبّت حجرًا بالحجاز على قبائل «مَعَدّ بن عدنان» وذلك بالاتّفاق مع ممثّلي قبيلة كندة[٥]. واسم حسّان الوارد في هذه الروايات العربيّة يمكن وصله بحسّان يُوْهُمْن المعروف من الرقوم العربيّة الجنوبيّة التي ترجع إلى القرن الرابع وبداية الخامس. وليس هناك من تناقض في أن يحمل حسّان اسم تُبّع بن كَرَب، ذلك لأنّ حسّان يُوْهُمْن كان ابنًا لأبي كَرَب الذي يمكن أن يتحوّل اسمه ليصبح «ابن كَرَب» وقد وجّه تُبّع حُجْرًا «إلى العراق فنزل بأرض مَعَدّ» وثبّت سلطانه عليها وظلّوا على طاعته إلى حين موته. «وملك الشام يومئذ زياد بن الهَبُولة السَليح» أي الذي ينتمي إلى عشيرة سَلِيح، وكان يخضع له «أولاد جَفْنَة»، أي المنتمون إلى آل جَفْنَة. وقد قتل زيادًا هذا حُجْر، وهذا الخبر موضع ثقة لأنّه مقرون بذكر المصدر الذي نقل منه وهو «كتاب أخبار ملوك كندة[٦]». وهذه الإشارة إلى المرجع لا تخلو من الأهمّيّة لأنّها تشير إلى أنّ المؤلّف استعان بمصدر مكتوب.

وتجد مادّة المؤرّخين المسلمين التأييد في الرقوم العربيّة الجنوبيّة التي تعود إلى آخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس، والتي يرد فيها اسم حسّان يُوْهُمْن ابن أبي كَرَب أسعد. وهناك أكثر من سبب للافتراض بأنّ حسّان يُوْهُمْن هو ذات الشخص المعروف في التواريخ باسم حسّان بن تُبّع الذي نصّب حُجْرًا رأسًا على مَعَدّ، إنّما هو الملك الذي «كسا الكعبة» أي أنّه كسا أقدم موضع مقدّس عند العرب بالأنسجة الفاخرة التي حصل عليها ضمن الغنائم الوافرة التي غنمها من العراق. وتجعل الروايات العربيّة حُجْرًا آكل المُرار قريب النسب بملوك حِمْيَر، لأنّ البيتين ارتبطا بأواصر المصاهرة[٧]. ومن جهة أخرى فإنّ تملّك

(٣) نينا فكتورفنا، **المصدر نفسه**، ص ١٥٩.
(٤) راجع شرحه، ص ١٣٢.
(٥) ج. أولندر، **ملوك كنده**، ص ٣٩.
(٦) حمزة الأصفهانيّ، ج١ ص ١٤٠.
(٧) ج. أولندر، **ملوك كندة**، ص ٤٠ – ٤١.

حُجْر وثيق الصلة بانتصارات الحميريّين ورغبتهم في أن يصبح عاملهم وحليفهم حاكمًا على مَعَدّ وكندة المقاتلين الأقوياء.

ويرد في رقيم عُثر عليه بالعربيّة السعوديّة عام ١٩٥٢ يحمل اسم حُجْر، وقد تمّ العثور عليه بوادٍ يسمّى «نفوذ مسمّى» الواقع في الحدّ الشماليّ لجبال القارّة. ويرد الاسم هكذا «حُجْر بن عمر ملك كدّت» أي ملك كندة. وهو المعروف في المصنّفات العربيّة باسم آكل المُرار. وبهذا تنضمّ إلى مجموعة المصادر إشارة أصيلة إلى مؤسّس الأسرة الحاكمة الجديدة لكندة بالشمال والتي بلغت هذه القبيلة تحت رعايتها وزعامتها شأوًا بعيدًا ومكانة خاصّة[٨].

وهكذا فإنّ المصادر عن كندة متّفقة حول وقائع معيّنة من تاريخها. من ذلك هجرة شطر من القبيلة إلى الشمال في منتصف القرن الرابع. وإنّ تمليك حُجْر على مَعَدّ يعود إلى الربع الأوّل من القرن الخامس وذلك إبّان حملة الحميريّين الموفّقة على الشمال والتي مكّنت ملكهم من أن يبوّئ الكنديّين المخلصين والموالين له مكان الصدارة «بأرض مَعَدّ».

الكِنْديون والبيزنطيّون

تحرّكات الكنديّين الكثيرة ساقتهم إل منازعات عديدة، خاصّة مع القبائل العربيّة الأخرى. فمنذ الوهلة الأولى دخل معهم اللخميّون في عداء، كما دخل أيضًا الساسانيّون الذين بسطوا حمايتهم على اللخميّين. كما نشاهد الكنديّين يصطدمون مع عشيرة قويّة أخرى هي سَلِيح أو ضَجْعَم التي كانت تقوم بحراسة الحدود البيزنطيّة في منطقة الشرق الأدنى. وما كان لأيّة محاولة لتثبيت أقدامهم بمنطقة الحدود أن تتمّ إلاّ على حساب الضجاعمة، ويقف دليلاً على هذا، ذلك النزاع الذي نشب بين حُجْر الكنديّ وزياد السليحيّ، وأدّى إلى مصرع زياد، كما رواه لنا حمزة الأصفهانيّ السابق ذكره. فلكي يوطّد الكِنْديّون أنفسهم بالمنطقة قاموا بمهاجمة هذه العشيرة القويّة. إلاّ أنّ الذي وضع حدًّا لقبيلة سَلِيح لم يكن الكِنْديّين، بل الغساسنة الذين خلفوهم[٩] – كما سنرى –

تحدّثنا المصادر السريانيّة عن غارات العرب التي تعرّضت لها بلاد الدولة البيزنطيّة، وهم يدعونهم في بعض الحالات باسم عامّ هو «الإسكينيّون» أي الرحّل؛ وفي حالات أخرى باسم «السَّرْقينيّين» أو يحدّدون أسماء قبائل بعينها لا سيّما التي جرى لها مع قوّاد الروم قتالٌ ونزاع. والوقائع التي يسجّلها أصحاب الحوليّات تتعلّق بمختلف القبائل العربيّة.

(٨) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٦٥.

(٩) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٦٦.

فهي ذات صلة بعرب الفرس بالحيرة وبالكنديّين كذلك. ولذا فإنّ معلومات هذه المصادر قد دخلت في الاستعمال أكثر من مرّة في بحثنا هذا.

في عام ٤٩١ أو ٤٩٢م، أغار العرب على حمص «أكبر مدن سوريّة وأعظمها» – يومذاك – وعند اعتلاء الإمبراطور زِينون العرش في ٢٩ تشرين الثاني ٤٧٤م وفد إلى الدير القائم بحمص «شيخ وقور للغاية» اسمه إبراهيم، فبقي بالدير ثمانية عشر عامًا اضطرّ بعدها إلى مغادرته إلى القسطنطينيّة عندما «بلغ السَّرْقينيّون» الدير واستولَوا عليه[١٠]. وإلى عام ٤٩٧م (وهو العام الثاني من حكم أَنَسْطاس لدى ثِيُوفانيس) ترجع غارة العرب إلى «العشائر التي يتزعّمها الفيلارك النعمان» اللخميّ والتي تخضع للفرس. فقد غزوا ولاية الفرات[١١].

ويروي المؤرّخ ثِيوفانيس اليونانيّ، أنّ رومان قائد جيش فلسطين «الذي كان رجلاً حصيفًا اتّصف بجودة الرأي والصبر في القتال» قد وضع يده على عدد كبير من الأسرى العرب وعلى رأسهم أُجُر بن آرثَة الملقّب تَالْبَان[١٢]. وهو شخصيّة معروفة لدينا من مصادر أخرى. وقد ورد ذكره مرارًا لدى المؤرّخ اليونانيّ ثِيوفانيس نفسه الذي يعلم عن إرثه الملقّب تَالْبَان والد كلّ من يِدِي كَرْم وأُجُر[١٣]. وذكره مرّتين آرثَة باسمه القبليّ تَالْبَان إنّما أراد به أن يميّز بينه وبين سميّه أرثَة «فيلارك الروم». وآرثَة الملقّب تالبان، وكذلك ولداه حُجْر أُجُر ويِدِيْكَرْم – مِلِيْكَرْم ينتمون إلى الكنديّين الوارد ذكرهم في الرقوم العربيّة –

في العام ٤٩٨م أغار العرب على فينيقية وسوريّة وفلسطين وقد تمّت الغارة تحت قيادة يِدِيكَرْم أخي أُجُر – حُجْر – وعن يِدِيكَرْم (مِلِيكَرْم) هذا يقول المؤرّخ إنّه «انقضّ كالريح على هذه المواضع وابتعد أسرع من ذلك بالغنائم حتّى إنّ رومان في تعقّبه لهم لم يستطع البتّة اللحاق بالعدوّ[١٤]».

غير أنّ العدوّ الدائم للكنديّين فقد كانت عشيرة ضَجْعَم التي ينتسب إليها زُوْكُم

(١٠) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٦٧.

(١١) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٦٧.

(١٢) أغلب الظنّ أنّ «آرثة» باليونانيّة رسم لاسم «حارثة» العربيّين لا الحارث. على أنّ حارثة إنّما هو في حدّ ذاته ترخيم لاسم الحارث.

(١٣) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٦٦.

(١٤) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٦٩.

المعروف من المصادر البيزنطيّة، غير أنّه لم يستطع أيّ من ضَجْعَمَ – سَلِيح أن ينال المكانة التي ظفر بها الغساسنة فيما بعد[١٥]. وقد كان أعداء حُجْر من عشيرة ضَجْعَمَ – سليح حتّى لحظة ظهور الغساسنة «يدينون بالولاء لبيزنطة». إلاّ أنّهم منذ نهاية القرن الرابع وإلى نهاية القرن الخامس كانوا يقومون بحراسة حدود سوريّة لصالح القسطنطينيّة. ولم يستتبّ سلطان الغساسنة إلاّ بعد أن ضعفت شوكة كلّ من ضَجْعَمَ وكندة. ولقد تمتّعت كندة بالسيطرة أمدًا طويلاً وأخضعت لسلطانها قبائل قويّة بما في ذلك مَعَدّ[١٦].

وبنو مَعَدّ الذين تملّك عليهم بيت من كِندة، كانوا قبل ذلك أقرب إلى اللخميّين، فلمّا ذهبت كلمة البيت الحاكم لكندة بدا وكأنّ مَعَدًّا قد عادوا إلى سابق عهدهم وربطوا مصيرهم باللخميّين. ويكفي أن نذكر أنّ بني مَعَدّ قد وُجدوا بمعسكر اللخميّين على ما يرويه في رسالته مار شمعون الأَرْشَمِيّ.

وقبيلة تَغْلِبَة، وهم من «عرب الروم» معروفة لدى المؤرّخ السريانيّ يُوشَع العموديّ. فعند اشتداد وطأة الحرب عام ٥٠٢ و٥٠٣، كان ملك الفرس قُبَاذ يقوم بتخريب أرض الجزيرة ويحاصر مدينة (ديار بكر العربيّة) (من تشرين الأوّل ٥٠٢) فقام بإرسال قوّات من عرب الفرس تحت قيادة النعمان اللخميّ في حملات متتابعة. ففي ٢٦ تشرين الثاني ٥٠٢، نفذ النعمان بقوّاته من الجنوب إلى منطقة حرّان فهبّ وسبى وخرّب حتّى أكناف أُورْفا (الرُّها)، غير أنّ هجومهم صُدّ، وشتّت شملهم ثيمو سطراط دوكس (قائد) (TEMO SITRAT DOKSE) قَلِينيقة. كذلك تلقّى عرب الفرس ضربة أشدّ عنفًا من هذه بالحيرة. «فقد توجّه عرب الروم من بني ثعلبة إلى حيرة النعمان فعثروا على قافلة كانت في طريقها إليه (أي النعمان) وإبل محمّلة فانقضّوا عليها وقتلوا جميع من كانوا هناك واقتادوا الإبل، ولكنّهم لم يبقَوا بالحيرة لأنّها ابتعدت داخل الصحراء»[١٧]. ومعلوم أنّ يُوشَع العموديّ كان معاصرًا للأحداث التي وصفها، ولذا وجب أن يُفهم من ألفاظه أنّ بني تَغْلَبَة قد اضطلعوا عام ٥٠٣ بمهمّة حراسة الحدود البيزنطيّة، وأنّ غاراتهم على الحيرة كانت بمثابة ضربة معتادة ردًّا على غارات اللخميّين. وكان الصلح الذي تمّ عقده

(١٥) نولدكه، **إمارة غسّان**، ص ٨ و١٢.

(١٦) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٦٨.

(١٧) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٧٠.

في عهد أَنَسْطاس مع الحارث الكنديّ عام ٥٠٢ هو الذي يسّر بهجوم قبيلة ثعلبة الخاضعة له فقامت بغارتها عام ٥٠٣ على الحيرة[١٨].

وكانت كِنْدَة في عداء مكشوف مع اللخميّين بالمناطق المتاخمة للأراضي البيزنطيّة: كما يرد ذكر مَذْحِج غير مرّة مع كِنْدَة، وقد التقى مطران السريان (ربّما هو شمعون الأَرْشَمِيّ) بعرب قبيلة مَذْحِج في معسكر المنذر الثالث اللخميّ عام ٥٢٤م. أمّا عن بني تَغْلَبَة الوارد ذكرهم في الحوليّات السريانيّة والذين قاتلوا ضدّ اللخميّين فقد كانت كندة ومَذْحِج وبنو ثعلبة يؤلّفون مجموعة القبائل العربيّة المتحالفة مع حِمْيَر[١٩].

ومع استمرار العداء بين اللخميّين وكِنْدَة فإنّ اللخميّين لم يطرحوا فكرة إخضاع بلاد العرب، خاصّة وأنّهم يوجّهون ضربة لحِمْيَر التي كانت تسعى على الزعامة ببلاد العرب الوسطى، وجانبًا منها أيضًا لبيزنطة، وبذلك سيثيرون القلق حول أمن طرق التجارة. وكان الحارث بن عمرو اللخميّ قد شغل مكانة بارزة على حدود الدولة البيزنطيّة ودعّم سلطانه بمقرّه في مدينة الأنبار بالعراق. وقد حصل الحارث هذا على مساندة الكسرى قُبَاذ حليفه[٢٠].

ومن أولئك الشعراء، روّاد الحيرة، النابغة الجَعْدِيّ، وهو من جَعْدَةِ قَيْس. قال الجُمَحِيّ: النابغة الجَعْدِيّ أقدم من الذبيانيّ لأنّه أدرك المنذر بن مُحَرِّق، والذبيانيّ إنّما أدرك النعمان. وقال غيره: إنّ النابغة الذبيانيّ شفع عند الحارث بن أبي شَمِر الغسّانيّ، حين قتل المنذر، في أُسَارى بني أسد فشفعه. وللجَعْدِيّ قصيدة جمعها أبو زيد مع المشوبات في «جمهرة أشعار العرب» يصف بها حالته منذ كان عند المنذر وكيف سار إلى الرسول محمّد ووصف ناقته وفرسه وبعض المواقع، وقيل إنّه أسلم[٢١].

بلغنا الآن إلى النابغة الذبيانيّ[٢٢] (ت ٦٠٤م) الذي عاش في نعماء المناذرة، فأغدقوا عليه الصِلات حتّى إنّه كان يأكل بآنية من الذهب والفضّة من هدايا النعمان وأبيه. وما

(١٨) أُصيب بهذه الغارة الملك النعمان بجرح فانتفخ الجرح الذي أُصيب برأسه وتورّمت جمجمته فذهب إلى خيمته ومرض ليومين ومات في آب ٥٠٣م.

(١٩) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٧٤.

(٢٠) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٧٥.

(٢١) الأغاني، ٤: ١٢٦؛ **العمدة** ١: ٦٧، **جمهرة أشعار العرب**، ص ٤٥؛ زيدان ١: ١٥٦.

(٢٢) الأغاني، ٩: ١٥٤؛ ١٨: ١٨٣. **الشعر والشعراء** ٧٠ و١٢٦. **شعراء النصرانيّة** ٦٤٠.

عتّم أن وصف المتجرّدة، امرأة النعمان، وصفًا أغاظ زوجها فغضب عليه حتّى هرب إلى الشام، ثمّ اعتذر إليه فعذره.

وجاء الحيرة حاتم الطائيّ الجوّاد الشهير والشاعر الكبير[٢٣] المتوفّى سنة ٦٠٥م في عهد النعمان بن المنذر. وكان حاتم يخفر الحكَم بن أبي العاصي الذي كان يريد حضور سوق الحيرة. وكان النعمان قد جعل لبني لَخْم بن عمرو رَبْعَ الطريق طعمة لهم للمصاهرة التي بينهم. ووقع خلاف بين حاتم وبني لَخْم في الطريق، فأتوا الحيرة، وتوسّط إياس بن قُبَيْصَة لدى الملك النعمان.

ومن شعراء الحيرة إياس بن قُبَيْصَة[٢٤] (توفّي سنة ٦١٢م) وهو من أشراف طيء وفصحائها. وقد اتّصل من مجالسة كسرى أَبْرَوَيْز إلى ما لم يتّصل إليه أحد من الأعراب. وهو الذي ولّاه كسرى على الحيرة بعد موت عمرو بن هند إلى أن ولّي النعمان أبا قابوس.

وعاش الشاعر سَلامة بن جَنْدَل[٢٥] (توفّي سنة ٦٠٨م) في جهات الحيرة وعاشر العِبَادِيِّين في عهد عمرو بن هند. ولحق بالنعمان أبي قابوس وذكره في شعره لمّا ألقاه كسرى بين أرجل الفيلة.

ومن فحول الشعراء وأبطال العرب الصناديد الذين سُجنوا في الحيرة عنترة العبسيّ[٢٦] (توفّي عام ٦١٥م) الذي أسر في سجن المنذر بن ماء السماء، وكان قد خرج في طلب النوق العصافيريّة مَهْر عبلة على ما ورد في القصّة.

وهذا أعشى قيس[٢٧] المتوفّى سنة ٦٢٩م كان يأتي العِبَادِيِّين نصارى الحيرة يشتري منهم الخمرة، فأخذ عنهم مذهب القدريّة الذي يتمثّل في البيت الآتي:

إستأثر الله بالوفاء وبالـــــــ عـدل وولّى الملامة الرجلا

وكان راوية الأعشى يحيى بن متّى النصرانيّ العِبَاديّ. ومدح الأعشى الأسود بن المنذر أخا النعمان وباع في الحيرة بعض هدايا سلامة ذي فائِش الحِمْيَريّ له.

---

(٢٣) **الأغاني**، ١٦: ٩٢ – ١٠٩، ١٩: ١٢٨ و١٥٩. **شعراء النصرانيّة** ص ٩٨.

(٢٤) **الأغاني**، ١٦: ٩٦ و٢٠: ١٣٤.

(٢٥) **شعراء النصرانيّة**، ص ٤٨٦.

(٢٦) ديوانه، طبعة البستانيّ، ص ٨ و٦٨، ١٦٩. **شعراء النصرانيّة** ص ٧٩٤. زيدان، **الآداب العربيّة** ١: ١١٧. **الجمهرة** ص ٩٢. **الروائع** ص ٢٧.

(٢٧) **الأغاني**، ٨: ٣٧٦. **شعراء النصرانيّة** ص ٣٥٨. **الروائع** ص ٣١.

وهذا عمرو بن كلثوم التغلبيّ[٢٨] المتوفّى سنة ٦٠٠م نظم معلّقته الحماسيّة الفخريّة غضبًا لأمّه وقبيلته من عمرو بن هند صاحب الحيرة. وكان عمرو هذا معجبًا بنفسه، فقال يومًا للندماء: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمّه من خدمة أُمِيْظ فقالوا: نعم، أمّ عمرو بن كلثوم. قال: ولمَ؟ قالوا: لأنّ أباها مُهَلْهِل بن ربيعة، وعمّها كُلَيْب بن وائل أعزّ العرب، وبعلها كَلْثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو، وهو سيّد قومه.

فأرسل عمرو بن هند، ملك الحيرة، إلى عمرو بن كَلْثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمّه. فأقبل ابن كلثوم من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب. وأقبلت ليلى بنت المهلهل في ظَعْنٍ من بني تغلب. وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته، فحضروا في وجوه بني تغلب. فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه، ودخلت ليلى وهند في قُبّة من جانب الرواق. وكان عمرو بن هند قد أمر أمّه أن تنحّي الخدم إذا دعا بالطرف، وتستخدم ليلى. فدعا عمرو بمائدة. ثمّ دعا بالطرف. فقالت هند: ناوليني، يا ليلى، ذلك الطبق. فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فأعادت عليها وألحّت. فصاحت ليلى: واذلّاه يا لتغلب. فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه ونظر إليه عمرو بن هند فعرف الشرّ في عينيه. فوثب إلى سيف معلّق بالرواق فضرب به رأس عمرو بن هند ونادى في بني تغلب فانتبهوا ما في الرواق وساقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة.

والشاعر الحارث بن حِلِّزة اليَشْكُريّ[٢٩] المتوفّى سنة ٥٨٠م هو الآخر ذكر عمرو بن هند في معلّقته وأنشدها أمامه انتصارًا لقبيلة بكر في موقف المحاكمة، وقد جمع فيها ذكر عدّة من أيّام العرب عيّر بعضها بني تغلب تصريحًا، وعَرّض ببعضها لعمرو بن هند. وسبب إنشاده هذه المعلّقة أمام ملك الحيرة ذكره الرواة، وذلك أنّ النعمان بن هَرِم كان خطيب بني بكر، فغاظ الملك بكلامه وأوشك ابن هند أن يقضي لتغلب على بكر في المحاكمة. فقال الحارث بن حِلِّزة لقومه إنّي قد قلت خطبة فمن قام بها ظفر بحجّته. فرواها أناسٌ منهم. قاموا فلمّا لم يُرضِه إنشادهم، فقال: إنّي لا أرى أحدًا يقوم بها مقامي، لكن أكره أن أكلّم الملك من وراء ستور، وينضح إثري بالماء إذا انصرفت عنه. وكانوا يفعلون

---

(٢٨) **الأغاني**، ٩: ١٧٥. **شعراء النصرانيّة** ١٩٧، زيدان، **الآداب العربيّة** ١: ١١٣. الروائع ص ٢٦.

(٢٩) **الأغاني**، ٩: ١٧١، **وشعراء النصرانيّة** ص ٤١٧. زيدان، **الآداب العربيّة**، ١: ١١٥ **والروائع** ص ٢٦. وشرح **المعلّقات** للتبريزيّ.

ذلك بمن فيه برص. وقيل بل كان ابن هند يفعل ذلك لعظم سلطانه ولا ينظر إلى أحدٍ به سوء. ثمّ خاف ابن حِلِّزة على قومه وقال: أنا محتمل ذلك. واقترب من الملك، فقيل للملك إنّ فيه وَضَحًا (برصًا)، فأمر أن تُمدَّ بينه وبين الحارث سبعة ستور فجُعلت. فلمّا نظر عمرو بن كُلثوم قال للملك: أهذا يناطقني وهو لا يطيق صدر راحلته؟ فأجابه الملك حتّى أفحمه. وأنشد الحارث قصيدته. وكانت هند أمّ عمرو تسمع، فقالت لابنها: تا اللّه ما رأيت كاليوم قطّ رجلاً يقول مثل هذا القول يكلّم من وراء سبعة ستور. فقال الملك: ارفعوا سترًا وأدنوا الحارث حتّى أزيلت الستور السبعة، وأقعده الملك قريبًا منه على مجلسه، ثمّ أطعمه في جفنته وأمر أن لا ينضح إثْرَه بالماء. ثم جزّ نواصي السبعين رجلاً الذين كانوا رهنًا في يده من قبيلة بَكْر ودفعهم إلى الحارث. ثمّ أمره أن لا يُنشد قصيدته إلاّ متوضّئًا. ومطلع هذه المعلّقة الشهيرة:

آذنتنا ببينـــها أسماء　　　رُبَّ ثاوٍ يملُّ منه الثواء

وهناك شاعر آخر من أصحاب المعلّقات زار الحيرة ووفد على ملكها اللخميّ ألا وهو لَبِيْد بن ربيعة[٣٠] المتوفّى سنة ٦٧٥م. فهو أحد شعراء الجاهليّة والمخضرمين. وهو من أشراف الفرسان المجيدين. قال أبو الفرج الأصفهانيّ: دخل لَبِيْد بن ربيعة على النعمان مع عامر ابن مالك ملاعب الأسنّة، وكان يكنّى أبا البَرّاء، في رهط من بني جعفر ومالك بن جعفر وعامر بن مالك عمّ لَبِيد فوجدوا الربيع بن زياد العبسيّ وأمّه فاطمة بنت الخُرْشُب. وكان الربيع نديمًا للنعمان مع رجل من تجّار الشام يقال له زَرْجون بن نَوْفَل، وكان حرّيفًا للنعمان يبايعه. وكان الربيع يوغر صدر النعمان على الجعفريّين حتّى رأوا منه جفاء وصدودًا ثقل عليهم. فبينما كانوا يتفاوضون يومًا بهذا الأمر سمعهم لَبِيد، وكان متخلّفًا عنهم يحفظ إبلهم ولم يرافقهم إلى النعمان، فطلب إليهم أن يدخلوا إلى النعمان ليوقع بالربيع. فأجابوه وأدخلوه على النعمان. فوجده يتغدّى ومعه الربيع، وهما يأكلان لا ثالث لهما، والدار والمجالس مملوءة من الوفود. فلمّا فرغ من الغداء أذن للجعفريّين فدخلوا عليه فذكروا الذين قدّموا له من حاجاتهم، فاعترض الربيع بن زياد في كلامهم. فقال لَبيد أبياتًا من الشعر في هجاء الربيع وذمّه وذكر فيه برصًا وأنّه غير نظيف. فسبّه الربيع. وأثّر كلام لَبيد في النعمان وتقزّزت نفسه من عِشرة الربيع فصرفه عنه وعن بلاده. وأراد الربيع أن يتنصّل من الوصمة التي وصمه بها لَبيد إلاّ أنّ النعمان أجابه:

(٣٠) **الأغاني**، ١٤: ١٩٠، وزيدان: **الآداب العربيّة** ١: ١١١، و**العمدة** ١: ٢٦ و**الروائع** ص ٢٤.

قد قيل ذلك، إن حقًّا وإن كذبًا　　　فما اعتذارك من قول إذا قيلا؟

ووفد حسّان بن ثابت، المتوفّى سنة ٦٧٢م على النعمان بن المنذر. وهو من الخَزْرَج ومن المخضرَمين[٣١]. واشتهر في الجاهليّة بمدح ملوك غسّان وملوك الحيرة وله مع النابغة الذبياني أحاديث. واختصّ بعد الإسلام بمدح محمّد الرسول والدفاع عنه، وهو يُعدّ أشعر أهل المدن في ذلك العصر.

قال حسّانك قدمت على النعمان بن المنذر وقد امتدحته. فأتيت حاجبه عصام بن شَهيرة فجلستُ إليه. فقال: أجئت بمدحة الملك؟ قلت: نعم. قال: فإنّي أرشدك إذا أُدخلت عليه فإنّه يسألك عن جَبَلة بن الأيْهَم ويسبّه فإيّاك أن تساعده على ذلك، وإذا أمرّ ذكره مرارًا لا توافق فيه ولا تخالف وقل: ما دخول مثلي أيّها الملك بينك وبين جَبَلة وهو منك وأنت منه. وإذا دعاك إلى الطعام فلا تؤاكله فإن أقسم عليك فأصب منه اليسير. ولا تُطل محادثته، ولا تبدأه بأخبار عن شيء حتّى يكون هو السائل لك ولا تُطل الإقامة في مجلسه. فقلت: أحسن اللّه رفدك. ودخل ثمّ خرج إليّ فقال لي: ادخل. فدخلت، فسلّمت تحيّة الملوك فجاراني من أمر جَبَلة ما قاله عصام كأنّه كان حاضرًا وأجبت بما أمرني به. ثمّ استأذنته في الإنشاد فأذن لي. وأمر لي بالطعام والشراب ففعلت مثل ذلك. فأمر لي بجائزة سنيّة. وخرجت فقال لي عصام بقيت عليّ واحدة لم أوصِك بها. قد بلغني أنّ النابغة الذبيانيّ قدم عليه، وإذا قدم ليس لأحد منه حظّ سواه فاستأذن حينئذ، وانصرف مكرّمًا خير من أن تنصرف مجفوًّا.

وهذا يزيد بن عبد المَدَان[٣٢]، (ت ٦١٥م) من مَذْحِج، ذكر النعمان بن المنذر غير مرّة في شعره ومن ذلك قوله معيّرًا عامر بن الطُّفَيْل:

كانت أتاوة قومه لِمَحْرِق　　　زمنًا وصارت بعد للنعمان

فقال عامر بن الطُّفَيْل

عجبًا لواصف طارق الأحزان　　　ولمّا تجئ به بنو الديّان
فخرّوا عليّ بحبوة الأحزان　　　وأتاوة سبقت إلى النعمان
ما أنت وابن مَحْرِق وقبيلِه　　　وأتاوة الحَمّي في غيلان

(٣١) **الأغاني**، ٩: ١٦٤ وزيدان ١: ١٥٢ و**العقد الفريد** ١: ١٧٥.

(٣٢) **الأغاني**، ١٠: ١٤٠، و**شعراء النصرانية** ٨١.

وزهير بن أبي سُلْمى[٣٣] وهو من مزينة إحدى قبائل مُضَر. وممّا ينسب إليه قصيدة ذكر فيها النعمان بن المنذر حين طلبه كسرى ليقتله ومدح بني رَوَاحَة من بني عبس الذين أرادوا أن يجيروا النعمان، ومطلعها:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى   من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا

نكتفي بمن ذكرناهم من شعراء الجاهليّة الذين كان لهم مختلف الصلات بالحيرة وملوكها، ولا سيّما في القرن السادس. وهناك رهط آخر من الأمراء في الجاهليّة والإسلام ممّن ذكروا الحيرة وملوكها وحروبهم وقصورها ودياراتها وخمّاراتها، أمثال:

طَخِيْم الأَسْدِي، وأبي الطَّمَحَان القَيْنِيّ، وسَلَيْط بن سعد، والخِرْنِق أخت طَرَفَة، وحُنَين بن بَلُوع الحِيريّ، وعبد الله الحرّ الجُعْفِيّ، والثرواني، والحَمَّاني، وابن كَنَاسَة، وأبي نوّاس، والشريف الرَضِي، وأبي العَتاهِيَة، وأبي قابوس النصرانيّ الذي كان منعطفًا إلى البرامكة، وغيرهم وغيرهم. وهكذا يكون ذكر الحيرة خالدًا عند العرب ما دام العرب يتغنّون بأشعار الجاهليّة ويفخرون بمعلّقاتهم.

الأمثال العربيّة والحيرة

لم يخلّد ذكر الحيرة بمدارسها، وبالخطّ المنسوب إليها، ولا بالشعر والشعراء فحسب بل هناك طائفة كبيرة من الأمثال السائرة في لغة الضادّ نشأت في الحيرة نفسها، أو هي وليدة حوادث لها أساس بتاريخ الحيرة. ومن تلك الأمثال: ما قيل في حادثة الزَّبَّاء وجُذَيْمَة الأبرش وقَصِير: «رأي فاتر، وعدوّ حاضر» – «رأيك في الكَنّ لا في الضَّحّ» – «قصير لا يطاع لقصيرٍ أمر» – «ببَقَّة أُبرم الأمر» – «ببقة تركت الرأي» – «خطر يسير، وخطب كبير» – «ويل أمّه على متن العصا» – «ما ضلّ من تجري به العصا» – «بلغ المدى، وجفّ الثرى وأمرٌ غدرُ أرى» – «امنع من عقاب الجوّ» – «لأمر جدع قصير أنفه» إلى غير ذلك[٣٤] وقد نسب إلى الزبّاء المثل «بيدي لا بيد عمرو[٣٥]».

(٣٣) الأغاني، ٩: ٤٠ – ١٥١ وشعراء النصرانية ٥١٠ والشعر والشعراء ص ٥٧. وزيدان، الآداب العربيّة ١: ١٠٥ والروائع ص ٢٥.

(٣٤) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ١: ١٣٧ – ١٣٨.

(٣٥) الأغاني، ١٩: ٨٧.

ومثل نشأة هذه الأمثال ورد في سيرة عُبَيْد الأبرص وحكايته مع ملك الحيرة. ومن تلك الأمثال: «أتتك بخائن رجلاه» – «حال الجَرِيض دون القَرِيض» – «بلغ الحزام الطُبْيَين» – «المنايا على الحوايا» – «لا يرحل رحلك من ليس معك» – «من عزّ بزّ[٣٦]».

وقال طَرَفَة لمّا كان يُنشد المسيَّب بن عَلَس في الحيرة أمام عمرو بن هند شعرًا في وصف الجمل ثمّ انتقل إلى نعت الناقة: «قد استنوَقَ الجمل[٣٧]».

ونشأ في الحيرة المثل القائل: «قد يضرط الحمار والمكواة في النار» قاله مسافر بن عمرو ابن أميّة عندما أريد كيّه في الحيرة[٣٨]. وقيل المثل «إتبع الفرس لجامها والناقة زمامها» لمّا أريد استرجاع سلمى بنت وائل، الصائغ من قدّك، من أسرها وهي التي أضحت بعد ذلك زوج المنذر بن امرئ القيس الثاني وأمّ النعمان بن المنذر[٣٩].

ومن الأمثال التي نشأت وقائعها في الحيرة:

«حتّى يؤوب المنخل»

«أفخر من حارث بن حِلِّزة»

«جزاء سِنِمّار[٤٠]»

«تسمع بالمُعيدي خير من أن تراه[٤١]»

«أبطش من دَوْسَر[٤٢]»

«أفتك من الحَرْث بن ظالم[٤٣]»

«أعزّ من حليمه[٤٤]»

(٣٦) الأغاني، ١٤: ٧٣.

(٣٧) الأغاني، ٢١: ١٣١.

(٣٨) الأغاني، ٨: ٤٧.

(٣٩) الميدانيّ، ١: ٨٩.

(٤٠) الميدانيّ، ١: ١٠٧.

(٤١) الميدانيّ، ١: ٨٦.

(٤٢) الميدانيّ، ١: ٨٧.

(٤٣) الميدانيّ، ١: ٢٤.

(٤٤) الميدانيّ، ١: ٢٣١.

«أعزّ من مروان بن القُرْط»[٤٥]

«أخيب من حُنين»[٤٦]

«إنّ غدًا لناظره قريب»[٤٧]

وهناك طائفة غير هذه من الأمثال نشأت في الحيرة لا يسعنا أن نوردها كلّها لضيق المقام. فلتراجع في مظانّها.

زوال دولة وقيام دولة

وفي الربع الأوّل من القرن السادس كانت دولة الكِنْديّين التي تأسّست منذ منتصف القرن الخامس تضمّ عددًا من القبائل العربيّة ومن بينها أقواها جميعًا وهي قبيلة مَعَدّ التي استقرّت بوسط الجزيرة العربيّة منذ عهود بعيدة. والملوك من كِنْدَة الذين كانوا على رأس هذه الدولة ربطتهم صلة الرحم بملوك حِمْيَر، بل استظلّوا بحمايتهم. غير أنّ هذا الوضع أخذ في التغيّر شيئًا فشيئًا.

ففي عام ٥١٦م أنزل المنذر بهذه الدولة ضربة قاصمة قضت عليها، ويبدو أنّ هذا الأمر لم يتطلّب قتالاً، وكلّ ما هنالك أنّ اللخميّين قد عقدوا صلحًا مع قبائل وسط الجزيرة بسبب ما لاح لهم من خطر ماثل من جيش مَعَدّ يَكْرُب. وبذا فإنّ الكِنْديّين وقبائل مَذْحِج دخلوا في عام ٥١٦م ضمن قوات مَعَدّ يَكْرُب. وبعد عامين حدثت الحملة على نجران التي قام بها يوسف أسار المعروف باسم ذي نُوَاس ملك حِمْيَر والذي اشتهر بتعذيبه للمسيحيّين[٤٨]. وكان قائد إحدى الكتائب في هذه الحملات هو شُرَحْبِيل ذا يَزَن[٤٩].

وكانت الضربة القاضية على مستقبل الكِنْديّين كحقيقة واقعة هي فقدانهم لوضعهم بالعراق بعد القضاء على زعماء الحركة المَزْدَكِيَّة بفارس وطرد الحارث بن عمرو على يد المنذر. كذلك فإنّ النزاع الذي نشب بين زعيمهم وقائد قوّات فلسطين أطلق يد اللخميّين حتّى لم يعد الفرار يجديه فتيلاً، فقد لحق به هؤلاء وقتلوه. وقد نزّل هذا الحادث الذي وقع عام ٥٢٨م أثره على المصير العامّ لكِنْدَة.

(٤٥) الميدانيّ، ١: ٣٢١.
(٤٦) الميدانيّ، ١: ١٧٢.
(٤٧) الميدانيّ، ١: ١٦٥.
(٤٨) سنورد فصلاً كاملاً عن الشهداء الحِمْيَريّين العرب بهذه الفترة.
(٤٩) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٧٥ – ١٧٦.

أمّا السبب في زوال ملك كِنْدَة فهو الصدام الذي وقع بين شُرَحْبِيل وسَلَمه ابني الحارث، هذا الصدام الذي حفلت الروايات العربيّة المتواترة بأخباره، ويعرف في «أيّام العرب» باسم «يوم الكُلاب»[٥٠]. وكان يقف إلى جانب شُرَحْبِيل قسم من حَنْظَلَة وتميم فوصل بهم إلى الموضع المسمّى بالكُلاب بين الكوفة والبصرة. وإلى هذا الموضع وفد كذلك سَلَمَة بقبائل تغلب وأَبْعَاض من تميم وحَنْظَلَة[٥١]. فوقعت الواقعة عام ٥٣٠م، وهو ما يوائم الوضع العامّ لكِنْدَة في أعقاب موت الحارث، كما يتواءم أيضًا مع الحقيقة القائلة بأنّ حرب البسوس بين بَكْرٍ وتَغْلِب ظلّت مشتعلة لأربعين عامًا وقد اندلعت حوالي العام ٤٩٠م[٥٢]. وكان سَلَمَة هو المنتصر يوم الكُلاب. وكان مسرح الأحداث الأولى لهذه الحرب الطويلة بين قبيلتي بكر وتغلب هو اليمامة والمناطق الجنوبيّة الشرقيّة من نجد. أمّا فصولها الأخيرة فقد وقعت عند حدود العراق، ممّا يقف دليلاً على انتقال هذه القبائل وهجرتها إلى المناطق الشماليّة لبلاد العرب وإلى أرض الجزيرة[٥٣].

وتوجد بالمصادر مادّة وفيرة بصدد الكنديّ امرئ القيس (أمور قسّ في المصادر البيزنطيّة). كما توفّرت المعلومات عن كِنْديّ آخر هو قيس الذي استدعي من نجد ليتولّى منصب الفيلارك (على عرب البتراء) التابعين لبيزنطة[٥٤]. ولذا سأكتفي هنا بالإشارة إلى امرئ القيس كخاتمة لموضوعنا هذا.

أمرؤ القيس، الملك والشاعر الطريد

هو أصغر أولاد حُجْر، حفيد الحارث (٤٩٠ – ٥٢٨) ابن عمرو المقصور ملك نجد بن حُجْر آكل المُرار. قام بمحاولات حثيثة لجمع شتات مملكة كِنْدَة الممزّقة. وامرؤ القيس الذي يعدّ من أكبر شعراء العرب قبل الإسلام، تسمح لنا أشعاره بتتبّع سيرة حياته. إلاّ أنّ له

(٥٠) إلى كلّ هذه الأحداث يشير بيتا امرئ القيس:

وأعلم أنّني عمّا قليل	سأنشب في شبا ظفر وناب
كما لاقى أبي حُجْر وجدّي	ولا أنسى قتيلاً بالكُلاب

(٥١) ج. أولندر، **ملوك كندة**، ص ٨٢.
(٥٢) ج. أولندر، **ملوك كندة**، ص ٩١ – ٩٢.
(٥٣) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٧٦.
(٥٤) لم نتطرّق هنا إلى تدخّلات الحبشة بقيادة قائدها أبرهه في الجزيرة العربيّة وحملاته ضدّ الحِمْيَريّين وكندة وغيرهم وهو الذي اشتهر بحملة الفيل على الكعبة عام ٥٧٠م.

من القصائد ما يعين مضمونها على إلقاء الضوء على تاريخ هذه المحاولات التي قام بها آخر سلالة ملوك كندة لاستعادة السلطان لبيت آكل المُرار.

ولد عام ٥٠٠م بمناطق كانت تحلّ بها قبيلة أَسَد، أمّا أمّه فكانت من تغلب. وكان بنو أَسَد يدينون بالطاعة لأبيه حُجْر ويدفعون له الإتاوة كما يقول الكلبيّ، غير أنّهم ثاروا عليه وامتنعوا عن حملها إليه فهاجمهم حُجْر وأرغمهم على الرحيل إلى تِهامة. فارتحل بنو أسد، ولكنّهم لم يلبثوا أن عادوا أدراجهم وانقضّوا على جيش حُجْر وقتلوه. وقد طُرِدَت أسرته واضطهِدَت «فلحقت بنجران[٥٥]».

وثمّة إشارة أو رواية تؤكّد أنّ امرأ القيس لاذ في البداية بعمرو بن المنذر اللخميّ، وأضمر ملك الحيرة بقسوته المعهودة قتْله، ولكنّ عمرًوا حذّره فلاذ امرؤ القيس بالفرار. ومعلوم أنّ أمّ عمرو بن المنذر هي هند بنت عمرو بن حُجْر الكنديّ، ولصلة الرحم هذه فقد جهد عمرو في حماية قريبه.

وكان امرؤ القيس يخطّط لتوحيد قوّات كندة ومَعَدّ بهدف مهاجمة أسد أخذًا بثأر أبيه[٥٦]. وممّا يؤكّد هذه الروايات الكشوف الأثريّة التي تمّت مؤخّرًا. فالرقيم الذي اكتشف عام ١٩٤٧ يذكر عمرو بن المنذر بوصفه عاملاً للحيرة على قبائل معدّ ومن ثمّ فإنّ ما لقيه امرؤ القيس من ملاذ ومؤازرة على يد عمرًوا كان بسبب وضعه هذا كعامل للحيرة على معدّ. كما وأنّ صلة الرحم دفعت عمرو إلى حمايته من المنذر. ويبيّن هذا الرقيم نفسه، أنّ المناطق التي كانت تحت نفوذ عمرو إنّما تقع بوسط الجزيرة العربيّة حيث كانت تحلّ كندة ومعدّ حين كانت ضمن دولة آكل المُرار التي تهاوت أركانها[٥٧].

وقد لجأ امرؤ القيس إلى حِمْيَر بعد هربه حيث لقي العون والمساندة من «تُبّع» وهو أمر جدّ ممكن إذا وضعنا في الاعتبار أنّ دولة حِمْيَر كانت تطمح لتثبيت أقدامها بنجد وعلى الطرق المؤدّية إلى مكّة. هذا إلى جانب أنّ الأسرة المالكة لكندة كانت تربطها بملوك حَضْرَمَوْت وشائج من صلات الرحم.

غير أنّه برزت جماعة من المناوئين ظلّوا يعملون بشتّى الوسائل لإعاقة حملة امرئ

(٥٥) ج. أولندر، **ملوك كندة**، ص ٩٥ – ٩٦. **ديوان أمرئ القيس.**

(٥٦) ج. أولندر، **ملوك كندة**، ص ١٠٣ – ١٠٤. **وديوان امرئ القيس.**

(٥٧) **ديوان امرئ القيس**، باريس ١٨٣٧، ص ٨، ١٠، ١٦، ١٩، ٢٠.

القيس[٥٨]، ولكنّه برغم هذا تقدّم بقوّاته إلاّ أنّه هُزِم على يد قوّات المنذر فاضطرّ إلى الهرب من جديد واستتر لدى بعض ذوي قرابته ريثما يجد ملجأ أكثر أمنًا. وقد حفظ لنا اليعقوبيّ رواية مفادها أنّ امرأ القيس زحف على رأس قبائل مَذْحِج على بني مَعَدّ وقتل رأس أَسَد، ولكنّه لاذ بالفرار خشية أن يبطش المنذر به ولم يجرؤ على العودة إلى اليمن. وبعد أن استجار بالسموأل لاذ بالحارث الغسّانيّ، والرواية التي ترتفع إلى الكلبيّ تدعو الحارث هذا «ابن أبي شَمِر[٥٩]».

أمّا بقيّة تاريخ حياة امرئ القيس فيمكن استجلاؤها من أشعاره ومن الروايات العربيّة المتواترة التي يحيط بها الكثير من الغموض وتغلب عليها الأسطورة. فيقال حينًا إنّ امرأ القيس قد قوبل مقابلة طيّبة من قبل امبراطور بيزنطة[٦٠] الذي لم تشر الروايات إلى اسمه، ولكن استنادًا إلى تاريخ الأحداث فإنّه يمكن القطع بأنّه كان يوسطنيان الذي لم يلبث امرؤ القيس بالتالي أنْ فقد عطفه، حين وشى به عنده شخص من بني أَسَد، زاعمًا بأنّ للكنديّ علاقة «بابنة الإمبراطور». ومعلوم أن يوسطنيان لم يرزق بأطفال، وإن كان من الجائز أنّ الشاعر قد نظم قصائده في إحدى أميرات البيت المالك ممّن شغفته حبًّا. وقد جرّ هذا إلى هلاكه فمات من فعل حُلّة مسمومة كان أهداها إليه الإمبراطور[٦١]. وقيل إنّه دفن بالقرب من أنقرة قرب قبر لعجوز قال فيه شعرًا قبل أن يموت، وكتب هذا على قبره، وهذا نصّه:

كلانا غريبان ها هنا ... وكلّ غريب للغريب نسيب.

(٥٨) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٨١.

(٥٩) يبدو أنّ امرأ القيس لم يلجأ إلى إمبراطور بيزنطة إلاّ بعد فشله في اجتذاب معونة حِمْيَر وغسّان. ويمكن استجلاء هذا بوضوح من شعره: (٥٨) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٨١.

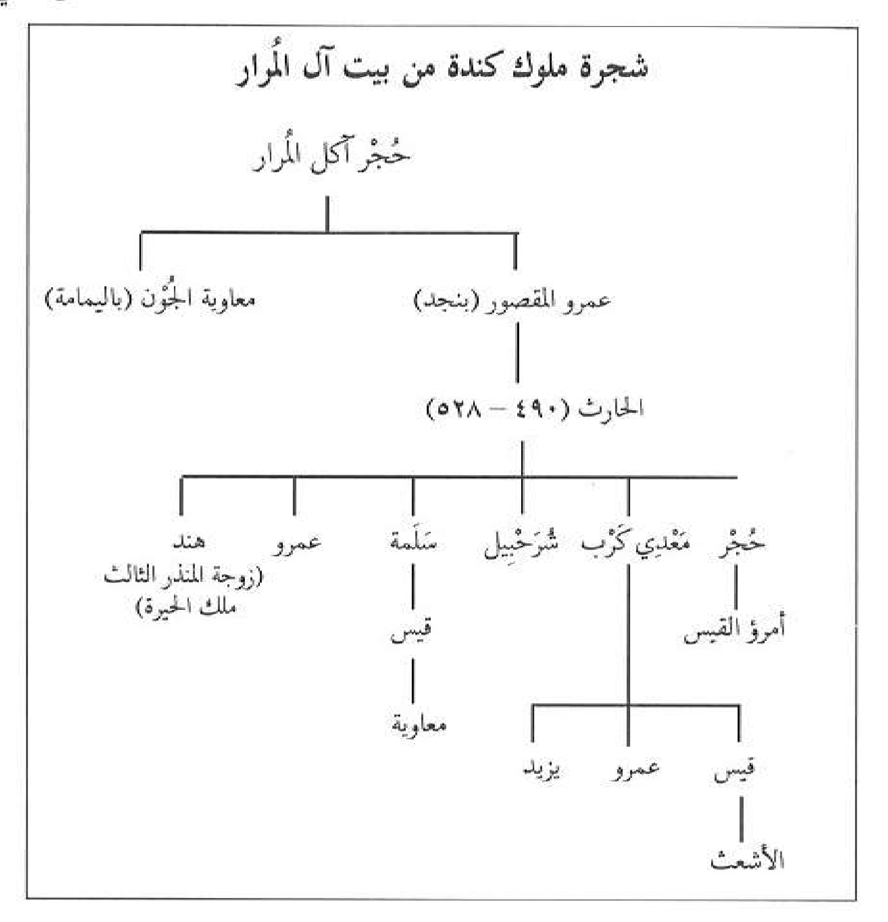
ولو شاء كان الغزو من أرض حِمْيَر ... ولكنّه عَمْدَ إلى الروم أنفرا
إنّي سأملككم بالروم إذ كرهت ... غسّان نصري وكان الملك أسبابا
أو ترجعون كما كنتم لنا خولا ... حتّى تدينوا لنا طوعًا وأتعابا

(٦٠) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ١٨١.

(٦١) وإلى هذه الميتة يشير بيته المشهور

فلو أنّها نفس تموت سويّة ... ولكنّها نفس تساقط أنفسا

غير أنّ المؤرّخ أبا الفداء يتشكّك في هذه الميتة ويقول بصددها «هي عندي من الخرافات» ص ١٣٤.



الثانية: مملكة الغساسنة

إستوطن العرب البلاد السوريّة منذ القرن الثاني للميلاد، فقد شدّتهم إليها الأراضي السوريّة الخصبة فأنشأوا إمارات في حمص وتدمر والبتراء، وفي لبنان وجنوبيّ الشام وفي أرض حوران. ولم يلبثوا طويلاً حتّى تمثّلوا لغة السوريّين الآراميّة وحضارتهم وعبادتهم. فإنّ أسماءهم وأسماء آلهتهم هي غالبًا آراميّة: وكانوا يستخدمون اللغة الآراميّة في مراسلاتهم الدبلوماسيّة بالإضافة إلى لغتهم العربيّة. والأبنية الأثريّة التي شيّدوها في تدمر والبتراء تعتبر من منتجات الفنّ السوريّ القديم.

الغساسنة

يُرجع المؤرّخون أنسابَ بني غسّان إلى قبيلة قديمة من عرب الجنوب كان يرئسها سابقًا شخص يدعى عمرو مُزَيقيّاء بن عامر ماء السماء. وقيل إنّه غادر البلاد اليمنيّة في أواخر القرن الثالث الميلاديّ، واستوطن أرض حوران والبلقاء. ويظهر من رواية الأخباريّين أنّ الغساسنة أخذوا الحكم بالقوّة من أيدي عرب كانوا يحكمون هذه المنطقة قبلهم يُدعَون «الضجاعمة» وهم من سَليح التي تعود إلى قبيلة قُضاعة.

أمّا مؤسّس دولة الغساسنة فيدعى جَفْنَة بن عمرو. لذا فقد دعي الغساسنة أيضًا بني جفنة. وقد اختلف مؤرّخو العرب على عدد الملوك الذين حكموا هذه الدولة العربيّة. فبينما يَرى أبو الفداء في تاريخه أنّهم واحد وثلاثون، ويجعلهم حمزة الأصفهانيّ اثنين وثلاثين، يرى المسعوديّ وابن قُتَيبة أنّهم ليسوا سوى أحد عشر. وهذا دليل على ما يشمل أسرة جَفْنَة من الغموض، لذا فإنّ لائحة الملوك التي نعطيها ليست سوى تقريبيّة، وكذلك تواريخ حكم كلّ ملك منهم:

١ – أبو شَمَر جَبَلَة نحو ٥٠٠

٢ – الحارث بن جَبَلَة ٥٢٨ – ٥٦٩
(الحارث الأكبر أو الحارث الأعرج)

٣ – أبو كَرْب المنذر بن الحارث ٥٦٩ – ٥٨٢

٤ – النعمان بن المنذر ٥٨٢ – ٥٨٣

٥ – الحارث الأصغر ابن الحارث الأكبر ؟

٦ – الحارث الأعرج ابن الحارث الأصغر ؟

٧ – أبو حُجْر النعمان ٥٨٣ – ٦١٤

٨ – عمرو ؟

٩ – حُجْر بن النعمان ؟

١٠ – جَبَلَه بن الأيهم (نحو ٦٣٥).

إستقرّ الغساسنة في الضواحي الجنوبيّة الشرقيّة من دمشق. وقبل غروب القرن الخامس الميلاديّ، دارت في المنطقة أحداث سياسيّة أدخلت الغساسنة ضمن دائرة النفوذ البيزنطيّ. فقد شاء الروم اكتساب مودّتهم ليجعلوا من دولتهم الفتيّة حاجزًا لردّ هجمات البدو، وليكونوا خاصّة سدًّا منيعًا في وجه الفرس وأنصارهم اللخميّين. ولم يكن للغساسنة في مطلع عهدهم عاصمة ثابتة مثل منافسيهم اللخميّين في الحيرة، بل كانوا ينتقلون من مخيّم إلى آخر، حتّى استقرّت بهم الحال فيما بعد في جابية الجولان، فأقاموا لهم مركزًا في جُلّق استقرّوا فيه بعض الوقت، وكانت بصرى أهمّ مراكزهم.

أوّل من ملك الشام كما يقول المسعوديّ (المتوفّى عام ٩٥٦م)، كانت تَنُوخ الذين خرجوا من حِمْيَر وأنكروا قرابتهم لمَعَدّ وانتسبوا إلى قُضاعة. أمّا الموجة الثانية من القبائل العربيّة التي لحقت بأراضي الدولة البيزنطيّة فكانت سَليح على حدّ قول المسعوديّ أيضًا: «ثمّ وردت سَليح الشام وتغلّبت على تنوخ وتنصّرت فملّكتها الروم على العرب الذين بالشام». ولمّا كان المسعوديّ يعتبر وضع سَلِيْح قد استتبّ بالشام «فاستقام ملك سَلِيْح بالشام» فإنّ هذا يشير إلى أنّ سلطانهم قد امتدّ لوقت غير قصير[١].

ويقول نولدكه إنّه خرج من عشيرتهم خمسة فيلاركات (زعماء) تتابعوا في الحكم لمدّة لا تقلّ عن قرن من الزمان، وكان آخرهم داود اللات، الذي شيّد دير داود[٢]. واليعقوبيّ (المتوفّى عام ٨٩٧م) يطلق على هؤلاء الحكّام لقب «رئيس سَليح[٣]». أمّا أبو الفداء

(١) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ٢١٧.

(٢) نولدكه، **إمارة غسّان**. ص ٢.

(٣) اليعقوبيّ، **تاريخ**، (١٨٨٣) ص ٢٣٥.

(المتوفّى عام ١٣٣١م) فيقول إنّ الغساسنة بعد أن شغلوا مكانة عشيرة ضَجْعَم الحاكمة «قتلوا ملوكهم[٤]».

ويربط المسعوديّ ظهور الغساسنة بالشام بالأحداث التي كان مسرحها اليمن والتي اضطُرّت هذه القبائل إلى الارتحال حتّى بلغت الشام. وقد أخذوا اسم غسّان من بئر أو ماء كانوا قد نزلوا عندها. ووفقًا لإحدى الروايات فإنّ هذه البركة أو الحوض كانت تقع بين زَبِيْد وريم باليمن (المسعوديّ). ووفقًا لرأي آخرين فإنّها كانت بالشام (حمزة الأصفهانيّ وأبو الفدا). ويقول اليعقوبيّ إن غسّان غزت الشام في أوّل الأمر فنزلت «أرض البلقاء»، هذا في الوقت الذي كان «بالشام قبيلة من سَلِيْح». وهؤلاء الغساسنة «سألوا سَلِيحًا» أن تعينهم في الحصول على الشروط نفسها التي كانت لسَلِيْح من إمبراطور الروم. فكتب «رئيس سَلِيْح» آنذاك وهو دَهْمَان بن العَمْلَق إلى ملك الروم الذي أعطى موافقته، وبهذا نزل الغساسنة بأرض سوريّة[٥].

ويذكر حمزة الأصفهانيّ في هذا الصدد شخصًا آخر هو سَلِيْح بن حلوان. وقد بسطت سَلِيْح حمايتها على القادمين و«ضربوا عليهم الإتاوة». وبسبب الإتاوة شبّ النزاع الذي قاد بدوره إلى القتال وانتهى بطرد سَلِيْح من الشام وتثبيت سلطان الغساسنة: وثمّة مصدر آخر يقول إنّ جفنة بن عمرو بن ثعلبة بن عمرو بن مُزَيْقِيَاء هو الذي قتل ملك سَلِيْح وحلّ محلّه[٦].

ويرد اسم الإمبراطور الذي كتبت إليه سَلِيْح بشأن الغساسنة في صور مختلفة لدى المؤلّفين العرب، فحمزة الأصفهانيّ يقول «ملك الروم يقال له نسطورس[٧]». بينما يدعوه اليعقوبيّ «نَوْشَر». وأمّا المتن العربيّ لتاريخ الدول لابن العبريّ فيعطي «أنسطس[٨]» الذي

(٤) أبو الفداء، **تاريخ الأمم**، (١٨٣١) ص ١٢٨.

(٥) اليعقوبيّ، **تاريخ**، ص ٢٣٦. لعلّ ما جاء في «كتاب التيجان في ملوك حُمَيْر» (عن وهب بن مُنَبِّه رواية أبي محمّد عبد الملك بن هشام) قد يعاون بعض الشيء في توضيح هذه الروايات المتضاربة. قال: «ومضى القوم حتّى بلغوا الشام [أي غسّان] وبالشام سليح وهو قَبِيل من قُضَاعة... فقالت غسّان لسَليح ارعونا بلدكم، قالوا لهم ليس لنا من الأمر شيء وذلك إلى الملك قيصر، فقالت لهم غسّان أنتم شفعاؤنا إليه فكلّموه في غسّان وأخذوا لهم منه عهدًا... وأذن لهم بالنزول فنزلوا الشام وأقاموا مع سليح وجاوروهم بأحسن جوار وعند غسّان كتاب من عند قيصر» (ص ٢٨٣، طبعه حيدر آباد الدكن، ١٣٤٧هـ).

(٦) **إمارة غسّان**، ص ١٢٨.

(٧) حمزة الأصفهانيّ، ص ١١٦.

(٨) اليعقوبيّ، **تاريخ**، ص ٢٣٥.

يرتفع إلى مصادر أخرى[٩]. ويرد ذكر موضع إقامة الإمبراطور بأنّه «أنطاكيه»، الذي يجوز بطبيعة الحال أن يكون مدينة أنطاكية المعروفة.

إنّ انتقال الغساسنة من الجزيرة العربيّة ونزولهم بأرض البلقاء، والتقاءهم بسَلِيح الذي لم يكن في الوسع تجنّبه، ثمّ محاولتهم اكتساب الشرعيّة لوضعهم بالمناطق الجديدة، كلّ هذه المراحل معروفة لنا بوضوح من المصادر العربيّة. وتؤكّد مادّة هذه المصادر أنّ وضع سَلِيح وزعمائهم كانت تتحكّم فيه شروط معيّنة، مثل قبولهم حماية حدود الإمبراطوريّة والتزامهم أيضًا بدفع الإتاوة. ولمّا طلب الغساسنة الإذن لهم بالنزول بحدود الإمبراطوريّة أكّدوا قبولهم للشروط نفسها التي ارتضتها سَلِيح من قبل، أي القيام بالالتزامات العسكريّة ودفع الضرائب، ممّا يتّفق تمامًا مع ما حدث في واقع الحال[١٠]. ومن الجائز أنّ فيلارك الغساسنة وأسرته قد التزموا بدورهم باعتناق المسيحيّة، متأسّين في هذا خطأ سليح. وعلى العموم فقد شيّد الغساسنة عددًا من البيع والأديرة، كما فعل جَفْنَة وبصورة خاصّة، ابن عمرو[١١].

وأكثر المسائل تعقيدًا هي المسألة التي تتّصل بزمان مجيء الغساسنة إلى الشام على وجه التحديد، وأيضًا باللحظة التي حلّوا فيها محلّ السَلِيح. ومادّة المؤرّخين العرب لا تسمح لنا ببلوغ حلّ نهائي ولكن حلّ أقرب إلى الصحّة. وذكر مدينة أنطاكية قد يسوق إلى الافتراض بأنّ الكلام يتعلّق بوقت عصيان إيلوس الذي نزل بعاصمة سوريّة على عهد الإمبراطور زَيْنون (٤٨٢ – ٤٨٤). كذلك من الجائز أنّ رئيس سَلِيح لم يتّجه إلى الإمبراطور بل إلى قائد القوّات البيزنطيّة بالمشرق والذي كان مقرّه عادة مدينة أنطاكية. واسم ملك الروم يرد مشوّهًا في المتن، ومن الممكن أن نقرأه على أنّه الإمبراطور أنسطاس. ممّا يتّفق تمام الاتّفاق مع معطيات الحوليّات البيزنطيّة. غير أنّه يستحيل بأيّة حال من الأحوال الاتّفاق مع الخطوط التي يقترحها قُعْوار [شهيد]، ومفادها أنّه في عام ٤٨٤م عُرض على الغساسنة البقاء بشريطة أن يقبلوا الاضطلاع بأعمال عسكريّة، هذا بينما أُلزموا على عهد أنسطاس باعتناق المسيحيّة ودفع الضرائب[١٢]. فلمّا تعقّد الوضع أكثر من ذي قبل جمع الغساسنة قواهم بالتدريج ودعّموا من وضعهم بالمنطقة. وإذا ما قبلنا رأي

(٩) نولدكه، **إمارة غسّان**، ص ٩٤.

(١٠) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ٢٢١.

(١١) أبو الفداء، **تاريخ الأمم**، ص ١٢٨.

(١٢) قعوار، **أيّام العرب السالفات** (١٩٥٨) ص ١٤٩.

نولدكه بأنّ زُوكُوم خرج من عشيرة ضَجْعَم، فإنّ الزعامة ظلّت في هذه العشيرة لأكثر من مائة عام، لأنّ زُوكُوم كان معاصرًا للإمبراطور فالنز (٣٦٤ – ٣٧٨).

إنّ للتنافس بين غسّان وسَلِيح وكِنْدَة أثرًا كبيرًا في علاقات بيزنطة والحيرة وحِمْير بعضها ببعض. وكان العرب من «بيت ثعلبة» ينتمون إلى كِنْدَة وكسبوا لأنفسهم وضعًا هامًّا في العشرات الأخيرة من القرن الخامس وكذلك في بداية القرن السادس. أمّا بخلاف هذا فإنّ اسم ثعلبة يرد أيضًا كاسم للشخص الذي قاد آل جفنة إلى الشام. وهذا بدوره يجعل من العسير التمييز بين العشيرتين، وإن لزم الاعتراف بأنّه ليس أمرًا بالغ الأهمّيّة بالنسبة لتاريخ العرب[١٣]. كذلك يجب الأخذ بعين الاعتبار أنّ أفعال بني ثعلبة كانت في مصلحة الكِنْديّين[١٤]. ونسبة بني ثَعْلَبة إلى الغساسنة[١٥] أمر غير صحيح في رأينا، فهم فرع من كِنْدَة اضطلع في تلك الأزمنة بدور قياديّ بالمناطق التي كانت تدور في فلك بيزنطة.

في التاريخ الكنسيّ للمؤرّخ أڤاغريوس يوجد روايات ذات طابع علمانيّ ترتفع في عدد الحالات إلى أوستافيوس الإيبيفانيّ، لأنّ أڤاغريوس ذكر المصدر الذي نقل عنه، والرواية المتعلّقة بالغساسنة والذين يسمّيهم بالإسْكِينيّين[١٦] وغارتهم يرجعها الباحثون إلى أوستافيوس هذا، الذي يعتبر مصدرًا من الدرجة الأولى في الأهمّيّة[١٧]. (ويُفهم منه أنّ البرابرة الإسْكِينيّين (الغساسنة) قد بذلوا جهدهم في «نيل الغلبة» على الدولة الرومانيّة، «فغزَوا أرض الجزيرة وفينيقية وفلسطين». وقد تقاتل قوّاد الروم معهم غير مرّة ولكنّ العرب «رجحت كفّتهم» وأخيرًا جنحوا إلى السلم فعقدوا الصلح مع الروم مجتمعين». لهذا من الجائز القول بأنّ الأمر إنّما يتعلّق بالغساسنة وأنّهم انضمّوا إلى معاهدة الصلح هذه[١٨]. ذلك أنّ الغساسنة الذين استقرّوا منذ عهد غير بعيد بالمنطقة وأصبحوا مصدر إزعاج لبيزنطة ينطبق عليهم بصورة خاصّة «البرابرة الإسْكِينيّون» ممّا يمكن تأكيده بالرأي الذي ورد في

(١٣) نولدكه، **إمارة غسّان**، ص ١٠.

(١٤) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ٢٢٢.

(١٥) قعوار، **الغساسنة والبيزنطيّين** (١٩٥٨) ص ٢٥٤ – ٢٥٥.

(١٦) لعلّه من الأوفق أن نضيف هاهنا أنّ لفظ «الإسكينيّين» مشتقّ من اليونانيّة Skené أي الخيمة. ويقصد بهم عادة أعراب بادية الشام الذين عرفوا ضربًا معيّنًا من الاستقرار، وعاشوا بمضاربهم عيشة أشبه بعيشة الحضر قريبًا من الحضر والريف. وذلك على خلاف البدو الرحّل المتنقّلين على الدوام.

(١٧) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ٢٢٢.

(١٨) قعوار، **الغساسنة والبيزنطيّين**، ص ٢٤٧.

حوليّات تيوفانيس تتحدّث تحت عام ٥٩٠ عن انتصارات الإستراتيج أوجينيوس وقائد قوّات فلسطين رومان لا على أُجْر (حُجْر) بن الحارث ثعلبان الكندي وحده، بل وأيضًا على «إسْكِينيّ» آخر غيره يدعى جَبَلَة» كان أغار على فلسطين لدوافع شخصيّة. وكان جَبَلَة هذا أبًا للحارث فيلارك الغساسنة[19].

أمّا الهجوم الذي قام به جند الروم على طول الحدود مع العرب فيمكن إرجاعه إلى عام ٤٩٧/٤٩٨، والأعوام التالية لذلك. والأرجح أنّه حدث في الأعوام الأخيرة من القرن الخامس والعامين الأوّلين من القرن السادس وتوّج باتّفاق شامل مع الروم لجميع «البرابرة الإسْكِينيّين[20]» ومن متن ثيوفانيس نرى أنّ غارات جَبَلَة كرأس للغساسنة لا علاقة لها بالكِنْديّين، وأنّ الغساسنة ثبّتوا أقدامهم وأخذوا بزمام المبادرة عقب طردهم لسَلِيْح[21].

من هذا كلّه يتّضح أنّ المجموعة الجديدة من القبائل التي كان يرئسها الغساسنة قد ثبّتت لنفسها حدود بيزنطة ودخلت معها في اتّفاق لحراسة حدود الإمبراطوريّة بل وأصبحت في وضع الحليف لها.

الملوك الغساسنة

منذ عهد الإمبراطور أنسطاس (٤٩١ – ٥١٨) اعترف الروم بالدور الهامّ الذي يستطيع الغساسنة القيام به بصفتهم حماة الحدود. وفي مطلع القرن السادس، أخذ هذا الدور يبرز بوضوح. وأوّل ملك للغساسنة وأعظمهم شأنًا هو الحارث بن جَبَلَة (٥٢٨ – ٥٦٩) الملقّب بالحارث الأكبر أو الحارث الأعرج. وقد ذكرته المصادر الإغريقيّة، بالإضافة إلى المصادر السريانيّة والعربيّة، ووصفت أعماله البطوليّة ومآثره الجليلة. ويقال إنّه منذ مطلع حكمه حارب المنذر الثالث ملك الحيرة وانتصر عليه في نيسان سنة ٥٢٨. وعلى أثر هذا الانتصار أقرّ له الإمبراطور يوستنيانس الأوّل (٥٢٧ – ٥٦٥) بالزعامة على العرب القاطنين في بلاد الروم، ومنحه لقب «البطريق». وكان هذا اللقب من ألقاب الشرق الفخمة لدى الروم، ولذلك فلم يكن يُمنح إلاّ لعدد قليل من الخاصّة. وكان يولي صاحبه امتيازات كبيرة ومنزلة رفيعة في الدولة حتّى إنّ بعض الملوك كانوا يشتاقون إلى الحصول

(١٩) نولدكه، **إمارة غسّان**، ص ٢٤٧.

(٢٠) نينا ڤكتورڤنا، **المصدر نفسه**، ص ٢٢٢.

(٢١) ثيوفانس، **المصدر نفسه**، ص ١٤١.

على هذا اللقب من القيصر. وقد منح يوستنيانس لقب «فيلاركس» أيضًا للحارث، أي رئيس القوم وزعيمه. فكان الحارث بذلك أوّل رجل من الغساسنة يُمنح اللقبين اللذين انتقلا منه إلى أبنائه فيما بعد.

إلاّ أنّ المنذر الثالث الحيريّ استعاد قوّته وغزا سوريّة عام ٥٢٩م وعاث فيها فسادًا حتّى بلغ هجومه على بلاد الشام أسوار مدينة أنطاكية، ولكنّه تراجع بسرعة خاطفة حينما سمع بمجيء قوّات كبيرة من جيش الروم.

أمّا الحارث الغسّانيّ فقضى أكثر أيّام ملكه يحارب في سبيل بيزنطية ويدأب على خدمة غاياتها. وقد تمّ له الاشتراك معها في قمع ثورة السامريّين قبل سنة ٥٣٠م. إلاّ أنّ تصرّف الحارث في الحرب التي نشبت سنة ٥٤١ بين الفرس والروم أثار شكوك الروم في إخلاصه لهم، إذ تخلّى عنهم ولم يقم بعمل يذكر في هذه الحرب التي كانت بقيادة بلساريوس البيزنطيّ.

وفي سنة ٥٤٤م، عاد النزاع فتجدّد بين الملكين العربيّين: الحارث الغسّاني والمنذر اللخميّ، فوقع أحد أبناء الحارث في يد المنذر الذي قدّمه ضحيّة للعزّى، كما ذكرنا سابقًا.

وفي سنة ٥٥٤م، فاز الحارث على خصمه اللخميّ في معركة حاسمة، دارت رحاها على مقربة من قِنَّسْرين، فيها سقط ملك الحيرة قتيلاً بالقرب من الحِيَار. وقد تكون المعركة التي سُمّيت «يوم حليمة» نسبة إلى حليمة بنت الحارث التي أبدت شجاعة خارقة في حضّ الرجال على مقاتلة الأعداء.

أمّا سبب الخلاف بين هذين الملكين العربيّين، فيقال إنّه كان على أرض تقع جنوبيّ تدمر، تمرّ بها الطرق البرّيّة الموصلة إلى بلاد الشام وهي من الطرق العسكريّة الهامّة ومرعًى خصب لأعراب العراق الشام. وقد شكّل الإمبراطور يوستنيانس لجنة تحكيم للبتّ في الموضوع ولكنّها عجزت عن حسم النزاع. وقد اتّهم الفرس أعداءهم الروم بأنّهم يريدون الاتّصال سرًّا بالمنذر ورشوته لتحريضه على القيام على الفرس.

المسيحيّة بين الغساسنة

أبقت لنا التواريخ السريانيّة شذرات جمّة من أخبار بني «جَفْنَة» الغسّانيّين تؤيّد تديّنهم بالمسيحيّة. ثمّ بانحيازهم إلى السريان (اليعاقبة) ومدافعتهم عن بطاركتهم وأساقفتهم

ورهبانهم. وتشير إلى ما شادوه من الأديار والكنائس في الأراضي التي نزحوا إليها واستعمروها، وتنبئ بما كان لملوكهم أو بطارقتهم وأمرائهم من المنزلة والنفوذ في بلاط قياصرة القسطنطينيّة، مستندين في ما نكتبه إلى مؤرّخي السريان المشاهير بدءًا من يوحنّا الآمديّ أسقف آسيا في القرن السادس حتّى المَفْريان غريغريوس ابن العِبريّ في القرن الثالث عشر.

من هم الغساسنة؟

الغساسنة أو الغسّانيّون أو بنو غسّان، قبيلة كبيرة من قبائل العرب تتحدّر فيما تتحدّر فيما قيل من كَهْلان بن سَبَأ. غادرت اليمن وطنها الأصليّ على أثر حدوث سيل العرِم نحو السنة ١٢٠م وأقبلت إلى بادية دمشق الشام وحلّت محلّ بني سَلِيح اليمنيّين فاستوطنت صحاري البلقاء والصفا وحوران وبرّيّة سوريا وجعلت الجابية في الجولان عاصمة لها. إتّخذ فريق من أمرائها مدينة الرصافة على شاطئ الفرات مركزًا لهم.

وكانت تلك البلاد في عهد مضى مُلكًا للسريان معروفة بدولة «باشان» أو «باسان» في جملتها جبل الدروز[1].

حدود بلاد الغساسنة

كانت حدود الأراضي الغسّانيّة شرقًا بادية سوريّة والفرات. وغربًا غور الأردنّ. وشمالاً سهول دمشق وحلب. وجنوبًا جبل جلعاد. وكانت جلعاد الحدّ الفاصل بين بلاد آرام وبلاد العرب وعند ذلك الجبل تمّ اتّفاق يعقوب أبي الأسباط وخاله لابان الآراميّ (السريانيّ) فنصبا كومة الشهادة وسمّياها لابان «ܝܓܪ ܣܗܕܘܬܐ» بلغته السريانيّة وسمّاها يعقوب «جلعاد» بلغته العبريّة[2].

فإلى هذه الأراضي الخصيبة نزح الغسّانيّون العرب فاستطابوا مروجها ورياضها واستحلّوا مزارعها وغزارة مياهها واتّخذوها مقرًّا لهم ولمواشيهم وامتزجوا بأهالي البلاد الأصليّين وتعلّموا لغتهم السريانيّة القريبة من لغتهم العربيّة. وبتوالي الأحقاب اتّسعت دائرة مملكتهم حتّى بلغت الرصافة عند الفرات الغربيّة[3]. غير أنّ عددهم لم يتغلّب بتّة على العنصر السريانيّ الأصليّ في بلاد سوريّة، بل بقي السهم الأكبر فيها للسريانيّين[4].

---

(١) الأب مارتين اليسوعيّ، **تاريخ لبنان**، ص ٣٦٠ – ٣٦٢.

(٢) **سفر التكوين** ٣١ – ٢٤.

(٣) **تاريخ الرهاويّ المجهول**، طبع ونشر البطريرك رحمانيّ ٨٠: ١٣٢.

(٤) **مجلّة المشرق** ٣: (١٩٠٠) ص ٢٦٨ و٢٧٣ و**مجلّة المشرق** ٥ (١٩٠٠) ص ٣٥٧ – ٣٦٠.

أصل لفظ غسّان

لم يتعرّض أحد فيما نعهد للتدقيق عن أصل لفظ «غسّان» وعن حقيقة معناه. فقد روى غير واحد من المؤرّخين أنّ الغساسنة بعد نزوحهم عن اليمين نزلوا على ماء يقال له «غسّان» وصيّروه شربهم فسُمّوا باسمه «غسّان»[٥].

ولفظة «غسّان» ليست عربيّة، لأنّ «غَسَنَ» العربيّ معناه «مضغ» والغسّان معناه «حدّة الشباب» والغسّانيّ معناه «الجميل جدًّا[٦]». فاللفظ إذًا سريانيّ. وفي تخريجه مذهبان: الأوّل أنّه مشتقّ من فعل (ܓܣܐ غـسا) بمعنى فاض الماء ومصدره «ܓܣܝܢܐ» «غَسْيَان» بمعنى الفيضان. والثاني قد يكون غسّان تحريف «بَسَان» بالباء بدلاً من الغين. ومن المعلوم أنّ العرب اليمنيّين بقدومهم إلى بادية دمشق نزلوا في أرض بَسَان التي كانت ملكًا للآراميّين. وقد ورد لفظ بَسَان نحو ٦٠ مرّة في العهد القديم، وأُطلق على الصحراء التي احتلّها الغسّانيّون، وهو في العبريّة بَشْنَن وفي السريانيّة ܒܫܢ بشان (بالشين). فنقله اليونان وغيرهم إلى لغاتهم فصار Bsina بقلب الشين سينًا لخلوّ تلك اللغات من حرف الشين. ثمّ إنّ قلب الباء العبريّة والسريانيّة غينا في لفظ «بسان» قد يكون إمّا لتشابه حرفَي الباء والجيم في كلتا اللغتين أو أنّ العرب أنفسهم حرّفوا اللفظ كما حرّفوا ألفاظًا جمّة عن اللغات الأعجميّة.

فالخلاصة أنّ لفظ «غسّان» ليس عربيًّا بتّة لكنّه آراميّ سريانيّ قد يكون من فعل «غسا» أو تحريف «بسان».

أمراء الغساسنة

إزداد عدد الغسّانيّين في بادية الشام على كرور الأحقاب وقويت شوكتهم، فلم يَرَ القياصرة إلاّ أن يعقدوا لكبيرهم أو شيخهم الولاية على تلك الأطراف ليردّوا عن أراضي مملكتهم خصوصًا غارات العرب المناذرة عمّال الدولة الفارسيّة. وأطلقوا على ذلك الشيخ لقب «أمير» أو «بطريق» أو «ملك» وفوّضوا إليه إدارة بني قومه على مبلغ معلوم يؤدّيه لهم. وتسلسلت تلك الإمارة فيهم تسلسلاً متواصلاً منذ القرن الثالث للميلاد حتّى القرن

(٥) الأب لويس شيخو، **مجاني الأدب** ٣: ٣٢١ نقلاً عن حمزة الأصفهانيّ.

(٦) **أقرب الموارد** للأستاذ سعيد الشرتونيّ ص ٨٧٣.

السابع. وعُرفوا أوّلاً باسم آل جَفْنَة[٧] ܓܦܢܐ تيمّنًا باسم قائدهم الأكبر الذي جاء بهم عام ٢٠٥م إلى بادية سوريّة وتولّى شؤونهم حتّى السنة ٢٤٨م وخلفه ابنه عمرو فابنه ثعلبة فالحارث الأوّل فابنه جَبَلَة الأوّل فابنه الحارث الثاني، ثمّ قامت بعده زوجته الأميرة معاوية أو ماويا عام ٣٧٣، فانتشرت المسيحيّة في عهدها بين العرب انتشارًا عظيمًا.

الأميرة معاوية المسيحيّة

إشتهرت هذه الأميرة النبيلة في عهد والنس قيصر (٣٦٤ - ٣٧٩) ودافعت بكلّ قواها عن الدين المسيحيّ فأحرزت ذكرى مجيدة أثبتها مؤرّخو السريان وغيرهم في ما خلّفوه من الأخبار الصحيحة.

قال ميخائيل الكبير (١١٦٧ - ١١٩٩) ما تعريبه: «كلِف الحارث ملك العرب بجمال معاوية المسيحيّة الروميّة فتزوّجها. وعلى أثر وفاته خلفته في العرش الملكيّ وأخذت تعنّت من في ممتلكاتها من المسيحيّين الروم وتضطرّهم إلى ما يصعب عليهم أداؤه. ثمّ كتبت إلى والنس قيصر المتحزّب للآريوسيّين تسأله أن يرخّص في إقامة الراهب موسى أسقفًا للمسيحيّين العرب وإلاّ فإنّها تتمادى في الضغط على الروم. فلمّا لم يرَ القيصر إلاّ النزول عند طلبها، قرّر أن يتولّى «السيامة» أسقف آريوسيّ، غير أنّ الراهب موسى لم يرض أن يقبل «السيامة» إلاّ بوضع يد أسقف أرثوذكسيّ فتمّ له ذلك بهمّة معاوية الملكة وتقلّد الرئاسة الأسقفيّة وعاد إلى بلاده فانضمّ إلى المسيحيّة على يده جماهير غفيرة من العرب تساعده الملكة المؤمنة في جهاده المقدّس بكلّ استطاعتها[٨]».

وكان ذلك مدعاة إلى عقد الاتّفاق بين الروم والعرب، وانضمام العرب إلى الدين المسيحيّ[٩].

(٧) **تاريخ الرهاويّ المجهول** ٨٠: ١٣٢.

(٨) وهناك نصّ آخر يختلف عن الذي أعلاه وهو: «في هذه الفترة كبّدت معويز ملكة العرب للرومان ضيقات جسيمة حيث اشترطت للسلام معهم، رسامة الناسك موسى من البرّيّة أسقفًا للمسيحيّين العرب فوافق الملك. غير أنّ موسى رفض قبول الرسامة من الآريوسيّين، وأرادها من الأساقفة الأرثوذكسيّين المنفيّين، فأمر الملك أن يكون له ما يريد. وبعد رسامته اهتدى كثيرون من العرب على يديه. أمّا الملكة فكانت أصلاً رومانيّة غُنِمَت في الحرب، وإذ كانت جميلة تزوّجها ملك العرب، وظلّت محافظة على إيمانها. ولمّا قبضت على زمام الملك هدت إلى المسيحيّة أعدادًا كثيرة. (تاريخ ميخائيل الكبير، طبع الأب شابو في باريس، ص ٢٥١ من الأصل السريانيّ. وترجمة الخوري إسحق أرملة. أمّا المطران صليبا شمعون فترجمه بالصيغة الثانية، طبعه عام ١٩٩٦، ص ٢٢٥ طبعة حلب ج١).

(٩) ابن العبريّ، **تاريخ الدول السريانيّ**، طبع الأب بولس بيجان في باريس، ص ٦٥ و٦٦.

سلسلة الملوك الغساسنة

أطلق القدماء على أمراء غسّان وملوكها تارة اسم «جَفْنَة» وطورًا اسم «الحارث» فأُشكِل من ثمّ على ثقات المؤرّخين ضبط أسمائهم وسني حكمهم ووفاتهم. على أنّ بعض المستشرقين دقّقوا وعمّقوا كثيرًا في درس أخبار أولئك الأمراء حتّى توصّلوا إلى إنشاء سلسلة لهم لا بأس من سردها على علاّتها كما يلي:

أوّل من تولّى إمارة غسّان كما ألمعنا هو جَفْنَة (٢٠٥ – ٢٤٨م) وخلفه ابنه عمرو (٢٤٨ – ٣٠٠) ثمّ قام ابنه ثَعْلَبَه (٣٠٠ – ٣٠٣) فقلّده قياصرة الروم الإمارة على سكّان بادية الشام وحوران. وتولّى الإمارة بعده الحارث الأوّل (٣٠٣ – ٣٣٠) وخلفه ابنه جَبَلة الأوّل (٣٣٠ – ٣٦٠) فجاهر بالمسيحيّة ونهج نهجه خلق كثير. وتولّى بعده ابنه الحارث الثاني (٣٦٠ – ٣٧٣) وعلى أثر وفاته أفضت الإمارة إلى زوجته معاوية (٣٧٣ – ٣٨٠) فانتشرت المسيحيّة في غسّان بجهودها ونفوذها.

وبعد الملكة معاوية قام بالإمارة الغسّانيّة المنذر الأوّل فالنعمان فجَبَلة الثاني فأَيْهمُ الأوّل فعمرو الثاني. وقد استغرقت إمارتهم زهاء ٤٠ سنة (٣٨٠ – ٤٢٠). وبعد هؤلاء الخمسة تولّى جَفْنَة الثالث فالنُّعمان الثاني فالنعمان الثالث فالنعمان الرابع فالحارث الثالث فالنعمان الخامس (٤٢٠–٤٩٠) ونهض بالإمارة بعد هؤلاء الستّة المنذر الثاني فعمرو الثالث فحُجْر الأوّل فأبو شَمِر وهو الحارث الرابع فجَبَلَة الثالث. وقد ساسوا العرب الغساسنة ٣٩ سنة (٤٩٠ – ٥٢٩). ومالوا إلى عقيدة السريان القائلين بالطبيعة الواحدة (اليعاقبة).

وتقلّد الإمارة عام ٥٢٩ الحارث الخامس ابن جَبَلة الثالث حتّى السنة ٥٦٥ وولّى بعده ابنه المنذر الثالث (٥٦٥ – ٥٨٠) وخلفه الحارث السادس الأصغر ويقال له جَبَلة الرابع (٥٨٠ – ٥٨٧) وجلس بعده عمرو الرابع (٥٨٧ – ٥٩٧).

وفي السنة ٥٩٧ أفضت الإمارة إلى النعمان السادس حتّى السنة ٦٠٠ واشتهر اسمه بأبي جَفْنَة أو أبي كَرْب[١٠] وقام بعده حُجْر الثاني فعمرو الخامس (٦٠٠ – ٦١٥) فالحارث

(١٠) **مخطوطة**، المتحف البريطانيّ السريانيّة رقم ٥٨٥.

السابع وشُرَحْبِيل وأَيْهَم الثاني والمنذر الرابع (٦١٥ – ٦٣٠) ثمّ عمرو السادس وجَبَلة الخامس وجَبَلة السادس (٦٣٠ – ٦٣٧) وهو آخر الأمراء الغسّانيّين[١١].

يُستنتج من هذه السلسة أنّ الإمارة الغسّانيّة استغرقت ٤٣٢ سنة بدؤها السنة ٢٠٥م. ونهايتها السنة ٦٣٧م.

أساقفة الغساسنة

أوّل من تولّى أسقفيّة غسّان هو الأسقف موسى السابق الذكر. وجاء في قيود المجمع النيقاويّ المسكونيّ الأوّل عام ٣٢٥ أسماء ستّة من أساقفة البلاد العربيّة بينهم أساقفة بصرى وفيلدلفيا وحَشْبون وقنوات وتدمر[١٢].

وحضر المجمع القسطنطينيّ المسكونيّ الأوّل عام ٣٨١ أسقفان من بلاد غسّان هما: أسقف أَذْرُع، وأسقف السويداء[١٣].

أمّا المجمع الخلقيدونيّ المسكونيّ فقد حضره ٦٣٦ أسقفًا عام ٤٥١ منهم أساقفة مطرانيّة بصرى حاضرة حوران وهي سادس مطرانيّات الكرسيّ الأنطاكيّ. وكان يخضع لها ١٩ أسقفًا حضر منهم المجمع المشار إليه أحد عشر أسقفًا[١٤].

الأساقفة الأوّلون

ما كادت تنتشر عقيدة المجمع الخلقيدونيّ المقدّس في تأييد الطبيعتين الإلهيّة والإنسانيّة بالسيّد المسيح حتّى راح يناهضها فريق من أساقفة السريان ولا سيّما في أبرشيّات غسّان العامرة. فقد تشبّثوا كلّ التشبّث بعقيدة الطبيعة الواحدة، وحامى عنها أمراؤها بكلّ نفوذهم. وإليك أسماء من وصلت إلينا معرفتهم من أولئك الأساقفة وأبرشيّاتهم:

يوحنّا أسقف الرهبان العرب في حَوارين.

توما أسقف يبرود.

إيسيدور أسقف قِنَّسْرين.

(١١) شرح **مجاني الأدب** للأب لويس شيخو، ١: ٥١٢.

(١٢) **مخطوطة دير الشرفة** ٤ – ٧ ص ٨٣ من الفهرس.

(١٣) ميخائيل الكبير ١٦٠.

(١٤) ميخائيل الكبير ١٩٧ و١٩٨ و٢٠٠ **ومجلّة الآثار الشرقيّة** السنة الأولى: ص ٣٠٠ إلخ...

توما أسقف قَرْقيسيا.

توما أسقف الرَّقة.

بطرس أسقف قبيلة مَعَدّ.

فالغ أسقف المناذرة[١٥].

فهؤلاء وخلفاؤهم من بعدهم واصلوا التمسّك في مقولة الطبيعة الواحدة قرونًا عديدة حتّى هذا اليوم.

الحارث الخامس وأفرام الأوّل

فاق الحارث الخامس (٥٢٩ – ٥٦٥) سائر أمراء الغساسنة أسلافه وخلفاءه في غلوّه بالمذهب السريانيّ (الطبيعة الواحدة) ودفاعه عن القائلين به، وذلك حمل يُسطنيان قيصر (٥٢٧ – ٥٦٥) أن يكتب إلى أفرام الأوّل البطريرك الأنطاكيّ[١٦] (٥٢٦ – ٥٤٥) ليقصد بلاد غسّان ويواجه الحارث ويحادثه في العدول عن رأيه والخضوع لعقيدة المجمع الخلقيدونيّ[١٧].

لبّى البطريرك طلب القيصر وارتحل مع حاشيته إلى غسّان واجتمع بالحارث الخامس وجرت بينهما مناقشة لم تتجاوز معقول الأمير ومفهومَه. فلم ينجح البطريرك في رسالته. وبعد هذا وجّه البطريرك أفرام إلى آمد (دِيار بَكْر) وطنه جنودًا قصدوا دير ماما وكان ديرًا عظيمًا خاصًّا بالرهبان فتهدّدوا رهبانه واضطرّوهم قاطبة أن يتبعوا عقيدة المجمع الخلقيدونيّ فرفضوا كلّ الرفض وهجروا ديرهم وتفرّقوا شذَرَ مَذَر في جنوبيّ آمد وبراري غسّان[١٨]، التي كانت حافلة بالأديار.

وقد حدّثنا مار ميخائيل الكبير بأنّ هؤلاء العرب المسيحيّين كانوا يمقتون المجمع الخلقيدونيّ حتّى إنّهم لم يؤاكلوا أتباعه. فعندما توجّه البطريرك أفرام الآنف الذكر، وكما أشرنا بأمر القيصر (يُسطنيان) لزيارة ملكهم الحارث بن جبَلة، ولمّا قابله، سأله قائلاً: ما بالكم تمقتوننا والكنيسة؟

(١٥) ميخائيل السريانيّ الكبير ص ٢٦٦.

(١٦) إسحق أرملة، **الزهرة الذكيّة**، ص ٢٨ – ٢٩.

(١٧) ميخائيل السريانيّ الكبير ص ٢٧٤ و٢٧٩ و٢٨٣ و٢٨٨ و٣١٠.

(١٨) يوحنّا أسقف آسيا (الأفسسيّ) خبر ٣٥ ص ٦٢١.

فأجابه الحارث: إنّنا لا نمقت كنيسة الله لكنّنا نبتعد عن الشرّ الذي أدخلتموه على الإيمان، وذلك بعملكم رابوعًا بدلاً من الثالوث، وبغضكم على الناس ليكفروا بالإيمان الحقّ.

فقال أفرام: هل من العدل واللياقة أيّها الملك أن يُحرم مجمع عدد أعضائه ٦٣٠ أسقفًا، ويقبل أولئك القليلون وهم هراطقة؟ فأجابه الحارث: إنّي رجل بدويّ (بربريّ) وعسكريّ، ولم أقرأ الكتب، ولكنّي آتيك بالبرهان التالي: إذا أمرت عبيدي أن يُعدّوا مأدبة لجنودي، ويملأوا المراجل لحم الخراف والثيران الطاهر ويطبخوه، فإذا حدث ووجدت فيها فأرة صغيرة، بحياتك قل لي أيّها البطريرك هل سيتنجّس كلّ ذلك اللحم النقيّ من تلك الفأرة أم لا؟

فأجاب بلى.

فقال الحارث: فإذا تنجّس لحم كثير من فأرة صغيرة نجسة، فكيف لم يتنجّس مجمع الذين سلّموا بالبدعة النجسة حين كتبوا موافقتهم على طومس لاون الفارة الصغيرة؟

وإذ عجز أفرام عن الجواب، أخذ يُلحّ عليه ليتناول من قربانه.

فقال له الحارث: إجلس اليوم إلى المأدبة معنا.

فأمر عبيده باللغة العربيّة أن يضعوا على المائدة لحم الجمل وحده. ولمّا فعلوا سأل الحارث أفرام أن يبارك المائدة فأبى.

فأكل الحارث كعادته.

فقال له أفرام لقد نجّستم المائدة بوضعكم لحم الجمل عليها.

فقال الحارث وما بالك إذن تضطرّني إلى تناول قربانك وأنت تتنجّس من طعامي؟ فاعلم جيّدًا أنّه بقدر ما تكره أنت لحم الجمل هذا الذي نأكله نحن، بهذا المقدار نكره نحن قربانك، لاحتوائه على الكفر وعلى نبذ الإيمان القويم.

فخجل أفرام وبرح المكان دون أن يتمكّن من أن يُضلّ الحارث[١٩].

ذلك كان شأن الحارث بن جبَلة. أمّا ابنه المنذر فلم يكن أقلّ منه تحمّسًا للأرثوذكسيّة،

(١٩) **تاريخ** مار ميخائيل الكبير ص ٣١٠ و٣١١ و**المجلّة البطريركيّة** – دمشق – السنة السادسة ص ٣٦٣ – ٣٦٤.

حتّى إنّ يُسطنيان الثاني قيصر الروم (٥٦٥ – ٥٧٨) أرسل كتابًا إلى القائد موريقي يأمره فيه بقتله، وأرسل إلى المنذر كتابًا آخر ليشخص إلى موريقي كي يفاوضه في أمور هامّة. بيد أنّ الحيلة انكشفت بدون قصد، إذ وضع كتاب كلّ منهما ضمن مغلّف الآخر خطأ. وهكذا استلم المنذر من رسول القيصر الكتاب الذي يأمر بقطع رأسه، ما جعل القبائل العربيّة أن تتسلّح وتسهر ليل نهار على ملكها، متأهّبة لتقاتل كلّ الروم الذين سيأتون إليهم. وكلّ من بلغه خبر هذه المكيدة الشنيعة على المنذر، استنكرها، حتّى تصاعدت ضجّة الاستنكار إلى القيصر الذي سأل رؤساء الشرق وقوّاده ليتوسّطوا لدى المنذر من أجل المصالحة. بيد أنّ المنذر أبى ذلك قائلاً: «ثقوا أنّني سأقاوم بالقوّة كلّ من يأتيني من قبل الروم، وليس بيننا سوى السيف. فإمّا يقتلونني أو أقتلهم. وقاني الله من الثقة بأيّ روميّ كان. فأنا مستقلّ عنكم وعن إمبراطوركم[٢٠]».

وفي سنة ٥٨٠م وشى موريقي بالمنذر إلى القيصر طيباريوس للإيقاع به[٢١]، لا لشيء إلّا لحماية إخوانه الأرثوذكسيّين القائلين بالطبيعة الواحدة[٢٢].

يقول الدكتور أسد رستم: «ظلّت سلطات الروم حاقدة حائرة في أمر هذا الأمير. ولعلّ السبب في هذا يعود إلى الفارق المذهبيّ وتوتّر الأعصاب. فالعاصمة وأمّهات المدن... نظرت شزرًا إلى سياسة التساهل مع اليعاقبة (كذا) وتاقت إلى تجريد كنائس هؤلاء من حماتها. فصدرت أوامر مشدّدة إلى مَغْنوس حاكم سوريّة بالقبض على الأمير العربيّ، فأُلقي القبض عليه وأُرسل مخفورًا إلى القسطنطينيّة[٢٣]».

أمّا المؤرّخ يوحنّا الأفسسيّ المعاصر للحادث، فيحدّثنا بالتفصيل عن الخيانة التي أتاها مَغْنوس الذي كان صديقًا حميمًا للمنذر وبحكم هذه الصداقة ركن إليه المنذر وتوجّه إليه إلى حَوارين، مجرّدًا من السلاح والحرس، فقبض عليه ضاربًا بالصداقة عرض الحائط كالآتي:

«اتّفق موريقيوس عندما كان قائدًا للجيوش الرومانيّة في الشرق مع المنذر بن الحارث

---

(٢٠) راجع **المجلّة البطريركيّة**، السنة الأولى، ص ٣٠٨ – ٣٠٩ نقلاً عن كتاب «العرب المسيحيّون في ما بين النهرين وسوريّة في القرن السابع حتّى الثامن» بقلم الأب فرانسوا نو.

(٢١) **تاريخ ج٣** سفر ٣ راس ٤٠.

(٢٢) د. أسد رستم، **الروم**، ج١ ص ٢٠٥.

(٢٣) د. أسد رستم، **كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى**، ج١ ص ٣٩٦.

(٥٧٠ – ٥٨٢)[٢٤] ملك العرب[٢٥]، على العبور من سوريّة إلى أرض فارس. ومرّت أيّام حتّى بلغا قبالة أرض الآراميّين حيث توجد طَيْسَفُون (المدائن) مدينة (عاصمة) ملك الفرس. فوجد الاثنان أنّ الجسر أمامها مقطوع، ذلك الجسر الذي خطّطا للعبور منه إلى العاصمة الفارسيّة والاستيلاء عليها. وبعد ذلك تخاصم الاثنان بعد أن ثار العداء بينهما وتخاصما سويًّا، ولم ينفّذا شيئًا ممّا خطّطا له. وشرح الاثنان منذئذ في شكاية بعضهما البعض عند الملك طيباريوس. وحاول الملك التوفيق بينهما بوسائل كثيرة. ولمّا فشل مسعاه توجّه إليه موريقيوس وشكى المنذر بعنف وبغير وجه حقّ. واقتنع الملك بشكواه وامتلأ غيظًا على المنذر. وفكّر كيف يحتال للقبض عليه والإتيان به إلى العاصمة. وكان الوصيّ مَجْنا (مَغْنُوس) السوريّ[٢٦] صديقًا للمنذر وسندًا له عند الملك، وكان المنذر يثق بأنّه يحقّق له ما يطلبه من الملك. ولقد أراد مَغْنُوس (مَجْنا) أن يتملّق الملك فقال له: «أنا آتيك به مكبّلاً بأغلال، إن أمرت بهذا». ففرح الملك وأرسل مَجْنا ببريد الشرق إلى قرية تسمّى حُرِّين[٢٧]، تلك التي أسّسها الملك وجعلها مدينة بعد أن أحاطها بسور ضخم وبنى بها كنيسة. وقد توجّه مَجْنا إلى هناك بحجّة تقديس الكنيسة، واصطحب معه بطريرك أنطاكية جريجور الأنطاكيّ (٥٧٠ – ٥٩١م)، حتّى يستطيع خداع المنذر فيأتي إليه. وبعد وصول مَجْنا إلى تلك القرية خدع المنذر وأرسل له يقول: «إنّني أتيت من أجل تدشين هذه الكنيسة، وأنا متعب من الطريق وإلّا لكنت توجّهت إليك للاطمئنان على صحّتك فأرجوك أن تأتيني فورًا، ولا تصطحب معك جُندًا كثيرًا لأنّني أريدك أن تقضي معي عدّة أيّام لكي نتسامر سويًّا، فلا تُجهز نفقات كبيرة لجيش كبير، بل اقدم إليّ مع نفر قليل من جندك[٢٨]».

---

(٢٤) أنظر ثيودور نولدكه، **أمراء غسّان**، ص ٢٤ – ٣١.

(٢٥) الطائيّين بالسريانيّة المقصود منها الأعراب في ذلك الوقت أو العرب عمومًا. أنظر، جواد عليّ، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣ ط٣ ص ١٧٣.

(٢٦) كان ماجنوس كونت المنح المقدّسة في عهد جستنيان الثاني. وكان حاكمًا لأنطاكية. أنظر نينا بيجولفسكيا، العرب على حدود إيران ص ٢٤٩.

(٢٧) حُرِّين بالضم ثمّ الكسر والتشديد، بلد بالقرب من آمد. وورد في تاريخ الرها بالسريانيّة سنة ١٢٣٤م أنّها قرية على مشارق حمص. أنظر ياقوت الحمويّ، معجم البلدان، ج٢ ص ٢٥٢.

(٢٨) يوحنّا الأفسسيّ، **تاريخ الكنيسة**، الكتاب الثالث، الفصل الأربعون ترجمة المرحوم والدنا الشمّاس بطرس متّي قاشا وهو في خزانتنا.

القبض على المنذر بن الحارث

ويمضي المؤرّخ الكنسيّ يوحنّا الأفسسيّ في حديثه فيقول:

«فرح المنذر بعد أن تسلّم رسالة مَجْنا، وتوجّه إليه بثقة في الحال، ولم يصطحب معه سوى قلّة من جنده. وكان كمن هو ذاهب إلى صديق حميم له. فلم يشعر المنذر بأدنى خوف البتّة. أمّا مَجْنا فأراد أن يُخفي خدعته الماكرة واستقبل المنذر بشاشة، وأمر فأقيمت له مأدبة الطعام وقال للمنذر «أطلق من جاؤوا معك» فأجابه المنذر قائلاً: قد جئتك مع قلّة من جنودي كما أمرت؛ فلا أستطيع العودة دونهم وإن كانوا قلّة» فردّ عليه مجنا بقوله: «أطلقهم وعندما تعود أرسل في طلبهم فيأتونك».

«أمّا المنذر فلم يحسُن له هذا التصرّف، إذ كان رجلاً ذا خبرة كبيرة، وبدأ يرتاب في أمر مَجْنا، وأمر جنده بالابتعاد قليلاً وانتظاره. فلمّا ابتعدوا أمر مَجْنا القائد المرافق له بجنوده بالاستعداد في هدوء. ولمّا جُنّ الليل قال مَجْنا للمنذر: «سيّدي البطريق[٢٩]، لقد شكيت عند الملك وأمرك بالذهاب إليه والاعتذار وإقناعه بأنّ ما أشيع عنك ليس صحيحًا». فردّ عليه المنذر بقوله: «بعد كلّ ما قمت به من جهود من أجل الروم، لا أظنّ أنّ الملك يقبل منّي افتراءات، فأنا عامل الملك وهو لم يطلب منّي الذهاب إليه، ولكنّني لا أستطيع أن أترك معسكري الآن فيأتي عرب الفرس ويسبون نسائي وأولادي وكلّ ممتلكاتي».

«وبعد ذلك ظهر الجنود الرومان المسلّحون وأمر مَجْنا المنذر قائلاً: «إن لم تأتِ معي بإرادتك، أقيّدك بالأغلال وأُركبك حمارًا وأُرسلك على هذا النحو المهين إلى الملك». فتيقّن المنذر حينئذٍ من خديعة مَجْنا. ولمّا أدرك أنّه جرّده من جنوده، وحبسه وأسلمه لجنود رومة ليحرسوه، خارت قواه وكأنّه أسد بريّ سقط في شرك. أمّا جنود المنذر فلمّا علموا بما حدث له حاصروا الحصن واستعدّوا لإحراقه. لكنّهم ابتعدوا عنه ما إن ظهر لهم جنود الروم وهم مستعدّون للقتال. أمّا المنذر فقد أخرجوه وهم يحاصرونه تحت حراسة مشدّدة، ووصل المنذر على هذا النحو المهين إلى العاصمة. ولمّا دخل القصر الإمبراطوريّ أمر الملك أن تُفكّ قيوده ويكون حرًّا كما كان من قبل وخُصّصت له ولمن معه نفقة لإقامته. وأقام

(٢٩) البطريق، كلمة لاتينيّة (رومانيّة) أي قائد الجيش.

المنذر على هذا النحو رغمًا عنه مع إحدى زوجاته[٣٠]، واثنين من أبنائه وابنته دون أن يقابله أحد[٣١].

وفي سنة ٥٨٢م ملك موريقي (موريقوس) فأمر بإبعاده إلى جزيرة صقلّية.

أبناء المنذر الأربعة

يقول المؤرّخ يوحنّا الأفسسيّ ما نصّه معرّبًا:

«أمّا أبناء المنذر الأربعة وخاصّة ابنه الأكبر النعمان[٣٢] وكان أشدّ بأسًا من أبيه في ساحة القتال، فقد جمعوا جنودهم وانقضّوا على حصن مَجْنا بعد أن توجّه إلى الملك. فنهبوا كلّ ما وجدوه بالحصن من ذهب وفضّة ونحاس وحديد وملابس صوفيّة وقطنيّة وغلال وخمر وزيت. كما خطفوا قطعان الماشية كلّها من أبقار وثيران وخراف وماعز وكلّ ما وقع تحت أيديهم، دون أن يقتلوا أحدًا أو يحرقوا شيئًا، ثمّ هاجمت جنودهم القرى المحيطة والقرى السوريّة المجاورة لها. وخرجوا منها بغنائم لا حصر لها، ثمّ لاذوا بالبرّيّة الداخليّة وأقاموا معسكرًا كبيرًا، وتقاسموا الغنائم وهم متحفّزون وعلى استعداد للقتال ويراقبون كلّ ما حولهم. وخرجوا ثانية بعد ذلك ونهبوا البلاد وخطفوا الماشية ثمّ عادوا إلى البرّيّة، حتّى اضطرب إقليم الشرق كلّه الممتدّ إلى البحر الأبيض. وكان سكّان المدن يلوذون بمدنهم ولا يتجاسرون على الظهور أمامهم. وأرسل حكّام المدن وقادة الجيوش إليهم يسألونهم «لماذا تفعلون كلّ هذا». فأجابوهم بقولهم «ولماذا اقتاد الملك أبانا كالأمير بعد كلّ ما قام به من جهود وحقّقه من انتصارات وبطولات مدافعًا عنه، ثمّ قطع الملك المعونات عنّا، ونحن لا نملك ما نقتات منه، لذا نحن مضطرّون للقيام بالسلب والنهب، وحسبنا أنّنا لا نقتل الأهلين أو نحرق المدن». ثمّ توجّه أبناء المنذر وجنودهم إلى مدينة بصرى[٣٣]. فحاصروها وقالوا لقادتها «أعطونا سلاح أبينا ومقتنياته الملكيّة التي بحوزتكم فإن لم تفعلوا سنهدم

(٣٠) نولدكه، **أمراء غسّان**، ص ٣١ حاشية ٧٩.

(٣١) يوحنّا الأفسسيّ، **تاريخ الكنيسة**، الفصل الحادي والأربعون.

(٣٢) ذكر جرجي زيدان أنّ والد النعمان هو الحارث الملقّب بأبي كَرِب في المصادر العربيّة، وذكر ابن قُتيبة أنّ للنعمان بن الحارث أبي كَرِب ثلاثة أبناء أحدهم يدعى النعمان بن النعمان. أنظر حمزه الأصفهانيّ تاريخ سني ملوك الأرض ص ٧٨ — ٨٠.

(٣٣) بُصرى بالضم اسم موضعين أحدهما بالشام من أعمال دمشق وبصرى أيضًا من قرى بغداد. (أنظر ياقوت الحمويّ، **معجم البلدان**، ج١ ص ٤٤١).

ونحرق ونقتل كلّ ما نجده في مدينتكم وفي كورها «فلمّا سمع قائد الجيش كلامهم، وكان رجلاً شهيرًا خبيرًا بفنون القتال» تملّكته الحميّة وجمع جنده وخرج لقتالهم، بعد أن استهان بهم كأعراب. واصطفّ جنود العرب في مواجهته وتغلّبوا عليه، وقتلوه وأكثر جنده. فلمّا رأى أهل المدينة ذلك المشهد اضطربوا وأرسلوا إليهم قائلين: «دعكم من القتال ونحن نردّ لكم مالكم، فخذوه بسلام واتركونا». وهكذا أخرجوا لهم مقتنيات أبيهم فأخذوها وعادوا أدراجهم صوب معسكرهم في البرّيّة. وظلّوا زمنًا طويلاً ينهبون ويسلبون المدن.

حاكم أنطاكية إلى أبناء المنذر

تضايق الملك طيباريوس جدًّا عندما سمع بما كان من أبناء المنذر، فأرسل مَجْنا (مَغْنوس) إليهم للمرّة الثانية، لكي يقيم أخا[٣٤] المنذر ملكًا عليهم خلفًا لأخيه المنذر، وإذا استطاع أن يخدع أبناء المنذر أو يتملّقهم فيخضعهم أو يحاربهم ثمّ يقبض عليهم. وأمر الملك قضاة المدن والقادة بالذهاب معه بصحبة جيش جرّار، وهكذا خرج مَجْنا في استعراض عظيم. وفي البداية أقام أخا المنذر ملكًا وقد مات بعد عشرين يومًا. واختارت القبائل النعمان رئيسًا عليها، فكتب مَجْنا إليه ليأتيه قائلاً «إذا جئتني أقيمك مكان أبيك. فأتى النعمان بغلام وألبسه رداءه وأرسله إلى مَجْنا مع نفر من الجنود. فلمّا رآه مَجْنا قال له «هل أنت النعمان» فأجابه الغلام «نعم أنا هو النعمان، وقد أتيتك كما أمرت» وعندئذ أمر مَجْنا جنوده بقوله: «ها هو عدوّ الملك، كبّلوه بالأغلال». فضحك الغلام وقال: «لقد انخدعتم مثلما أردتم أن تخادعوا، وحقّ المسيح لست أنا النعمان» وأراد مَجْنا أن يقتله، أمّا الغلام فقال «كان ملكي سيقتلني إن لم أقدم إليك، وكان الموت مصيري لأنّني جئت إليك، إذًا الموت راحة لي». لهذا سجنه مَجْنا بعد أن عذّبه ثمّ مات مَجْنا القاتل الشرّير[٣٥].

وعندما صار موريقيوس ملكًا، أرسل المنذر بن الحارث إلى المنفى[٣٦].

القبض على النعمان

وفي سنة ٥٨٤م استهان النعمان بن المنذر بنفسه وشخص إلى موريقيوس (موريقي)

(٣٤) ورد في تاريخ الرها لسنة ١٢٣٤م أنّ طيباريوس أمر مَجْنا بالقبض على أبناء المنذر الأربعة، وأن يصير هو أي مجنا ملكًا على العرب.

(٣٥) يوحنّا الأفسسيّ، **تاريخ الكنيسة**، الكتاب ٣، الفصل ٤٣.

(٣٦) يوحنّا الأفسسيّ، **تاريخ الكنيسة**، الكتاب ٣، الفصل ٥٤.

الذي رحّب به وأقسم له بأنّه إذا قاتل الفرس - كما أسلفنا - أطلق سراح والده، وسأله أن يشترك مع الخلقيدونيّين. فاعتذر النعمان قائلاً: إنّ جميع القبائل العربيّة هي «أرثوذكسيّة»، فإذا اشتركت مع الخلقيدونيّين قتلوني. ومن جرّاء هذا اشتدّت كراهيّته له. ولمّا خرج النعمان أقسم بأنّه سوف لن يرى وجه الروم باختياره. فبلغ الروم هذا الكلام، فقبضوا عليه وألحقوه بوالده. فانقسمت دولة العرب إلى خمس عشرة فرقة، انضمّ معظمهم إلى الفرس وبعضهم إلى الروم (الخلقيدونيّين) وهكذا انقرضت دولة العرب المسيحيّين الغساسنة بسبب كيد الروم.

ويسرد لنا الخبر المؤرّخ يوحنّا الأفسسيّ في كتابه ما نصّه تحت عنوان «خبر وصول النعمان بن المنذر إلى العاصمة، فيقول:

«بعد ذلك تجاسر النعمان وتوجّه إلى الملك موريقيوس، فاستقبله بحفاوة وأقسم له أنّه إذا حارب الفرس سيعيد أباه من المنفى. وطلب منه الانضمام إلى الخلقيدونيّة مذهب الدولة الرسميّ، فاعتذر النعمان بقوله: «إنّ كلّ القبائل العربيّة تدين بالمذهب الأرثوذكسيّ، فإذا تقرّبت إلى الخلقيدونيّين قتلوني» لهذا السبب زادت نيران البغضاء اشتعالاً بينهما. ولمّا خرج النعمان من القصر، أقسم ألاّ يعود ثانية إلى أرض الرومان برغبته. ولهذا قبضوا عليه وهو في طريق عودته وأرسلوه مع المنذر أبيه إلى المنفى. وهكذا انقسمت مملكة (إمارة) العرب إلى خمس عشرة زعامة، ودار معظمهم في فلك الفرس. وهكذا انهارت مملكة العرب المسيحيّين بسبب خديعة الرومان. ثمّ أخذت الهرطقات[٣٧]، تنتشر بينهم[٣٨]».

أمّا أسد رستم فحين يستعرض هذا الحديث التاريخيّ يقول:

«طلب موريقيوس إلى النعمان أن يحارب الفرس معه وأن يعتنق الأرثوذكسيّة (يعني الخلقيدونيّة) فأجابه النعمان، أنّ جميع قبائل طيّ يعاقبة وأنّهم يذبحونه ذبحًا إن هو تقبّل قرار «المجامع» فغضب موريقيوس وأمر بسجنه ثمّ ألحقه بوالده[٣٩]».

فيعلّق البطريرك مار يعقوب الثالث (+١٩٨٠) على حديث أسد رستم ويقول[٤٠]: «إنّ عبارة أنّ جميع قبائل طيّ هي يعاقبة ليست من كلام النعمان بل من مخيّلة أسد رستم

(٣٧) ربّما المقصود مذهب النساطرة لأنّه كان منتشرًا في بلاد فارس.

(٣٨) يوحنّا الأفسسيّ، **المصدر نفسه**، الفصل السادس والخمسون.

(٣٩) أسد رستم، **الروم**، ج١ ص ٢٠٦.

(٤٠) مار يعقوب البراذعيّ، (١٩٧٨) ص ٢٢.

الخصبة التجنّية على حقائق التاريخ. أمّا كلام النعمان فهو: أنّ جميع القبائل العربيّة هي أرثوذكسيّة. كما ذكر ما يوحنّا الأفسسيّ الشهير المعاصر لهذا الحارث، وعنه نقل مار ميخائيل الكبير وابن العبريّ والمستشرقون. ذلك أنّ «طيّ» ليست قبائل بل قبيلة واحدة، وأنّ لفظة «طَيْوِبي» أو «طيّابيّ» السريانيّة لا تعني قبيلة طيّ وحدها بل العرب على الإطلاق. كذلك لم يقل النعمان إنّهم يذبحونه إن هو تقبّل قرار «المجامع» بل إذا اشترك مع الخلقيدونيّين أي إذا قبل المجمع الخلقيدونيّ، لأنّ المجامع الثلاثة السابقة لهذا المجمع[41] كانت مقبولة لديهم.

عود إلى بدء أخبار متفرّقة

أوّلاً: أسباب غضب الملك جستين على موريقيوس:

يقول المؤرّخ مار يوحنّا الأفسسيّ ما نصّه معرّبًا:

«نوضح في البداية، ونفسّر بدقّة من أجل موضوع وتسلسل القصص، أنّ غضب الملك جستين على المنذر بن الحارث ثمّ على موريقيوس كان ظلمًا وبلا عدل. ونحن لا نعلم ما الذي دفعه لذلك. فقد غضب جستين على المنذر من أجل التالي:

«كان عرب الفرس يخشّون الحارث بن جَبَلة أبيه، وكان ملكًا على العرب التابعين للروم، وكان عرب الفرس يهابونه. فلمّا علموا أنّه مات سخروا واحتقروا أبناءه وأمراءه وجيشه واعتقدوا أنّه بموت الحارث قد آل إليهم كلّ معسكرهم، وعندئذ اجتمعوا وتوجّهوا إلى أرض عرب الروم وعسكروا بها، حيث توجد كلّ ثروتهم بها. فساقوا إبلهم كلّها إلى أرضهم. ولمّا علم المنذر بذلك تضايق كثيرًا وتملّكته الحميّة. فقاد كلّ إخوته وأبناءه وأمراءه (الغساسنة) وانقضّوا عليهم فجأة[42].

أمّا عرب الفرس (اللخميّون) فاعتقدوا أنّهم لن يجرأوا على قتالهم أو قهرهم وإبادتهم. وما إن رأى ملكهم قابوس سرعة انقضاض المنذر وجنوده هربوا بدون سلاح. ودخل المنذر

---

(٤١) المجامع الثلاثة الأولى هي: النيقاوي (٣٢٥م)، والقسطنطينيّ (٣٨١م)، والأفسسيّ (٤٣١ م).

(٤٢) حدثت هذه المعركة في سنة ٥٧٠م. ويذكر نولدكه أنّ هذه المعركة هي يوم أباغ الشهيرة في الشعر العربيّ. (أنظر نولدكه، **أمراء غسّان**، ص ٢٥. بيجو لفسكيا، **العرب على حدود إيران وبيزنطة**، ص ٢٤٣.

خيمته وأقام بها، واستولى على معسكره ومتاعه وكلّ ثروته. كما قبض على أقربائه وأمرائه وأخذهم أسرى وقتل الباقين. ثمّ توغّل مسافة ثلاثة فراسخ (تسعة أميال) داخل أرض قابوس وأقام معسكره فيها، حيث قطعان الماشية وثروة عرب الفرس. وبعد فترة طويلة من إقامته هناك جاء جواسيس قابوس ورأوا الخيمة مقامة في أرضه، فظنّوا أنّ ملكهم بها. فدخلوا بثقة داخل مخيّم المنذر، فأمسكهم جند المنذر وقتلوهم وأسروا المشهورين منهم، وهكذا ظلّ المنذر وجنوده لفترة طويلة في أرض عرب الفرس، وعادوا من هناك بقافلة كبيرة من الخيول وقطعان الإبل والسلاح وما إلى غير ذلك من الغنائم. وبعد فترة عاد قابوس إلى أرضه وجمع جيشًا كبيرًا وأرسل للمنذر لكي يستعدّ لقتاله قائلاً: «ها نحن قادمون إليك بالرغم من أنّك انقضضت علينا كاللّص، واعتقدت أنّك هزمتنا، والآن نحن قادمون إليك لقتالك علانية». عندئذ أجابه المنذر بقوله: «لماذا تتكبّدون عناء الطريق، إنّني قادم إليكم، فأنا أستعدّ للقائك وإنّني لما أقوله فاعل. فقابل المنذر في الصحراء وأخذهم على حين غرّة ولم يتوقّعوا ذلك، إذ انقضّ عليهم وفرّق جمعهم، ففرّوا أمامه ثانية. وقد أوضحنا كلّ ما يتعلّق بذلك. أمّا الآن فنوضح ما الذي أثير ظلمًا بدون تمحيص ضدّ المنذر، وبأيّ خديعة جوزي بعد كلّ هذه الانتصارات العظيمة في معركتين. فقد ظنّ المنذر أنّ الملك جستين يمتدحه. فكتب له بكلّ ما فعل وتفاصيل انتصاره. ثمّ طلب منه ذهبًا لكي يجهّز جيشه، إذ ظنّ أنّ عرب الفرس سيعاودون الكرّ عليه. فلمّا بلغ جستين ما يطلبه من ذهب، غضب عليه ولعنه وتوعّده بالعقاب القاسي وأضمر في نفسه أن يقتله بخدعة خفيّة.

ثانيًا: عمّا كتب لموريقيوس وللمنذر:

يمضي المؤرّخ يوحنّا الأفسسيّ في حديثه فيقول:

«عندما امتلأ الملك جستين بالعداء والغضب على المنذر، كتب رسالة إلى البطريق موريقيوس لكي يقتل المنذر في سرّيّة تامّة. وهكذا كتب له «ها أنا ذا قد كتبت للمنذر العربيّ لكي يأتيك، فاستعدّ واضرب عنقه حالما يأتيك، ولا تتردّد ثمّ اكتب لنا». ثمّ كتب جستين للمنذر قائلاً أرسلت للبطريق موريقيوس بشأن بعض الأمور الضروريّة لكي يتحدّث معك. فتوجّه إليه في الحال وتباحثا سويًّا في الأمر».

وقد شاع أمر الرسالتين بين الناس. وكان من صنع الله أن أُبدلت الرسالتان، فكتب اسم

المنذر على الرسالة الموجّهة لموريقيوس وفيها الأمر بقطع رأس المنذر. وكتب اسم موريقيوس الرسالة التي فيها التباحث معه في بعض الأمور، وقد حدث هذا عن طريق الخطأ، وهكذا أخذ الموظّف المختصّ الرسالتين وسلّمهما وفقًا لما كُتبَ على كلّ واحدة منهما. فتسلّم المنذر رسالة موريقيوس وفيها أمر بقتله، وتسلّم موريقيوس رسالة المنذر وفيها أمر بالتوجّه إلى موريقيوس والتباحث معه. ولمّا تسلّم المنذر هذه الرسالة اضطرب اضطرابًا شديدًا وقال «هل أجازى بقطع رقبتي مقابل مجهوداتي من أجل الرومان». ولذلك امتلأ المنذر غضبًا وجمع جنوده وأمرهم بحراسته قائلاً: «إذا رأيتم من أرسلهم ملك الرومان إليّ فاقبضوا عليهم إن كانوا قلّة وأبقوهم خارج المعسكر. وإن كانوا كثيرين فقاتلوهم بشجاعة في الحال ولا تنخدعوا بما يقولونه لكم، ولا تجعلوهم يقتربون من معسكركم مطلقًا». وهكذا ظلّت كلّ قبائل العرب (الغساسنة) محتشدة ليلاً نهارًا، تنتظر القتال مع من يأتيهم من الرومان. وعندما علم ملك الفرس وأتباعه من العرب بذلك أدركوا أنّه ليس هناك ما يجعلهم يخشون المنذر، فهو لن يزجّ بنفسه في القتال دفاعًا عن الروم الذين يريدون قتله. وعندئذ استعدّ الفرس وأتباعهم العرب اللخميّون في سرّيّة تامّة، لكي يتسلّلوا إلى الأراضي الرومانيّة، فخرّبوا القرى والمدن وتوغّلوا وسبَوا سبيًا كبيرًا حتّى بلغوا مشارف أنطاكية، وأضرموا الحرائق في القرى المحصّنة كالمدن التي تحيط بأنطاكية وخلافها، وسبوا ونهبوا تلك الأراضي كلّها. ثمّ عادوا إلى أراضيهم بقافلة كبيرة من الغنائم...

ولمّا كان المنذر متضايقًا وحزينًا لهذه الخدعة، ولمّا قام به الأعداء من تخريب في الأراضي الرومانيّة، قاد جيشه وأقام في الصحراء. وتضايق كلّ من علم بالافتراءات التي قيلت على المنذر، ولاموا قرار الملك بقتله، لأنّه صدر بدون تمحيص أو تروّ. ولمّا سمع الملك جستين بما قام به الفرس من تخريب داخل الأقاليم الرومانيّة، وأدرك أنّ المنذر تخلّى عن الدفاع عن الحدود الرومانيّة تمامًا، أرسل إليه القوّاد الرومان في الشرق ليصالحوه ويطيّبوا خاطره. وبعد أن أرسل إليه كثيرين ليذهبوا إليه، أجاب المنذر كلّ واحد منهم بقوله: «ليكن في علمكم أنّه إن جاءني أحد من الروم، فإنّي مستقبله بالقتال، فإمّا قتلني أو قتلته، وإنّني لن أثق مطلقًا في أحد من الرومان لأنّكم وملككم تريدون قطع رقبتي». وكان هذا ظلم الرومان.

وهكذا ظلّ القوّاد الرومان يكاتبون المنذر بتوسّلات كثيرة لمدّة سنتين أو ثلاث، أمّا هو فلم يُبدِ تقرّبًا إليهم، بل أخبر كلّ الناس بهذا الأمر. أمّا سبب غضب جستين على

موريقيوس فكان لأنّ المنذر لا يزال حيًّا، علاوة على افتضاح أمر الرسالة، ولأنّ موريقيوس لم يحسم هذه المسألة. ومن ثمّ وضح للناس أنّ المنذر قد اتُّهم بدون اعتبار لمخافة الله. وكان المنذر يستعدّ بكلّ جنوده ويحاذر من القادة الرومان. وظلّ على هذا الحال لمدّة ثلاث سنين أو أكثر قليلاً لكنّه كرجل مسيحيّ حزن على أراضي الرومان التي تجاسر الفرس وأتباعهم اللخميّون واخترقوها ثمّ خرّبوها، وأشعلوا فيها الحرائق كما سبَوا أنطاكية وعادوا بقافلة كبيرة من الغنائم وبسبيٍ لا يُعدّ ولا يحصى إلى أرضهم. والحقيقة أنّ المنذر جاءته رسائل الملك بواسطة عظماء الدولة والأمراء وفيها يستنكر جستين أمره بقتل المنذر.

أمّا المنذر فقد تشدّد ولم يلن أو يقبل رسائله أو يقابل أحدًا من مبعوثيه، وكان مستعدًّا للقتال مع من يجرؤ على الاقتراب من معسكره. وفي النهاية أرسل المنذر إلى البطريق جستنيانوس بن جرمانوس، وكان الرئيس الأعلى لقوّاد الجيوش الرومانيّة في الشرق، وقال له «إنّني أعلم حيل الرومان، وقد سمعت عنها منذ زمن طويل. وأنت تعلم خدعة الموت التي جوزيت بها مقابل مجهوداتي. ومن ثمّ لن أثق ثانية في أحد من قادة الرومان، أمّا أنت فلأنّك رجلٌ مسيحيٌّ فاضلٌ وتخاف الله كما أعلم، فإذا جئت إلى قبر البارّ مار سرجيس (القدّيس سرجيس) بالرصافة، وأرسلت إليّ، آتيك هناك مع جيش مسلّح مستعدّ للقتال. فإن قابلتني بالسلام وأوضحت لي الحقيقة سيمضي كلانا إلى سبيله بسلام، وإذا اتّضح لي أنّ في الأمر خدعة أخرى فإنّني أرجو الله وأثق أنّه لن يدع أحدًا يقبض عليّ». وعندما تسلّم البطريق جوستنيانوس رسالة المنذر فرح واغتبط كثيرًا، وأرسل إلى المنذر قائلاً «لا ترتَبْ فيّ، وها هو ربّ المسيحيّين يفصل بيننا، فاقدم في اليوم الفلانيّ إلى قبر القدّيس سرجيس ولنتقابل هناك، ولا تُرهق جيشك. وأنا واثق في الله أنّنا سنفترق عن بعضنا البعض بسلام وأمان وحبّ». وما إن وصل المنذر ردّ البطريق جستنيانوس حتّى بدأ يغيّر رأيه، وخرج على الفور مصطحبًا معه بعض الجنود وذهب ليلقاه في الرصافة، وعندما تقابلا أمام قبر القدّيس سرجيس تداولا في أمور كثيرة، يفوق وصفها حدود كتابتنا. واتّفقا سويًّا وافترقا عن بعضهما البعض بثقة وسلام وفرحة كبيرة.

وعندما علم الملك جستين ومجلس الشيوخ بكلّ ما حدث فرحوا لأنّهم أقنعوا المنذر وصالحوه. ثمّ توالت مكاتبات السلام والمصالحة بين الجانبين. وبعد ذلك تقوّى المنذر وامتلأ غضبًا على عرب الفرس لجرأتهم ولأنّهم قتلوا سبايا الروم. فجمع المنذر إخوته وأقرباءه وأبناءهم وكلّ جنودهم في سرّيّة، واستعدّوا في اليوم التالي للقتال. واتّفقوا على

ذلك وأوضح المنذر خطّته لهم بقوله «لا يفترق أحدنا عن الآخر». فسننقضّ سويًّا على حيرة النعمان[٤٣] في أرض فارس وسوف يمكّننا الله منهم، لوقاحتهم مع المسيحيّين. وأسرعوا في الخروج من أرضهم ووصلوا إلى حيرة النعمان فانقضّوا على من فيها فجأة وكان أهلها نائمين فأخذتهم دهشة شديدة وأعملوا فيهم القتل والإبادة وخرّبوا كلّ المناطق وأحرقوها، عدا الكنائس حيث أقام المنذر خيمته في إحداها. ومكث هناك خمسة أيّام. وبعد أن أسر كلّ من وجده من العرب، قاد سبايا الحيرة والرومان السجناء وقطعان الماشية والإبل وعاد بها إلى أرضه محقّقًا نصرًا كبيرًا. ووزّع المنذر ما سباه على الأديرة وكنائس الأرثوذكس وعلى الفقراء والمساكين، فأضاف ذلك إليه مجدًا وغنًى، لا سيّما وإنّ المملكتين الفارسيّة والرومانيّة قد تعجّبتا من قوّته وشجاعته والانتصارات التي أحرزها[٤٤].

ثالثًا: المنذر بن الحارث وموريقيوس

بعد أن جمع موريقيوس والمنذر بن الحارث، ملك العرب الغساسنة، جيشهما ثمّ عبرا سويًّا الأراضي الفارسيّة عن طريق الصحراء في سنة ٥٨٠م، وقد توغّلا حتّى بلغا أرض الآراميّين[٤٥]، التي تبعد مسافة عدّة أميال داخل الأراضي الفارسيّة، وعندما بلغا جسر أراميا الكبير[٤٥]، الذي خطّطا لعبوره سويًّا واحتلال عاصمة المملكة الفارسيّة، وجدا الجسر مقطوعًا، إذ قطعه الفرس عندما علموا بقدوم موريقيوس والمنذر. وهكذا تكبّد الجيشان مشقّة كبيرة، ولا سيّما الرومان. وتخاصم موريقيوس والمنذر، ثمّ عادا أدراجهما بدون أن يحقّقا الهدف الذي خطّطا له. ورجعا إلى الأراضي الرومانيّة بصعوبة كبيرة، وشرعا يكتبان إلى الملك طيباريوس الشكاوى الباطلة ضدّ بعضهما البعض، إذ ظنّ موريقيوس أنّ المنذر أرسل للفرس قبل غزوه لأرض فارس، فقطعوا الجسر لئلاّ يعبرانه. وكان ذلك افتراءً على المنذر. وقد اجتهد طيباريوس وراسل حكّام الأقاليم لكي يوفّقوا بينهما. ثمّ توجّه موريقيوس إلى الملك، لكنّه لم يتّضح إذا كان قد شكى المنذر أم لا[٤٦].

(٤٣) الحيرة أو حيرتا بالسريانيّة ومعناها المخيّم أو المعسكر. أنظر جواد عليّ، تاريخ العرب ج٢ ص ١٥٥ وما بعدها.
(٤٤) يوحنّا الأفسسيّ، **المصدر نفسه**، القصّة الرابعة.
(٤٥) هي الجزء الشماليّ من بابل ويطلق عليه سواد الكوفة حيث توجد سلوقيا. أنظر د. زاكية رشدي. الترجمة العربيّة لمخطوطات أيشوع العموديّ ص ٢٧٢.
(٤٦) يوحنّا الأفسسيّ، **المصدر نفسه**، القصّة ١٦.

رابعًا: المنذر بن الحارث وانتصاره على اللخميّين:

أمّا المنذر بن الحارث فعندما اجتمع جيش العرب أتباع الفرس، بالإضافة إلى جيش آخر من فارس لكي يهاجموه بعدما عاد من فارس إلى أرضه، وعلم المنذر بذلك، فلم يتوانَ لحظة بل جمع جيشه في الحال، كرجل مقاتل وانقضّ عليهم في طريق الصحراء. فبعد أن أرسل جواسيسه وعلم بمكانهم وعددهم وعتادهم، انقضّ عليهم بغته فبهتهم وبلبلهم وأباد منهم كثيرين، كما قبض على بعضهم وقيّدهم بالأغلال. ولم يهرب منهم سوى قليلين عادوا إلى أرضهم. أمّا المنذر فقد توجّه مباشرة إلى معسكرهم، وأعمل فيه القتل والحرق والتخريب، ثمّ عاد منه بغنيمة عظيمة وسبي كبير. وهكذا ظفر المنذر بعظمة[٤٧].

هذا ما لخّصناه عن التاريخ الكنسيّ للمؤرّخ الشهير مار يوحنّا الأفسسيّ المعاصر لأحداث الدولتين مملكة الحيرة ومملكة الغساسنة كشاهد عيان موثوق بأخباره.

خامسًا: الحارث الخامس ويعقوب البرادعيّ:

أعرب الحارث الخامس (٥٢٦ – ٥٤٥م) عن جزيل شكره واعتباره ليعقوب البرادعيّ (٥٤٥ – ٥٧٨) وعن ثقته بتقواه. قال يوحنّا أسقف آسيا (الأفسسيّ) ما خلاصته:

«ولد يعقوب ابن القسّيس تئوفيل بن معنو في مدينة تَلّ مُوْزَل[٤٨] (تلاّ) نحو سنة ٥٠٠م، ووالده من قرية كَمَوا في جبل الأَزَل المحاذي للجزْيَة السوريّة. وترهّب في دير فْسِيْلْتا المجاور لمسقط رأسه، ونشأ على يد رئيسه الأنبا أَسْطَاثَاوُس، الذي ألبسه الأسكيم الرهبانيّ. أمّا لباسه فكان ثوبًا ثخينًا خشنًا، ينقسم إلى قسمين، كان يكتسي بواحد ويلتحف بالآخر، ولم يبدّله صيفًا وشتاءً، وكلّما تمزّق فيه شيء رقّعه حتّى أضحى وكأنّه بردعة بالية. من هنا لقب «البرادعيّ[٤٩]».

رسم شمّاسًا، ثمّ قسًّا، واستلم رئاسة الدير، ما حداه أن يزور المؤمنين في مختلف

(٤٧) يوحنّا الأفسسيّ، **المصدر نفسه**، القصّة ١٨.
(٤٨) تَلّ مُوزَل: مدينة قديمة بين ماردين والرها، سمّيت قسطنطينيّة الصغرى. أمّا اليوم فتعرف باسم وَيْرَان شَهْر في تركيا الحاليّة.
(٤٩) التفاصيل لدى مار يعقوب الثالث، **يعقوب البرادعيّ**، ص ١١ – ١٢.

الأصقاع، فذاعت له شهرة مستفيضة حتّى بلغت مسامع الملكة السريانيّة ثيودوره زوجة يوسطينيان الأوّل ملك الروم، والحارث بن جَبَلَة ملك الغساسنة، فتاق كلّ منهما إلى رؤيته[٥٠].

لقاؤه مع الحارث بن جَبَلة

نحو سنة **٥٢٩م**، ملك الحارث بن جَبَلة على القبائل العربيّة لا سيّما الغساسنة، وعاصمته يومذاك بُصرى (إسكي شام) في حوران. وفي أوائل ملكه، انتاب قبائله وباء وجوع وصنوف المحن. وإذ كانت شهرة الراهب يعقوب البرادعيّ قد انتشرت في بلاط الحارث، اعتزم الحارث في فريق من حاشيته أن ينطلق إليه ليسأله أن يبتهل إلى الله القدير كي ينقذ الغسّانيّين من الوباء الذي كاد أن يفتك بهم فتكًا ذريعًا فتكون القاضية، وحمل إليه شيئًا من الذهب والتقادم.

شعر مار يعقوب بقدوم الحارث فسبق وعبر الفرات ولاقاه وقال له: ما لك شككت في موهبة الله عزّ وجلّ؟ إرجع إلى بيتك وإلى أرضك أنت وأرباب دولتك وأطلق سبيل ذلك الراهب الورع القادم من جبل سيناء إلى غسّان وقد قبض عليه جنودك. فإذا أطلقته زال الوباء عن بني غسّان. فعاد الحارث في رجاله وأكمل مشورة مار يعقوب فاضمحلّ ذلك الوباء عن شعبه.

ثمّ رحل الراهب يعقوب البرادعيّ مع سرجيس التلّيّ ابن وطنه إلى العاصمة القسطنطينيّة، فرحّبت بهما تئودورة السريانيّة ابنة القسّيس المنبجيّ وزوجة يسطنيان قيصر. ولمّا بلغ خبرهما مسمع الحارث ارتحل إلى العاصمة واتّفق مع فريق من الآباء فسألوا الملكة تئودورة أن تأذن لهم ليُنصّبوا أسقفين أو ثلاثة للجماعات «الأرثوذكسيّة» في سوريّة إذ لم يكن فيها يومئذ سوى ثلاثة أساقفة، أحدهم في جبل ماردين، وثانيهم في بلاد فارس وثالثهم في الإسكندريّة. قبلت الملكة طلبهم وطلب الحارث وسألت تئودوسيوس بطريرك الإسكندريّة فوضع اليد على يعقوب البرادعيّ وعلى زميله تئودور، فرقّى الأوّل إلى كرسيّ مطرانيّة الرها، والثاني إلى كرسيّ مطرانيّة بصرى والقبائل العربيّة وفلسطين سوى

(٥٠) يعقوب الثالث، **المصدر السابق**، ص ١١.

أورشليم[٥١]. وتمّ ذلك عام **٥٤٣م**[٥٢]. وقلّد مار يعقوب المتروبوليتيّة المسكونيّة، وفوّض إليهما قبول المرتدّين إلى «الأرثوذكسيّة» في الشرق كلّه.

وجعل المطران يعقوب يُنصّب أساقفة لمدن سوريّة وغيرها كطرطوس وسلوقية واللاذقيّة وقِنّسْرين. ثمّ وضع اليد على الراهب سرجيس التلّيّ ابن وطنه المذكور آنفًا ورقّاه عام **٥٤٣م** إلى الرتبة البطريركيّة على كرسيّ أنطاكية. وكان يعاونه قَنُون وأوجين فقام بأعباء البطريركيّة مدّة ثلاث سنوات. وفي سنة **٥٤٦م** جاور ربّه في القسطنطينيّة[٥٣]. ثمّ رقّى مار يعقوب هذا إلى الرتبة عينها (البطريرك بولس الثاني بطريركًا لأنطاكية، الذي كان كاتبًا للبابا ثيودوسيوس الإسكندري، وقد أسرّ بذلك إلى الحارث بن جبَلة في القسطنطينيّة، كما ذكر الملك هذا في رسالته إلى مار يعقوب نفسه[٥٤].

ويبدو من سيرة مار شمعون الأَرْشَمِيّ أنّه كان على عهده في المشرق (بلاد فارس) «للأرثوذكسيّين» جملة أساقفة احتفوا برسامته[٥٥] ولمّا توفّي هذا في القسطنطينيّة، سنة **٥٤٠م** لم يبق للمؤمنين في المشرق سوى قَاريس أو قَاليروس أسقف سنجار[٥٦].

ثمّ جاء مار خرسطفورس السريانيّ جاثليق الأرمن إلى دير مار متّى ورسم له الراهب كَرْمَاي مطرانًا خلفًا للقدّيس بَرْسَهْدِيّ. وفي كورة نينوى رسم القدّيس مار آحُوْدَامَه البلديّ أسقفًا لبَاعِرْبَايي[٥٧] أي العرب الرحّل بنو طَيّ وتَنُوخ وعُقَيْل سكّان البادية الضاربين بين نصّيبين وبَلَد قربَ نينوى. وفي سنة **٥٥٩م** تفقّد مار يعقوب البرادعيّ أحوال كنيسة المشرق، ومثل بين يدي كسرى الذي أكرم مثواه. وقبل مغادرته البلاد رسم مار آحودامه المشار إليه جاثليقًا أي مطرانًا عامًّا على المشرق. وهو أوّل جثالقة المشرق بعد أن اغتصب النساطرة كرسيّ الجثلقة[٥٨].

(٥١) يعقوب الثالث، **المصدر السابق**، ص ١١.

(٥١) **أخبار يوحنّا الأفسسيّ**، طبعة لاند: خبر ٤٩ – ٥٠؛ ص ٢٥٤.

(٥٢) **التفاصيل لدى مار يعقوب الثالث، مار يعقوب البرادعيّ**، ص ١٦ وما بعدها.

(٥٣) يوحنّا الأفسسيّ، **المصدر نفسه**، ج٢ ص ٤٨٧ وج٣ ص ٥٠٢ و٥٨٧.

(٥٤) **الأسناد السريانيّة** طبعة الأب جان شابو ص ١٤٣ – ١٤٤.

(٥٥) **سير النساك الشرقيّين** للأفسسيّ ج١ ص ١٤٦.

(٥٦) إبن العبريّ، **التاريخ الكنسي** ج٣ عمود ٨٧.

(٥٧) إبن العبريّ، **المصدر السابق**، عمود ٨٧ و٩٩ وتاريخ ميخائيل الكبير ص ٤١٣ و٤٢٧ و٤٩٤.

(٥٨) «قال مار يوحنّا الأفسسيّ المعاصر للقدّيس أحودامه: «وأقام الارثوذكسيّون جاثليقا بيد الطوباويّ مار يعقوب أسقف الأرثوذكسيّين» الأمر الذي لم يصر أبدًا في بلاد الفرس وجرى الأمر وقام جاثليق للمؤمنين من ذلك الزمان حتّى يومنا هذا» (تاريخه مجلّد ٣).

والخلاصة أنّ يعقوب البرادعيّ[٥٩] هذا نصّب ٨٩ أسقفًا وبطريركَين ومائة ألف كاهن حتّى ملأ بلاد سوريّة من الأساقفة والشمامسة. وأمست قبيلة غسّان برمّتها تابعة له تنفر كلّ النفور من المسيحيّين القائلين بعقيدة المجمع الخلقيدونيّ حتّى إنّها لم تكن ترضى أن تشاركهم في أكل الخبز. ولهذا السبب دعي الأرثوذكسيّون باسم «يعاقبة» نسبة إلى يعقوب البرادعيّ المذكور[٦٠].

توسّط المنذر الثالث في تسوية النزاع بين بطريرك السريان الأنطاكيّ وبطريرك الأقباط الإسكندريّ

على أثر وفاة سرجيس بطريرك السريان المذكور آنفًا نصّب المطران يعقوب البرادعيّ فولا الإسكندريّ بطريركًا لأنطاكية (وهو بولس الثاني) (٥٤١ – ٥٧١) وما مرّ القليل على بطريركيّته حتّى حاول التخطّي من الكرسيّ الأنطاكيّ إلى الكرسيّ الإسكندريّ، وكان أهل الإسكندريّة مصمّمين أن ينتخبوا لذلك الكرسيّ أثناسيوس حفيد ثيودورة الملكة. فكتب البطريرك فولا توصّلاً إلى مأربه رسائل لذع وقدح في حقّ أثناسيوس استفظعها الإسكندريّون ورفعوا عليه الشكاوي مدّعين أنّ ترقيته إلى الكرسيّ الأنطاكيّ لم تكن قانونيّة ولم يوافق عليها أساقفة الأبرشيّات السريانيّة جمعاء وأيّدوا دعواهم بحجج صادعة رفعوها إلى أثناسيوس المذكور. وهذا بدوره عرضها على القيصر. فسخط على فولا (بولس) أيّ سخط وبلغ النزاع مبلغه وظلّ الخصام قائمًا مدّة ثلاث سنوات على قدم وساق ريثما توسّط المنذر الثالث (٥٦٥ – ٥٨٠) لدى المطران يعقوب البرادعيّ فأقرّه في الكرسيّ الأنطاكيّ. لكنّه عاد فحرمه مجاراة لأهل الإسكندريّة وبعث ثلاثة أساقفة إلى سوريّة ليذيعوا الحرم عليه في البلاد. فاضطرّ البطريرك فولا أن يتّجه إلى القسطنطينيّة وينزوي في أحد الأديرة. واتّفق أن توفّي يعقوب البرادعيّ عام ٥٧٨ في الإسكندريّة فانتهز الفرصة دميان بطريرك القبط وقدم إلى أنطاكية، في أسقفين من أساقفته يحاول أن ينصّب للسريان بطريركًا ثانيًا بدلاً من البطريرك فولا. لكنّه فشل في مهمّته وانطلق إلى القسطنطينيّة لعلّه يتمكن من تنفيذ أربه[٦١].

وكان المنذر الغسّانيّ يومئذ في العاصمة فجعل يعنّف البطريرك دميان على فعلته الذميمة

(٥٩) التفاصيل لدى مار يعقوب الثالث في كتابه **يعقوب البرادعيّ** (١٩٧٨) دمشق.

(٦٠) إبن العبريّ، **التاريخ الكنسي**، ج١ في كلامه عن البطريرك سرجيس.

(٦١) التفاصيل عند مار يعقوب الثالث، المصدر نفسه.

الشاذّة ويشير على أن يكفّ عن معاداة البطريرك فولا. فأقسم له البطريرك دميان في إزالة الخلاف وحسم النزاع. لكنّه ما وصل إلى الإسكندريّة حتّى جدّد حنقه على البطريرك السريانيّ فكتب إليه المنذر رسائل ذمّ وتقريع لم تؤثّر فيه ولا في الأقباط الخاضعين له[٦٢].

ولمّا رأى أساقفة السريان أن لا سبيل إلى رجوع البطريرك فولا على الرغم ممّا تبادله الفريقان في ذلك من رسائل[٦٣]، عقدوا مجمعًا في دير مار حنانيّا بين بَالِس والرَّقّة حيث كان النفوذ الغسّانيّ منتشرًا واصطفوا بطرس الرقّيّ للكرسيّ الأنطاكيّ[٦٤]، وسلّموا إليه عصا الرعاية عام ٥٧١م ووضع عليه يوسف مطران آمَد اليد. وخدم البطريركيّة عشرين عامًا.

ونسج المنذر الثالث على منوال أبيه الحارث الخامس في مناضلته عن السريان أينما كانوا. وكتب من الجملة إلى طيباريوس قيصر (٥٧٨–٥٨٢) وإلى غريغور بطريرك السريان الملكيّ الأنطاكيّ (٥٧٠ – ٥٩٣م) في إعادة الصلح والسلام إلى الكنائس وإطلاق الحرّيّة لكلّ مسيحيّ في قضاء فروضه الدينيّة كيفما شاء وحيثما شاء. قال ميخائيل الكبير:

«أفرغ المنذر كلّ الجهد في مساعدة الأرثوذكسيّين، لأنه كان أرثوذكسيًّا بحتًا مثلهم. أمّا البطريرك غريغور فلم يرضَ بعقد الصلح بل لم يسمح أن تقرأ رسالة الملك»[٦٥].

أساقفة الغساسنة

لا نغالي إذا قلنا إنّ الأرثوذكسيّة ارتكزت في كنيسة السريان على دعامتين هما: يعقوب البرادعيّ مطران الرها وتئودور مطران بُصرى وعرب غسّان السابق ذكرهما. وعلى تمادي الزمان أنشأ السريان ستّ أبرشيّات في غسّان وهي: بصرى وأَذْرُع وبيتونيا والرصافة وبَالِس وقِنِّسْرين ثمّ تدمر والعرب.

(٦٢) إبن العبريّ، **التاريخ الكنسي**، ج١ **أخبار البطريرك فولا**.

(٦٣) إشتملت مخطوطة لندن السريانيّة الموسومة بالرقم ٧٥٤ على ٤٤ رسالة تبودلت بين البطريرك فولا وأساقفة السريان.

(٦٤) كان خبيرًا بأصناف العلوم الدينيّة والمدينة له رسائل تشهد بجدارته وكفاءته. وكان صديق مار يعقوب. توفّي عام ٥٧٥م ودفن في دير الجبّ الخارجيّ، استمرّت رئاسته عشرين عامًا. (الزهرة الذكيّة، ص ٣٣ عدد ٥٨).

(٦٥) **تاريخ ميخائيل الكبير** ص ٣٧١.

أوّلاً: مطارنة بصرى وملحقاتها

أوّلهم تئودور حليف يعقوب البرادعيّ ثمّ يوحنّا صاحب النافور المعروف باسمه وبدؤه «يا أيّها الإله الواهب المحبّة[٦٦]».

ونصّب البطريرك قرياقس التكريتيّ (٧٩٣–٨١٧م) لأذرُع أسقفًا اسمه جورجي[٦٧]، وكان مترهّبًا في أحد أديار غسّان.

وتسلسل أساقفة السريان في حوران حتّى القرن الحادي عشر.

ثانيًا: مطارنة الرصافة

الرصافة واسمها القديم رَصَف (أشعيا ٣٧:١٢) عُدّت الحادية عشرة في جملة المطرانيّات الخاضعة للكرسيّ الأنطاكيّ[٦٨]. وكان تحت سلطتها الكنسيّة خمس أسقفيّات. وقد أُطلق عليها اسم «سرجيوبوليس» تكريمًا للشهيد سرجيس المشهور في عهد مكسيمينس قيصر (٣٠٨ – ٣١٣) وكان سرجيس من أبطال القوّاد الرومانيّين ومن المقرّبين في البلاط الملكيّ. وجّهه القيصر إلى الرصافة مع صديقه باخس وكتب إلى أنطيوخس حاكمها أن يقنعهما في العدول عن عقيدتهما المسيحيّة وإلاّ فيفتك بهما. على أنّ القائدين واجها الحاكم المذكور في بَالِس فأمر بتعذيب باخس أوّلاً وقتله. ثمّ مضى بسرجيس إلى قرية «شَوَارا» البعيدة ٩ أميال عن الرصافة، وجعل يُلحّ عليه ليضحّي للوثن فأبى. فأمر أنطيوخس بقطع هامته فانشقّت الأرض وأخفت دماءه. ولمّا خمدت نيران الاضطهاد ابتني المؤمنون في الرصافة كنيسة فخمة تيمّنًا باسم سرجيس، اجتمع إلى تدشينها ١٥ أسقفًا من أطراف سوريّا ومن بين النهرين[٦٩].

وقد سبقنا فقلنا إنّ فريقًا من أمراء غسّان وفي جملتهم جَفْنَة أبو كَرْب اتّخذوا الرصافة حاضرة لملكهم وكانوا يتمّمون فروضهم الدينيّة في بيعة مار سرجيس ويحجّونها مرارًا ولا سيّما وقت الطوارئ والنوازل والمعامع. وإلى ذلك يشير الأخطل بقوله:

(٦٦) رينودوت ٢ : ٤٢.

(٦٧) نقلنا أسماء مطارنة غسّان وأساقفتها عن اللوائح الملحقة بتاريخ ميخائيل الكبير، ص ٧٥٢ – ٧٦٨.

(٦٨) **مجلّة الآثار الشرقيّة**، السنة الأولى ص ٣٤٥.

(٦٩) **أخبار الشهداء والقدّيسين**، طبع الأب بولس بيجان ٣ : ٢٨٣.

لمّا رأونا والصليب طالعا ... ومار سرجيس وموتًا ناقعا
وأبصروا راياتنا لوامعا ... خلّوا لنا راذان والمزارع[٧٠]

وقال جرير يؤيّد تعلّق غسّان بمار سرجيس واستشفاعهم به:

يستنصرون بمار سرجيس وابنه ... بعد الصليب وما لهم من ناصر

أمّا مطارنة الرصافة السريانيّون فنذكر منهم:

١– ملكيصادق.

٢– شمعون.

وخلفهما مطارنة سريانيّون حتّى القرن العاشر.

ثالثًا: أساقفة بَالِس

بَالِس أو بَلَشْ في السريانيّة مدينة من جند قِنَّسْرين ببلاد سوريّة الواقعة على شاطئ الفرات الغربيّ. وهي أوّل مدن الشام من العراق وفي شرقيّها الرقّة. جعلها بطاركة السريان أسقفيّة فنصّب لها البطريرك قرياقس أسقفًا اسمه إيونّيس وقام بعده أساقفة تسلسلوا حتّى القرن الحادي عشر.

رابعًا: أساقفة قِنَّسْرين

قِنَّسْرين وفي السريانيّة قِنَّشْرين بالشين أي عشّ النسور. كانت مدينة كبيرة وقاعدة كورة منها حلب. ثمّ ضعفت بقوّة حلب وخربت حتّى أمست قرية حقيرة في عهدنا. وابتنى السريان فيها أديارًا جمّة أعظمها وأشهرها دير يوحنّا بَرْأفْتُونيا الذي تثقّف فيه عدّة رهبان ارتقوا إلى المناصب البيعيّة العالية وصنّفوا كتبًا جمّة تستحقّ الاعتبار، وهي وطن القدّيس رَابُولا مطران الرها (٤١٢ – ٤٣٥) الشهير. وقد جعلها بطاركة السريان كرسيًّا أسقفيًّا عرفنا من أساقفتها سَويرا سَابُخْت نحو السنة ٦٤٠م صاحب التصانيف النادرة. وتولّى أسقفيّتها حننيا وخلفه في كرسيّها عدّة أساقفة تباعًا حتّى أواسط القرن العاشر.

خامسًا: أساقفة تدمر

لم نعرف من أساقفة في تدمر سوى أسقفين: أحدهما شمعون في عهد البطريرك

(٧٠) **ديوان الأخطل** ص ٣٠٩.

قرياقس التكريتيّ، وثانيهما يوحنّا في عهد البطريرك ديونيسيوس التَلْمَحْرِيّ في القرن التاسع.

سادسًا: أساقفة العرب

بهذا العنوان قرأنا في لائحة البطريرك ميخائيل الكبير أسماء بعض أساقفة سريان تولّوا سياسة العرب المسيحيّين. ونرجّح أنّهم كانوا يرحلون مع أبناء أبرشيّتهم ويقيمون لهم الفرائض الدينيّة تحت الخيام على مذابح منقولة. ويتسلسل أولئك الأساقفة حتّى القرن الثاني عشر وعنوانهم في السريانيّة أساقفة العرب أو الأمم.

أديار غسّان:

حفظت مخطوطة المتحف البريطانيّ السريانيّة ٤٤ رسالة في جملتها رسالة رقمها ٢٣ عنوانها

« ܦܘܚܡܐ ܕܐܓܪܬܐ ܕܦܛܪܝܩܐ ܚܪܬ ܫܒܝܚܐ ܕܟܬܒ ܠܘܬ ܡܪܝ ܝܥܩܘܒ »

نسخة رسالة البطريق الحارث المجيد التي كتبها إلى المطران مار يعقوب البرادعيّ. ومنها رسالة رقمها ٢٩ كتبها ٤٥ رئيسًا من رؤساء أديار السريان اجتمعوا في ١٧ أيّار ٥٦٧م في دير ماريَسّ أو يَسوس بقرية أبيتو المجاورة لأنطاكية، وتشاوروا في ما نقل إليهم من أخبار العاصمة عن الأمانة الأرثوذكسيّة، وقد وقّع عليها أوّلاً ماري رئيس دير ماريَسّ ثمّ رئيس دير تلّ عَدا الكبير ورئيس دير مار أوسيب في كَفَرْبَرْتا ورئيس دير مار يوحنّا في زغْبا... إلخ

وفي المخطوطة عينها رسالة رقمها ٣١ وقّعها ٥٨ رئيسًا في دير ماريسّ بتاريخ ٣ كانون الثاني ٥٧١م نذكر منها دير داود بقِنّسْرين ودير تلّ عُوقَبِرين ودير سَمَرْدا ودير رومانا ودير العرب ودير نِيْرَب إلخ.....

أخيرًا ورد في تلك المخطوطة النفيسة عينها رسالة رقمها ٤١ عنوانها:

« ܐܓܪܬܐ ܕܐܬܟܬܒܬ ܡܢ ܪ̈ܫܝ ܕܝܪ̈ܐ ܕܥܪܒܝܐ ܠܘܬ ܐܦܝܣܩܘ̈ܦܐ ܐܪܬܘܕܘܟܣܐ »

«الرسالة التي أنشأها رؤساء أديار العربيّة وبعثوا بها إلى الأساقفة الأرثوذكسيّين»، أعني السريان الأرثوذكسيّين، وهذه الرسالة التاريخيّة الثمينة وقّعها ١٢٤ رئيسًا من رؤساء أديار

سوريّا الجنوبيّة الغربيّة بينهم ١٨ رئيسًا سريانيًّا كتبوا أسماءهم باليونانيّة. أمّا البقيّة فوقّعوا أسماءهم في السريانيّة نذكر من تلك الأديار:

دير إيليّا. دير أيّوب. دير البرج الأبيض. دير بيت إيلونا. دير بيت حالي. دير بيت يمن. دير تبنين. دير تالي. دير جَفنة. دير جُوبايا. دير حَدْثا. دير حلبون. دير السيّدة مريم. دير داود. دير داريّا الكبير. دير ريشايا. دير صفرين. دير العمود. دير علمات. دير عين جدي. دير فارين. دير قانيثا. دير كيفا. دير كفرجوزا. دير كفرحور. دير كَفَرْزْعُورا. دير كفرسوسيا. دير كفرسوغا. دير كفركوسيثا. دير كفركومرا. دير مَتْنا. دير نوسا. دير يونان... إلخ.

وأغلب تلك الأسماء سريانيّة بحتة كما ترى أعلاه. وهناك دير يقال له دير عُوقُبْثا وقد وقّع سرجيس رئيسه اسمه هكذا: «أمضيت بدلاً من القسّ مار أُوسطَتْ نائبي، وهو قسّيس بيعة البَطريق المنذر المجيد المُحبّ للمسيح» وهو المنذر الثالث (٥٦٥ – ٥٨٠) ابن البَطريق الحارث الخامس.

مخطوطات السريان في غسّان

نختم كلامنا هنا بذكر أثرين سريانيّين نفيسين نُسخا في إمارة الغساسنة تضمّن الأوّل شرح فم الذهب لإنجيل متّى الرسول نسخ في القرن السادس، وهذا تعريب ما ورد فيه نقلاً عن الأصل السريانيّ:

«هذا الكتاب يخصّ دير زَجَل المجاور لتدمر. إهتمّ بنساخته شمعون رئيس الدير في عهد الأسقفين يعقوب (البرادعيّ) وتئودور (مطران بصرى). نسأله تعالى أن يتعطّف بدعائهما على الملك كُرَيب[٧١] وعلى جميع إخوته ويهدي الضالّين منهم إلى معرفة الحقّ... نسخ سنة ٨٨٦ للإسكندر (٥٧٥م) وهو يخصّ دير مار موسى المشيّد في الجبل المدعو «القِمّة الكبرى» شرقيّ النبك بولاية دمشق. إجتهد في وضعه الأبّاتي مارجورجي أسقف تدمر. وهذا الأسقف تثقّف في دير مار موسى الواقع في الجبل المدعوّ «القِمّة الكبرى» شرقيّ قرية النبك بمعاملة دمشق كرسيّ المطرانيّة[٧٢]».

(٧١) هو النعمان السادس (٥٩٧ – ٦٠٠م) المعروف بأبي جفنة وأبي كَرِب كما مرّ في المتن.

(٧٢) **مخطوطة لندن**: رقم ٥٨٥ ص ٤٦٨ من الفهرس.

أمّا الأثر الثاني فهو مخطوطة سريانيّة قديمة العهد تضمّنت أخبار الرهبان والنسّاك ورد فيها ما تعريبه:

«هذا الكتاب يخصّ (بيعة) مار شَعْدُون الحبيس بكورة بصرى. وهو ساكن في حدود متن، نسخة سنة ٩١٥ لليونان (٦٠٤م). أمّا الكتاب فيخصّ الدير المقدّس المؤسّس على اسم الطوباويّ مار شَعْدُون ومار يوحنّا الحبيس بجبل هَجْن شرقيّ قاسِطْرَة مَتَن[٧٣]».

فكلّ ما بسطناه من أخبار غسّان الدينيّة يبرهن جليًّا عن انتشار السريان منذ القديم في سوريّة الجنوبيّة الغربيّة انتشارهم في سوريّة الشرقيّة والغربيّة. ويصرّح بأنّ الأمراء الغسّانيّين كانوا من أقوى المدافعين عن العقيدة الأرثوذكسيّة ومن أكبر المحامين عن بطاركة السريان الأرثوذكس وعن إكليروسهم وكنائسهم وأديارهم.

أخبار الغساسنة السياسيّة

قسّم السريان مسيحيّي العرب قسمين: الغساسنة والمناذرة. حالف أولهما قياصرة الروم وعاهد ثانيهما أكاسرة الفرس. وكانت الجولان أو البلقاء حاضرة للغساسنة والحيرة قاعدة للمناذرة. وحصلت بين القبيلتين عدّة مناوشات ومعارك كانت الغلبة فيها تارة لأولئك وحينًا لهؤلاء. واستمرّت الحروب بينهما حتّى أواسط القرن السابع للميلاد فألقى أغلبهم السلاح والرماح وانحازوا إلى الآراميّين سكّان سوريّا الأصليّين وغيرهم وتخلّقوا بأخلاقهم وتزيّوا بأزيائهم. ومكث قوم منهم راسخين في العقيدة الأرثوذكسيّة حتّى القرن الثالث عشر.

ونورد هنا مجمل أخبار الأمراء الغساسنة وقياصرة الروم بإيجاز:

١) يُسطنيان والحارث الخامس:

في السنة ٥٥٤ للميلاد وهي السنة ٣٧ ليسطنيان (٥٢٧ – ٥٦٥) وللحارث (٥٢٩ – ٥٦٥) أمير غسان، زحف المنذر الثالث (٥١٣ – ٥٦٢) ابن النعمان من الحيرة في جيوشه إلى بلاد الروم وعاث فيها وأتلف مزارعها. فركب الحارث الغسّانيّ وبطش به في كورة قِنَّسْرين وشرّد رجّالته وزجّالته وارتجع أراضي الدولة الروميّة وعاد إلى حاضرته ظافرًا

(٧٣) **مخطوطة لندن**: رقم ٥٧٥ ص ٤٥٨ من الفهرس.

منصورًا. فكبرت منزلته في عين القيصر وجاد عليه بالخلع الوافرة والتحف الثمينة. وتوفّي في تلك الغضون نجل الحارث ودُفن بحضور أبيه في مقبرة عين عودايا المجاورة لقِنَّسْرين[٧٤]. وظلّت عهود الولاء والإخلاص ثابتة راسخة بين يسطنيان والحارث حتّى وفاتهما.

٢) يسطينس والمنذر الثالث:

وفي السنة الرابعة ليسطينس (٥٦٥ – ٥٧٨) شدّ الفرس على نصّيبين مدينة الحدود الفاصلة بين أراضي الدولتين الروميّة والفارسيّة واحتلّوها واحتلّوا معها مدينة دارا القريبة منها ثمّ زحف قابوس (المنذر الثالث) (٥٦٥ – ٥٨٠)، ملك المناذرة، إلى بلاد غسّان وغزا مواشيهم وأفسد أراضيهم. فحشد المنذر الغسّانيّ عساكره وانصبّ على المناذرة وشتّتهم وعاد إلى بلاده في غنائم جمّة وجمال وافرة. بيد أنّ قابوس كرّ على المنذر ثانية يريد إتلافه ولكنّه فشل في هذه المرّة أيضًا وانقلب إلى بلاده ليأتي بجنود جدد ويستأنف القتال مع الغساسنة.

إستدرك المنذر خديعة قابوس خصمه فكتب إلى القيصر يطلب منه مالاً وذخيرة ليوزّعها على جنوده ثمّ يهجم بهم على المناذرة ويكتسحهم. لكن يسطينس رفض طلب البطريق ونوى أن يفتك به زاعمًا أنّ الفرس لا يطمعون باحتلال بلاد الروم إلاّ لسببه. فأنتجت له نيّته الخبيثة أن يكتب إلى مرقيانا قائد جيشه – وكان يومئذ في نصّيبين – ليحتال على قتل البطريق. فكتب إليه يقول:

«كتبنا إلى المنذر إلى الشخوص إليك فاحتلْ عليه وخذ رأسه واكتب لنا».

ثمّ كتب إلى المنذر يقول:

«أمرنا مرقيانا القائد ألاّ يُقدم على عمل يتعلّق بمصلحته دون مشورتك. فصر إليه مع وصول كتابنا هذا إليك».

قال المؤرّخ الأرثوذكسيّ ابن العبريّ:

«تعطّف الله جلّت قدرته على شعبنا السريانيّ فأنقذ المليك المنذر من تلك الداهية الدهياء. وذلك أن كان القيصر بعدما نسخ الرسالتين في وقت واحد وختمهما كتب اسم

(٧٤) إبن العبريّ، **تاريخ الدول السريانيّ**، ص ٨٩. وتاريخ **الرهاويّ المجهول** ٥٦: ١٥.

المنذر سهوًا على رسالة مرقيانا واسم مرقيانا على رسالة المنذر. وبوصول الرسالتين انكشفت الدسيسة وافتضحت الخديعة. فاضطرّ المنذر أن يأخذ حذره من القيصر وأحجم عن استئناف القتال وعقد الصلح مع العرب المناذرة. واتّفق الغساسنة والمناذرة معًا على غزو بلاد الروم وإتلاف مزارعهم. فغلب على ظنّ القيصر أنّ مرقيانا أفشى السرّ فاستشاط غيظًا وألقى القبض عليه[٧٥]».

٣) طيبريوس قيصر والمنذر الثالث والنعمان ابنه:

بلغ المنذر أنّ طيبريوس قيصر (٥٧٨ – ٥٨٢) خلف يسطينس في عرش الدولة البيزنطيّة، فرأى أن يشخص إلى العاصمة ليهنّئه ويقرّر له عهود الولاء كآبائه وأجداده. ولّما واجه القيصر أخذ يعاتبه لكونه تخلّف عن الذهاب إلى أقاميا في جيوشه ليكشف عنها المناذرة. فقال له المنذر: صدقت أيّها القيصر في ما قلت، وكان بوسعي أن أنازل المناذرة وأناجزهم القتال وأردّهم على أعقابهم بإذن الله تعالى. غير أنّ هناك مسألة جوهريّة أقعدتني عن الإيقاع بهم. قال هذا وأخرج من عبّه رسالة يُسطينسَ الموجّهة إلى مرقيانا ودفعها إلى القيصر. فدهش كلّ الدهش وامتُقع لونه وطفق يجامل البطريق الأمين ويبالغ في تكريمه. ثمّ أتحفه بهدايا فاخرة وافرة وجاد عليه بتاج ذهبيّ زيّن به مفارقه، فكان المنذر الثالث أوّل ملك غسّاني لبس التاج الذهبيّ[٧٦].

وثق المنذر بإخلاص القيصر وولائه فجيّش جيوشًا كثيفة من روم وعرب وزحف بهم إلى بلاد فارس يؤازره القائد موريقي قيصر. فحاصروا بدءًا بلدة «عَنَت[٧٧]» واحتلّوها ثمّ ركبوا السفن في الفرات يريدون الرِقّة وقاتلوا الفرس حتّى كادوا ينطوون عليهم ويتلفونهم عن بكرة أبيهم.

ولّما ضاقت الحيل بأَدْرَهْمُون قائد الجيوش الفارسيّة وعجز عن القتال أرسل إلى المنذر يشاغله ويقول: «الأجدر أن نكفّ غدًا الأحد عن القتال ونستأنفه يوم الاثنين». فرضي المنذر باقتراح أَدْرَهْمُون طمعًا باستراحة رجاله واستجماع قواهم. غير أنّ الفرس تفلّلوا تلك الليلة وانقلبوا إلى مدينة تَلّ مُوزِل وسبَوها ثمّ صاروا إلى نصّيبين ودير قرتمين بطور عَبدين وانكفأوا إلى بلادهم.

(٧٥) إبن العبريّ، **تاريخ الدول السريانيّ**، ص ٨٥ و٨٦. وتاريخ الرهاويّ المجهول، ص ٦٧ : ١٢٤.

(٧٦) **المجلّة البطريركيّة السريانيّة**، القدس (مجلّد ٧) ص ٢٦٨.

(٧٧) عَنَت: ربّما هي عانة المدينة العراقيّة التي تقع على ضفّة الفرات وكانت قاعدة لأبرشيّة العرب التغالبة.

غلب على ظنّ موريقي القائد أنّ المنذر خان الدولة الروميّة وأطلق الحرّيّة للجيش الفارسيّ في الهزيمة. فانقلب إلى العاصمة ووشى به إلى القيصر. فارتاب القيصر في الأمر ونغلت نيّته على المليك الغسّانيّ واعتزم أن يقبض عليه ويطرحه في السجن. واتّفق أنّ مَغْنا والي الرها صديق المنذر كان يوم ذاك في العاصمة، فقابل القيصر ووعده أن ينفّذ أمره. ثمّ إنّه توصّلاً إلى مأربه تمارض وانطلق إلى حمّام مجاور لحمص وكتب من هناك إلى المنذر يقصّ عليه خبر مرضه ويسأله أن يعوده وممّا كتبه إليه قوله:

«أرجو أن تقدم إليّ لأطّلع على أحوال صحّتك. ولولا ما تكلّفته من مشقّات السفر لبادرت أنا إليك وسجدت لك».

لبّى المنذر نظرًا إلى صفاء قلبه طلب صديقه مَغْنا وسار إليه مع بعض رجاله في هدايا جزيلة. وما إن شعر مَغْنا الخائن بقدوم المنذر حتّى ترك الحمّام وانقلب عائدًا إلى حمص. فوصل المنذر إلى الحمّام ثمّ استأنف المسير إلى حمص، فخرج مَغْنا إلى لقائه ورحّب به ترحيبًا جميلاً وأمر له بمحلّ ينزل فيه وأطلق الحرّيّة لجنوده ليطوفوا في المدينة. ولّما جلسا إلى مائدة الطعام أومأ مَغْنا إلى أصحابه فقبضوا على المنذر وصفّدوه بالأغلال ومضوا به إلى حاكم المدينة، فسيّره على تلك الحال إلى العاصمة ثمّ نفاه القيصر إلى جزيرة صقلّية، وظلّ في منفاه حتّى السنة ٦٠٢م.

سمع الخبر النعمان بن المنذر فقار فائره واستفظع الخيانة وجهّز الجنود واستاقهم إلى بلاد سوريّة ولا سيّما إلى أطراف مدينة الرها مركز مَغْنا المحتال الغدّار وجعل يعيث فيها. غير أنّه لم يفتك بأحد قطّ حرصًا على حياة المنذر أبيه. أمّا القيصر فكتب إلى مَغْنا ليقبض على النعمان وعلى إخوته كما قبض على المنذر أبيهم ويتولّى هو إمارة العرب الغساسنة. فانطلق إلى الرها وراسل النعمان يخاتله ويماذقه كأنّه يروم أن يقلّده الإمارة مكان أبيه المنذر إذا وافى إليه.

إستدرك النعمان دسيسة مَغْنا الخبيث فاستدعى رجلاً عربيًّا من رجاله وألبسه ثيابه وسيّره في بعض الجنود. ولّما وصل العربيّ الغسّانيّ قال له مَغْنا: أأنت النعمان بن المنذر؟ قال العربيّ؟ بلى وقد جئت طِبقًا لأمرك. صاح مَغْنا بحرسه وقال لهم: دونكم عدوّ القيصر، أوثقوه. فضحك العربيّ وقهقه وقال لمغنا: نويتم الاحتيال علينا فسبقناكم في الحيلة. كلاّ وحقّ المسيح لست أنا النعمان[٧٨]!

(٧٨) **مجلّة البطريركيّة السريانيّة** ٧ : ٢٦٨.

فصمّم مَغْنا أن يغدر بالغسّانيّ، لكنّ الغسّانيّ لم يعبأ به، بل قال له: أنا في كلتا الحالتين عرضة للقتل. فلو عصيت مولاي النعمان وخالفت أمره لقتلني. وقد قضيتَ أنتَ في قتلي لأنّي خضعت له وأقبلت إليك. فاكتفى مَغْنا بأن ألقى الغسّانيّ في السجن وما مرّ القليل حتّى مات الخائن المحتال[٧٩].

٤ – موريقي قَيصر والنُّعمان السادس:

إستهان النُّعمان السادس (٥٩٧ – ٦٠٠) أمير غسّان بحياته وقصد العاصمة ليهنّئ الملك موريقي (٥٨٢ – ٦٠٢) بجلوسه على تخت السلطنة ويسأله خصوصًا أن يُطلق والده المنذر من السجن. فوعده القيصر على شرط أن يقاتل الفرس ويكشفهم عن بلاده. ثمّ عرض عليه أن يحضر القدّاس في الكنيسة ويتناول القربان الأقدس. فاستعذر النعمان وقال للقيصر: «إنّ قبائل العرب جمعاء هم يعاقبة فإذا شعروا بمخالفتي إيّاهم في المعتقد قتلوني لا محالة». فتركه القيصر وشأنه. ولّما انصرف النعمان أقسم أنّه لن يواجه القيصر على الإطلاق. فسمع بعض الجنود كلامه وتتبّعوه وقبضوا عليه، فنفاه الملك كما نُفي المنذر[٨٠] أبوه، وقد سبق وشرحنا هذا قبل قليل.

٥ – تبادل موريقي وكسرى الرسائل على يد نعمان السادس.

في السنة الثامنة لموريقي خلع الفرس ملكهم هُرمِزْد وسمَلوا عينيه وفتكوا به ونادوا بابنه كسرى ملكًا (٥٨٩ – ٦٢٧). فانتفض بَهْرام المَرْزُبان على الملك الجديد وحاول أن يقتله ويملك مكانه. فانفلت كسرى من دهائه وتنكّر كأنّه سائل مُكدّ (شحّاذ) وصار إلى الرها ومنها إلى منبج وكتب إلى أبي جَفْنَة أبي كَرْب وهو النُّعمان السادس وكان وقتئذٍ في الرصافة يسأله أن يشخص إليه. فبادر النعمان إلى منبج واجتمع بكسرى وتفاوضا مليًّا وأجمعا على أن يكتب كسرى إلى موريقي ويصرّح له بمكنونات صدره ويستنجده على بَهْرام المغتصب. فكتب كسرى إلى موريقي كتابًا مؤثّرًا ودفعه إلى أبي جَفْنَة الغسّانيّ لينقله إليه[٨١]. وهذه صورته بالنصّ:

«للآب المبارك والسيّد المقدّم موريقي ملك الروم من كسرى ابن هُرمِزْد، سلام».

(٧٩) تاريخ الرهاويّ المجهول ٧٤: ١٢٧. وابن العبريّ، ص ٨٨.

(٨٠) تاريخ الرهاوي ٧٧: ١٣٠ وابن العبريّ، ص ٨٩.

(٨١) تاريخ الرهاويّ ٨٠ و٨١ ص ١٣٢ و١٣٣.

«أمّا بعد فإنّي أُعلم الملك أنّ بَهْرام ومن معه عبيد أبي جهلوا قدرهم ونسوا أنّهم عبيد وأنا مولاهم. وكفروا نِعَمَ آبائي لديهم فاعتدوا عليّ وأرادوا قتلي. فهممت أن أفزع إلى مثلك فأعتصم بفضلك وأكون خاضعًا لك. لأنّ الخضوع للملك مثلك وإن كان عدوًّا أيسر من الوقوع في أيدي العبيد المردة. ولأن يكون موتي على يدي الملوك أفضل وأقلّ عارًا من أن يجري على أيدي العبيد. ففزعت إليك ثقة بفضلك ورجاء أن تترأف على مثلي وتمدّني بجيوشك لأقوى بهم على محاربة العدوّ وأصير لك ولدًا سامعًا ومطيعًا إن شاء الله تعالى».

وثق القيصر بتصريح كسرى وعزم على إجابة مسألته لأنّه لجأ إليه، فأنجده بعشرين ألفًا وعلى رأسهم إيونّيس قائد جيش تَراقية ثمّ شفعهم بعشرين ألفًا آخرين وجّههم مع القائد أنسطاس. وأضاف إلى ذلك أربعين قنطارًا ذهبًا وكتب إلى كسرى كتابًا سلّمه إلى أبي جَفْنَة الغسّانيّ ليحمله إليه وهذه نسخته:

«من موريقي عبد يشوع المسيح إلى كسرى ملك الفرس ولدي وأخي السلام: «أمّا بعد فقد قرأت كتابك وفهمتُ ما ذكرتَ فيه من أمر العبيد الذين تمرّدوا عليك. وكونهم غمطوا أنعُم آبائك وأسلافك غمطًا، وخروجهم عليك ودحضهم إيّاك عن ملكك، فتداخلني من ذلك أمر حرّكني على الترأف بك وعليك وإمدادك بما سألت.

«فأمّا ما ذكرت من الاستتار تحت جناح ملك عدوّ والاستظلال بكنفه آثرُ من الوقوع في أيدي العبيد المردة والموت على أيدي الملوك أفضل من الموت على أيدي العبيد، فإنّك اخترت أفضل الخصال ورغبت إلينا في ذلك. فقد صدّقنا قولك وقبلنا كلامك وحقّقنا أملك وأتممنا بغيتك وقضينا حاجتك وحمدنا سعيك وشكرنا حسن حظّك بنا. ووجّهنا إليك بما سألت من الجيوش والأموال. وصيّرتك لي ولدًا وكنتُ لك أبًا. فاقبض الأموال مباركًا لك فيها، وقُد الجيوش وسرْ على بركة الله وعونه. ولا يعتَرِكَ الضجر والهلع. بل تشمّر لعدوّك ولا تقصّر فيما يجب لك إذا تطأطأتَ من درجتك وانحططت عن مرتبتك. فإنّي أرجو أن يُظفرك الله بعدوّك ويردّ كيده في نحره، ويعيدك إلى مرتبتك برجاء الله تعالى»[٨٢].

(٨٢) إبن العبريّ، مختصر تاريخ الدول، ص ١٥٢ – ١٥٤. ط ١.

سُرّ كسرى بجواب القيصر وانطلق إلى العاصمة مطمئنًّا. فرحّب به مُوريقي ترحيب الملوك وبالغ في تعزيزه وأنفذ كلّ ما وعده به. وتأييدًا لعهود الصلح والولاء زفّ إليه القيصر ابنته ماريًا. فذهب كسرى بعروسه إلى عاصمته وابتنى لها ثلاث كنائس: الأولى على اسم العذراء مريم والدة الله، والثانية على اسم الرسل، والثالثة على اسم مار سرجيس[٨٣] شفيع الغساسنة. وتعزّزت المسيحيّة في البلاد الفارسيّة على يد الملكة ماريًا. وانطلق أنسطاس الثاني بطريرك السريان الملكيّين (٥٩٩ – ٦١٠) فدشّن تلك الكنائس الثلاث واستتبّت الطمأنينة بين الدولتين البيزنطيّة والفارسيّة. وظلّ كسرى مخلصًا في عهوده ومواثيقه يؤدّي للقيصر فروض التكريم ومعرفة الجميل كالابن لأبيه[٨٤].

إنقراض الإمارة الغسّانيّة

ظلّت إمارة الغساسنة المسيحيّة زاهرة حتّى أوائل القرن السابع للميلاد. ثمّ انتُزعت من يدهم في عهد الأمير جَبَلة السادس (٦٣٠ – ٦٣٧) الذي جاهر بالإسلام على يد الخليفة الراشديّ عمر بن الخطّاب (٦٣٤ – ٦٤٤). قال أبو الفرج بن العبريّ:

«انطلق جَبَلة إلى يثرب وحضر مع عمر في المسجد. فتصدّى له رجل من قبيلة فَزارَة ووطئه برجله. فسخط جَبَلة وضرب الفزاريّ وهشّم أنفه. فرافعه الفَزاريّ إلى عمر. فقال عمر لجَبَلة: أرضِه أو دعْهُ يهشّم أنفك. فقال له جَبَلة: كيف يتيسّر للملك مثلي أن يغمُض عن رجل سوقة يضربه؟ قال عمر: إن كنت أكرم منه في الملك فأنت مساوٍ له في الإسلام. قال جَبَلة: إذًا أمهلني حتّى الصباح لأختار أحد الأمرين: ولمّا جُنّ الليل نهض جَبَلة بخيله ورواحله وانهزم برجاله إلى قبدوقية وعادوا إلى المسيحيّة[٨٥]».

(٨٣) **ميخائيل الكبير**، ص ٣٨٧، ابن العبريّ، **تاريخ الدول السريانيّ** ص ٩٢.

(٨٤) **الرهاويّ المجهول** ٨١: ١٣٣.

(٨٥) **تاريخ الدول السريانيّ** ١٣١ – ١٣٢.

رواية أبي الفرج الأصفهانيّ عن الخليفة الراشديّ والأمير الغسّانيّ

توسّع أبو الفرج الأصبهانيّ (٨٩٨ – ٩٦٦م) في تفصيل ما حدث لجَبَلة الغسّانيّ مع الخليفة عمر قال ما خلاصته:

«لمّا أسلم جَبَلة الغسّانيّ كتب إلى عمر يستأذنه في القدوم عليه فأذن له. فخرج إليه جَبَلة في ٥٠٠ من أهل بيته حتّى إذا كان على مرحلتين كتب إليه يُعلِمه بقدومه. فسُرّ عمر وأمر الناس أن يستقبلوه. أمّا جَبَلة فأشار إلى مائتين من أصحابه فلبسوا السلاح والحرير وركبوا الخيول معقودة أذنابها وألبسوها قلائد الذهب والفضّة. ولبس جبَلة تاجه وفيه قرطا جدّته ماريّه ودخل المدينة. فلم يبقَ بكرٌ ولا عانِس إلاّ تبرّجت وخرجت تنظر إليه وإلى زيّه. ولمّا انتهى إلى عمر رحّب به وألطفه وأدنى مجلسه، ثمّ أراد عمر الحاجّ فخرج معه جَبَلة وكان من أمره ما كان مع الفزاريّ وانهزم جَبَلة في رجاله كما ذكرنا آنفًا. واستتلى أبو الفرج الأصبهانيّ يقول: كتب عمر إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام وأرسل الكتاب مع جُثَامَة والكتّانيّ فأجاب هِرَقْل إلى كلّ شيء سوى الإسلام. ولمّا أراد جُثَامَة الانصراف قال له هرقل هل رأيت جَبَلة؟ قال لا. قال فالقه».

توجّه جُثامة إلى قصر جَبَلة ورأى عنده من البهجة والحسن ما لم يَرَه بباب هِرَقْل. فشاهد في بهو عظيم فيه من التصاوير ما لم يحسن وصفه. وكان مستويًا على سرير قوائمه أربعة أُسد من ذهب. وبين يديه آنية من الذهب والفضّة ما لم يُرَ أحسن منه. وكان جَبَلة أصهبَ ذا سِبال وعُثْنون فسلّم عليه جُثامة فرحّب به جَبَلة وألطفه وأقعده على كرسيّ من ذهب فانحدر عنه. فقال له جَبَلة: إذا طهّرت قلبك يا هذا لا يضرّك ما لبستّه ولا ما جلست عليه. ثمّ أومأ جَبَلة إلى غلام فولّى يحضر. وما كان إلاّ هنيهة حتّى أقبلت الأخونة يحملها الرجال فوُضِعت وجيء بخوان من ذهب فوُضع أمام جُثامة. وأُديرت الخمر فاستعفى منها. ودعا بكأس من ذهب فشرب منها خمسًا عددًا. ثمّ حضر عشر جوارٍ قعد خمس عن يمينه وخمس عن شِماله تلاهنّ عشر جوارٍ أفضل من الأُول عليهنّ الوَشي والحليّ. ثمّ قال لهنّ جَبَلة: أطربْنني. فخفقن بعيدانهنّ يغنّين:

لله درّ عصابة نادمتهم ... يومًا بجُلّق في الزمان الأوّل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شمّ الأنوف من الطراز الأوّل

فاستهلّ جَبَلة واستبشر وطرب ثمّ قال للجواري زِدنني، فاندفعن يغنّين:

لمن الـدار أقـفـرت بمعـان بين شـاطئ اليرموك فالصمّان
فـحـمـى جـاسم فأودية الـ ـصـفـر مغنى قبائل وهجان
فـالـقـريّـات مـن بـلاس فـدا ريـا فسكّـا فـالقصور الدواني
ذاك مـغـنّـى لآل جـفـنـة فـ ـي الدهر وحقّ تعقّب الأزمان
قد دنا الفصح فالولائد ينظمـ ـن سـراعًـا أكـلّـة المرجـان...

فقال جَبَلة لجُثامة: أتعرف هذه المنازل؟

قال: لا.

قال جَبَلة: هذه منازلنا في ملكنا بأكتاف دمشق. وهذا شعر حسّان بن ثابت.

قال جُثامة: إنّه مضرور البصر كبير السنّ. فأحضر جَبَلة ٥٠٠ دينار وخمسة أثواب من الديباج. وقال لجُثامة: ادفع هذا إلى حسّان وأقرئه منّي السلام. فسلّم جُثامة على جَبَلة وانصرف إلى الخليفة عمر وقصّ عليه القصّة من أوّلها إلى آخرها. ثمّ قال له عمر: هل سرّح جَبَلة معك شيئًا؟ قال جُثامة: سرّح إلى حسّان ٥٠٠ دينار وخمسة أثواب ديباج. فقال عمر: هاتِها، وبعث إلى حسّان فأقبل يقوده قائده حتّى دنا فسلّم وقال: يا أمير المؤمنين إنّي لأجد أرواح آل جَفْنة. فقال عمر: قد أرسل إليك جَبَلة هديّة. فانصرف حسّان وهو يقول:

إنّ ابن جَفْنة من بقيّة معشر يـغـذّهـم آباؤهم بـالـلّـوم
لم ينسني بالشام إذ هو ربّها كـلاّ ولا متنصّرًا بـالـروم
يعطي الجزيل ولا يراه عنده إلاّ كبعض عطيّة المذموم

ثمّ قال حَسّان لجُثامة: ماذا قال لك جَبَلة؟

قال: قال لي إن وجدته حيًّا فادفعها إليه وإن وجدته ميتًا فاطرح الثياب على قبره، وابتع بهذه الدنانير بُدُنًا فانحرها على قبره.

فقال حَسّان: ليتك وجدتني ميتًا ففعلت ذلك بي.

وذكر ابن أبي بَكْر أنّه لمّا ولي معاوية بن أبي سفيان دست الخلافة (٦٦١ – ٦٨٠م) بعث إلى جَبَلة يدعوه إلى الرجوع إلى الإسلام ووعده أقطاع الغوطة بأسرها فأبى ولم يقبل[٨٦].

(٨٦) الأصفهانيّ، **الأغانيّ**، طبعة الأب أنطون صالحانيّ، ج٢ ص ٢٧٦ – ٢٨١.

٨ – نيقيفور ملك الروم الغسّانيّ:

أقام جَبَلة ورجاله في قَبَدوقية كما قلنا وظلّوا متمسّكين بعقيدتهم المسيحيّة حتّى وفاتهم، وتسلسل أنسالهم هناك إلى ما شاء الله تعالى.

قال أبو الفرج بن العبريّ:

«من سلالة جَبَلة الغسّانيّ ينحدر نيقيفور قيصر الروم (٨٠٢ – ٨١١م) الذي جلس على تخت السلطنة بعد قسطنطين السادس وأمّه الملكة غيرينا (٧٨١ – ٨٠٢م). وكان نيقيفور داهية عاقلاً ورعًا صائمًا ومصلّيًا. ذلك ما حمل الفيدي أمير صِقِلّية أن يخاطب عبد الملك قائد الجيوش العربيّة ويقول له: إذا ملَك نيقيفور فاخلع ثوبك الناعم وتدرّع بالسلام وتهيّأ للقتال. على أنّ نيقيفور ما كاد يجلس على سرير المملكة البيزنطيّة حتّى كتب إلى هرون الرشيد الخليفة العبّاسيّ (٧٨٦ – ٨٠٩م) يثيره إلى الحرب. وظلّ القيصر والخليفة مدّة شهرين يتراسلان حتّى عقدا الصلح بين الدولتين، وتبادلا هدايا الإخلاص وعاد كلّ منهما إلى عاصمته»[٨٧].

٩ – تشتّت الغسّانيّين في مختلف الأقطار:

ما عدا الغسّانيّين الذين ذهب بهم أميرهم جَبَلة السادس ابن جَبَلة الخامس إلى بلاد أرمينيا فإن بقيّتهم الباقية تشعّبت على توالي الأحقاب خمس عشرة شعبة وتطرّدوا في البراري، وانضمّ أغلبهم إلى الفرس. وألقى بقيّتهم السلام واندمجوا مع أهل الحضر في سوريّة وأثور وأرض سَنْعار (العراق). وتبع قوم منهم عقيدة الروم الملكيّين. وحافظ قوم على عقيدتهم الأرثوذكسيّة كأهالي الحديثة وهيت وباعربايا والقريتين ببلد حمص والنبك وسائر البلاد[٨٨].

هكذا انفرط عِقد الإمارة الغسّانيّة المسيحيّة بعدما استتبّ لها الملك ٤٣٢ سنة بدءًا من أميرها جَفْنة الأوّل (٢٠٥ – ٢٤٨) حتّى الأمير جَبَلة السادس (٦٣٠ – ٦٣٧م).

(٨٧) إبن العبريّ، **تاريخ الدول السريانيّ** ١٣٣.
(٨٨) إبن العبريّ، **تاريخ الدول السريانيّ** ٨٩.

قائمة أمراء الغساسنة

آل جفنة

أبو شَمَر جَبَلة	حوالي عام ٥٠٠؟
الحارث بن جَبَلة	(فيلارخًا ابتداء من عام ٥٢٩ ومات عام ٥٦٩)
أبو كَرْب المنذر بن الحارث	٥٦٩–٥٨٢
النعمان بن المنذر	٥٨٢–٥٨٣

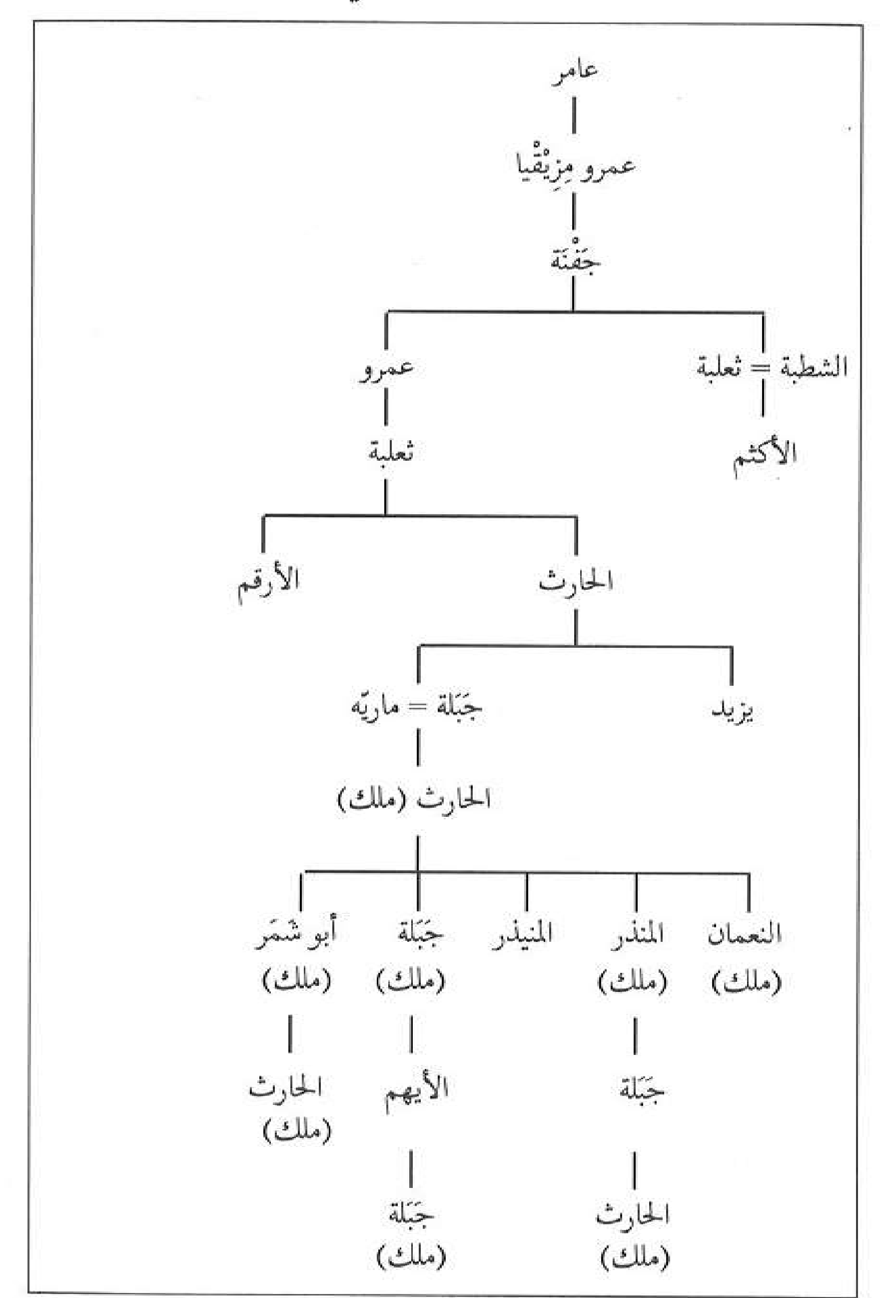
الحارث الأصغر ابن الحارث الأكبر
([الحارث]) الأعرج بن الحارث الأصغر
أبو حُجْر النعمان (ابن الحارث الأصغر؟)
} بين عامي ٥٨٣ و٦١٤

عمرو أخوه
حُجْر بن النعمان

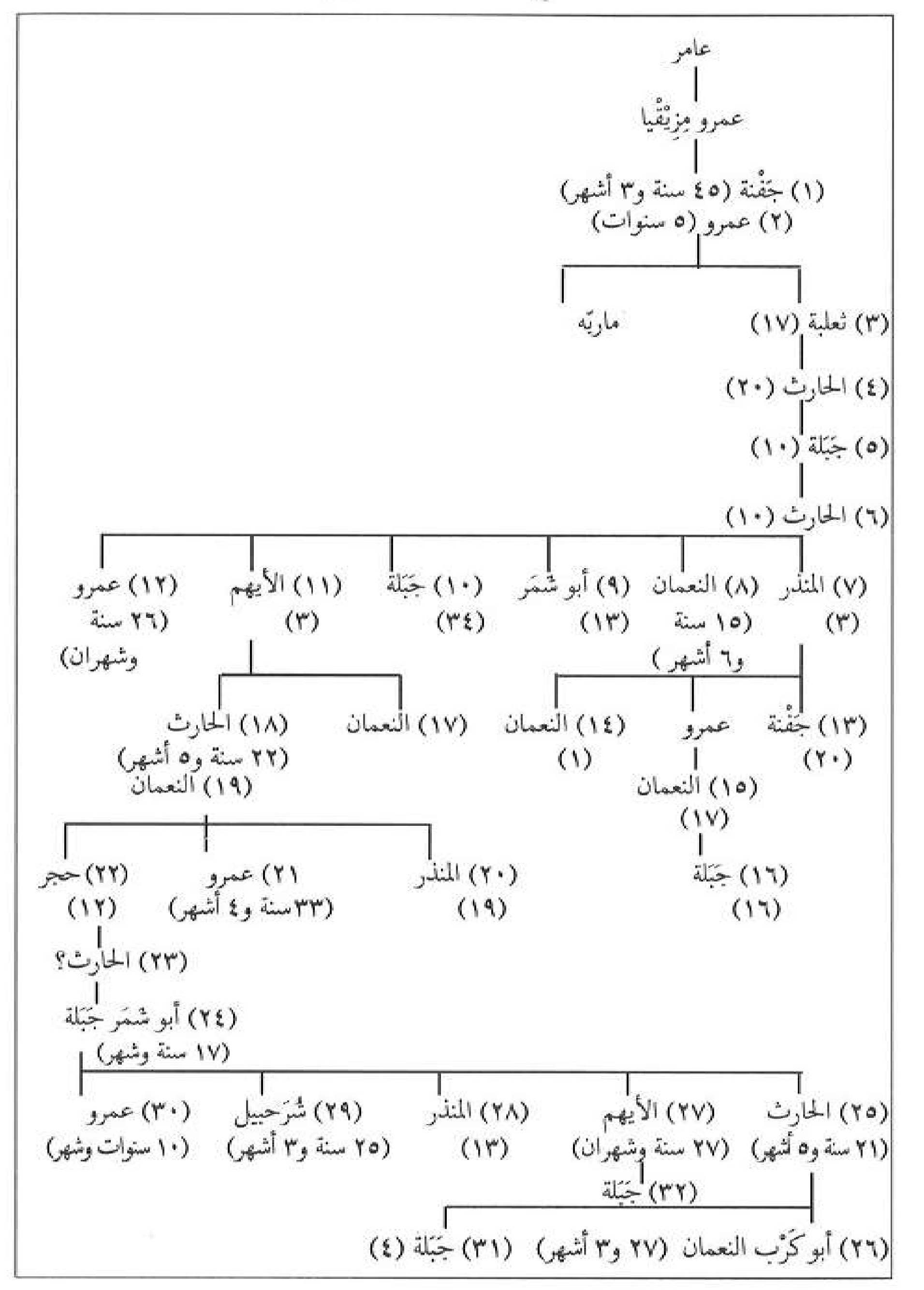
+ +
+ عام ٦٥٣
جَبَلة بن الأيْهم

وفقًا لنولدكه

شجرة نسب آل جفنة وفقًا لابن الكلبيّ



شجرة آل جفنة وفقًا لحمزة الأصفهانيّ
(مع بيان مُدد حكمهم)



من قبائل العراق المسيحيّة قبل الإسلام بنو تغلب

كثيرون يجهلون تاريخ القبائل العربيّة المسيحيّة، وبالتالي يجهلون الوحدة الكائنة بين المسيحيّين والمسلمين في وطننا العربيّ. فالعرب المسيحيّون هم من صميم الأمّة العربيّة، ولا نستطيع تصوّر تاريخ العرب إلاّ وهو ممزوج بتاريخ المسيحيّة والمسيحيّين، ونودّ هنا أن نُلقي ضوءًا على ما كان للمسيحيّين العرب من أثر بارز في الحضارة العربيّة قبل الإسلام.

إسم تَغْلِب:

كان أوّل ناطق بالشعر العربيّ وهلهل فيه فسُمّي بالمُهَلهِل، الزِير سالم التغلبيّ[1]، وما يلي من الأبيات الشعريّة تؤكّد ذلك:

إنّا بنو تغلب شمّ معاطسنا	**بيض الوجوه إذا ما أفزع البلد**
قوم إذا عاهدوا وفوا وإن عقدوا	**شدّوا وإن جاهدوا يوم الوغى اجتهدوا**
لا يرقدون على وقر يكون لهم	**وإن يكن عندهم وتر العدى رقدوا**

قبيلة تَغْلِب من أكرم بيوتات العرب[2]، ومن أعظم قبائلها شأنًا. عرفت منذ أوائل عهدها بالإباء والكِبْر والشَمَم، ترعى الذمّة وتَقري الضيوف وتُغيث الملهوف وتنصر الجار. وتنتصر للعصبيّة القبليّة انتصارًا شديدًا فتُريق لأجلها الدماء، وتبذل الغالي والنفيس في سبيل العزّة والشرف. وإذا تأمّلنا في أبيات الشاعر المهلهِل – الآنفة الذكر – وهو أحد أقيالها (زعمائها)، نعلم أيّ ذروة من المجد والإباء تتبوّأ هذه القبيلة في قلب الجزيرة العربيّة.

(١) المهلهل، لقب عديّ بن ربيعة. شاعر جاهليّ، خال أمرئ القيس. بطل من أبطال حرب البسوس التي قتل فيها أخوه كليب فقال فيه أكثر أشعاره، توفّي عام ٥٣١م.

(٢) ابن عبد ربّه، **العقد القريد**، ج٣، ص ٢٧٩.

إختلف النسّابون في تسمية هذه القبيلة (تَغلِب) فقال بعضهم إنّ هذه القبيلة تنتسب إلى جدّها الأعلى واسمه دَثار، تمنّى له أبوه أن يَغلِب فلحق به هذا الاسم وقيل (تَغْلِب) وقال غيرهم إنّه اسم فعل يدلّ على الغلبة[٣]، ومهما كان الأمر فهو اسم عربيّ صميم مشتقّ من فعل (غَلَبَ) والنسبة إليه (التَغْلِبيّ) وجمعه التغالبة[٤].

أصل تَغْلِب وأنسابها:

تحدّد قبيلة تغلب من جدّها الأعلى تغلب بن وائل بن قاسط بن هَنَب بن أقصى بن دَعْمي بن أَسَد بن رَبيعة بن نِزار[٥] بن مَعَد بن عدنان بن أود بن ثابت بن إسماعيل عليه السلام[٦].

ومن بطون[٧] تَغْلِب، الأراقيم وهم جَشَم ومالك وعمرو وثَعْلَبة ومعاوية والحوت بنو بكر ابن حبيب بن غَنَم بن عمرو بن تغلب. وإنّما سُمّوا الأراقم لأنّ عيونهم كعيون الأراقيم[٨].

ومن بطون تَغْلِب أيضًا جَشَم وكُلَيْب وائل الذي يقال فيه (أعزّ من كُلَيب وائل) وهو كُلَيب بن رَبيعَة بن الحَرْث بن زهير بن جَشَم وأخوه مهَلْهِل بن رَبيعَة[٩].

وكان نسبة بين تَغْلِب وبَكْر، فقد قال صاحب العقد الفريد «ألا ترى أنّ بَكْرًا وتغلبَ ابني وائل قبيلتان متكافئتان في العدّ والعُدد؟ فلم يكن في تغلب رجال شُهرت أسماؤُهم حتّى انتسب إليهم واجتزى بهم عن تغلب، فإذا سألت الرجل من بني تغلب لم يجتزِ حتّى يقول تغلبيّ[١٠]».

وتغلب من القبائل العدنانيّة التي كانت يومًا منتشرة في سهول نَجْد والحجاز وهامة والعراق[١١].

(٣) دائرة المعارف الإسلاميّة تحت كلمة (تغلب) ص ٣٢٤.
(٤) إبن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٣، ص ٢٨٥.
(٥) إبن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٣، ص ٣٠٧. ودائرة المعارف الإسلاميّة تحت كلمة (تغلب) ص ٣٢٥.
(٦) تاريخ اليعقوبيّ ج١ ص ١٨١ — ١٨٤ مطبعة الغريّ، النجف (١٣٥٨هـ).
(٧) البطون هي دون القبائل (العقد الفريد، ج٣، ص ٢٨٤.
(٨) العقد الفريد، ج٣، ص ٧٠٣.
(٩) العقد الفريد، ج٣، ص ٧٠٣.
(١٠) العقد الفريد، ج٣، ص ٢٨٥.
(١١) جرجي زيدان، التمدّن الإسلاميّ، ج٤، ص ١٣.

مواطن تغلب ومنازلها:

إنّ موطن جدّ التغالبة الأصليّ كان الحجاز، أو بالحريّ مكّة المكرّمة. فإنّ جدّهم الأعلى (عدنان أوّل من وضع الأنصاب وكسا الكعبة[١٢]).

وكان جدّهم الأخير (نزار بن مَعَدّ سيّد بني أبيه وعظيمهم، ومقامه بمكّة[١٣]). ولم يبرحوا تلك الديار إلاّ في عهد جدّهم الأخير وهكذا انتشر بنو ربيعة حتّى امتلأت منهم البلاد[١٥].

ثمّ نراهم من بعد هذه الأثناء يتنقّلون في ربوعِ اليمن، فتنشب بينهم وبين بعض القبائل اليمنيّة حروب طاحنة كانوا أبدًا المنتصرين. يتنقّلون من دار إلى أخرى لا يمنعهم أحد في انتجاع المراعي الخصبة الخضراء وارتياد الحياض الغزيرة المياه. ثمّ يحتلّون البقعة الواحدة بعد الأخرى بين البحرين وجبال العارض جنوبًا وخطّ العرض الذي أنشئت عليه البصرة شمالاً[١٦].

ثمّ نراهم يرحلون إلى الجزيرة[١٧] فتستغرق هجرتهم إليها قرونًا. فيدخلونها على موجات متتابعة[١٨]، وعلى أثر الحروب القبليّة الطاحنة نراهم يؤمّون العراق. فيستوطنون ربوع الجزيرة بين دِجلة والفرات التي سُمّيت أرض ربيعة إلى حدّ اليوم.

ومن بطون ربيعة في أرضها الجديدة: ضَبيعة، وأَسَد، وعَنْزَة، وجَديلة، والنَمِر وتَغلِب وبَكْر بن وائل وغيرهم[١٩].

ومنذ سكنت ربوع الجزيرة في العراق (ربيعة) كانت تغلب هي المسيطرة على الأغلب والمتحكّمة في بقيّة قبائل ربيعة، لِما كان لها من البطولة والقوّة والشجاعة، فنرى اليعقوبيّ يحدّثنا عن أيّام ربيعة. وكان لتغلب في هذه الأيّام تأثير عظيم من حيث الانتصارات التي

(١٢) تاريخ اليعقوبيّ، ج١، ص ١٨٢.
(١٣) تاريخ اليعقوبي، ج١، ص ١٨٣.
(١٤) تاريخ اليعقوبيّ، ج١، ص ١٨٣.
(١٥) تاريخ اليعقوبي، ج١، ص ١٨٣.
(١٦) دائرة المعارف الإسلاميّة تحت كلمة تغلب ص ٣٢٦.
(١٧) يقصد بها جزيرة ابن عمر (قردو) شمال العراق.
(١٨) دائرة المعارف الإسلاميّة، تحت كلمة تغلب، ص ٣٢٦.
(١٩) زيدان، التمدّن الإسلاميّ، ج٤، ص ١٣.

نالتها على أعدائها[٢٠]، حتّى كانت حرب البَسُوس بين بَكْر وتَغْلِب، بسبب قتل جَسّاس بن مُرّة بن فَدْهَل بن شِيبان كُلَيب بن ربيعة بن الحارث بن مُرّة بن زهير بن جَشَم التغلبيّ. وكانت الحرب بين القبيلتين سجالاً أربعين سنة[٢١].

ونزلت تَغلِب أيضًا أيّام الجاهليّة كِيات شماليّ الأنبار وسُمّيت سوق تغلب[٢٢]. أمّا منازلها في أرضها الجديدة فكانت أرضًا من الجزء الشماليّ بالقرب من حدود سوريّة والشام، وأشهر منازلها: الأحقار، الأزاغب، المذبح، عالِز، عَنازَة، كاثرة، عَنْبَة، والنُهى (وكانت هذه موقعًا من مواقع حرب البَسُوس) ومكثت تَغلِب تشغل جزءًا كبيرًا من هذه المنازل إلى القرن السادس الميلاديّ. ثمّ أخذت توطّد أقدامها في المجرى الأدنى للفرات[٢٣].

وكانت تَغلِب أيّام الفتح العربيّ تحتلّ ربوع الجزيرة نفسها. فوجّه إليها خالد بن الوليد، النُسَير بن دَيْسَم بن ثَمُود. والقبيلة التغلبيّة عند ماء لها. فوطئها ليلاً فقتل وسبى[٢٤]. وكانوا يتنقّلون أيضًا في ربوع المصيح والحصيد، مرتدّين، عليهم ربيعة بن بُجَير فقاتلهم (النُسَير) وبعث بأسلابهم إلى أبي بكر[٢٥]. وكانت سكناهم على وادي الثرثار[٢٦].

ونراهم في القرن الأوّل للهجرة يتنقّلون في وسط الجزيرة بين قَرقيسيا وسِنجار ونصّيبين والموصل شمالاً، وعاته وتكْريت جنوبًا[٢٧]، وبلغ بعضهم إلى الرصافة على الضفّة اليمنى من نهر الفرات. ووصلوا أحيانًا إلى قِنّسْرين ثمّ دمشق[٢٨]. وربّما تنقّلوا أحيانًا بين العراق ومنبج في سهول خصبة تكثر فيها الأنهار[٢٩]، وتُنبت القمح والتمر والكرم[٣٠].

---

(٢٠) اليعقوبيّ، ج١، ص ١٨٤.

(٢١) اليعقوبيّ، ج١، ص ١٨٤.

(٢٢) **المراصد**، ج٢، ص ٤٧٥.

(٢٣) **دائرة المعارف الإسلاميّة**، تحت كلمة «تغلب» ص ٣٢٦.

(٢٤) البلاذريّ، ص ٢٥٠.

(٢٥) **عشائر العراق**، ص ٩١.

(٢٦) **الأغاني**، ج٢، ص ١١٤.

(٢٧) **الأغاني**، ج١٠، ص ٩٨ و١١ و١٢ و٢٠ ص ١٢٧، منازل تغلب.

(٢٨) **دائرة المعارف الإسلاميّة** تحت كلمة تغلب، ص ٣٢٦ – ٣٢٧.

(٢٩) **ديوان الأخطل**، طبعة الأب صالحانيّ ص ١٣٤، بيت ٥.

(٣٠) **المصدر السابق**، ص ٢٢٢.

أحوالهم في العراق:

إنّ الديار التي يتبوّأها بنو تغلب في العراق وهي الجزيرة، وسُمّيت ديار ربيعة[٣١]. قال صاحب العقد الفريد: والجزيرة، وهي ما بين دجلة والفرات. والموصل من الجزيرة[٣٢]. ثمّ قال: والجزيرة خارجيّة، لأنّها مسكن ربيعة... أكثرها مسيحيّون وخوارج. ومنازلهم الخابور، وهو وادٍ بالجزيرة[٣٣]. وسُمّيت أرض بني تغلب (ربيعة) لامتزاج هذه القبيلة بإخوانها من قبائل ربيعة. غير أنّ تغلب كانت في الطليعة لميزات عربيّة شريفة رفعتها فوق الجميع[٣٤].

فقال فيها الشاعر العربيّ[٣٥]:

ألم ترَ أنّ تغلب أهلُ عزٍّ جبالَ معاقلٍ ما يرتقينا
شربنا من دماء بني تميم بأطراف القنا حتّى رُوينا.

وكانت لربيعة، بما فيها تغلب، أيّام مشهورة، انتصرت فيها بدهاء أمرائها من آل تغلب. وأشهر الأيّام الثلاثة:

١ – يوم السُّلان:

وفيه أقبلت مَذْحِج تريد غزو أهل تِهامة ومن بها من أولاد مَعَدّ. فاجتمع وُلْد مَعَدّ لحرب مَذْحِج. وكان أكثرهم ربيعة. فرأسوا عليهم ربيعة بن الحارث بن مُرّة بن زهير بن جَشَم بن بَكْر[٣٦]. فالتقوا ومذحج بالسُّلان فهزموا مذحِجًا وكان لهم الظفر.

٢ – يوم خَزاز:

وفيه أقبلت اليمن وعليهم سُلْمَة بن الحارث بن عمرو الكِنْدِي فرأَّسَت ولد مَعَدّ كليب

---

(٣١) اليعقوبيّ، ج١، ص ١٨٣.

(٣٢) **العقد الفريد**، ج٧، ص ٢٧٩.

(٣٣) **العقد الفريد**، ج٧، ص ٢٨٠.

(٣٤) **العقد الفريد**، ج٣، ص ٣١٥. واليعقوبيّ، ج١، ص ١٨٤.

(٣٥) **العقد الفريد**، ج٦، ص ٣٢٩.

(٣٦) هو أحد أسياد تغلب.

ابن ربيعة بن الحارث بن مُرّة[٣٧]. فلمّا رأى سُلْمَة كثرة القوم استجار ببعض الملوك، فأمدّه. فالتقوا بخزاز وعلى وُلْد مَعَدّ كليب فنصفت جموع اليمن.

٣ – يوم الكُلاب:

وهو أنّ سُلْمَة وشُرَحْبيل ابني الحارث بن عمرو الكِنْدِي تحاربا. فكان مع سُلْمَة ربيعة، ومع شَرَحْبيل قَيْس. فكثُرت ربيعة قيسًا فقتلت شَرَحْبيل بن الحارث بن عمرو وكان لهم العلوّ[٣٨].

ثمّ انفردت بالسيادة تغلب وبكر، وكانتا متعادلتَين عدًّا وعددًا[٣٩]، فسارتا صفًّا واحدًا في الحرب والسلم حتّى كان لهما أمير واحد[٤٠]. وبواسطة تضامنهما وثورتهما بمؤازرة بعض القبائل نالتا الحرّيّة والشرف تحت قيادة ربيعة التغلبيّ وابنه كُلَيب وائل[٤١].

ثمّ انفردت تغلب بسيادتها الخاصّة وانفصلت عن قبيلة بَكْر بسبب حرب البَسوس التي نشبت بين القبيلتين العربيّتين العظيمتين على أثر قتل جسّاس بن مُرّة بن ذُهَل بن شِيبان كُلَيب بن رَبيعة بن مُرّة بن زهير بن جَشَم التغلبيّ[٤٢]. وفي هذه الحرب الطاحنة تظهر بطولة بني تغلب وقوّتهم.

حرب البَسوس وأيّامها:

نشبت هذه الحرب بين تَغْلِب وبَكْر على أثر مصرع كُلَيب – كما علمنا – وسُمّيت بـ (حرب البَسوس) نسبة إلى البَسوس بنت منقذ اليمنيّة خالة جَسّاس بن مُرّة قاتل كُلَيب. فنزلت في بني شِيبان مجاورة لجَسّاس. وكان لها ناقة، يقال لها سراب، ولها تقول العرب (أشأم من سراب) و(أشأم من البسوس) فمرّت إبل لكُلَيْب بسراب ناقة البسوس. ثمّ رماها كُلَيب بسهم فخرم ضرعها، فنفرت الناقة وهي ترغد فلمّا رأتها البسوس، قذفت خمارها

(٣٧) إبن ربيعة الآنف الذكر. وهو أحد أمراء تغلب العظام.

(٣٨) اليعقوبيّ، ج١، ص ١٨٤.

(٣٩) **العقد الفريد**، ج٣، ص٢٨٥.

(٤٠) **الأغاني** ج٢١، ص ٩٥. وابن الأثير، **الكامل**، ج١، ص ٣٦٧.

(٤١) **دائرة المعارف الإسلاميّة**، تحت كلمة اسم تغلب ص ٣٢٧.

(٤٢) اليعقوبيّ ج١، ص ١٨٤ و**العقد الفريد** ج٦، ص ٦٩ وما بعدها.

عن رأسها وصاحت: وا ذلّاه، وا جاراه، وخرجت، فتحمّس جَسّاس، وعقب كُلَيب، وكُلَيب أعزل، فطعنه جَسّاس وقصم صلبه، فوقع كُلَيب، ثمّ مات[٤٣].

وتشمّر المهَلْهِل أخو كُلَيب واسمه عَدِيّ بن رَبيعة، وإنّما سُمّي المهَلْهِل لأنّه أوّل من هلهل الشعر. واستعدّ لحرب بكر. وهكذا نشبت الحرب الضروس بين القبيلتين العربيّتين واستمرّت أيّامًا طويلة. كانت الدائرة في معظم أيّامها على بكر حتّى يوم تَحْلاق اللِّمَم. وأحسن مراثي المهلهل لأخيه كُلَيب هي الأبيات التالية:

كليبُ لا خير في الدنيا ومن فيها ... إذ أنتَ خلّيتها فيمن يخلّيها
كـليبُ، أيّ فتى عزّ ومكرمة ... تحت الصفاة التي يعلوك سافيها
نعى النعاة كليبًا لي، فقلت لهم: ... سالت بنا الأرض أو زالت رواسيها
ليت السماء على من تحتها وقعت ... وحالت الأرض فانجابت بمن فيها
أضحت منازل بالسُّلان قد دَرَسَتْ ... تبكي كُليبًا، ولم تفزع أقاصيها
الحزم والعزم كانا من طبائعه ... ما كلّ آلائه، يا قوم، أُحصيها
النّاحر الكُومَ ما ينفكّ يطعمها ... والواهب المئة الحَمرا براعيها
القائد الخيل تَردي في أعنّتها ... رَهْوًا، إذا الخيل بُحّت في تعاديها
من خَيل تغلبَ، ما تُلقي أسنّتها ... إلاّ وقد خضّبتها من أعاديها

فإنّك ترى في هذه الأبيات عاطفة مضطرمة، ونفسًا شاعرة تذوب، وبطولة فذّة. ثمّ ترى الصريع. فتى عزّ ومكرمة والحزم والعزم من صنيعته. وهذا يدلّ على ما كانت عليه تغلب من سموّ المكانة والبطولة بين قبائل ربيعة. وإذا ما تتبّعنا أيّام هذه الحرب بين بكر وتغلب، نرى السبب الواضح لكلمة التبريزيّ في شرحه لمعلّقة عمرو حيث قال: لو أبطأ الإسلام قليلاً لأكلت بنو تغلب الناس[٤٥].

إنّ المهلهِل يُنشد هذه الأبيات الدامية. كان قبل مقتل أخيه أشبه بامرئ القيس قبل

(٤٣) **العقد الفريد**، ج٦، ص ٧٠ – ٧١.

(٤٤) **العقد الفريد**، ج٦، ص ٧٣.

(٤٥) التبريزيّ، **شرح معلّقة عمرو**، ص ١٠٨، س٤.

مقتل أبيه، لهو ولعب، وسكر ومجون. وعند سماعه بالكارثة، انقلب إلى بطل مغوار لأخذ الثأر من القاتل الغادر. فانفصمت الصلات بين تغلب وبكر عند مصرع كليب.

غير أنّ التغلبيّين لم يريدوا أن يهاجموا بني عمومتهم البكريّين دون أن يلقوا عليهم شروط ديّة لدم كليب المغدور.

يروي ابن عبد ربّه الأندلسيّ صاحب العقد الفريد هذه الحادثة فيقول: فلمّا قُتل كليب ارتحلت بنو شِيبان حتّى نزلوا بماء يقال له انتهى. وتشمّر المهَلْهِل أخو كُلَيب، واسمه عَديّ بن رَبيعة. واستعدّ لحرب بَكْر. وحرّم القمار والشراب، وجمع إليه قومه. فأرسل رجلاً منهم إلى بني شِيبان يعرض إليهم فيما وقع من الأمر. فأتوا مُرّة بن ذُهَل بن شِيبان، وهو في نادي قومه. فقالوا له:

إنّكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كليبًا بناب من الإبل. فقطعتم الرحم، وانتهكتم الحرمة... وإنّا كرهنا العجلة عليكم دون الأعذار إليكم. ونحن نعرض عليكم خلالاً أربعًا لكم فيها مخرج، ولنا مقنع. فقال مُرّة: وما هي. قال: تحيي لنا كليبًا، أو تدفع إلينا جسّاسًا قاتله فنقتله به. أو هُمَامًا فإنّه كفوء. أو تمكّننا من نفسك فإن فيك وفاء من دمه.

فقال له: أمّا إحيائي كليبًا فهذا ما لا يكون. وأمّا جسّاس فإنّه غلام طعن طعنة على عجل ثمّ ركب فرسه فلا أدري أيّ بلاد احتوى عليه. وأمّا هُمَام فإنّه أبو عشرة، وأخو عشرة، وعمّ عشرة، كلّهم فرسان قومهم فلن يسلّموه إليّ، فأدفعه إليكم يقتل بجريرة غيره. وأمّا أنا فهل إذا تجوّل الخيل جولة غدًا فأكون أوّل قتيل فيها. فما أتعجّل من الموت. ولكن لكم عندي خصلتان: أمّا إحداهما فهؤلاء بنيّ الباقون، فعلّقوا في عنق أيّهم شئتم تسعة فانطلقوا به إلى رحالكم. فاذبحوه ذبح الجزور. وإلاّ فألف ناقة سوداء المُقَل، أقيم لكم بها كفيلاً من بني وائل.

فغضب القوم وقالوا: لقد أسأت، تبذل لنا ولدك وتسومنا اللبن من دم كليب[46].

وهكذا وقعت الحرب بين الحيّين، بَكر وتَغْلِب، وكانت أيّامها طويلة وقاسية على الجانبين. وكانت الدائرة غالبًا تدور على بني بكر حسبما يخبرنا التاريخ.

أمّا أيّام هذه الحرب، فهي كثيرة أشهرها يوم النهى، وكانت الدائرة فيها لبني

(٤٦) العقد الفريد، ج٦، ص ٧١ – ٧٢.

تَغْلِب[47]، ويوم الذنائب فظفرت بنو تَغلِب أيضًا[48]، ويوم واردات وظفرت بنو تغلب[49]، ويوم عُنَيْزة فظفرت بنو تَغلِب.

وقال المُهَلْهِل يصف هذه الأيّام وينعاها على بكر في قصيدة طويلة منها:

أليلتنا بذي حُسُم أنيري   إذا أنت انقضيت فلا تحوري
فإن يكُ بالذنائب طال ليلي   فقد أبكي من الليل القصير

إلى أن يقول:

ولو نُبش المقابرُ عن كليب   فيخبرَ بالذنائب أيّ زير
كأنّ عذوة وبني أبينا   بجنب عنيزة رحبا مدير
وإنّي قد تركت بواردات   بُجيرًا في دم مثل العبير
هتكت به بيوت بني عِباد   وبعض القتل أشفى للصدور
على أن ليس عدلاً من كليب   إذا برزت مخبأة الجزور
ولولا الريح أسمع من يحجر   صليل البيض تقرع بالذكور[50]

وهكذا مضى المُهَلهِل في غلوائه حتّى جاء يوم قُضّة فقتل في الحرب بُجَيْر بن الحَرْث. فلمّا بلغ الحَرْث قتله. قال نعمَ القتيل. قُتل أُصْلِح بين ابنَي وائل. وظنّ أنّ المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفئًا له. فقيل له، إنّما قتلُه بشِسْع فعل كُلَيب. وذلك لأنّ المهلهل لمّا قتل بَجُرُوًّا قال: بدأ بشِسْع فعل كُلَيب. فغضب الحارث بن عِباد. وكان له فرس يقال لها النعامة. فركبها وتولّى أمر بَكر، فقاتل تَغلِب حتّى هرب المهلهل وتفرّقت قبائل تَغلِب[51]. وبذلك انتهت تقريبًا الحرب المعروفة بحرب البَسوس، غير أنّ الأحقاد كانت تتآكل كلاً من القبيلتين العربيّتين. فكانا يغيران على بعضهما كلّما سنحت لهما الفرص.

(٤٧) العقد الفريد، ج٦، ص ٧٤.
(٤٨) العقد الفريد، ج٦، ص ٧٤.
(٤٩) العقد الفريد، ج٦، ص ٧٥.
(٥٠) العقد الفريد، ج٦، ص ٧٥ – ٧٦.
(٥١) العقد الفريد، ج٦، ص ٧٦ – ٧٧ والبكريّ ص ٥٦.

إنّ نتائج هذه الحرب كانت سيّئة جدًّا على الحيّين، فقد أضعفت قوّتيهما وقتلت فرسانهما. وجعلت مقدّراتهما وقيدًا لنارها اللاهبة، وكرامتها عرضة لإهانة القبائل المجاورة. غير أنّ قبيلة تَغلِب لَمّت شعثها مرّة أخرى وعادت تُصْلي نار الحرب على قبيلة بكر حتّى تفرّقت هذه الأخيرة، وانفردت تغلب بالعزّ والسيادة.

الصلح بين تَغْلِب وبكر:

وعقد الصلح أخيرًا بين تَغلِب وبكر بعد هذه الحرب الطاحنة بإيحاء من المنذر الثالث ملك الحيرة سنة ٥٣٤م. وربّما كان يرمي من وراء ذلك إلى جمع شمل هذين الحيّين الكبيرين ليستفيد من قوّتهما مجتمعة في بعض حروبه أو غزواته. وكان الصلح موفّقًا تمامًا لأنّنا لم نعد نسمع بحرب مهمّة بين القبيلتين[٥٢].

وبقي الحيّان متفاهمين مدّة من الزمن إلى أن حدث ما لم يكن بالحسبان. ففرّق بينهما مرّة أخرى، وهو أنّ بكرًا راحت تمدّ اللخميّين بقوّتها، ولا سيّما عندما أراد عمرو بن هند أخذ الثأر لأبيه المنذر الثالث من الغسّانيّين[٥٣]. فامتنعت تغلب أن تنصر اللخميّين على الغسّانيّين، والغسّانيّون والتغالبة مسيحيّون على مذهب واحد وهو اليعقوبيّة الأرثوذكسيّة، بينما كان اللخميّون يخالفون مذهبهم الذي هو النسطوريّة.

الحروب بين تغلب وبكر وقبائل عربيّة أخرى

ونلمح من أخبار الأدب العربيّ، أنّ خصومة جديدة ثارت بين بكر وتغلب، وذلك بعد أن أصلح المنذر الثالث بينهما. فقد فرض على كلّ من القبيلتين أن تترك في حاشيته مئة شابّ من الأشراف كرهائن، حتّى إذا اعتدى أحد الفريقين على الآخر ينتقم الملك من المعتدي من هذه الرهائن. وظلّت هذه الحالة مرعيّة عند ملوك الحيرة حتّى عهد عمرو بن هند ابن المنذر، وخلفه. فأرسل هذا ركبًا (يعني عمرو بن هند) من شباب تغلب إلى جبال طيّ في أمر يخصّه فنزلوا في سيرهم بأرض لبني شيبان أحلاف بكر، اسمها الطَّرَفَة، وقد اشتدّ بهم الظمأ، وفقد أخبارهم بعد هذه الحادثة. فمن قائل إنّ بني شيبان منعوهم من الشرب حتّى هلكوا ظمأً. ومن روى أنّهم وجّهوهم إلى مغارة ضلّوا فيها فماتوا. ومن زاعم أنّ سمومًا أصابتهم في طريقهم فبادوا.

(٥٢) دائرة المعارف الإسلاميّة تحت مادّة تغلب، ص ٣٢٨.

(٥٣) المصدر السابق أيضًا، ص ٣٢٨.

ولمّا وصل الخبر إلى بني تغلب قامت قيامتهم. وطلبوا ديّات أبنائهم من بكر، فأبت أداءها. فاستعدى التغلبيّون البكريّين عند عمرو بن هند وقالوا للبكريّين: غدرتم ونقضتم العهد، وانتهكتم الحرمة، وسفكتم الدماء. فأجاب البكريّون أمام الملك أنتم الذين فعلتم ذلك. قذفتمونا بالعَضِيهَة، وسمّعتم الناس بها، وهتكتم الحجاب والستر بإدّعائكم الباطل علينا. قد سبقنا أولادكم إذ أوردوا، وحملناهم على الطريق إذ خرجوا. فهل علينا إذا حاد القوم وضلّوا أو أصابتهم السموم؟

فغضب التغلبيّون. واستعدّوا للقتال. غير أنّ عقلاءهم خافوا العاقبة ورضوا بالنزول عند حكم الملك. ورضي الفريقان بذلك.

فقال عَمرو: ما كنت لأحكم بينكم حتّى تأتوني بسبعين رجلاً من أشراف بكر بن وائل، أجعلهم في وثاق عندي. فإن كان الحقّ لبني تغلب دفعتهم. وإن لم يكن لهم حقّ خلّيت سبيلهم. ففعلوا وتواعدوا اليوم يعيّنه الملك للتحكيم.

فعيّنت كلّ من القبيلتين أحد أشرافها لينوب عنها عند الملك. فاختارت تغلب عمرو بن كُلثوم الشاعر، فأنشد أمام عمرو بن هند معلّقته الشهيرة، يفتخر على خصومه ويرفع شأن قبيلته. ويظهر من سياق الحادث أنّ عمرو بن هند كان من جانب بني بكر الأمر الذي أثار حقد التغالبة عليه فقتله عَمرو بن كُلثوم الشاعر نفسه في المناسبة المشهورة دفاعًا عن كرامة أمّه ويذكر ذلك في معلّقته والتي جاء فيها:

ألا هُبّي بصحنك فاصبحينا ... ولا تُبقي خمور الأندرينا
أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبّرك اليقينا
بأنّا نورد الرايات بيضًا ... ونُصدرهنّ حُمرًا قد روينا
وأيّامٍ لنا غرٍّ طِوال ... عَصَيْنَا المَلْكَ فيها أن ندينا
وَسَيّدِ معشر قد توّجوه ... بتاجِ المُلْكِ، يحمي المحجرينا
تركنا الخيلَ عاكفةً عليه ... مُقلّدَةً أعِنّتها، صُفُونَا
وأنزلنا البيوت بذي طلوحٍ ... إلى الشاماتِ نتّقي المُوعدينا
وقد هَرّتْ كلابُ الحيّ منّا ... وشذّبنا قَتَادة مَن يلينا
متى ننقلْ إلى قومٍ رَحانا ... يكونوا في اللقاء لها طَحينا
يكون ثِفالُها شرقيَّ نجدٍ ... ولُهوتُها قُضاعَةَ أجمعينا

وإن الضِّغْن بعد الضِّغْنِ يقسو   عليك، ويُخرجُ الداءَ الدَّفينا

وَرِثنا المجدَ – قد عَلِمَتْ مَعَدٌّ –   عن الأحفاضِ، نمنع من يَلينا

ندافع عنهم الأعداء قُدمًا   ونحمِل عنهم ما حمَّلونا

نطاعن ما تراخى الناسُ عنّا   ونَضرِبُ بالسيوف إذا غُشينا

بسمرٍ من قنا الخَطّيِّ لُدْنٍ   ذوابلَ، أو ببِيض يعتلينا

نشقّ بها رؤوس القوم شقًّا   وَنُخْليها الرقابَ فيختلينا

كأنّ جماجمَ الأبطال فيها   وسوقٌ بالأماعِز يرتمينا

نجُذُّ رؤوسهم في غير برٍّ   فما يدرون ماذا يتَّقونا

كأنّ سيوفَنَا، فينا وفيهم،   مخاريقٌ بأيدي لاعبينا

كأنّ ثيابنا، منّا ومنهم،   خُضِبْنَ بأرجوان أو طُلينا

إذا ما عيَّ بالإسناف حيٌّ   من الهَولِ المشبَّه أن يكونا

نَصبنا مثل رَهْوَةَ ذاتَ حدٍّ   محافَظةً، وكنَّا السابقينا

بشبّان يرون القتل مجدًا   وشيب في الحروب مجرّبينا

حُدَيّا الناسِ كلِّهِم جميعًا   مقارَعة بنيهم عن بنينا

فأمّا يومَ خَشيَتِنا عليهم   فتصبحُ خيلنا عُصبًا ثُبينا

وأمّا يومَ لا نخشى عليهم   فَنُمعِن غارةً متلبّبينا

ألا لا يَعْلَمِ الأقوام أنَّا   تضعضعنا وأنَّا قد ونينا

ألا لا يجهَلَنْ أحد علينا   فنجهَلَ فوق جهل الجاهلينا

إليكم يا بَني بكر إليكم   أَلَمّا تعرِفوا منّا اليقينا

أَلَمّا تعلموا مِنّا ومنكم   كتائبَ يَطَّعِنَّ ويرتمينا

علينا البيض واليَلَبُ اليماني   وأسياف يقمْنَ وينحنينا

ملأنا البرَّ حتّى ضاقَ عنّا   وظهرُ البحر نملأُهُ سفينا

لنا الدنيا ومن أضحى عَلَيْها   ونَبطِش حين نبطِشُ قادرينا

إذا بلغَ الفِطامَ لنا صبيٌّ   تخرُّ له الجبابر ساجدينا

ومن بقايا الحرب بين التغالبة والبكريّين، يوم الكُلاب الأوّل. وذلك أنّ بني بكر ملّكوا عليهم الحَرْث بن عمرو آكل المُرار الكِنْدِي. فغزا ببكر بن وائل حتّى انتزاع ما في أيدي ملوك الحيرة اللخميّين، وملوك الشام الغسّانيّين. ثمّ قُتل، واختلف أبناء شُرَحْبيل ومُسْلِمة في الملك. وثارت الحرب بينهما. فتقدّم شُرَحْبيل في جنّة وَالِد بَاب كلّها وبني يربوع وبكر بن وائل. وتقدّم مسلمة في تغلب، والنمر، والبهراء. ومن تبعه من بني مالك بن حنظلة وعليهم سفيان بن مُجَاشِع، وعلى تغلب السفّاح. وكانت الغاية من خروج تغلب وبكر ضدّ بعضهما في هذه الخصومة الجديدة إشباع الثارات القديمة بين القبيلتين. فالتقى الجمعان على (الكُلاب) واقتتلوا قتالاً شديدًا[٥٤].

وآخر حادثة نراها بين بكر وتغلب ربّما كانت (يوم ذِي قَار) حيث اشتركت بها تغلب بقيادة زعيمها النعمان بن زَرْعَة[٥٥].

وهناك غزوات كثيرة قامت بها تَغلِب منفردة (أهمّها) يوم آراب بقيادة الهُذَيل بن حسّان (ويوم الشعب) تحت قيادة زعيمها قيس بن شُرْفَاء[٥٦]. وكانوا هم المنتصرين.

وكانت لهم حروب أخرى مع قبائل عربيّة كثيرة، نالهم بعض الضيم فيها. وأهمّ حروبهم كانت بينهم وبين كندة[٥٧]، والعِباد[٥٨]، وبني عتيق[٥٩]، وقضاعة[٦٠]، وإياد[٦١]، وتميم[٦٢].

وللتغالبة (الأيّام)، ويخبرنا التاريخ عنها بإسهاب، إلاّ إنّنا تجاوزنا عن ذكرها حبًّا بالاختصار. وهو تبيان بطولتهم وقوّة (تغلب) هذه القبيلة العربيّة. كانت يومًا ضاربة في طول هذه الجزيرة العربيّة وعرضها، دون مانع، ممّا حمل الخليفة عمر بن الخطّاب على أن يقول: لولا الإسلام لملكت تغلب.

---

(٥٤) العقد الفريد، ج٦، ص ٧٨ – ٧٩.
(٥٥) العقد الفريد، ج٦، ص ١١١ – ١١٨.
(٥٦) العقد الفريد، ج٦، ص ٩٣.
(٥٧) معلّقة الحارث بن حلّزة، البيت ٣٢.
(٥٨) معلّقة الحارث بن حلّزة، البيت ٤٥.
(٥٩) معلّقة الحارث بن حلّزة، البيت ٤٥.
(٦٠) معلّقة الحارث بن حلّزة، البيت ٤٨.
(٦١) معلّقة الحارث بن حلّزة، البيت ٤٩.
(٦٢) معلّقة الحارث بن حلّزة، البيت ٥٢. و٥٧.

التغالبة واللخميّون:

لم يكن ملوك الحيرة المناذرة ينظرون إلى التغالبة بعين الرضى والاطمئنان لإباء بني تغلب وشجاعتهم. وكان هؤلاء الملوك يريدون الإيقاع بهم بين الحين والحين، وكم أرادوا ذلك ولكنّهم لم يستطيعوا أن يفوزوا بطائل لما لهذه القبيلة من القوّة والمنعة. ويعلمنا التاريخ أنّهم فتكوا باثنين من ملوكهم هم عمرو بن هند، والمنذر بن النعمان. وقد أشار الأخطل التغلبي إلى ذلك مفتخرًا على جرير بقوله:

أبني كُلَيب أن عمي اللذا — قتلا الملوك وفكّكا الأغلالا

ويشير إلى ذلك أيضًا الشاعر الفَرزدَق بقوله:

قوم هم قتلوا ابن هند عنوة — عمروا، وهم قاسوا على النعمان

مقتل عَمرو بن هند ونتائجه:

إنّ عمرو بن هند لمّا حكم للبكريّين على التغالبة، وقد امتعض من مبالغة عمرو بن كُلثوم سيّد تغلب واحتقاره مواجهته فأضمر السوء وأراد الحطّ من قيمته. وقد أخبرنا صاحب كتاب الأغاني[٦٣] هذه الحادثة الرائعة الدالّة على إباء التغلبيّين وشممهم. وتناقلها عنه المؤرّخون والأدباء، نلخّص فيما يلي:

كان عمرو بن هند ذا كبرياء وعجرفة، وكان ذات يوم في رهطه وندمائه وأراد إظهار عظمته أمامهم فقال لهم: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمّه من خدمة أمّي. فقالوا: نعم أمّ عمرو بن كُلْثوم. فتميّز عمرو غضبًا وحقدًا. وكانت أمّه هند الشهيرة عمّة آمرئ القيس الشاعر ابن حُجْر الكِنْدِي. وأمّ عمرو بن كُلثوم بنت ليلى بنت المهلهل. وكان بين المرأتين قرابة لأنّ المهلهل والد ليلى، كان خالاً لآمرئ القيس. فيكون هذا الشاعر همزة الوصل القربى بين هند وليلى. وهو ابن أخي الأولى وابن عمّة الثانية.

فأرسل الملك عمرو بن هند يستزير عمرو بن كُلثوم، ويسأله أن يزير أمّه معه.

فأقبل الشاعر – سيّد بني تغلب – مع أمّه برهط من قومه وكان الملك قد أمر برواقه. فضرب بين الحيرة والفرات. وقابل الشاعر وقومه بوجوه مملكته واستقبلت هند ليلى في قبّة

(٦٣) **الأغاني** ٩: ١٦٢ وما بعدها.

جُعلت إلى جانب الرواق. وكان ابنها قد أشار إليها أن تنحّي الخدم وتستخدم ليلى (أمّ الشاعر) إذا دعا بالطرف. فلمّا دعا بها، قالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطبق. فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فأعادت عليها وألحّت. فغضبت ليلى وصاحت، وا ذلاّه، يا تغلب. فسمعها ابنها فثار الدم في وجهه ورأى سيفًا للملك معلّقًا بالرواق لم يكن غيره هناك. فآمتشقه وضرب به رأس الملك عمرو بن هند. ونادى في بني تغلب. فانتبهوا ما في الرواق، وساروا نحو الجزيرة. فضُرب المثل بعمرو في الفتك فقيل، أفتك من عمرو ابن كُلثوم. وقد آفتخر التغالبة بهذه الفتكة، وتغنّى بها شعراؤهم. قال ابن أفنون التغلبي[٦٤]:

لعمرك يا عَمرو بن هند، وقد دعا — لتخدم ليلى أمّه بموفق
فقام ابن كُلثوم إلى السيف مسلّطًا — فأمسك من ندمانه بالمخنق
وجلّله عمرو على الرأس ضربة — بذي شطب صافي الحديدة رونق

وقد أشار إلى ذلك غير هذا الشاعر من سادات تغلب. وكلّهم يفاخر الدنيا ببطش عمرو ابن كلثوم، وبطش غيره من أبطال تغلب بالملوك والسادات.

أمّا نتائج الفتك بعمرو بن هند فلم تكن مرضيّة بالنسبة إلى بني تغلب فإنّهم أُجبروا على الهرب من الجزيرة والوقوف بوجه جميع القبائل العربيّة الموالية للمناذرة اللخميّين والخاضعة لهم. ومنهم بنو بكر أعداء التغالبة الألدّاء.

فأصبح بنو تغلب والحالة هذه في حرب دائمة السعير لا يأمنون على أنفسهم ومنازلهم ومراعيهم ومواشيهم، يدافعون تارة، ويهاجمون أخرى. فيغزون الأحياء والقبائل ويعودون بالأسلاب والغنائم، رغم جميع القبائل المعادية لهم، ومن ورائها الملوك اللخميّون. غير أنّ أشأم غزوة كانت الغزوة التي قام بها عمرو بن كلثوم نفسه على بلاد البحرين وأغار على بني تميم، ثمّ على بني قيس بن ثعلبة البكريّين، وبينما هو مارّ ببني حنيفة باليمامة، خرج إليه بنو سحيم وعليهم يزيد بن عمرو بن شَمَر. ونشبت بينهم مناوشة خفيفة انتصر بها بنو سَحيم وأجهز يزيد على عمرو فطعنه وصرعه عن فرسه وأسره. ثمّ ذهب به إلى حيّه في مدينة حُجْر «البتراء» فضرب له قبّة، ونحر جزورًا وكساه وسقاه، حتّى انتشى وحمله على نجيبه، وقد امتدحه الشاعر بأبيات تراها في ديوانه[٦٥].

(٦٤) **الأغاني** ٩: ١٨٣، ابن قتيبه، **الشعر والشعراء**، ص ١١٩ – ٢٤٩ و**ديوان عمرو بن كلثوم**، ص١٦.
(٦٥) **ديوان عمرو**، ص٤.

ثمّ اشتدّت الوطأة على التغالبة من جانب المناذرة وأحلافهم فكان المنذر الرابع يطلب منهم ثأر أخيه عمرو بن هند. فساروا إلى أرض الشام نحو سنة ٥٨٠م فأقاموا فيها عدّة سنوات. ثمّ نشبت حرب بينهم وبين الغساسنة (على رأي ابن الأعرابيّ) أو بينهم وبين الملك الحارث ابن أبي شَمِر (على رأي ابن الأثير). ففازوا بنصر مبين أعاد إليهم قوّتهم المعنويّة. فأخذوا ما أرادوا وعادوا إلى الجزيرة[٦٦].

مقتل المنذر بن النعمان:

لم يعد بنو تغلب إلى مواطنهم الأولى في ربوع الجزيرة حتّى كان النعمان أبو قابوس بن المنذر الرابع وخلفه يستعدّ لقتالهم. فأرسل إليهم ابنه المنذر على رأس قسم من رجاله. غير أنّ المنذر اندحر أمام التغالبة، شرّ اندحار. فقتله مُرّة أخو عمرو. وعاد جيش النعمان مخذولاً، يتعثّر بأذيال الفشل. إلاّ أنّ النعمان كان لا يزال يتوعّد تغلِبَ، وعمروًا سيّد تغلب. فدعا عمرو كاتبًا من العرب وأرسل النعمان أبياتًا يهجوه ويتهدّده[٦٧].

موقف التغالبة المسيحيّين من الفتح الإسلاميّ:

العرب، عرب، أينما حلّوا وارتحلوا، تجمعهم لغة الضاد منذ أقدم العصور. وبعد أن تركوا ثاراتهم القبليّة، واجتمعوا في صعيد واحد، تحت راية العروبة العامّة لم يبق هناك فرق بين قبيلة وقبيلة، والكلّ مكلّف بالوفاء والتفاني في سبيل رفع راية الضاد شرقًا وغربًا.

ولمّا كان التغالبة من صميم العروبة منذ نشأتهم كان لا بدّ لهم من الانضمام إلى الصفوف الغازية ضدّ الأعاجم، ولا سيّما الفرس. ويحدّثنا التاريخ عن مكانتهم المرموقة في الفتح المبين الذي أصابه العرب في المعارك التي نشبت عند أبواب العراق.

يحدّثنا الطبريّ عن انضمام العرب التغالبة إلى الجيوش العربيّة الفاتحة تحت إمرة المُثَنّى ابن حارثة وكانت ثمانية آلاف من ربيعة، ستّة آلاف من بكر بن وائل، وألفين من سائر ربيعة[٦٨]. وكان غير هؤلاء أيضًا من أحياء العرب وقبائلهم. وكان كثير من قبائل العرب المسيحيّة في هذا الجيش الفاتح، حسبما يخبرنا الطبريّ نفسه إذ يقول: والمُثَنّى وجنده

(٦٦) **شعراء النصرانيّة قبل الإسلام**، ص ٢٠٢.

(٦٧) **ديوان عمرو بن كلثوم**، ص ٥–٦.

(٦٨) الطبريّ: **تاريخ الأمم والملوك**، ج٣ ص٧ مطبعة الاستقامة، ١٩٣٩ القاهرة.

على شاطئ الفرات. وقدّم أَنَس بن هلال النمريّ مدًّا للمُثَنّى في أناس من النمر مسيحيّين. وجُلاّب جلبوا خيلاً. وقدّم ابن مروى الفِهْريّ التغلبيّ في أناس من بني تغلب مسيحيّين وجلاب جلبوا خيلاً وهو عبد الله بن كليب بن خالد. وقالوا حين نزول العرب بالعجم: نقاتل مع قومنا[٦٩].

هذا ما يدلّ دلالة صريحة على ذوب هؤلاء العرب في البوتقة العربيّة وانحيازهم إلى جانب إخوانهم العرب وإن كانوا يخالفونهم بالدين. فالدين لا يمنع من ذلك بل إنّما يأمر بالتآلف والتآخي. وقولهم نقاتل مع قومنا يؤيّد عصبيّتهم العربيّة وارتياحهم إلى نصرتها ضدّ الفرس الغرباء.

ويتحدّث الطبريّ عن سير المعركة الفاصلة بين المُثَنّى القائد العربيّ ومهران القائد الفارسيّ. فيحدّثنا عن مكانة هؤلاء المسيحيّين من قلب المُثَنّى ومكانتهم أيضًا في تلك المعركة الهائلة الفاصلة، يقول: فلمّا طال القتال واشتدّ عمد المُثَنّى إلى أنس بن هلال. فقال: يا أنس إنّك امرؤ عربيّ، وإن لم تكن على ديننا، فإذا رأيتني حملت على مهران فاحمل معي. وقال لابن مرديّ الفهريّ مثل ذلك فأجابه. فحمل المُثَنّى على مهران فأزاله حتّى دخل في ميمنته ثمّ خالطوهم. واجتمع القلبان وارتفع الغبار والمجنبات تقتتل. وأوجع قلب المسلمين في قلب المشركين. وقتل غلام مسيحيّ من التغلبيّين مهرانَ، واستوى على فرسه فجعل المُثَنّى سلبه لصاحب خيله[٧٠]، قتل الغلام التغلبيّ مهران المَرْزُبان وجاء ينشد:

أنا الفتى التغلبيّ   أنا قتلت المرزبان

وأنشد عروة بن زيد الخيل في مقتل مهران مادحًا المُثَنّى بن حارثة وقال:

هاجت لعروة دار الحيّ أحزانا — واستبدلت بعد عبد القيس همدانا
وتدارانا بها والشمل مجتمع — إذ بالنحيلة قتلى جند مهرانا
أيّام سار المثنّى بالجنود لهم — فقتل القوم من رجل وركبانا
سما لأجناد مهران وشيّعت — حتّى أباد مثنى ووحدانا

(٦٩) الطبريّ، **نفس المصدر**، ج٢ ص ٦٤٨.

(٧٠) الطبريّ، **تاريخ الأمم والملوك**، ج٢ ص ٦٤٩.

ما إن رأينا أميرًا بالعراق مضى مثل المثنّى الذي من آل شِيبانا
إنّ المُثـنّـى الأمير قـام لا كـذب في الحرب أشجع من ليث بخفانا[٧٠]

التغالبة بعد الفتح الإسلاميّ:

لم يجبر التغالبة عند الفتح العربيّ الإسلاميّ وبعده على ترك دينهم. وهذا ما يؤيّده جمهرة المؤرّخين. ولا عبرة في بعض فترات من تاريخهم نظر إليهم البعض كغرباء عن الجامعة العربيّة، إلاّ أنّ ذلك لم يثنِ عزائمهم. فساروا مع إخوانهم العرب جنبًا إلى جنب في كلّ الحروب والمناسبات، مع المحافظة على مسيحيّتهم وقتًا طويلاً.

ساروا في بادئ الأمر مع عليّ بن أبي طالب ثمّ تركوه، وانحازوا إلى الأمويّين وحاربوا إلى جانب مُعاوية في موقعة صفّين[٧٢]. كما وحاربوا إلى جانب يَزيد في موقعة الحرّة[٧٣]، وإلى جانب مروان بن الحكَم في موقعة مرج راهط[٧٤].

وكان لهم أثر كبير في النزاع الذي نشب بين المُضَريّة واليمنيّة، فانحازوا أوّلاً إلى قَيس على كُلَيب[٧٥]، ثمّ مالوا إلى كُلَيب، فدبّ الخلاف بينهم وبين قيس أدّى إلى حرب ضروس سنة ٦٨٨ – ٦٩٢م[٧٦].

وقد قام التغالبة بحروب أخرى ومناوشات كانت تارة لهم، وطورًا عليهم، وذلك مع بعض القبائل العربيّة. فاشتبك معهم عمر بن الحُبَاب في رهط من بني سُلَيم على الخابور، ووقعت مناوشات بين الفريقين، فدارت الدائرة عليهم في وقعة ماكسين. وأعقب ذلك مناوشات أخرى حوالي سنة ٦٨٩م، أشهرها يوم الثرثار الأوّل والثاني. ويوم العذين ويوم

(٧١) الدينوريّ، **الأخبار الطوال**، طبعة بغداد ص ١١١.
(٧٢) **الطبريّ**، ١: ١٩٢٠.
(٧٣) لامنس، **معاوية**، ص ٤٩.
(٧٤) لامنس، **معاوية**، ص ٢٢٩ – ٢٣١.
(٧٥) **دائرة المعارف الإسلاميّة**، تحت مادّة تغلب، ص ٣٣١.
(٧٦) **دائرة المعارف الإسلاميّة**، ص ٣٣٢.
(٧٧) **الأنساب** ٥: ٣١٣ – ٣٢٨. إبن الأثير، **الكامل**، ٤: ٢٥٥ – ٢٩٣.

السكّير[٧٨]، والمعارك الشرعبيّة[٧٩] ومعركة الحَشّان، وفيها قتل عُمير. وتُعرفُ هذه المعركة مع سنجار بيوم الأراقم[٨٠] ويوم النصف[٨١].

ولم تخفت هذه الحروب والمناوشات، بل زادت شراسة مع تمادي الأيّام، وخسرت بها خسائر فادحة بالرجال، وأشهر أيّامها الباقية يوم البِشْر، وهو يوم مَجَاشِن[٨٢] ويوم السَّلَوْطَح[٨٣].

وكان صوتهم لا زال عاليًا بين القبائل العربيّة إلى أواخر أيّام العبّاسيّين. فقد اشتبكوا بالحرب مع روح بن صالح عامل صدقات الخليفة هارون الرشيد، وقتلوه سنة ٧٨٧م.

وبعد سبع سنين شقّوا عصا الطاعة على الخليفة بقيادة الوليد بن طريف الذي قُتل في هذه الحرب[٨٤].

ويحدّثنا المؤرّخون أنّهم حوالي سنة ٩٤٧م خرجوا على الخليفة العبّاسيّ مرّة أخرى، بقيادة مالك بن طوق بن مالك بن عِتّاب التغلبيّ صاحب الرحبة القيسيّة[٨٥].

ومن مآثر التغالبة أنّ زعيمهم الحسن بن عمرو بن الخطّاب التغلبيّ عمّر جزيرة ابن عمر حوالي سنة ٨٦٤م[٨٦].

تبدُّد التغالبة

يحدّثنا الطبريّ وابن الأثير، أنّ إسحق بن أيّوب التغلبيّ، أحد زعماء تغلب شكّل حلفًا من تغلب وبكر وربيعة واليمنيّة وغيرهم على إسحق بن كَنْداج. فنشبت بين الفريقين حرب ضروس وانتهت بهزيمة هذا الحلف الكبير هزيمة منكرة. وكان ذلك عام ٨٨٠م[٨٧].

(٧٨) **ديوان القطاميّ**، ص ٥.
(٧٩) **النقائض**، ص ٣٧٣ – ٣٩٤.
(٨٠) **ديوان القطاميّ**، ص ٦. البكريّ، ص ١٧٩.
(٨١) **ديوان القطاميّ**، ص ١٤. **الأغاني** ١٧: ٥٧ – ٦٣ و٢٠: ١٢٦ – ١٢٨.
(٨٢) إبن الأثير، ٦: ٧٨ و٩٧ – ٩٩ و١٠١. الطبريّ ٣: ٦٣١ و٦٣٨.
(٨٣) إبن خلدون ٢: ٣٠١؛ إبن الأثير ٦: ٢١٣.
(٨٤) البلاذريّ ص ١٨٠. ياقوت الحمويّ ٤: ٢٥٥ – ٢٩٣.
(٨٥) **الأنساب** ٥: ٣١٣ – ٣٢٨. إبن الأثير ٤: ٢٥٥ – ٢٩٣.
(٨٦) بولس بهنام، **مجلّة المشرق** (١٩٤٦) عدد ١ – ١٠.
(٨٧) الطبريّ ١: ١٩٩١. إبن الأثير ٧: ٢٣١.

وعلى أثر هذه الحروب والقلاقل وغيرها تفرّق بنو تغلب، وهاجر قسم منهم إلى ربوع الجزيرة في النصف الأخير من هذا القرن – العاشر الميلاديّ – غير أنّ فريقًا آخر منهم ظلّ يرتاد الرحبة، والجزيرة (جزيرة ابن عمر) بينما وصل فريق آخر منهم إلى أرض الروم.

ونرى عشائر من تغلب في البحرين في غضون القرن العاشر الميلاديّ تحارب سُلَيمًا وعقيلَ بن عامر بن صعصعة. ثمّ يشتركون في حركات القرامطة[٨٨].

وعلى الأغلب أنّ هذه القبائل تركت المسيحيّة عند ارتدادها البَحْرَين كما يستفاد من الطبريّ[٨٩]. غير أنّ البكريّ يعارض في ذلك[٩٠].

ويحدّثنا العلاّمة ابن العبريّ أنّ قبائل كثيرة من تغلب كانت تحارب التتر المغول في حمص حوالي سنة ١٢٨٢م[٩١] الأمر الذي يدلّ على أنّهم نزحوا إلى سهول الشام وربوع سوريّة بعد أن أفزعوا من ربوع الجزيرة. وربّما يكون القرن الرابع عشر الميلاديّ آخر عهد لتاريخ هذه القبيلة العربيّة القويّة. غير أنّنا لا نعدم اليوم أقوامًا وقبائل تربط نفسها بتغلب في العراق وسوريّة.

تنصّر قبائل تغلب:

إنتشرت المسيحيّة في بلاد العرب منذ القرن الأوّل المسيحيّ. فإنّ العلاّمتَين مار أفرام السريانيّ[٩٢] (+ ٣٧٣) ومار يعقوب الرهاويّ يؤيّدان أنّ الخصيّ الذي نصّره القدّيس فيلبّس كان وزيرًا لقنداقة ملكة سبأ لا ملكة الحبشة[٩٣] وبلاد سبأ هي بلاد اليمن، وعُرفت أيضًا ببلاد الحِمْيَريّين، ويرجّح أنّ الرسول برتلماوس بشّرهم بالإنجيل، ونشر بينهم بشارة المسيح أيضًا بنتانوس أستاذ مدرسة الإسكندريّة عام ١٨٩م، وأنشئ في اليمن بعض أسقفيّات[٩٤].

---

(٨٨) **دائرة المعارف الإسلاميّة** مجلّد ٥ ص ٣٣٢.

(٨٩) الطبريّ ١: ٢٤٨٢.

(٩٠) البكريّ ص ٩.

(٩١) **مختصر الدول** ص ٥٠٤.

(٩٢) **مار أفرام في ميمر اللؤلؤة.**

(٩٣) **الدرر النفيسة**، ص ٢١١ – ٢١٢.

(٩٤) **الدرر النفيسة**، ص ٢١٢ – ٢١٣.

وذاعت بشارة الإنجيل في معظم البلاد العربيّة، فإنّ بعض الرسل بشّروا في بادية الشام، وبرّيّة طورسينا، وبلاد الحجاز[٩٥]؛ وتنصّر كثيرون بهذه الموجات التبشيريّة، إن في الحجاز أو في غيرها من الأحياء العربيّة.

إنّ قبائل تغلب كانت السابقة لاعتناق مبدأ الإنجيل. فتنصّرت قبل غيرها من عرب البادية. وإليك ما قاله اليعقوبيّ عن ذلك. وأمّا من تنصّر من أحياء العرب فقوم من قريش من بني أَسَد بن عبد العُزّى منهم عثمان بن الحُوَيرث بن أَسَد بن عبد العزّى، ووَرَقة بن نَوفل بن أسد، ومن بني تميم بنو امرئ القيس بن زيد مناة، ومن ربيعة بنو تغلب، ومن اليمن طيّ ومَذْحِج وبهراء وسَلِيح وتَنُوخ وغسّان ولَخْم[٩٦].

وهكذا انتشرت المسيحيّة في الأحياء العربيّة، ولا سيّما بين التغالبة الذين جعلناهم موضوعًا لبحثنا.

أرثوذكسيّتهم:

تنصّر التغالبة قبل القبائل العربيّة تقريبًا وحافظوا على الأرثوذكسيّة محافظة شديدة رغم اجتياح التعاليم النسطوريّة ربوع العراق برمّتها تقريبًا وبذلوا في سبيل ذلك مهجًا غالية، وأرواحًا طاهرة، كما يخبرنا التاريخ. وقد أيّد هذه الحقيقة التاريخيّة المؤرّخون غير الأرثوذكس، وأقرّوا أنّ العرب التغالبة كانوا على عقيدة الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة[٩٧] حتّى زعم بعضهم أنّ القدّيس مار آحودامه نصّر كثيرين من التغالبة[٩٨]، مع أنّه من المؤكّد أنّ هذا القدّيس نصّر طيًّا وعقيلاً وتنوخ[٩٩].

وقد ادّعى بعض المؤرّخين المتأخّرين أنّ التغالبة الذين كانوا على المسيحيّة لم يكن لهم رسوخ أو ثبات في هذه الديانة. إلاّ أنّ التاريخ الصحيح لينقض هذه المزاعم. ويؤيّد أنّ هؤلاء العرب الشجعان كانوا راسخين على مسيحيّتهم رسوخًا شديدًا. حتّى إنّه في سنة ٩١٣م استشهد منهم خلق كثير دفاعًا عن عقيدتهم وأرسل أحد الحكّام إلى رئيسهم

---

(٩٥) **تاريخ اليعقوبيّ** ١: ٢١٤.

(٩٦) **تاريخ اليعقوبيّ**، ١: ٢١٤.

(٩٧) **ذخيرة الأذهان**، ١: ١٦١. يوسف غنيمة، الحيرة ص ٣٦.

(٩٨) غنيمة، **الحيرة**، ص ٧٣.

(٩٩) قصّة آحودامه المخطوطة السريانيّة، ولمعة في تاريخ الأمّة السريانيّة في العراق.

(موعد) وأراده على الكفر بدينه فأبى كلّ الإباء. ولمّا رأى الحاكم ذلك ألقاه في جبّ مملوء من الوحل ثمّ أخرجه بعد أن قاسى ألوان العذاب، وشرع يَمْنيه بالوعود الخلاّبة إن هو ترك مسيحيّته. فأقام ثابتًا على مبدئه، فقتله الحاكم. وأمر أن لا يدفن. وكان جثمانه ملقًى على الحضيض أيّامًا كثيرة دون أن ينتن أو تأكله الوحوش. فأخذه أوسطاثاوس الداريّ وبنى عليه ديرًا.

وحاول حاكم آخر نفس المحاولة، فاستدعى زعيمًا آخر للتغالبة اسمه شمعلة فأراده على الكفر بدينه أيضًا فأجابه المعترف: إنّي لا أبيع مبدئي بكلّ ما في الدنيا من مال وعزّ وكرامة. ثمّ قال: إنّي رئيس لجميع التغالبة، وإذا كفرت بديني أُصبح مثلاً رديئًا لبني قومي وسببًا لهلاكهم. ولمّا سمع الحاكم ذلك أمر فقُطعت قطعة من فخذه وشويت ووضعت في فمه. ولم يهتمّ بذلك فتركه حيًّا. وبقيت آثار ذلك في جسمه إلى يوم مماته شاهدة على شجاعته الروحيّة[١٠٠].

هذه كانت شجاعة التغالبة وتمسّكهم بمسيحيّتهم، ولا عبرة في حروبهم القبليّة فهذه أمور يحميها العربيّ من ضروريّات الحياة في العهد القبليّ. وكانت شريعتهم في البادية تنصّ على أنّ «من لم يكن ذئبًا بالت عليه الثعالب».

أسقفيّتهم:

تأسّست أسقفيّة التغالبة في القرن السابع، وكان أسقفهم يقيم أحيانًا في بلدة دفلة (النخل) وأحيانًا في عانة[١٠١]، وأحيانًا ينتقل معهم في الخيام من فلاة إلى فلاة. وكانوا يقرّبون القدّاس باللغة العربيّة مترجمًا من السريانيّة.

حدّثنا عنهم الشيخ يحيي بن جرير التكريتيّ السريانيّ (+ ١٠٧٩) في كتابه «المرشد»، وقد كان في العرب نصارى كبني تغلب، وقوم من اليمن وغيرهم، ومعهم أسقف يطوف معهم في الحلل في سفرهم. وينقل المذبح، أعني الدقّة المقدّسة (الطبليث) من موضع إلى موضع إلى سنة ٣٠٠ للعرب (٩١٢م). فوصل إلى تكريت

(١٠٠) راجع **ميخائيل الكبير**، ص ٤٥١ – ٤٥٢.

(١٠١) لمعة من تاريخ الأمّة السريانيّة بالعراق.

قوم من العرب المسيحيّين، وابتاعوا لهم ميرة ليمتاروا بها. وكان منهم رجل حسن الطريقة، فقلّده مطران تكريت الأسقفيّة، وكان يقدّس لهم باللفظ العربيّ. وكان يقدّس لهم على الإنجيل[١٠٢].

ويذكر بعض المؤرّخين أنّ الكنيسة أقامت آخر أسقف عليهم في القرن العاشر الميلاديّ[١٠٣]، غير أنّ ذلك لا نراه صحيحًا لأنّنا نرى لهم أساقفة بعد هذا التاريخ.

وقد ذكر العلاّمة مار ميخائيل الكبير ثَبْتَ أساقفتهم واحدًا بعد الآخر وسمّى كلاًّ منهم (أسقف العرب)[١٠٤] واشتهر كثيرون من هؤلاء الأساقفة بين الأساقفة الذين رسمهم مار ديونيسيوس التَلْمَحْريّ أشهر بطريرك أنطاكية في القرن التاسع. وأشهرهم حسب نسبتهم العدديّة بين أساقفة هذا البطريرك هم:

الأسقف يوحنّا من دير قَرْتُفْتا[١٠٥] (٣٦٠).

الأسقف توما من بتْر قُوْم (٤٤٠).

الأسقف يوسف وهو مرزوق[١٠٦] (٤٥٩).

الأسقف حبيب من دير كَنُوشِيا،

الأسقف جيورجيس.

وربّما تسقّف على التغالبة إبراهيم أسقف العرب من دير تَلَعْدا الكبير.

والأسقف سيرا أسقف العرب من دير آطو[١٠٧].

وتوجد رسامات لهم بعد عهد التَلْمَحْريّ أيضًا، على أنّ أشهر أساقفتهم كان الملفان يعقوب أسقف عانة[١٠٨].

(١٠٠) راجع ميخائيل الكبير، ص ٤٥١ – ٤٥٢.

(١٠١) لمعة من تاريخ الأمّة السريانيّة بالعراق.

(١٠٢) **كتاب المرشد** ليحيى التكريتيّ، باب ٥٤.

(١٠٣) **دائرة المعارف الإسلاميّة** تحت كلمة «تغلب».

(١٠٤) راجع هذه السلسلة في **تاريخ ميخائيل الكبير**.

(١٠٥) راجع عن هذا الدير «نزهة الأذهان» للبطريرك برصوم ص ٤٧ – ٥٤.

(١٠٦) ذكره ميخائيل الكبير ص ٤٤٨.

(١٠٧) **رسامات التلمحريّ** عند ميخائيل الكبير.

(١٠٨) برصوم، **اللؤلؤ المنثور**.

هذا أهمّ ما نستطيع قوله عن أسقفيّة التغالبة وَثَبْتِ أساقفتهم. غير أنّه لم يشتهر لديهم كنائس أو أديرة وذلك يعود إلى حلّهم وترحالهم تبعًا للمراعي والخصب. وكانوا يحترمون القدّيس سرجيوس الشهيد ويحجّون إلى كنيسته في الرُّصافة(١٠٩). وقد بنى لهم القدّيس آحودامه كنيسة بهذا الاسم في عين قِنّي(١١٠).

وقد أيّد كثيرون من الباحثين في التاريخ أنّ التغالبة نافحوا عن دينهم بشدّة وقدّموا في سبيله ضحايا كثيرة(١١١). وهذا يدلّ على شدّة تمسّكهم بمبدئهم وإخلاصهم لشرفهم وصيانتهم لكرامتهم وإبائهم العربيّ. وهذا ما كان يُجعل بمثل هذه القبيلة العربيّة النبيلة التي لم تدع مكرمة إلاّ وحازتها منذ فجر وجودها إلى زوال عزّها.

---

(١٠٩) شيخو، **شعراء النصرانيّة**، ص ٩٩.

(١١٠) قصّة مار آحودامه السريانيّة المخطوطة.

(١١١) لامنس – شانتر ص ٤٣٨، ونو، ص ١٠٩، وشارلس ص ٩٨ – ١٠٠ عن **دائرة المعارف الإسلاميّة** تحت اسم مادة «تغلب».

الخلاصة

تغلب:

وهم بنو تَغلِب بن وائِل.. وتَغلِب هو أخو بَكْر بن وائل ولديهما أخ ثالث هو عَنْز، وهم يعودون جميعًا إلى رَبيعة بن نِزار بن مَعَدّ بن عدنان.

ويرتبط اسم تَغلِب ببَكر دائمًا.. وذلك بسبب الحرب التي حدثت بينهما والتي استمرّت أربعين عامًا، كما يقول الرواة، والتي عُرفت بحرب البَسوس، نسبة إلى البَسوس خالة جَسّاس بن مُرّة بن ذُهَل بن شِيبان من بَكر بن وائل..

وتعتزّ تَغلِب برمزها وائل بن رَبيعة الذي تلقّب بكُلَيب وائل ثمّ كُلَيب وحسب. كان وائل بن رَبيعة أو كُلَيب فارسًا هُمامًا، وكان عزيز النفس لا يقبل ذلاً حتّى ضُرب به المثل: «أعزّ من كُلَيب بن وائل».

وكانت زَهراء أخت كُلَيب متزوّجة من لَبيد بن عُقْبة عامِل ملوك كِنْدَة على رَبيعة، فطغى عليهم وجار، فحزّ ذلك في نفس الزهراء وأنكرته وكلّمت لَبيدًا فيه، فقال لها لَبيد:

– ما بال أخيك ينتصر لمُضَر ويتهدّد الملوك كأنّه يعزّ بغيرهم.

فقالت له:

– ما عُرف أعزّ من كُلَيب، وهو كفء لها.

فغضب لَبيد بن عُقْبة زوجها ولطمها لطمة أغشت عينها. فخرجت إلى أخيها كُلَيب، وهي تقول:

ما كنت أحسب والحوادث جَمّة ... أنّا عَبيدُ الحيّ من قَحطان
حتّى أتتني من لَبيد لطمة ... فغشت لها من وقعها العينان
إن ترضَ أسرة تَغلِب ابنةَ وائلٍ ... تلك الدنيّة أو بنو شيبان
لا يبرحوا الدهر الطويل أذلّة ... هُدْل الأعنّة عند كلّ رهان

فلمّا سمع كُلَيب قولها ورأى ما بها من أثر اللطمة، ثارت حميّته فهجم على لَبيد وقتله وقال:

إن يكن قتلنا الملوك خطأً — أو صوابًا فقد قتلنا لَبيدا
وجعلنا من الملوك ملوكًا — بجياد جرد تجرّ الحديدا

وسمعت ملوكُ كِندة وحِمْيَر باليمن بمقتل لَبيد فجهّزوا جيشًا جرّارًا يريدون به رَبيعة في ديارهم.

وسمع كُليب بمقدم هذا الجيش، فأثار الحميّة في القبائل من رَبيعة ومُضَر وإياد وطيء وقُضَاعة، وتقدّمهم يريد لقاء جيوش اليمن التي نزلت خَزازى، وهو جبل، وعليهم عشرة من أقيال اليمن. ونظّم كُلَيب جيوشه المتحالفة فجعل الأحوَص بن جعفر على مُضَر، ومُرّة ابن ذُهَل بن شَيبان والد جسّاس على ذُهَل وشيبان، وذُهَل بن حارثة على رَبيعة، وطَرَفَة بن العبد على قيس، وجعل سَلَمة بن خالد وهو المعروف بالسفّاح التَغلبيّ على المقدّمة وأمره أن يعتلي خَزازى فيوقد النار ليهتدي بها الجيش.

وكانت طلائع جيوش اليمن قد وصلت ماء الذَنايب، فسار إليهم كُلَيب واشتبك معهم بقتال ضارٍ وأبادهم عن بكرة أبيهم، ثمّ اتّجه إلى جبل خَزازى والتقى بجيوش اليمن وقاتلهم قتالاً شديدًا استمرّ عدّة أيّام، ولم تستطع جيوش اليمن مواجهة هذا القتال الضاري فانسحبت مهزومة، وانتصرت ربيعة نصرًا موزّرًا، وقد أرّخه كُليب بقوله:

لقد عرفت قَحطان بصبري ونجدتي — غداة خَزازيٍ والحُتوف دوانِ
غداة شفيت النفس من ذلّ حِمْيَر — وأورثتها ذلاً بصدق طعان
دلفت إليهم بالصفائح والقنا — على كلّ ليث من بني غَطَفان
ووائل قد جزت مقاديم حِمْيَر — فصدقها في صحوها الثقلان

وبعد هذا النصر، أجمعت قبائل رَبيعة كلّها على الانضواء تحت راية كُلَيب زعيمًا لها.. إلاّ أنّه نصّب نفسه ملكًا أسوة بملوك اليمن، وجعل له ما للملوك من أبّهة وحاشية، وصار يبتعد شيئًا فشيئًا عن إخوته وأولاد عمّه وعشيرته وقبيلته، فلم يعد لأحد أن يشاركه طعامه إلاّ لنفر محدّد اختارهم بنفسه، واتّخذ له جروًا كان يطرحه أرضًا فيروح يعوي، فأينما وصل عواؤه كان ذلك محرّمًا على أحد دخول هذه الأرض، فهي حمى كُلَيب، وله وحده الحقّ في استغلالها للرعي واستغلال ما فيها من كلأ وماء، ولا يسمح لأحد

الاقتراب منها. فله الحقّ المطلق في كلّ الأراضي وكلّ الآبار والعيون ومصادر المياه، كما منع أفراد القبيلة من إشعال النار وإعداد الطعام، إذ عليهم أن يأكلوا ممّا يقدّمه لهم مطبخ كُلَيب..

بكلّ هذا وغيره وضع كُلَيب نفسه في دائرة مغلقة، ووتّر علاقته بالجميع حتّى بزوجته الجليلة بنت مُرّة الشيبانيّة أخت جسّاس، وأوغر صدر الجميع عليه..

حتّى إذا كانت حادثة ناقة البَسوس التي قتلها كُلَيب بعد أن دخلت حماه للرعي، قتله جسّاس بن مُرّة ابن أخت البَسوس، وبذلك أشعل نار الحرب التي استمرّت أربعين عامًا والتي عُرفت بحرب البَسوس.

وبعد مقتل كُلَيب، رفض أخوه عَدِيّ بن رَبيعة المعروف بالمُهَلْهِل أيّ دعوة للصلح أو الفدية ووضع شروطًا تعجيزيّة أقلّها قتل آل بكر جميعًا..

بعد ذلك أسر عِباد بن الحارث صاحب النعامة وهي فرس المُهَلْهِل وهو لا يعرفه، فقال له: دلّني على المُهَلْهِل وأنا أُطلقك.. وبعد أن استوثق المُهَلْهِل منه، قال له: أنا المُهَلْهِل. ولم يستطع عِباد بن الحارث أن يفعل به أيّ شيء غير أن يجزّ ناصيته.

ورحل المُهَلهِل إلى اليمن، وهناك طلب أحدهم تزويجه بإحدى بناته، فرفض المُهَلْهِل ذلك قائلاً: إنّي طريد غريب فيكم ومتى أنكحتكم قال الناس اعتسروه فأكرهوه حتّى زوّجها.

ثمّ انحدر المُهَلهِل فلقيه عَوْف بن مالك بن ضَبيعة بن قَيس بن ثَعْلَبة وهو أبو أسماء صاحبه المرقّش الأكبر فأسره فمات في أسره.. هذا ما رواه ابن قُتيبة في كتابه «الشعر والشعراء».

ثمّ كانت لتغلب غزوات وحروب مع أطراف شتّى، لعلّ منها تلك الحروب التي اشتعلت بين تَغلِب وبني يربوع وقد هُزمت فيها بنو يربوع، ومن وقائع تلك الحروب وقعة ثَبْرَة، ومن أيّامها يوم أُراب، ويوم اللِوى، ويوم زَرُوْد.

وخاضت تَغلِب حربًا مع بني شَيبان في وقائع، منها وقعة في فَطيمة بالبحرين، وأخرى في دير لُبنى، إضافة إلى يوم عُنَيزَة.

وكان لها أيّام مع سعد بن تميم، منها يوم ذي بَهْدِي وكان على تغلب. وهناك يوم

الكُلاب الأوّل لحلف من تغلب وسُلْمَة بن الحارث بن عَمرو المقصور والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مَناة، يقابلهم حلف من بكر بن وائل بن حَنظَلَة بن مالك، وبني أسد وطوائف من بني عمرو بن تَميم والرِّباب.

ويوم أُوارَة الأوّل لتغلب والنمر بن قاسط والمنذر بن ماء السماء على بكر بن وائل.

وفي الإسلام كانت لتغلب أيّام تَغلِب وقَيْس، منها يوم سِنجار، ويوم الحَشاك، ويوم الثرثار، ويوم تلّ عبده.

وفي سنة ١٢ هـ / ٦٢٤م حاربت تَغلِب إلى جانب الروم بالفَراض ضدّ المسلمين، لكنّ بني تغلب انحازوا إلى جانب العرب سنة ١٣ هـ وحاربوا الفرس، وهم يقولون: نقاتل مع قومنا..

وأنجبت تَغلِب عددًا كبيرًا من الشعراء في الجاهليّة والإسلام، نذكر منهم: وائل بن رَبيعة المعروف بكُلَيب، وأخاه عَديّ بن رَبيعة المعروف بالمُهَلهِل، وقد تقدّم ذكرهما.

* وعمرو بن كُلثوم أشهر من أن يعرَّف، وهو عمرو بن كُلثوم من بني عَتّاب، وهو قاتل عمرو بن هند اللخميّ ملك الحيرة، أمّا سبب قتله، فكما يُجمع الرواة والمؤرّخون، ومنهم ابن قُتيبة في «الشعر والشعراء»: أنّ عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمّه من خدمة أمّي (وأمّه هند بنت الحارث بن عَمرو بن حُجْر آكل المُرار، وهي عمّة امرئ القيس بن حُجْر الكنديّ). فقالوا له: نعم، عمرو بن كُلثوم.

قال: ولِمَ ذلك..

قالوا: لأنّ أباها مُهَلهِل بن رَبيعة وعمّها كُلَيب وائل أعزّ العرب وبعلها كُلثوم بن مالك ابن عِتاب أفرس العرب، وابنها عَمرو بن كُلثوم سيّد من هو منه.

فأرسل عَمرو بن هِند إلى عمرو بن كُلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمّه.

فأقبل عمرو بن كُلثوم من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تَغلِب، وأقبلت ليلى بنت المُهَلهِل في ظَعْن من بني تَغلِب.. وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا، وأتاه عمرو بن كُلثوم في وجوه بني تغلب، فدخل عمرو بن كُلثوم على عمرو بن هند في رواقه، ودخلت ليلى (بنت المُهَلهِل أمّ عمرو بن كُلثوم) على هند في قبّة في جانب الرواق، وهند أمّ عمرو بن هند عمّة امرئ

القيس الشاعر، وليلى بنت مُهَلهِل بنت أخي فاطمة بنت رَبيعة أمّ امرئ القيس. وقد كان أمَرَ عمرو بن هند أمّه أن تنحّي الخدم إذا دعي بالطرف وتستخدم ليلى. فدعا عمرو بن هند بمائدة فنصبها، فأكلوا ثمّ دعا بالطرف، فقالت هند: يا ليلى ناوليني ذلك الطبق، فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها وألَحّت، فصاحت ليلى وا ذلاّه، يا لتَغلِب. فسمعها عمرو بن كُلثوم، فثار الدم في وجهه، ونظر إلى عمرو بن هند فعرف الشرّ في وجهه، فقام إلى سيف لعمرو بن هند معلّق بالرواق ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند حتّى قتله، ونادى في تَغلِب فانتهبوا جميع ما في الرواق وساقوا نجائبه نحو الجزيرة، ففي ذلك يقول عمرو بن كُلثوم:

بأيّ مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تُهَدِّدُها وتوعِدُنا رويدا ... متى كنا لأمّك مقْتَوِينا

وقد أصبحت هذه الأبيات جزءًا من معلّقة عمرو بن كُلثوم والتي مطلعها:

ألا هبّي بصحنك واصبحينا ... ولا تبقي خمور الأندرينا

وفيها يفتخر بقومه بتطرّف لا مثيل له وهو يقول:

ملأنا البرّ حتّى ضاق منّا ... وماء البحر نملأه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ ... تخرّ له الجبابر ساجدينا

وقد شغفت تَغلِب بهذا القصيدة، وصارت تفخر بها، ممّا حدا ببعض الشعراء إلى الردّ عليهم بقوله:

ألهى بني تَغلِب عن كلّ مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كُلثوم

* وهَجْرَس بن كُلَيب بن رَبيعة التغلبيّ الوائليّ، كان له شأن في تاريخ تَغلِب، فهو ابن كُلَيب وائل، الذي بسبب قتله قامت الحرب الضروس بين بكر وتغلب..

كان هَجْرَس في بطن أمّه جليلة بنت مُرّة حين قتل خاله جسّاس أباه كليبًا.. وولد هَجْرَس وعاش وترعرع في بيت خاله جسّاس، وعندما شبّ ووعى هول المأساة وبأنّ عليه أن يثأر لأبيه الذي لم يره من خاله الذي ربّاه في حجره وحدب عليه، قال:

أصاب أبي خالي وما أنا بالذي أمثل أمري بين خالي ووالدي
وأوردت جسّاس بن مُرّة غصّة إذا ما اعترتني حرُّها غيرُ بارد

حتّى إذا قتله قال:

يا للرجال لقلب ما له آس كيف العزاء وثأري عند جسّاس

* ومن شعراء تَغلِب الفرسان: الأخنس بن شهاب بن شريف بن ثُمامَة، يتّصل نسبه بغَنَم بن تغلب بن وائل.

وهو المعروف بفارس العصا نسبة إلى فرسه، شهد وقائع حرب البَسوس، يُعدّ من شعراء الطبقة الثالثة، وهو القائل:

لابنة حطّان بن عوف منازل كما رقّش العنوان في الرقّ كاتب
ظللت بها أعرى وأشعر سخنة كما اعتاد محمومًا بخيبر صائب
تـظلّ بـها ربد النعام كأنّها إماء تزجى بالعشي حواطب

كان جابر بن حنّي التغلبيّ من شعراء تَغلِب المعروفين، وهو جابر بن حنّي بن حارثة ابن عمرو بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنَم بن تغلب بن وائل..

كان جابر بن حنّي صديقًا لامرئ القيس، وكان كما يذكر الرواة معه في رحلته من أنقرة إلى بلاده يوم ارتدى الحلّة المسمومة التي أهداها إيّاه قيصر وتسبّبت في تناثر لحمه، فحمله جابر بين ذراعيه وفي هذا يقول امرؤ القيس:

فـأما تريني في رحالة جابر على حرج كالقرّ تخفق أكفاني

وجابر بن حنّي هو القائل:

فيا دار سُلْمى بالصريحة فاللوى إلى مدفع الفيفاء فالمتثلّم
ظللت على عرفانها ضيف قفزة لأقضيَ منها حاجة المتلوّم
أقامت بها بالصيف ثمّ تذكّرت مصائرها بين الجواء فعَيْهَم

* وهناك جَليس بن عمرو بن عبد بن جَشَم بن عمرو بن غَنَم بن تغلب، شاعر مجيد وهو القائل:

وعتبة يعوي بالعراق وإن يكن عوى عرضًا عن داره لا يبدل
وزلّت قوافي الطمّ عنّي كأنّها صوافير تنبو عن حديد وجندل
وكنت إذا ما دافعتني ملمّة هوت لحواميها ولم أتزلزل

* ومن شعراء تَغلِب: أفنون التغلبيّ، واسمه صَرِيْم بن معشر بن ذُهَل بن تَيْم، وسُمّي أفنونًا لقوله:

فتينا الودّ يا مضنون مضنونا أزمانـنا إنّ للشبّان أفنونا

والأفنون في اللغة مفرد جمعه أفانين، وذهب بعضهم إلى أنّه جمع مفردة فنّ.

كان أحد العرّافين قد قال لصَرِيْم: إنّك ستموت في مكان يقال له «إلاهة». وبينما كان في ركب مع أصحابه، إذا بهم يضلّون الطريق، حتّى إذا كان الصباح، سألوا عن الموقع الذي هم فيه، فقيل لهم: هذه إلاهة. فنزل أصحابه وأبى هو أن يفعل، وظلّ على ظهر راحلته وتركها ترعى، فعلقت بمشفرها حيّة، فأمالت الناقة رأسها نحو ساق صريم لتحتكّ به، فنهشته الأفعى، فرمى بنفسه، وقال لرفيق له اسمه معاوية أبياتًا مطلعها:

ألا لست في شيء فروحًا معاويًا ولا المشفقات إذ تبعن الحوازيا

ومات من ساعته ودُفن في المكان ذاته.

وأفنون التغلبيّ هو القائل:

أبلغ حبيبًا وخلّل في سراتهم إنّ الفؤاد انطوى منهم على حزن
قد كنت أسبق من جاروا على مهل من ولد آدم ما لم يخلعوا رسني
فالوا عليّ ولم أملك قيالتهم حتّى انتحيت على الأرساغ والثنن
لو أنّني كنت من عاد ومن إرم ربيت فيهم ولقمان ومن جدن

توفّي أفنون التغلبيّ سنة ٥٦٧م.

* وعمير بن شُيَيْم هو الآخر شاعر من تغلب ويُلقّب بالقُطاميّ، وكان زَفر بن الحارث الكُلابيّ قد أسره في الحرب التي كانت بين قيس عيلان وتغلب، فأرادت قيس قتله، فحال زفر بينهم وبينه، ثمّ مَنّ عليه ووهب له مائة ناقة وردّه إلى قومه، فقال فيه القُطاميّ:

أأكفر بعد ردّ الموت عنّي ... وبعد عطائك المئة التراعا
فلو بيدي سواك غداة زلّت ... بي القدمان لم أرج اطّلاعا
إذًا لهلكتُ لو كانت صغارًا ... من الأخلاق تبتدع ابتداعا

• وهناك من تغلب السفّاح التغلبيّ، واسمه سَلَمة بن خالد بن كعب بن زهير، من بني حبيب بن عمرو بن غَنَم بن تغلب، كان جرّارًا للجيوش في الجاهليّة، وإنّما سُمّي بالسفّاح لأنّه سفح روايا الماء كاظمة، وقال لأصحابه: قاتلوا فإنّكم إن انهزمتم متّم عطشًا.

حضر وقعة خَزَازى بين رَبيعة وتَغلِب، وهو الذي أوقد النار على ذرى جبل خزازى ليهدي إليه الجيش، كما حضر يوم الأقطانين. عاش إلى أيّام امرئ القيس ابن حُجْر الشاعر، وقيل إنّه قُتل في آخر الكلاب نحو ١٠٠ ق.هـ. كان من الخطباء المفوّهين في حرب بَكر وتَغلِب، وهو القائل:

أبني أبي سعد وأنتم إخوة ... وعتاب بعد اليوم شيء أفقم
هلاّ خشيتم أن يصادف مثلها ... منكم فيترككم كمن لا يعلم

وهو القائل أيضًا:

وليلة بتُّ أوقد في خزازى ... هديت كتائبًا متحيّرات
ظللن من السهاد وكنّ لولا ... سهاد القوم أحسب هاديات
فكنّ مع الصباح على جذام ... ولخم بالسيوف مشهرات

• ومنهم شَبيب بن جُعَيْل، أسره بنو قُتيبة بن معن من باهلة في معارك خاضها التغلبيّون والباهليّون. وشَبيْب هو القائل مخاطبًا أمّه نوّار بنت عمرو بن كُلثوم، وهو في الأسر:

حنت نوّار فأيّ حين حنتِ ... وبدا الذي كان النوّار أجنتِ
لمّا رأت ماء السلا مشروبًا ... والفرث يعصر في الإناء أرنتِ

• ومن شعراء تغلب: ابن جُعَل، وهو عُمَيْرة بن جُعَل بن عمرو بن مالك من بني تغلب بن وائل.. وهو القائل:

فمن مبلغ عنّي إياس بن جندل ... أخا طارق والقول ذو نفيان
فلا توعدوني بالسلاح فإنّما ... جمعت سلاحي رهبة الحدثان
جمعت ردينيًّا كأنّ سنانه ... سنا لهب لم تستعر بدخان

• ومنهم عُمَيْر بن جُعَيْل، وهو عُمَيْر بن جُعَيْل بن مالك بن الحارث بن حبيب بن عمرو بن غَنَم بن تغلب بن وائل.. وعُمَيْر بن جُعَل هو القائل:

إذا ضيّقت أمرًا ضاق جدًّا ... وإن هوّنت ما قد ضاق هانا
سأصبر من صديقي إن جفاني ... على كلّ الأذى إلاّ الهوانا
فإنّ الحرّ يأنف في خلاء ... وإنّ حضّ الجماعة أن يهانا

وهو القائل أيضًا:

توثّق في إخاء الحرّ أنّي ... رأيت العبد في الحالات عبدا
يزيد الحرّ خيرًا كلّ يوم ... وخير العبد قد يزداد بعدا
إذا جريا لغاية مكرمات ... كبا هذا وبرّز ذاك شدّا

• ومنهم النابغة التغلبيّ، وهو الحارث بن عدوان، أحد بني زيد بن عمرو بن غنم ابن تغلب، وهو القائل:

جرت أمامة هجرًا طويلاً ... وما كان هجرك إلا جميلا
على غير بغض ولا عن قلى ... وإلاّ حياء وإلاّ ذهولا
بخلنا لبخلكِ قد تعلمين ... فكيف يلوم بخيلاً بخيلا

• ومنهم حَرِيْز بن عبدة التغلبيّ، وهو القائل:

ألا أيّها المزدريُّ بعينه ... تشاوس رويدًا إنّني لك واتر

• ومن تغلب أيضًا الشاعر المعروف بالأخطل، وهو غَيَاث بن غوث التغلبيّ، ويُكنّى أبا مالك، عاش أيّام الدولة الأمويّة في الشام، وكان مجايلاً للفرزدق وجرير، وكانت بينهم مهاجاة ونقائض أثرت الشعر العربيّ بالصورة الفنيّة الرائعة، وكان الأخطل يُشبّه بالنابغة الذبيانيّ من شعراء الجاهليّة، والأخطل هو القائل في هجاء الفرزدق:

زعم الفرزدق أنْ سيقتل مَرْبَعًا ... أبشر بطول سلامة يا مربع

• ومنهم جميل بن كَعْب التغلبيّ، من سادات رَبيعة، وقف إلى جانب عليّ بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، في الجَمَل وصِفّين، قتله معاوية. وجميل هو القائل قبل الموت:

أصبحت الأمة في أمر عجب ... والملك مجموع لمن غلب
قد قلت قولاً صادقًا غير كذب ... إن غدًا تهلك أعلام العرب

* ومن أولاد عمرو بن كلثوم، كان الشاعر والكاتب المجيد كلثوم بن عمرو المعروف بالعتابيّ، ويُكنى أبا عمرو، عاش أيّام الدولة العبّاسيّة زمن الرشيد والمأمون، وكان شاعرًا مُحسنًا، وكاتبًا في الرسائل مُجيدًا، ولم يجتمع هذان لغيره، على رأي ابن قُتيبة.

والعتابيّ هو القائل في الرشيد:

ماذا عسى قائل يثني عليك وقد   ناداك في الوحي تقديس وتطهير
فتّ المدائح إلاّ أنّ ألسننا   مستنطقات بما تخفي الضمائر

ومنهم عمرو بن جُعَيل التغلبيّ وهو القائل:

توثّق من إخاء الحرّ أنّي   رأيت العبد في الحالات عبدا
يزيد الحرّ خيرًا كلّ يوم   وخير العبد قد يزداد بعدا
إذا جريا لغاية مكرمات   كبا هذا وبرّز ذاك شدّا

وربّما كان عمرو بن جُعَيل هذا هو عمير بن جُعَيل نفسه الذي وردت ترجمته سابقًا.

* ومنهم عمرو بن قَرْثَع التغلبيّ، وكُنيته أبو السفّاح، وهو القائل في هجاء أميّة بن عبد الله بن خالد:

قريش كرام يا أميّة سادة   وأنت بخيل يا أميّ مسود
تجود لما تخشى شذاة لسانه   وغيرك يعطي راغبًا ويجود
وأنت إذا حرب تسامت فحولها   حيود هيوب للقاء ندود

* ومنهم مَلِيل بن الدُهْقَانة التغلبيّ، وهو القائل:

ألا ليس الرزيّة فقد مال   ولا فرسٌ يموت ولا بعيرُ
ولكن الرزيّة فقد حرّ   يموت لموته خلق كثير

* ومنهم المَوج التغلبيّ، واسمه قيس بن مازن، وهو القائل:

ألهى بني تغلب عن كلّ مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

* ومنهم مالك بن جَعْدَة التغلبيّ، وهو القائل:

فإنّك يوم تأتيني حريبًا   تملُّ عليّ يومئذ نذور
تحلّ عليّ مفرهة سنادًا   على أخفافها علق يدور
لأنّك ويلة وعليك أخرى   فلا شاة تنيل ولا بعير

* ومنهم يزيد بن هُوَبَر التغلبيّ، وقد توفّي سنة ٩٠هـ – ٧١٠م. وهو القائل:

الملك إن لم يقل بالحقّ سائسه   عمّا قليل لأهل الملك ضرّار
لا بارك الله في الدنيا إذا انصرمت   لذاتها كان عقبى أهلها النار

الفصل الثالث

المسيحيّة في البلاد الحِمْيَريّة

مقدّمة:

البلاد الحِمْيَريّة، هي المعروفة اليوم ببلاد اليمن، وقد عُرفت أيضًا عبر التاريخ «سبأ»[1] «والهند»[2] «والعربيّة السعيدة»[3] «والحبشة»[4]. وذلك لاختلاف الكتبة والمؤرّخين في تسمية الشعوب المنتمية إلى العرق الأسود.

أمّا لغتها فهي المعروفة «بالحِمْيَريّة» وهي من اللغات الساميّة. كان لها قلم خاصّ يعرف «بالمُسْنَد»، فاستبدلته بالقلم السريانيّ كما أثبت العلماء الباحثون. ولا غرو فإنّ السريانيّة كرواية السمعانيّ (المكتبة الشرقيّة ٣: ٦٠٣)، كانت قد تغلغلت في بلاد اليمن، كما كانت قد تسرّبت إلى سواحل إفريقية إزاء بلاد العرب في بعض مستعمرات سوريّة كقول فيلوسترجيوس في القرن الرابع[5]. وممّا يؤكّد رواية السمعانيّ ما نسبه الطبريّ إلى الزرقيّ قائلاً: إنّه رأى قبرًا عظيمًا على رأس جبل بالعقيق من ناحية المدينة، عليه حجران عظيمان فيهما كتاب بالمُسْنَد، فاحتملهما معه ثمّ ألقى أحدهما وهبط بالآخر، فعرضه على أهل السريانيّة هل يعرفون كتابته فلم يعرفوه. وعرضه على من يكتب بالزبور من أهل اليمن ومن يكتب بالمُسْنَد فلم يعرفوه[6]. فعرضه حُجْر على أهل السريانيّة فور هبوطه من الجبل،

---

(١) هكذا لُقّب ملوكهم كما روت الآثار المكتشفة في جنوبيّ الجزيرة العربيّة (النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة للأب لويس شيخو ١: ٥٣).

(٢) هكذا سمّاها أوسابيوس القيسريّ في تاريخه الكنسيّ ٥: ١٠ وإيرونيموس الذي سمّى رهبانها ب «رهبان الهند» وفيلوسترجيوس الذي سمّى الحميريّين ب «الهنود» (ك ٢ ف ٦).

(٣) هكذا سمّاها السائح قوزما إنديكوبلوستوس نحو سنة ٥٣٥. أنظر أيضًا **دائرة المعارف البريطانيّة** مج ٣ ص ٤٠٣ و**قاموس الكتاب المقدّس** لوليم سميث ص ٩٧.

(٤) وذلك لتزوج عدّة قبائل حبشيّة إليها، ولاستيلاء الأحباش عليها مدّة طويلة حتّى في عهدهم الوثنيّ.

(٥) **النصرانيّة وآدابها** للأب شيخو ١: ٥٩.

(٦) **تاريخ الطبريّ** مجلد ٢ ص ٢٤.

لدليل على انتشار السريانيّة في اليمن والحجاز عصرئذٍ. ومن أشهر مدن الحِمْيَريّين وحواضرهم المذكورة في الوثائق السريانيّة المشار إليها: سبأ، مأرب، ذي رِيْدَان، ظفار، حَزْبَة، تِيْمَنة، نَجْران، هَجْران (هَجرين) وحَضْرَمَوْت.

وكان ملوك الحِمْيَريّين يلقّبون في أوّل أمرهم ب «ملوك سبأ وذي ريدان»، حتّى إذا استولّوا على بلاد حَضْرَمَوْت في حدود سنة ٣٠٠، أضافوا «حضرموت ويمانات» أيضًا[٧].

إنتشار المسيحيّة:

لقد دخلت المسيحيّة البلاد الحِمْيَريّة، في صدرها. بل أكّد مار أفرام[٨]، ومار يعقوب الرهاويّ[٩]، ومار ديونيسيوس بن صليبي[١٠] وغيرهم من المفسّرين السريان، أنّ الخصيّ الذي عمّده الشمّاس فيلبّس المبشّر بالذات (أع ٨: ٢٧)، كان وزيرًا لقنداقة ملكة سبأ، لا الحبشة، أيّ كان حِمْيَريًّا لا حبشيًّا. وممّا أثبته المؤرّخون الثقات، أنّ برتلماوس الرسول كان أوّل من دعا إلى المسيحيّة فيها وفي الحجاز[١١] وقد نصّر خلقًا من سكّانها، وخاصّة من اليهود، الذين ترك لهم نسخة من إنجيل متّى باللغة السريانيّة الفلسطينيّة التي عرفت عصرئذ بالعبريّة أيضًا، فوجدها لديهم الفيلسوف الإسكندريّ الشهير القسّ بنتينوس أستاذ المدرسة الإسكندريّة اللاهوتيّة، الذي توغّل في تلك البلاد في أواخر القرن الثاني مبشّرًا بالإنجيل[١٢].

وفي القرن الثالث ضُمّت نجران واليمامة إلى أبرشيّة أسقفيّة أُنشئت في قَطَر[١٣] وفي القرن الرابع أنشأ عبد يشوع الناسك السريانيّ في جنوبيّ قَطَر، ديرًا باسم مار توما؛ زاره نحو سنة ٣٩٠ مار يونان الناسك أحد تلاميذ مار أوجين؛ فوجده آهلا بمئتي راهب. فأقام ثمّ مدّة، يقضي الصلوات مع الرهبان بالسريانيّة[١٤].

(٧) **ميمره الشهير في الجوهرة.**

(٩) **رسالته إلى يوحنّا الأثاربيّ.**

(١٠) مقدّمة كتابه المعروف ب «الفصول العشرة».

(١١) **التاريخ الكنسيّ لأوسابيوس القيسريّ** ٥: ١٠. وتاريخ الطبريّ مج ٢ ص ٢٤ وتاريخ ابن خلدون مج ٢ ص ١٥٠.

(١٢) **التاريخ الكنسيّ لأوسابيوس القيسريّ** ٥: ١٠.

(١٣) **الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة للبطريرك أفرام الأوّل** برصوم مج ١ ص ٣٩٠.

(١٤) **أخبار الشهداء والقدّيسين** طبعة بيجان ١: ٤٨٦ و٤٨٨.

وفي حدود سنة ٣٥٤ بعث القيصر قسطنطيوس الآريوسيّ، إلى البلاط الحِمْيَريّ، وفدًا برئاسة تاوفيلس السيلانيّ الهنديّ؛ فنصّر الملك، وبنى في بلاد حِمْيَر ثلاث بيع، كما أكّد المؤرّخ فيلوسترجيوس. وقد شهد مؤرّخو العرب بمسيحيّة كثير من ملوك اليمن، منهم عبد كِلَال بن مُثُوب الذي ولي الملك بسنّ وتجربة وسياسة حسنة[١٥].

وفي أوائل القرن الخامس، عُرِف في نجران تاجر وثنيّ معتبر اسمه حيّان، سافر ذات يوم إلى القسطنطينيّة في تجارة، وعاد إلى بلده؛ ثمّ شخص إلى بلاد فارس، ومرّ بالحيرة حيث ألف المسيحيّين وعرف مقالتهم، وتنصّر واعتمد[١٦]. ولمّا عاد إلى نجران، أوقف قومه على بطلان الشرك؛ وهدى إلى المسيحيّة أسرته وخلقًا من أهل نجران والبلاد الحِمْيَريّة الأخرى المتاخمة للحبشة أيضًا[١٧]. أمّا عنايته بنشر الدين المسيحيّ في بلاد الحِمْيَريّين؛ فقد أكّدتها حفيدته الشهيدة النجرانيّة حَبْصَة ابنة حيّان الصغير كما سيأتي[١٨]. وهو الذي سمّاه مؤرّخو العرب فيميون. وفي هذا القرن أزهر الدين المسيحيّ في نجران خاصّة، بعد أن تنصّرت قبيلة الحارث بن كعب اليمنيّة الكبيرة. ومن مخاطبة الشهيدة النجرانيّة الشريفة رُوْمي بنت أزْمَع للنساء النجرانيّات «المسيحيّات واليهوديّات والوثنيّات»[١٩]، وهي تطوف الشوارع في طريقها إلى الشهادة سنة ٥٢٣؛ ومن قول الشهيد ملك بن معاوية من قبيلة يَقْبُول في فناء كنيسة نجران «اسمعوا أيّها المسيحيّون والوثنيّون واليهود»[٢٠]، ومن قول الشهيدة حَبْصَة بنت حيّان للملك اليهوديّ المضطهد: «إنّ حيّان أبي حَرق مرّة مجمعكم وإنّ المسيح سيستأصل مجامعكم من بلادنا»، يبدو أنّه كانت لا تزال وقتئذ في نجران بقيّة من اليهود والوثنيّين. يؤيّد هذا تنصُّر الشريف ضَبّ واستشهاده بعد أن كان قاضيًا مضطهدًا للمسيحيّين، وشخوص أفْعُو الشريف النجرانيّ الوثنيّ وسفير الملك، بعد الاضطهاد، إلى الحيرة حيث تنصّر واعتمد في بيعتنا على يد الأرْشمِيّ[٢١].

(١٥) الطبريّ مج ٢ ص ٨٦.

(١٦) جاء في مقالة وصف كتاب الشهداء الحميريّين للبطريرك أفرام الأوّل برصوم ص ٢ أنّ حيّان تنصّر في القسطنطينيّة، استنادًا إلى كتاب الحميريّين السريانيّ ص ٣١ و٣٢. والحال أنّ هذا المصدر يذكر عنايته بنشر الدين المسيحيّ في بلاد الحميريّين فقط لا غير.

(١٧) تاريخ سِعِرْت للنساطرة طبعة المطران أدّى شير القسم الأوّل ص ٣٣٠ و٣٣١ وقد ورد فيه أنّ وجوده كان في عهد يَزْدَجَرْد (الأوّل) الفارسيّ ٣٩٩ - ٤٢٠ إلاّ أنّه سمّاه خطأً حنّان بدلاً من حيّان.

(١٨) **رواية الشهيدة حبصة في كتاب الحميريّين السريانيّ** ص ٣١ و٣٢.

(١٩) راجع **الرسالة الأولى لمار شمعون الأرشميّ.**

(٢٠) راجع **الرسالة الثانية للأرشميّ.**

(٢١) راجع هذا كلّه في **كتاب الحميريّين السريانيّ** ص ٢٣ و٢٤ و٣٢.

وانتشرت الكنائس في البلاد الحِمْيَريّة، ولا سيّما في نجران وظفار ومأرب والهجران (هجرين) وحضرموت[٢٢]، فأضحت نجران كرسيًّا أسقفيًّا في العقد الثاني من القرن السادس[٢٣].

هكذا بذر بعض الرسل والمبشّرين مبادئ الدين المسيحيّ المبين في تربة البلاد الحميريّة وما جاورها من البلاد في جنوبيّ الجزيرة العربيّة، فعزف الكثيرون من أهلها عن اليهوديّة والوثنيّة والشِرك.

ومن العجيب الغريب أن يقول الأستاذ (الأب) يوسف درّة الحدّاد إنّ «المسيحيّة كانت أصيلة عريقة في مكّة؛ ولكنّها لم تنصّر أهلها بل نقلتهم من الوثنيّة إلى الشِّرْك»[٢٤]. لا ندري كيف تكون المسيحيّة أصيلة وعريقة فيها، وفي الوقت نفسه لم تنصّر أهلها بل نقلتهم من الوثنيّة إلى الشِّرْك! فإذا كانت المسيحيّة قد دخلت تلك البلاد، منذ صدرها، كما رأينا، فكيف لم تنصّر أهلها؟ فهل تواطأ أولئك الرسل والمبشّرون مع أهلها على أن ينقلوهم فقط من الوثنيّة إلى الشرك؟ أهذا ما أمرهم به سيّدهم القائل: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس»؟ فكيف يتّفق هذا والشِّرك؟ إنّه ولا شكّ افتراء سافر على دعاة المسيحيّة الغرّ الذين أفنوا زهرات حياتهم في سبيل نشرها، وهم من عرفت من خبرة المبشّرين. فالقدّيس برتلماوس، أحد الرسل الاثني عشر، وبنتينوس، فيلسوف كبير ولاهوتيّ خطير، وكفاه فخرًا كونه أستاذ المدرسة الإسكندريّة اللاهوتيّة الشهيرة، والرهبان الذين سكنوا تلك الأقطار، لم يكونوا أقلّ تفهّمًا للعقيدة المسيحيّة الصحيحة من الأستاذ الحدّاد. أمّا حيّان (فيميون) فقد شهد له المؤرّخون بصراحة بأنّه أوقف الناس على بطلان الشِّرك. فقد قال لسيّده: «إنّما أنتم في باطل وإنّ هذه النخلة التي تعبدونها، لا تضرّ ولا تنفع، لو دعوت عليها الذي أعبده أهلكها وهو الله وحده لا شريك له». وكذلك عبد الله بن الثامر أيضًا دعا في نجران إلى توحيد الله[٢٥]. وما أجمل ما قالته الشريفة رُوْمي بنت أَزْمَع الشهيدة الآنفة الذكر حين عرض عليها المضطهد اليهوديّ

(٢٢) راجع **الرسالة الثانية للأرشميّ**، خاصّة عن استشهاد قسوس حضرموت: إيليّا، توما، وائل، وتوما آخر، وعناوين الفصول: ٨ و٣٠ و٣١ و٣٢ من كتاب الحميريّين السريانيّ.

(٢٣) لقد أخبر الأرشميّ في رسالته الثانية أنّ مار بولس كان أوّل أسقف لنجران، وقد رسمه القدّيس مار فيلوكسينوس المنبجيّ (٥٢٣ +).

(٢٤) راجع كتابه **«القرآن والكتاب»** ٣: ٩٨٦.

(٢٥) الطبريّ مج ٢ ص ١٠٤ و١٠٥. **ومعجم البلدان** لياقوت الحمويّ مج ٢٥٩ – ٢٦٠.

الكفر بالمسيح وبصليبه والتهوّد: «حاشا لي أن أكفر بالمسيح الإله الذي آمنت به، واعتمدت وبناتي باسم الثالوث الأقدس، وأنا ساجدة لصليبه، ومن أجله أموت مسرورة أنا وبناتي مثلما تألّم هو بالجسد من أجلنا»[٢٦]. وما أحلى ما قاله الشهيد الحارث النبيل: «إنّنا نكفر بكلّ من لا يعترف بأنّ المسيح هو الإله وابن الإله... ها إنّني أَسِمُ نفسي ورفاقي كعادتنا، بِسِمَة الصليب الحيّة، باسم الآب والابن والروح القدس»[٢٧].

أرثوذكسيّة المسيحيّين الحِمْيَريّين

في سنة ٤٢٨ جلس نسطور السريانيّ المرعشيّ والقسّ الأنطاكيّ، على كرسيّ بطريركيّة القسطنطينيّة[٢٨]. وما عتّم أن صرّح، خلافًا للتقليد الكنسيّ، بأنّ العذراء مريم لم تلد كلمة الله بل إنسانًا بحتًا هو المسيح، ولذلك لا يجوز أن تدعى والدة الإله. أمّا المسيح فلم يكن إلهًا ولا ابن الإله، بل إنسانًا أضحى في الثلاثين من عمره هيكلاً لكلمة الله الذي انفصل عنه في أثناء صلبه، فكان المصلوب من ثَمّ إنسانًا بحتًا. وبما أنّ المسيح كان هيكلاً فقط للكلمة، لم يكن هنالك أيّ اتّحاد بين المسيح والكلمة، بل كانت ذات كلّ منهما مستقلّة عن الأخرى[٢٩]. وكنتيجة لهذا الاستقلال، فقد كان للمسيح أقنومان، وطبيعتان تفعل كلّ منهما ما يخصّها بمعزل عن الأخرى.

وفي سنة ٤٣١ حرمه المجمع المسكونيّ الثالث الملتئم في أفسس برئاسة القدّيس كيرلّس الإسكندريّ، مسفّهًا رأيه. وقد عُرف قرار هذا المجمع بعدئذٍ بالتقليد الكيرلّسيّ. وفي سنة ٤٥١ وافق المجمع الخلقيدونيّ على قسم من التقليد الكيرلّسيّ وهو أنّ العذراء مريم هي والدة الإله، وأنّ للمسيح أقنومًا واحدًا. بيد أنّه تبنّى قسمًا من تعليم نسطور وهو أنّ للمسيح طبيعتين، وأنّ المصلوب كان إنسانًا بحتًا. فانشطرت المسيحيّة اثنين. وفي سنة

(٢٦) **الرسالة الأولى المجملة للأرشميّ في تاريخ زكريّا الفصيح** مج ٢ ص ٦٣ – ٧٤.

(٢٧) الرسالة الأولى (المطوّلة) للأرشميّ في أخبار الشهداء والقدّيسين طبعة بيجان ١: ٣٨٩ و٣٩٠.

(٢٨) قال الأستاذ الحدّاد «هذا هو التوحيد المسيحيّ الكتابيّ الذي كان يدعو إليه بحيرى ونسطور وورقة بن نوفل بين العرب» (القرآن والكتاب ٢: ٤١٥) مع العلم أنّ نسطور كان أوّلاً قسًّا في أنطاكية ثمّ بطريركًا في القسطنطينيّة كما رأيت.

(٢٩) قال الأستاذ الحدّاد «إنّ النسطوريّة تجعل من «كلمة الله» ومن عيسى بن مريم ذاتين اتّحدتا اتّحادًا سطحيًّا، فالمسيح عيسى بن مريم ليس ابن الله، وأمّه ليست «أمّ الله» ولو ولدت «كلمة الله» التي ألقاها إليها» (القرآن والكتاب ٢: ٩٨٧) والصحيح أنّ النسطوريّة لا تقول قطّ بالاتّحاد ولو كان سطحيًّا، كما أنّها لا تقول بأنّ مريم ولدت «كلمة الله» بل الإنسان المسيح فقط، الذي صار هيكلاً لكلمة الله في الثلاثين من عمره كما رأينا أعلاه.

٤٧٦ اتّحدت بكراسيّها: الأنطاكيّ، الإسكندريّ، القسطنطينيّ، الأورشليميّ وغيرها، مجمعة على التقليد الكيرلّسيّ. فأصبح القول بالطبيعة الواحدة، عقيدة الدولة الرسميّة حتّى سنة ٥١٨، وذلك في عهد القياصرة باسيليسكوس وزينون وأنسطاس[٣٠].

وفي سنة ٤٨٠ لجأ أساطين النساطرة إلى المملكة الفارسيّة، حيث وُشوا لدى عاهلها فيروز بالأرثوذكسيّين، بأنّهم يتجسّسون على بلاده لحساب الروم؛ فصُلب القدّيس بابويه جاثليق المشرق، ومُدّ النساطرة بمفرزة من الجيش ليطوفوا بها الكنائس الأرثوذكسيّة ويخضعوها لمذهبهم عنوة. ومع شدّة الاضطهاد، فقد ظلّت هنالك كنيسة سريانيّة معتبرة، أمينة على التقليد الكيرلّسيّ السديد، ومرتبطة بالكنيسة السريانيّة الأنطاكيّة الأمّ. وقد ترأسها طيلة الربع الأوّل من القرن السادس مار شمعون الأرشميّ الآنف الذكر، الذي طاف البلاد بتشجيع قُبَاد بن فيروز (٤٨٨ – ٥٣١)، وجمع تواقيع الأرثوذكسيّين التي صدّقت بخاتم قُبَاد وحفظت في تكريت[٣١].

أمّا المؤمنون الحِمْيَريّون فكانوا في مأمن من هذه الشدّة، إذ كانت بلادهم مستقلّة عن الدولة الفارسيّة، ما ساعدهم على الاحتفاظ بعقيدتهم الأرثوذكسيّة القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح بعد الاتّحاد، وهي العقيدة الرسميّة لدولة الروح عصرئذ كما أسلفنا.

(٣٠) راجع **تاريخ الكنيسة السريانيّة الأنطاكيّة** للبطريرك مار أغناطيوس يعقوب الثالث ج ٢ ص ٢٣١ و٢٣٢ و٢٣٩ – ٢٤٨ و٢٨٠ و٢٨١ و٢٨٧ – ٢٩٧.

(٣١) سيرته في كتاب **سير النسّاك الشرقيّين** تأليف مار يوحنّا الأفسسيّ مج ١ ص ١٥٤ – ١٥٦ **والتاريخ الكنسيّ** لابن العبريّ مج ٣ ص ٨٥ ودفقات الطيب للبطريرك يعقوب الثالث. ص ٣١ و٣٢.

البرهان على أرثوذكسيّة الحِمْيَريّين

أوّلاً – علاقتهم الوثقى بالحبشة المتاخمة لهم والتي كانت هي الأخرى أرثوذكسيّة تقول بالطبيعة الواحدة للمسيح بعد الاتّحاد. يبرهن على ذلك شخوص مار توما أسقف نجران إلى الحبشة في طلب النجدة، قبيل حملة الحبشة الأولى على بلاد الحِمْيَريّين[١].

ثانيًا – إهتمام الآباء الأرثوذكسيّين بكنائسهم وبأمورهم الدينيّة. منهم مار فيلوكسينوس المنبجيّ الشهير، الذي رسم في العقد الثاني من القرن السادس أوّل أسقف لنجران هو مار بولس. وإذ استشهد هذا في ظَفَار رجمًا بالحجارة من يهود طبريّة نحو سنة ٥١٨، رسم لها أسقفًا ثانيًا هو مار توما الآنف الذكر. ومنهم مار يوحنّا التلّيّ الذي رسم لحضرمَوْت نحو سنة ٥١٩ القسّ الشهيد إيليّا الذي كان قد تتلمذ في دير مار إبراهيم في مدينة تِلاّ المجاورة للرقّة[٢].

ثالثًا – إعتراف الشهداء الحِمْيَريّين الصحيح بالمسيح، في الاضطهاد الذي أثاره عليهم سنة ٥٢٣، مسروق الذي تهوّد وتملّك على اليمن. فقد سألهم المضطهِد أن يكفروا بالمسيح وبصليبه ويقولوا إنّه إنسان لا إله قائلاً: إنّكم إنّما تسجدون لشخص مائت، ادّعى أنّه ابن الله الرحمن في حين أنّه إنسان. أمّا الآن فقد افتضح تعليمه الفاسد، وأدركت كلّ الأقطار أنّه إنسان لا إله، وأكثر من الجمع بلد الروم، الذين كانوا أوّل من أُغوي به..»[٣]. «ها إنّ الروم قد أدركوا الآن أنّ المسيح كان إنسانًا بحتًا، فما بالكم أنتم تضلّون وراءه؟ ألعلّكم أفضل من الروم؟ إنّنا لسنا نسألكم أن تكفروا بالله خالق السماء والأرض، ولا أن تسجدوا للشمس والقمر وباقي النيّرات أو لإحدى المخلوقات، بل أن تكفروا بيسوع الذي حسب نفسه إلهًا، وتقولوا فقط إنّه إنسان لا إله»... «ولم يريدوا أن يكفروا بالمسيح،

(١) ورد هذا الخبر في عنوان الفصل الرابع من **كتاب الحميريّين السريانيّ** ص ٣.

(٢) ورد هذا في **الرسالة الثانية للأرشميّ**. أمّا اسم الأسقف الثاني فقد امّحى في المخطوطة فأخذناه من عنوان الفصل الرابع من كتاب الحميريّين المذكور.

(٣) **كتاب الحميريّين** المذكور.

وأن يقولوا إنّه إنسان، لكنّهم قالوا في جنونهم إنّه الإله وابن الرحمن.. بعد ذلك جئنا بنسائهم وقلنا لهنّ: ها إنّكنّ قد عاينتنّ بأعينكنّ أنّ أزواجكنّ قد قتلوا جميعًا، لأنّهم جدّفوا وقالوا إنّ المسيح هو الإله وابن أدوناي... أمّا هنّ فجدّفن أكثر من أزواجهنّ قائلات: إنّ المسيح هو الإله وابن الرحمن»[٤]. إنّ قول مسروق هذا، يؤيّد من جهة، البيان الذي علّقه اليهود في الشارع ووجّهوه إلى القيصر مرقيان ٤٥١ في أعقاب المجمع الخلقيدونيّ، وقد جاء فيه قولهم: «لقد كانوا هذه المدّة كلّها يعتبروننا كأنّ آباءنا صلبوا إلهًا وليس إنسانًا. أمّا الآن، وقد صرّح المجمع الخلقيدونيّ بأنّهم صلبوا إنسانًا لا إلهًا، فنرجو أن تردّ إلينا مجامعنا»[٥]. ويبرهن من جهة أخرى على أنّ النصارى الحِمْيَريّين ما كانوا نساطرة ولا رومًا خلقيدونيّين بل أرثوذكسيّين على مذهبنا نحن السريان إذ قالوا: «إنّنا نؤمن بأنّه حقًّا الإله وابن الإله»[٦]. أمّا قوله عن الروم: «إنّهم كانوا أوّل من أُغوي به (بالمسيح) وهم الآن قد أدركوا أكثر من الجميع أنّه إنسان بحت لا إله»، فيشير إلى الاضطهاد الذي أثاره يوسطينوس الأوّل سنة ٥١٨ على الأرثوذكسيّين ودام حتّى هلاكه سنة ٥٢٧.

رابعًا – قول العرب الوثنيّين والمَعَدّيّين للقدّيس الأرشميّ وصحبه عند دخولهم مضارب المنذر ملك حيرة النعمان في الرملة، في آخر كانون الثاني سنة ٥٢٤ «ماذا بإمكانكم أن تفعلوا بعد؟ فهوذا مسيحكم قد طُرد من الروم والفرس والحِمْيَريّين»[٧]. بل قول المنذر نفسه لأشراف المسيحيّين أهل الحيرة «انظروا ها إنّ المسيح قد طرد من الحِمْيَريّين والفرس والروم، أمّا أنتم فلا ترضَون أن تتخلّوا عنه. فأنا لست خيرًا من ملوك الفرس والروم الذين طردوا المسيحيّين ونفَوهم، ولا من ملك الحِمْيَريّين الذي فتك بهم وأفناهم في بلده»[٨]. وهم يعنون بهذا، الاضطهادات التي أثارها على الأرثوذكسيّين فيروز سنة ٤٨٠، ويوسطينوس الأوّل سنة ٥١٨، ومسروق سنة ٥٢٣. وتشير بالتالي إلى أنّ الحِمْيَريّين كانوا أرثوذكسيّين كالذين اضطهدهم فيروز ويوسطينوس.

خامسًا – مراجعة الحِمْيَريّين في أثناء اضطهاد مسروق، للقدّيس الأرشميّ في حيرة

(٤) **الرسالة الأولى المطوّلة للأرشميّ** طبعة بيجان في **أخبار الشهداء والقدّيسين** ١: ٣٧٥ و٣٧٦.

(٥) **تاريخ مار ميخائيل الكبير** ص ٢١٨ و**تاريخ الكنيسة السريانيّة الأنطاكيّة للبطريرك يعقوب الثالث** ج ٢ ص ١٩٥.

(٦) **كتاب الحميريّين السريانيّ** ص ١٥.

(٧) راجع **الرسالة المجملة للأرشميّ في تاريخ زكريّا الفصيح** مجلّد ٢ ص ٦٣ – ٧٤.

(٨) **الرسالة الأولى** طبعة بيجان في **أخبار الشهداء والقدّيسين** ١: ٣٤٨.

النعمان، لا للنساطرة، ولكالب ملك الحبشة، لا ليوسطينوس الأوّل كما وهم بعض المؤرّخين كما سيأتي[٩].

سادسًا – كتابة الأرشميّ إلى سوريّا لا ليتّصلوا بيوسطينوس مضطهِد الأرثوذكسيّين في بلاد الروم، بل «ليخبروا بالسرعة الممكنة وبدون إهمال، الأساقفة القدّيسين الهاربين مع المسيح إلى مصر؛ وبواسطتهم رئيس أساقفة الإسكندريّة، ليكتب إلى ملك الحبشة وأساقفها ألاّ يهملوا أمر الحِمْيَريّين، بل أن ينجدوهم فورًا»[١٠]. وقد ذَكرت قصّة الشهيد الحارث النجرانيّ اليونانيّة الأصل، أنّ البطريرك الإسكندريّ المشار إليه هو طيمثاوس[١١]، وكان هو الآخر أرثوذكسيًّا يُعرف بطيمثاوس الثالث.

سابعًا – إهتمام الأرشميّ بالشهداء الحِمْيَريّين، وبإنقاذ البقيّة الباقية من المؤمنين هناك؛ كما ينجلي من المعروض الذي رفعه بواسطة الشريف أميّة إلى أوبروبيوس أسقف الأحباش وإلى ملكهم المؤمن كالب، ومن رسالتيه المذكورتين إلى شمعون السريانيّ رئيس دير الجَبُول في سوريّا الشماليّة سنة ٥٢٤ ومن كتابه في الحميريّين.

ثامنًا – مراسلة الملفان القدّيس مار يعقوب السروجيّ (+ ٥٢١) والقدّيس مار فيلوكسينوس المنبجيّ (+ ٥٢٣) الحِمْيَريّين المناضلين؛ لتعزيتهم في شدّتهم وتشجيعهم على الاستبسال والاستشهاد في سبيل الدين المبين، مزدرين المضطهِدين اليهود الغاشمين. وكانوا قد اتّصلوا بهما نحو سنة ٥١٩ قبل اتّصالهم بالأرشميّ[١٢].

(٩) ذكر مؤلّف **اللؤلؤ المنثور** ص ٢٥٢، أنّ مار شمعون كتب إلى شمعون رئيس دير الجبول: «ليتّصل بالأساقفة الأرثوذكسيّين ويحثّهم... على السعي لدى القيصر لإزالة الشدّة عن المسيحيّين في بلاد الحميريّين». ولكنّنا حين راجعنا هذه الرسالة المجملة في تاريخ زكريّا الفصيح وتاريخ مار ميخائيل الكبير، لم نجد فيها أثرًا لذكر القيصر. أمّا المطوّلة التي نشرها بيجان، فقد ذكرت قول مار شمعون الذي تحدّى به الأساقفة الخلقيدونيّين في بلاد الروم كما يلي: «فإذا كان الأساقفة مسيحيّين حقًّا، ويريدون بقاء المسيحيّة، وليسوا شركاء لليهود، ليلتمسوا من الملك (القيصر) وعظمائه لإلقاء القبض على رؤساء كهنة طبريّة (اليهود) وغيرها من المدن وطرحهم في السجن... ولكنّني أعلم أنّ ذهب (مال) اليهود سيسارع إلى إخفاء الحقّ...» (أخبار الشهداء والقدّيسين ١: ٣٩٦).

(١٠) **أخبار الشهداء والقدّيسين** ١: ٣٩٥.

(١١) تحقيق ناشر **كتاب الحميريّين** في مقدّمته الإنكليزيّة عليه.

(١٢) قلنا في ص ١٣٩ من العدد ١٣ من المجلّة البطريركيّة: إنّ مار يعقوب أنفذ رسالته سنة ٥٢١ ومار فيلوكسينوس سنة ٥٢٣ بدلاً من القول إنّ مار يعقوب (+ ٥٢١) ومار فيلوكسينوس (+ ٥٢٣) أنفذا رسالتيهما سنة ٥١٩.

تاسعًا – شخوص أفعو الشريف النجرانيّ الوثنيّ وسفير الملك، من نجران إلى الحيرة، بعد الاضطهاد، لمقابلة الأرشميّ الذي كان لا يزال هناك، وتنصّره واعتماده على يديه في الكنيسة الأرثوذكسيّة بالحيرة(١٣).

عاشرًا – كون كالب الحبشيّ أرثوذكسيًّا يقول بالطبيعة الواحدة(١٤). فلما قتَل مسروق اليهوديّ واستولى على بلاد الحميريّين، أنشأ فيها عدّة كنائس، وعيّن لها كهنة من الأحباش(١٥)، فجدّد بذلك نضارة النصرانيّة الأرثوذكسيّة في تلك البلاد.

حادي عشر – إهتمام الآباء الأرثوذكسيّين فقط بتدوين أخبار الشهداء الحِمْيَريّين، أخصّهم مار شمعون الأرشميّ وزكريّا الفصيح ويوحنّا الأفسسيّ. وعنهم نقل من ذكرهم من الغرباء(١٦).

ثاني عشر – نظم يوحنّا بسلطوس رئيس دير قِنّسرين (+ ٦٠٠) معنيثًا (نشيدًا كنسيًّا) بالسريانيّة، عنوانه «في الشهداء الحِمْيَريّين القدّيسين الذين استشهدوا في نجران في جنوبيّ بلاد العرب، في عهد يوسطينوس ملك الروم، حين كان مسروق اليهوديّ ملك العرب يضطهد مسيحيّي تلك البلاد ويضيّق عليهم ليكفروا بالمسيح». وقد ورد فيه «أنّ بلد الحِمْيَريّين الخارجيّ والبربريّ، إذ اتّقد بمخافة المسيح الإله، تطلّع فاقتدى بإيمان القبدوقيّين. إنّ سبسطية كمّلت بالشهادة أربعين شخصًا في جهاد واحد فقط، في بحيرة الماء إبّان البرد القارس. أمّا نجران ففاقتها خمسة أضعاف، مقدّمة أكثر من مئتي مجاهد، أوّلهم المعلّم الحارث. وقد جاهدوا في زماننا القريب». ثمّ يطلب إلى المسيح «بجاه صلواتهم» أن يصرف الشكوك والعثرات عن البيع، ويشجب ويدحض جميع الهرطقات، ويثبّت المؤمنين في الإيمان به، ويحصيهم بين مختاريه؛ وينجّيهم(١٧).

فيوحنّا بسلطوس سريانيّ أرثوذكسيّ لا غبار عليه، بل رئيس دير عرف بكونه منبتًا لملافنة البيعة ومعقلاً لعمالقة الأرثوذكسيّة. فلولا تأكّده من أرثوذكسيّة هؤلاء الشهداء الذين

(١٣) **كتاب الحميريّين السريانيّ** ص ٢٣.

(١٤) **الرسالة الثانية للأرشميّ**، والروم ج ١ ص ١٦٨ وكنيسة **مدينة الله أنطاكية العظمى** ج ١ ص ٣٩٠ للدكتور أسد رستم.

(١٥) **كتاب الحميريّين السريانيّ** ص ٥٦.

(١٦) راجع مقدّمة ناشر ومترجم **كتاب الحميريّين**.

(١٧) راجعه بين معانيث مار سويريوس الأنطاكي طبعة بروكس ص ٦١٣ و٦١٤.

تكلّلوا في عصره، لمّا نظم في حقّهم هذا النشيد، ولمّا سمّاهم «قدّيسين» وطلب شفاعتهم، وقال عن بلدهم «إنّه اتّقد بمخافة المسيح الإله واقتدى بشهداء سبسطية الأربعين». وكذلك القدّيس مار يعقوب الرهاويّ أشهر من نار على عَلم بأرثوذكسيّته. فلولا تثبُّته هو الآخر من أرثوذكسيّتهم، لما ضمّ هذا «المعنيث» إلى مجموعة معانيث البطريرك مار سويريوس الأنطاكيّ.

ثالث عشر – إثبات البيعة السريانيّة الأرثوذكسيّة اسم «الشهداء الحِمْيَريّين» في جريدة القدّيسين في ٣١ كانون الأوّل(١٨). وكان مار شمعون الأرشميّ قد اقترح في رسالته الأولى على شمعون رئيس دير الجَبُول، أن يتّصل بالمؤمنين الأرثوذكسيّين في أنطاكية وطرسوس قيليقية وقيسريّة قبدوقية والرّها وغيرها؛ ويحثّهم على عمل تذكار لهؤلاء الشهداء والشهيدات القدّيسين كما مرّ معنا.

أمّا الخلقيدونيّون فقد أقحموا اسم الشهيد الحارث في جريدة قدّيسيهم إقحامًا(١٩)!

نقض الآراء حول عقيدة الحِمْيَريّين

قال الأستاذ (الأب) يوسف درّة الحدّاد: «والمسيحيّة التي كانت شائعة في مكّة هي المونوفيسيّة السائدة في «اليمن» والحبشة؛ وفي دولة الغساسنة وفي مشارف الشام كلّها»(٢٠).

قلنا: إذا عنى ب «المونوفيسيّة» عقيدة القدّيس كيرلّس الإسكندريّ والمجمع المسكونيّ الثالث، القائلة بالطبيعة الواحدة المتجسّدة كما مرّ معنا، وارد. ولكن إذا عنى بها بدعة أوطيخا، القائلة بطبيعة واحدة إلهيّة فقط، مردود. أمّا قوله: إنّ هذه العقيدة كانت السائدة في «اليمن»، فيؤيّد ما ورد أعلاه عن عقيدة النصارى الحِمْيَريّين. ولكنّه ما عتّم أن نقض قوله هذا بقوله: «النصرانيّة السائدة في المدينة، هي المسيحيّة الشرقيّة، أي النسطوريّة... التي كانت سائدة في الحيرة من شمال، وفي «نجران» من جنوب «الحجاز».

(١٨) راجع **الكلندارات السريانيّة** طبعة الأب فرنسوا نو ١٩١٢.

(١٩) وممّا يدلّ على جهلهم أمر الحارث قولهم عنه في السواعيّ الكبير ٢٤ تشرين الأوّل تذكار القدّيس أريتا (الحارث) الشهيد العظيم ورفاقه في الاستشهاد. هؤلاء جاهدوا سنة ٥٤٢ في مدينة نجران من العربيّة السعيدة (اليمن) (طبعة ٥ سنة ١٩١٤ أورشليم ص ٢١٠). والصحيح سنة ٥٢٣ كما مرّ معنا.

(٢٠) **القرآن والكتاب** ١ ص ٩٨٦.

وكأنّي به يجهل أن تكون نجران إحدى حواضر اليمن. فإذا كانت المونوفيسيّة (كذا) هي السائدة في اليمن، فالأولى في نجران كما مرّ معنا. وإذا كانت النسطوريّة هي السائدة في نجران على حدّ قوله، فكيف تحسب كنيسته الرومانيّة، أسقفها الشهيد مار بولس، قدّيسًا، وتضمّ اسم ملكها أو زعيمها الشيخ الشهيد الحارث ورفاقه الشهداء الحِمْيَريّين إلى جريدة القدّيسين كقول الأب أنطون صالحاني اليسوعيّ[21] وكلّهم نساطرة؟! وأمّا قوله إنّ النسطوريّة كانت سائدة في الحيرة، فمردود، لأنّ الأرثوذكسيّة هي التي كانت سائدة فيها. بل لم يكن غيرها في الحيرة طوال عهد مار شمعون الأرشميّ كما سيأتي. ومن الغريب إطلاقه اسم المسيحيّة الشرقيّة على النسطوريّة، والمسيحيّة الغربيّة على السريانيّة الارثوذكسيّة؛ وهو يعلم حقّ العلم أنّ الكنيسة السريانيّة لم تنحصر في الغرب أي في الشرق الرومانيّ، كما انحصرت النسطوريّة في الشرق الفارسيّ؛ لكنّها رسخت في هذا الشرق أيضًا كما مرّ بنا. وربّما قصد الأستاذ الحدّاد أن يقول «السريان المشارقة» و«السريان المغاربة» وذلك بالنسبة إلى اللهجة السريانيّة التي تستعملها كلّ منهما.

قال: «وهذه المونوفيسيّة اليعقوبيّة الحبشيّة العربيّة البدائيّة هي التي أوهمت أنّ التثليث المسيحيّ في ذات الله الواحدة، هو الله والمسيح ومريم أمّه. ولم يتعبّد أحد من النصارى لمريم تعبّد الأحباش لها. وتبعهم المريميّون العرب... وهذه النصرانيّة العربيّة المكّيّة البدائيّة، كانت سبب حملات القرآن المدنيّ، بتأثير النسطوريّة المدنيّة، على التثليث المسيحيّ وعلى ألوهيّة السيّد المسيح وبنوّته لله كما أشاعتها اليعقوبيّة وسائر البدع المنحرفة في مكّة»[22].

قلنا: إنّ إطلاقه على الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة اسم «اليعقوبيّة» الدخيل، لدليل على تعصّبه الذميم. أمّا التهمة النكراء التي وجّهها إليها في ما يخصّ التثليث المسيحيّ، ففي منتهى الغرابة. ذلك أنّ عقيدة الكنيسة السريانيّة في التثليث والتوحيد لا تختلف قيد شعرة عن عقيدة المسيحيّة، بل هي عقيدة المسيحيّة بالذات. والحقّ أنّه لم يجرؤ أحد من خصومها حتّى الآن، ملكيًّا كان أم كاثوليكيًّا، أن يُلصق بها تهمة شنعاء كهذه، طاعنًا في صميم عقيدتها القويمة زورًا وبهتانًا. على أنّ من تأمّل اضطراب رأيه بعد هنيهة، أدرك قصر باعه في الأمور اللاهوتيّة التاريخيّة. ذلك أنّه بعد أن نسب هذه التهمة إلى الكنيسة السريانيّة بهذا الأسلوب العدائيّ البغيض، عاد فنسبها إلى الفطائريّين الذين ذكرهم القدّيس

(٢١) أنظر كتاب **«الشهداء الحميريّون»** نشره وحققه البطريرك يعقوب الثالث صفحة ١١.

(٢٢) **القرآن والكتاب** ص ٩٨٦ – ٩٨٧.

إبيفانيوس بقوله: «إنّهم كانوا يقدّمون للسيّدة أمّ المسيح قرابين، فطائر من عجين، فتُسمّوا باسم قرابينهم». وقال: «ولعلّ هؤلاء المبتدعة هم الذين سمّاهم ابن البطريق «المريميّة»؛ وذكر أنّهم يقولون: «إنّ المسيح وأمّه إلهان من دون الله». وقد وصفهم بذلك ابن تيمية في كتاب (الجواب الصحيح) ودعاهم «المريمانيّين» أو «المريمانيّة»[23]. وعليه نقول: إنّ الفطائريّين نشأوا قبل القرن الخامس الذي انشطرت الكنيسة في أواسطه إلى القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتين للمسيح بعد الاتّحاد. ذلك أنّ القدّيس إبيفانيوس الذي كتب عنهم، كان أسقفًا لقبرص من سنة ٣٦٧ حتّى سنة ٤٠٣. فإذا كانوا هم القائلين «إنّ المسيح وأمّه إلهان من دون الله»، فهل من الإنصاف أن يصم الأستاذ الحدّاد ببدعتهم الشنعاء، القائلين بالطبيعة الواحدة؟ أمّا قوله: «ولم يتعبّد أحد من النصارى لمريم تعبُّد الأحباش لها، وتبعهم بذلك المريميّون العرب» فمردود. ذلك أنّ تنصّر الأحباش إنّما تمّ في الربع الثاني من القرن الرابع يوم كانت شيعة الفطائريّين أو المريميّة المذكورة، نامية. فكيف يكونون هم مستنبطي هذه البدعة الباطلة؟ والحقيقة، أنّ التعبّد لمريم ليس للأحباش بل للكنيسة الكاثوليكيّة. ففيها ترى «عبادة مريم»، «الشهر المريميّ»، «الجيش المريميّ» «الثالوث المريميّ» الذي يشمل المسيح ومريم ومار يوسف، «الحبل بمريم بلا دنس» وغير ذلك ممّا لا أثر له لدى الأحباش. فالأحباش كغيرهم من الأرثوذكسيّين، يحترمون في عبادتهم العذراء مريم والدة الإله، ويجلّونها، ويكرّمونها، ويقرّظون فضائلها ومناقبها، ويكبّرون منزلتها، ويطلبون شفاعتها ولكنّهم لا يتعبّدون لها كأنّها إلهة.

قال: «ومن تلك الفرق، مقالة تنكر صلب المسيح: كيف يصلب الإله»[24]؟

قلنا: لم يظهر في المسيحيّة قطّ من أنكر صلب المسيح، بل «صلب الإله». فنسطور هو أوّل من أنكر ذلك فحرمه المجمع المسكونيّ الثالث سنة ٤٣١ فتبنّى رأيه لاون الأوّل الرومانيّ فأقرّه مجمع خلقيدون سنة ٤٥١ كما مرّ معنا. فإذا وجدت في الحجاز فرقة تنكر صلب الإله، فهي نسطوريّة ليس إلاّ.

قال: «وهكذا لم تصل إلى الحجاز، ومكّة والمدينة، سوى الشيع المسيحيّة المتطرّفة والمنحرفة التي لم تجد لها مكانًا في بلاد الروم، لأنّها لا تدين بدين الدولة»[25].

(٢٣) **القرآن والكتاب** ص ٩٨٨.

(٢٤) **القرآن والكتاب** ص ٩٨٨.

(٢٥) **القرآن والكتاب** ص ٩٨٩.

قلنا: لقد مرّ معنا أنّ المسيحيّة منذ صدرها، وصلت إلى الحجاز وإلى جنوبيّ بلاد العرب، أي قبل انقسامها المرير بأربعمئة سنة؛ وذلك بواسطة بعض الرسل والمبشّرين. ولم يكن هؤلاء من الذين لم يجدوا لهم مكاناً في بلاد الروم، لأنّهم لم يدينوا بدين الدولة كما وهم الأستاذ الحدّاد. إنّ الذين لم يجدوا لهم مكاناً في بلاد الروم، هم النساطرة وحدهم الذين لجأوا إلى المملكة الفارسيّة سنة ٤٨٠. أمّا القائلون بالطبيعة الواحدة الذين في بلاد الروم، فاستطاعوا أن يقلبوا الأوضاع رأساً على عقب، حتّى أصبحت عقيدتهم، عقيدة الدولة الرسميّة من سنة ٤٧٦ حتّى سنة ٥١٨ كما أسلفنا. وفي تلك الحقبة التي دامت اثنتين وأربعين سنة، تمكّن الرعاة الصالحون من التغلغل في جميع البلاد، لا لأنّهم لم يجدوا لهم مكاناً في بلاد الروم — لأنّهم لا يدينون بدين الدولة — بل بمؤازرة الدولة نفسها التي كانوا يدينون بدينها.

أجل، في تلك الحقبة، راسل مار فيلوكسينوس المنبجيّ ومار يعقوب السروجيّ المؤمنين الذين في بلاد الفرس، وفيها راسل مار فيلوكسينوس المومأ إليه أبا عفر الحاكم العسكريّ في حيرة النعمان، ورسم لنجران مار بولس أسقفها الأوّل ومار توما أسقفها الثاني، وفيها راسل البطريرك مار سويريوس الكبير القسوس ورؤساء الأديار يوناثان وصموئيل ويوحنّا العموديّين، وسائر الأرثوذكسيّين في كنيسة مدينة الأنبار (قاعدة اللخميّين قبل الحيرة) وكنيسة حيرة النعمان. ومَن من علماء البيعة زمانئذٍ، كان يضاهي فيلوكسينوس وسويريوس والسروجيّ علماً وحكمة وتعمّقاً في معرفة دقائق أسرار الدين المسيحيّ المبين؟ هذا فضلاً عن جهاد مار شمعون الأرشميّ «المجادل الفارسيّ» الآنف الذكر في بلاد الفرس وفي مدينة حيرة النعمان[٢٦].

(٢٦) أنظر كتاب «**الشهيداء الحميريّون**» نشره وحقّقه البطريرك يعقوب الثالث صفحة ١١.

الشهداء الحِميَريّون في نجران (١)

شنّ الملك مَسروق أو ذو نواس الذي تهوّد وتملّك على بلاد حِمْيَر والنجرانيّين عام ٥٤٣م اضطهاداً عنيفاً على المسيحيّين هناك وفتك ببضعة آلاف منهم، إذ «خدّ لهم الأخدود، وحرق بالنار، وقتل بالسيف، ومثّل بهم كلّ مثلة».

لقد روى لنا التاريخ الكنسيّ، أنّه حالما تملّك هذا اليهوديّ المنافق ذو نواس، كتب إلى حضرَمَوت وسَبَأ وحَزْبَة وديار يَدِن وتِيْمْنة ونجران وغيرها من البلاد الخاضعة لسلطانه، وتوجّه إلى ظَفار عاصمة الحِمْيَريّين، وحارب الأحباش الذين كانوا فيها في الكنيسة التي أنشأها ثمّ الأحباش. وإذ رأى أنّه لن يقوى عليهم بالحرب، أوفد إليهم كاهناً لاويّاً من طبريّة وشخصاً من نجران اسمه عبد الله بن ملك، وكان مسيحيّاً اسماً فقط، وشخصاً آخر من حيرة النعمان اسمه كَوْنَب بن موهوبة، وكان هو الآخر مسيحيّاً اسماً وحمّلهم رسائل الإيمان إلى الأحباش، بأنّه لن ينالهم أذًى إذا هم خرجوا إليه تلقائيّاً، وسلّموا مدينة ظفار، واعداً بإرساله إيّاهم أحياء إلى ملك الأحباش.

فلمّا تسلّموا رسائل الإيمان خرجوا إليه وكانوا ثلاثمائة رجل، مع رئيس قسوس الأحباش واسمه أبابوت، رحّب بهم اليهوديّ بوجه باشّ، ثمّ فرّقهم على عظمائه ليقتل كلّ منهم الحبشيّ الذي في حوزته وفي تلك الليلة قتل الجميع. وفي الصباح وجدت أشلاؤهم مكوّمة بعضها فوق بعض.

وأوفد للحال رسلاً صحبة كهنة اليهود إلى البلاد الخاضعة لسلطانه لقتل المسيحيّين حيثما وجدوا، أللّهمّ إلاّ إذا كفروا بالمسيح وتهوّدوا. وأمر بأن يُحرق هو وبيته كلّ من يخفي مسيحيّاً وأن يُصادَر كلّ ماله. فقتل أوّلاً في حضرمَوْت القدّيس القسّيس مار إيليّا الذي كان قد تَهذّب في دير مار إبراهيم في تِلاّ او تلّ موزلت المجاورة لمدينة الرقّة، وقد رسمه قسّيساً مار يوحنّا أسقف تلاّ، وتكلّلت معه أمّه وأخوها أيضاً، والقسّيس مار توما الذي كانت يسراه قد بُترت بالاعتراف من أجل المسيح وكان قد تهذّب في دير مار أنطيوخينا

في مدينة الرها، وتكلّل معهم القسّيس مار وائل وقسّيس آخر هو مار توما كان من مدينة نجران، وكان يقيم في حضرموت.

وبعث الملك قوّاده الثلاثة على رأس جنودهم، إلى مدينة نجران ليحاربوا أهلها. فبارزهم النجرانيّون بعدد ضئيل وطاردوهم بقوّة المسيح. وقتلوا منهم عددًا وافرًا، وعادوا إلى نجران دون أن ينال أحدٌ منهم أذًى، فأعاد الكرّة، فقتل النجرانيّون في هذه المرّة أيضًا عددًا كبيرًا منهم. وأخيرًا جاءهم الملك بنفسه بمئة وعشرين ألفًا من الجند، وطوّق نجران أيامًا كثيرة. ولمّا عجز عن فتحها بالحرب، أوفد إليهم كهنة اليهود الذين من طبريّة، حاملين توارة موسى وكتاب الإيمان مختومًا بختم هذا الملك اليهوديّ حالفًا لهم بالتوراة وبلوحَي موسى وتابوت العهد وإله إبراهيم وإسحق ويعقوب، بأنّه لن ينالهم أذىً إذا هم أسلموا المدينة طوعًا وخرجوا إليه. فوثق النجرانيّون بالأيمان وخرج إليه نحو ثلاثمائة شخص من الأشراف. فرحّب بهم ببشاشة وتودّد، وكرّر لهم شفويًّا الأيمان المكتوبة بأنّه لن ينالهم أذىً، ولن يكفّرهم بمسيحهم ولن يضيّق على أحد بسبب المسيحيّة. وتناولوا الطعام أمامه. وأمرهم أن يُخرجوا إليه في اليوم التالي ألف شخص ويتناولوا الطعام أمامه. فلمّا فعلوا، أمر ففرّقوا على عظائمه خمسين خمسين لكلّ منهم، وأمرهم سرًّا أن يحتفظ كلّ منهم بالأشخاص الذين يصلُون إليه، حتّى إذا انتهوا من تناول الطعام، كُبّلوا بأيديهم وأرجلهم، وجُرّدوا من سلاحهم. ولمّا فعلوا هذا واطمأنّ بالهم من أنّ أشرافهم قد كُبّلوا جميعًا، أرسل الملك حالاً يهودًا ووثنيّين، وقبضوا على المسيحيّين الذين في المدينة ليُروهم عظام الشهداء. فجمعوا عظام الشهداء كلّهم وعظام الأسقف مار بولس الذي رُسِمَ أوّل أسقف لمدينة نجران من القدّيس فيلوكسينوس المنبجيّ. وكان مار بولس هذا قد نال إكليل الشهادة بواسطة يهود طبريّة رجمًا بالحجارة مثل الشهيد إسطيفانس في ظَفار عاصمة المملكة، والآن أحرقوا بالنار أيضًا عظامه. ومع عظام مار بولس، أدخل اليهود إلى الكنيسة جميع عظامهم وكوّموها بعضها فوق بعض في وسط الكنيسة، ثمّ أدخلوا القسوس والشمامسة والأفودياقون والقرّاء والنذراء والنذيرات والشبّان والشابّات، وملأوا الكنيسة كلّها من أوّلها إلى آخرها، بلغ عددهم الألفين على ما نقل لنا الذين وفدوا من نجران. ثمّ جاؤوا بالحطب ووضعوه حول الكنيسة، ثمّ أضرموا فيه النار وأحرقت الكنيسة ومن وجد فيها جميعًا.

شهيدات نجرانيّات:

١ - أليشبع

أمّا النساء الأخريات اللواتي لم يقبض عليهنّ مع رفيقاتهنّ، فلمّا شاهدن احتراق الكنيسة والكهنة والنذراء بالنار، سارعن إلى الكنيسة مناديات بعضهنّ بعضًا قائلات: هيّا بنا أيّتها الرصينات لنتمتّع برائحة الكهنة. فكنّ من ثمّ يدخلن النار ويحترقن.

وأمّا أخت القدّيس مار بولس الأسقف الشهيد، واسمها أليشبع، وكانت شمّاسة، فكان بعض المسيحيّين قد أخفوها قسرًا في أحد البيوت، فلمّا علمت باحتراق الكنيسة والنذراء وعظام أخيها بالنار، سارعت إلى الكنيسة مردّدة بصوت عالٍ قائلة: «ها إنّني معك يا أخي أمضي إلى المسيح حتّى دخلت فناءها. فلمّا عاينها اليهود في الفناء، ظنّوا أنّها قهرت النار وخرجت من الكنيسة. فقالت لهم كلاّ، لم أخرج من الداخل بل جئت من الخارج لأدخل وأحترق مع عظام أخي ورفاقه الكهنة. كيف لي وأنا أشتهي أن أحترق مع عظام أخي في نفس الكنيسة التي خدمتُ فيها. وكانت في السابعة والأربعين من عمرها.

فقبض اليهود عليها وجاءوا بحبال رفيعة، وعكفوا رأسها وركبتيها كالجمل، ثمّ ذراعيها، ولفّوا عليها الحبال ووضعوا تحتها أوتادًا خشبيّة وفتلوها بشدّة قصوى حتّى غرزت الحبال في جسمها. وهكذا فعلوا بصدرها وصدغيها، وعملوا شبه إكليل من الطين ووضعوه على رأسها مستهزئين قائلين: اقبلي إكليلك يا شمّاسة ابن النجّارين. ثمّ عملوا من الطين شبه قصعة، وغلوا زيتًا في مِقلاة وسكبوه على رأسها وهو يغلي. ولمّا احترق رأسها كلّه قال لها اليهود: قد يمكن أن يكون باردًا عليك، أتريدين أن نغليه ثانية؟ أمّا المغبوطة فإذ تعذّر عليها الكلام من شدّة الضيق، أومأت إليهم وقالت بصوت خافت أريد المزيد. ثمّ أخذوها إلى خارج المدينة وفيها رمق من الحياة، وعرّوها من ثيابها، وربطوا حبالاً برجليها، وجاءوا بجمل من الإبل الصعاب، وأخذوها إلى البرّيّة حيث ربطوا الحبال بالجمل، وعلّقوا به أجراسًا خشبيّة ليدقّ بعضها بعضًا فيثور الجمل، ثمّ تركوا الجمل في البرّيّة، فخطفها بحدّة. وعلى هذا النمط تكلّلت الطوباويّة أليشبع.

وقد روى الوافدون من نجران، أنّ ثلاثة شبّان من عشيرة الطوباويّة جازفوا بأنفسهم وتدلّوا من السور بالحبال في الليلة نفسها، وترسّموا خُطى سَحْب الطوباويّة، وساروا الليلة

كلّها. ونحو الساعة التاسعة من النهار وجدوا الطوباويّة عند جذع شجرة قديمة، اتّفق أن علقت به الحبال المربوطة برجلي الطوباويّة فتوقّف الجمل من حدّته، بل التفّت الحبال حول عنقه، فوجد مخنوقًا. وهناك اختبأ اثنان منهم. أمّا الثالث فعاد إلى المدينة واستطاع أن يدخلها من المنزل الذي يخرج منه ماء المدينة في الشتاء، وكشف هذا السرّ لأهل عشيرته الذين كانوا متخفّين في المدينة نفسها. ثمّ أخذ وشخص آخر كتّانًا نقيًّا وبخورًا وكلّ ما يلزم للتحنيط، وخبزًا وخمرًا وماء ومعولاً، وتدلّيا بالحبال من السور، ومضيا إلى رفيقيهما، حيث لفّوا المغبوطة بالكتّان والبخور، وحفروا في بقعة معروفة، وضعوا عليها علامة فارقة، دفنوا فيها المغبوطة، بحيث لا يعرف مكانها إلاّ الذين دفنوها فيه. ثمّ عادوا إلى المدينة بفرح عظيم، وقليلون شعروا بهذا السرّ.

٢ – تهنة الشهيدة وابنتها:

سيّدة أخرى اسمها تَهْنَة، لمّا سمعت باحتراق الكنيسة، أمسكت بيمينها ابنة لها اسمها أُمَّة، وكانت نذيرة، وشخصتا إليها لتحترقا. فلمّا شاهدتهما أَمَتُها واسمها حُذَيَّة، سألتها قائلة: إلى أين أنت ذاهبة يا سيّدتي؟ فها إنّ الكنيسة والنذراء يحترقون جميعًا بالنار. فأجابتها سيّدتها قائلة: أنا وابنتي هذه النذيرة أيضًا ذاهبتان لنحترق.

فقالت لها أمتها: أقسم عليك يا سيّدتي بالمسيح لتصطحبيني كي أتمتّع أنا أيضًا برائحة الكهنة. فأمسكتها هي الأخرى بيدها. وهكذا دخلت ثلاثتهنّ الكنيسة. واحترقن مع الكهنة.

أمّا ابنة هذه المغبوطة الثانية والشابّة، واسمها حُذَيَّة، فلم تدخل الكنيسة صحبة أمّها وأختها، لكنّها لبثت في البيت. فلحقها اليهود وأضرموا نارًا في البيت وطرحوها في النار. ولمّا احترقت قليلاً أخرجوها من النار، ثمّ أضرموا النار ثانية، وطرحوها فيها، ثمّ أخرجوها، ثمّ أضرموا النار ثالثة وطرحوها فيها، وعلى هذا النمط تكلّلت المغبوطة.

٣ – الشهيد الشيخ الحارث بن كعب:

وفي اليوم نفسه، بعد احتراق الكنيسة وكلّ من فيها، جاء الملك بجميع الأعيان والأشراف الذين وقفوا أمامه مكبّلين. فسألهم: لماذا قصدتم أن تتمرّدوا عليّ ولم تسلّموا إليّ المدينة، لكنّكم اتّكلتم على ذلك الساحر المضلّ ابن الفجور وعلى هذا الشيخ الأخرق الحارث بن كعب الذي صُيِّر لكم رئيسًا؟

إنّ المنافق الملك اليهوديّ، عرّى الشريف الحارث بن كعب وقال له تطلّع ها إنّك واقف عريانًا أمام هؤلاء الذين كانوا يعتبرونك رئيسًا لكي تخجل أمامهم في شيخوختك.

فأجابه الحارث: بالحقيقة لو تراءى لك اللباس الذي أنا مرتديه الآن لما قلت هذا الكلام. فإذ لا يتراءى لك ذلك، قد خلتني واقفًا عريانًا. أقول لك الحقّ، إنّه الآن قد عظمت نفسي في عينيّ، ولا أخجل بعُري جسمي. ذلك أنّ المسيح يعرف أنّني خير منك باطنًا وظاهرًا وأطول وأوفر صحّة منك، كما أنّ جسمي أقوى من جسمك، وذراعي من ذراعك ولا يحمل ظهري أثرًا للسهم أو للرمح أو للسيف، بل إنّما ذلك في صدري، لأنّني لم أُعطِ قطّ في الحرب ظهرًا كهارب، وقد انتصرت بقوّة المسيح في حروبٍ كثيرة بل أنا قتلت في الحرب أخا الجالس الآن عن يمينك وهو ابن عمّك.

فقال له الملك: لقد اتّكلت إذن على هذا وتمرّدت عليّ؟ فإنّني أشير عليك، ضنًّا بشيخوختك، أن تكفر بالمسيح المضلّ وبصليبه، فتحيا وإلاّ متَّ شرَّ ميتة أنت ورفاقك وكلّ من لا يكفر بالمسيح وبالصليب.

فقال له الشيخ: تذكّر إيمانك بإله إبراهيم وإسحق ويعقوب، وبتوراتك وتابوت العهد.

قال الملك دع هذه جانبًا واكفر بالمسيح والصليب.

أجابه الشيخ: حقًّا إنّي متألّم أكثر من جميع المسيحيّين رفاقي الذين كانوا معي في المدينة، لأنّي قلت لهم ولم يسمعوا لي. فقد كنت متأهّبًا لمنازلتك في الحرب من أجل شعب المسيح، فإمّا قتلتني أو قتلتك. وكنت واثقًا بالمسيح بأنّني أظفر بك. بيد أنّ رفاقي لم يدعوني أفعل هذا فنويت إذ ذاك أن آخذ بني عشيرتي وعبيدي وحدهم وأخرج لمنازلتك، فأوصد المسيحيّون رفاقي الأبواب ولم يفسحوا لي في الخروج فقلت لهم أن يحتفظوا بالمدينة وألاّ يفتحوا لك الأبواب، وكنت واثقًا بالمسيح بأنّ المدينة لن تُفتحَ إذ لم يكن يعوزها شيء. وبهذا أيضًا لم يسمع لي رفاقي. ولمّا أرسلتَ إليهم كلمة القَسَم، نصحتُهم ألاّ يصدّقوك، بل قلت لهم إنّك كذّاب وليس فيك حقّ. ولم يرضَ رفاقي أن يسمعوا لي. والآن تعرض عليّ في شيخوختي الكفر بالمسيح إلهي والتهوّد مثلك؟ وقد لا أعيش ساعة واحدة أو يومًا واحدًا بعد كفري. أفتريد أن تجعلني في شيخوختي غريبًا عن المسيح ربّي؟ بالحقيقة، إنّك لم تتكلّم كملك ولم تفعل كملك، لأنّ الملك الذي يكذب ليس ملكًا، فقد رأيت ملوكًا كثيرين ولكنّني لم أرَ ملوكًا يكذبون. أمّا أنا فلي

سلطان على نفسي، وبسلطاني هذا لا أكذب تجاه المسيح. حاشا لي أن أكفر بالمسيح الإله الذي به آمنت منذ صباي واعتمدت باسمه، بل أسجد لصليبه وأموت من أجله. حقًّا إنّني مغتبط إذ أهّلني المسيح في شيخوختي أن أموت من أجله. الآن علمت أنّه يُحبّني، إذ عشت طويلاً في هذا العالم بنعمته، بل عشت جيّدًا ولم يُعوزني شيء. وقد أكثر لي المسيح ربّي في هذا العالم بنين وأحفادًا وعشيرة، وبقوّته انتصرت في حروب كثيرة، وفي هذا سأنتصر أيضًا بقوّة الصليب. وإنّني واثق من أنّ ذكري سوف لا ينقطع من هذه المدينة ومن عشيرتي. الآن علمت حقًّا أنّني لن أموت إلى الأبد. وكما أنّ الكرم إذا ما كُسِحَ أعطى أثمارًا كثيرة، هكذا إنّي على ثقة بأنّ شعبنا المسيحيّ سيتكاثر في هذه المدينة فلا تفتخرنّ كأنّكَ أتيت أمرًا إدًّا. فإنّي أقول لك: إنّ هذه المدينة سوف تتّسع، بالمسيحيّة ستتسلّط وتتملّك وتأمر الملوك. أمّا ديانتك اليهوديّة فستنطفئ، وأمّا ملكك فسيزول وسلطانك فسيحول.

ولمّا قال هذا، الشيخ الجليل الشريف، التفت إلى ورائه، وقال بصوت عالٍ للمؤمنين الذين حوله: أسمعتم يا إخوتي ما قلته لهذا اليهوديّ؟ فصرخوا جميعًا قائلين: لقد سمعنا كلّ ما قلته يا أبانا. فسألهم: أحقٌّ هو أم لا؟ فصرخوا كلّهم قائلين: إنّه حقّ. ثمّ رفع صوته وقال لهم: ماذا تَرون؟ أبينكم من يخاف السيف ويكفر بالمسيح، إذن فلينفصل من بيننا. فصرخوا جميعًا قائلين: حاشا لنا أن نكفر بالمسيح. تشجّع يا أبانا ولا تتألّم بهذا، فإنّنا جميعًا مثلك بل ومعك نموت من أجل المسيح ولن يبقى من بعدك أحد منّا في الحياة. ونادى أيضًا قائلاً: أيّها المسيحيّون والوثنيّون واليهود اسمعوا. إذا كفر أحد بالمسيح وعاش مع هذا اليهوديّ سواء أكانت زوجتي أم من أبنائي وبناتي أم من جنسي وعشيرتي، فالكفر به أولى، فإنّه ليس من جنسي ولا من عشيرتي، وليست لي أيّة شركة معه، وليكن كلّ ما أملكه للكنيسة التي ستبنى بعدنا في هذه المدينة. وإذا عاشت زوجتي أو أحد أبنائي وبناتي بأيّة وسيلة كانت، ولم يكفروا بالمسيح فليكن كلّ ما أملكه لهم: ولتخصّص ثلاث قُرًى من ملكي تختارها الكنيسة نفسها.

ولمّا قال الشيخ هذا أمام الشعب كلّه، التفت إلى الملك وقال له: ها إنّك قد سمعت هذا كلّه، فلا تسألنا شيئًا آخر بهذا الصدد. حاشا لنا أن نكفر بالمسيح ربّنا وإلهنا. فالآن لا مانع من جهتنا أن نموت من أجل المسيح. إنّه لوقت الحياة الأبديّة. كفرًا بكلّ من يكفر بالمسيح. كفرًا بكلّ من لا يعترف بأنّ المسيح هو الإله وابن الإله. كفرًا لكلّ من لا يعترف

بصليب المسيح. كفرًا بك وبكلّ من يذعن لك ولليهود رفاقك. ها إنّنا واقفون أمامك، فافعل بنا مهما شئت أن تفعل. بالحقيقة أقول لك: أنا كنتُ أتقدّم رفاقي فأشرب الكأس الأولى في الولائم فامزج لي الآن أيضًا في المقدّمة كأس الموت هذه من أجل المسيح. ها إنّني أسِمُ نفسي وجميع رفاقي كعادتنا بسمة الصليب الحيّة، باسم الآب والابن والروح القدس. فصرخوا جميعًا قائلين: آمين فآمين. ثمّ رسموا على أنفسهم علامة الصليب وصرخوا قائلين: كفرًا بكلّ من يكفر بالمسيح. تشجّع يا أبانا ولا تجزع. ها إنّ ابراهيم رئيس الآباء ينتظرك وإيّانا معك. كفرًا بكلّ من يكفر بالمسيح ويبقى بعدك.

فلمّا رأى الملك أن لا سبيل لكفرهم بالمسيح، أمر أن يساقوا إلى الوادي حيث تحزّ رؤوسهم وتلقى أشلاؤهم. ولمّا بلغوا الوادي، وقفوا جميعهم معًا وبسطوا أيديهم إلى السماء وقالوا: أيّها المسيح إلهنا، هلمّ إلى معونتنا وقوّنا وتقبّل نفوسنا. ليطب لك دم عبيدك الذي يسفك من أجلك، وأهّلنا لمشاهدتك. ها إنّنا قد اعترفنا بك كما علّمتنا، فاعترف بنا أنت أيضًا قدّام أبيك بحسب وعدك. وابنِ هذه الكنيسة التي أحرقها اليوم هذا اليهوديّ وأقم أسقفًا بهذه المدينة بدلاً من القدّيس ماربولس الذي أحرق اليوم عظامه هذا اليهوديّ. ثمّ نادوا جميعًا قائلين: لنعط السلام بعضنا البعض. وبعد أن عانقوا بعضهم بعضًا، بسط الشيخ يده إليهم وصرخ قائلاً: سلام المسيح الذي أعطي للّص في الصليب، ليكن معنا أيّها الإخوة. ثمّ بادر رجال أقوياء من رفاق الشيخ، وأخذوا يساندونه ويقدّمونه إلى القتلة كرئيس للمتكأ، وهم فرحون، قائلين: أيّها المسيح تقبّل أبانا وتَقَبّلْنا معه، لأنّنا إنّما من أجلك نُقْتَل. وجثا الشيخ على ركبتَيه، وقد أمسك به رفاقه يسندون يديه كموسى النبيّ في قمّة الجبل، فضربه القاتل وحزّ رأسه. فسارع رفاقه وأخذوا من دمه ومسحوا به وجوههم وأجسامهم كبركة، ثمّ بادر كلّ منهم إلى حيث رأى سيفًا مسلولاً وجثا على ركبتيه واقتبل السيف، حتّى استشهدوا جميعًا.

يا له من موقف لهؤلاء الشهداء النجرانيّين العرب، ولشدّة هذا الاضطهاد وقساوته انطبع في أذهان الشيوخ والأحفاد حتّى ورد ذكره في القرآن في سورة البروج التي تؤرّخ لهؤلاء الشهداء العرب بقوله: «والسماءِ ذاتِ البروج. واليومِ الموعود. وشاهدٍ ومشهود. قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ. النارِ ذاتِ الوقودِ. إذ هم عليها قعود. وهمْ على ما يَفعلون بالمؤمنين شهودٌ. وما نَقَمُوا منهمْ إلاّ أن يؤمِنُوا باللّه العزيز الحميد. الذي لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ واللّه على كلّ شيء شهيد...».

وبعد استشهاد الشيخ حارث بن كعب ورفاقه، التفت الملك إلى النساء وقال لهنّ: لقد عاينتنّ بأعينكنّ أنّ أزواجكنّ قد قُتلوا جميعًا لأنّهم أبَوا الكفر بالمسيح والصليب، ولأنّهم جدّفوا قائلين: إنّ المسيح هو الإله وابن أدونا فأشفقن أنتنّ الآن على أنفسكنّ وبنيكنّ واكفرن بالمسيح وبالصليب فتصبحن يهوديّات مثلنا وتَحيَيْنَ، وإلاّ تمتن موتًا. فأجبنه قائلات: إنّ المسيح هو الإله وابن الرحمان، وبه نؤمن وله نسجد ومن أجلهِ نموت وحاشا أن نكفر به أو أن نعيش بعد أزواجنا، لكنّنا نظيرهم ومعهم نموت من أجل المسيح.

أمّا النساء النذيرات والراهبات اللواتي لم يحترقن في الكنيسة مع رفيقاتهنّ، فقلن للشابّات (المتزوّجات): إنّه يجب أن نُقتَلَ نحن أوّلاً. وأمّا الشابّات فقلن لهنّ كلاّ بل علينا نحن بالذات أن نُقتَلَ بعد أزواجنا. فأمر الملك اليهوديّ أن يأخذوهنّ إلى الوادي ليُقتَلْن هناك. فكنّ يركضن ويزحمن بعضهنّ بعضًا، وكلٌّ منهنّ تريد أن تموت أوّلاً.

أمّا الملك المنافق وعظماؤه فكانوا يسخرون منهنّ وهم يرونهنّ يتسابقنَ على ذلك. هكذا تكلّلن جميعًا بالسيف يوم الأربعاء في تشرين الثاني عام **٥٢٣**م. وكانت إحداهنّ رُوهُوم بنت أزمَع من عشيرة تدعى جُو، وهي نسيبة الشريف الحارث بن كعب فمن أجل عظمتها وعشيرتها وجمالها، أمر الملك ألاّ تقتل، ظنًّا منه أنّه يستطيع أن يُغريها لتكفر بالمسيح الصليب فرجعت إلى المدينة كئيبة لأنّها لم تمت.

ثمّ أمر فأتوا بالإماء وقال لهنّ أيضًا: لقد رأيتنّ أنّ أسيادكنّ وسيّداتكنّ وأنسباءكنّ قد ماتوا شرّ ميتة لأنّهم أبَوا الكفر بالمسيح والصليب فأشفقن أنتنّ الآن على أنفسكنّ واسمعن لي واكفرن بالمسيح وبالصليب، فتصبحن شريفات (حرّات) وأزوّجكنّ من رجال أشراف. فأجبنه قائلات: حاشا لنا أن نكفر بالمسيح وبالصليب، وحاشا لنا أن نبقى في الحياة بعد أسيادنا ورفاقنا. إنّنا لنموتنّ معهم ومثلهم من أجل المسيح. وحاشا لنا أن نسلّم لك أو نذعن لكلامك. فلمّا رأى الملك أنهنّ أبين أن يكفرن، أمر أن يذهبوا بهنّ إلى الوادي وهناك يُقتلن ففعلوا هكذا بهنّ، فتكلّلن جميعًا بالسيف.

٤ – الشهيدة مانحة:

وفي نفس اليوم الذي قُتِلَتْ فيه الإماء، كانت هنالك أمَةٌ للشريف الحارث بن كعب تسمّى مانحة، وكانت شرّيرة في حياتها ووقحة وسبّابة، حتّى إنّها من جرّاء شرّها كانت منبوذة من الجميع. وكانت جريئة في كلّ أعمالها، بحيث خافها أسيادها أنفسهم بسبب

شرّها. كانت هذه مختبئة في أحد البيوت فلمّا بلغها مقتل أسيادها وعشيرتها ورفاقها هرولت إلى الشارع، وائتزرت كالرجال، وأخذت تركض في شوارع المدينة منادية قائلة: أيّها الرجال والنساء المسيحيّون، إنّه لَوَقتُ أن توفوا فيه للمسيح ما أنتم مدينون به له. فاخرجوا وموتوا من أجل المسيح كما مات هو من أجلكم. فمن لا يخرج اليوم إلى المسيح، فليس هو له. ومن لا يستجيب اليوم للمسيح ربّكم، فغدًا يُغلق الباب ولن تدخلوا إليه. إنّني أعلم أنّكم تبغضونني. لا والمسيح، لن أشتمكم بعد. تطلّعوا إليّ وانظروا، فإنّه ليس حولي شرّ ولا خلفي. أخرجوا لئلاّ أمضي وحدي فيهرب منّي اليهود كعادتهم ولا يقتلوني. وهذا كان صراخها حتّى مثلت أمام الملك.

فلمّا رآها اليهود الذين كانوا يعرفونها، قالوا لمليكهم: هوذا شيطان المسيحيّين، فليس هناك شيطان إلاّ ويسكن في هذه.

أمّا هي فقالت للملك: لك أقول أيّها اليهوديّ الذابح المسيحيّين قم واذبحني أيضًا لأنّي مسيحيّة: إنّني أمة الحارث بن كعب الذي قتلته قبل اليوم. لا تظن أنّك قد غلبتَ سيّدي، بل سيّدي هو الذي غلَبَك. أجل، إنّك غُلِبتَ لأنّك سيّدي، بل سيّدي هو الذي غلَبَك. أجل، إنّك غُلبتَ لأنّك كذبت بإلهك. أمّا سيّدي فقد غلَبَ إذ لم يكذِب ويكفر بالمسيح. إنّني أقول لك، إنّك لو جئت بجيش على سيّدي، وأمرني، لخرجت بالرمح والسيف، لركلتك برجلي. نعم، لو شاء سيّدي لمعسك كالذباب.

فأمر الملك فعرّوها من ثيابها.

فقالت للملك: إنّك فعلت هذا لخزيك ولخزي جميع اليهود رفاقك. أمّا أنا فلا أستحي بهذا، إذ كنت قد أتيت هذا مرّات عديدة من تلقاء نفسي. وكنت قد تعرّيت أمام الرجال والنساء معًا، ولم أخجل، لأنّني امرأة، كما خلقني الله.

وأمر الملك فجاؤوا بثور وحمار، ثمّ ربطوا برجليها حبالاً، وربطوا الرِجْل الواحدة بالثور والأخرى بالحمار، ثمّ تناول بنو اليهود عِصيًّا، وأخذوا يضربون بها الثور والحمار معًا. وعلى هذا النمط طافوا بها ثلاثًا شوارع المدينة حتّى أسلمت روحها بالشهادة من أجل المسيح. وفي نهاية المطاف جاءوا بها مقابل باب المدينة الشماليّ تجاه قصر سيّدها الحارث، حيث كانت شجرة ضخمة تدعى «أنالة» وعلّقوها بها منكّسة الرأس حتّى المساء. كان اليهود يرشقونها بالحجارة والسهام. وفي المساء أنزلوها عن الشجرة وسحلوها ثمّ طرحوها في الوادي.

يا لروعة هذا الموقف لهذه المرأة التي تذكّرنا بموقف مريم المجدليّة التي أخرج منها الربّ سبعة شياطين، تعود لتوبّخ الملك الشرّير باسم المسيح وتبشّر به أمام جلاّديها بكلّ شجاعة وقوّة وبطولة، هذا هو الموقف الذي يجب أن يتجسّد ثالثة في فتياتنا اليوم، موقف الكلمة الحقّة، موقف الفضيلة النبيلة، موقف الشجاعة بالإيمان.

٥ – الشهيدة رُوْهُوم بنت أَزْمَع:

وبعد ثلاثة أيّام من مقتل الشريفات والإماء، أي يوم الأحد أرسل الملك اليهوديّ إلى رُوْهُوم بنت أَزْمَع يقول لها إنّها إذا كفرت بالمسيح عاشت وإلاّ ماتت.

فلمّا سمعت هذه الكلمة، هرولت إلى الشارع، إلى وسط المدينة، المرأة التي لم يَرَ أحد وجهها خارج باب دارها، بل لم تمشِ نهارًا في المدينة حتّى ذلك اليوم الذي فيه وقفت أمام المدينة كلّها حانية الرأس وهي تصرخ قائلة:

إسمعني أيّتها النساء النجرانيّات المسيحيّات رفيقاتي، وغيرهنّ من اليهوديّات والوثنيّات: إنّكنّ تعلمن أنّني مسيحيّة وتعرفن جنسي وعشيرتي ومن أنا، وأنّ لي ذهبًا وفضّة وعبيدًا وإماءً وغلاّتٍ، ولا يُعوزني شيء. والآن وقد قُتل بعلي من أجل المسيح؛ فإذا شئت أن أصير لرجل لا يعسر عليّ إيجاد رجل. وإنّي لأوكّد لكنَّ أنّ عندي في هذا اليوم بالذات أربعون ألف دينار مطبوعة مكنوزة في خزينتي ما عدا خزينة زوجي وحُليّ وجواهر وحجارة كريمة، رآها بعض منكنّ في بيتي. وأنتنّ تعرفن يا رفيقاتي، أنّه ليس للمرأة أيّام فرحٍ مثل أيّام زفافها، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا ضيقات وتنهّدات. فحين تلد أولادًا، تلدهم بالبكاء والعويل. وحين تُحرم من ولادة أولاد؛ تكون في ضيق وحزن، وكذلك حين تدفن أولادًا، تدفنهم بالبكاء والنحيب. أمّا أنا فمن اليوم فصاعدًا، في منجاة من هذه كلّها. وسأبقى في فرح أيّام عرسي الأوّل، وهوذا بناتي الثلاث قد زيّنتهنّ للمسيح بدلاً من زواجهنّ، فانظرن إليّ، ها إنّكنّ ترين وجهي مرّتين أي في زفافي الأوّل وفي هذا الثاني أيضًا. فقد دخلت مرفوعة الجبين أمام جميعكنّ إلى خطيبي الأوّل، والآن أيضًا أذهب مرفوعة الجبين إلى المسيح ربّي وإلهي وإله بناتي مثلما أتى هو إلينا. فانظرن إليّ وإلى بناتي فأنا لست أقلّ منكنّ جمالاً، وها إنّي أذهب به إلى المسيح ربّي دون أن يُدنَّس بكفر اليهود، ليكون جمالي شاهدًا أمام ربّي بأنّه لم يستطع أن يضلّني بخطيئة الكفر بالمسيح ربّي. وكذلك ليكن ذهبي وفضّتي وجميع حُليٍّ زينتي وعبيدي وإمائي

وكلّ مالي شهودًا بأنّي لم أفضّل محبّتها على الكفر بالمسيح. والآن هوذا قد أرسل إليّ الملك لأكفر بالمسيح فأحيا. فأرسلت إليه قائلة:

إنّي إذا كفرت سأموت، وإذا لم أكفر بالمسيح فسأحيا. وحاشا لي يا رفيقاتي حاشا لي أن أكفر بالمسيح إلهي الذي آمنت به واعتمدت وعمّدت بناتي باسمه، وأنا أسجد لصليبه، ومن أجله أموت أنا وبناتي مثلما مات هو من أجلنا. ها إنّني أترك ذهب الأرض للأرض. فكلّ من أراد أن يأخذ ذهبي فليأخذه. وكلّ من أراد أن يأخذ فضّتي وحُلاي فليأخذها. ها إنّني أترك كلّ شيء بإرادتي لأمضي وآخذ بدلاً منه من ربّي، طوبى لكنّ يا رفيقاتي إذ أنصتنّ إلى كلماتي، طوبى لكنّ يا رفيقاتي إذ عَرَفْتُنّ الحقّ الذي من أجله نموت أنا وبناتي. طوبى لكنّ يا رفيقاتي إذ أنصتنّ إلى كلماتي، طوبى لكنّ يا رفيقاتي إذا أحببتنّ المسيح. طوبى لي ولبناتي لأنّنا سنحظى بالطوبى الفائق وصفه. ليخيّم الأمن والسلام على شعب المسيح. وليكن دم إخوتي وأخواتي الذين قُتلوا من أجل المسيح، سورًا لهذه المدينة إذا ثبتُّ مع المسيح ربّي. ها إنّني أخرج مرفوعة الجبين من مدينتكنّ التي أقمت فيها كما في خيمة وقتيّة، لأذهب مع بناتي إلى المدينة المقدّسة السنيّة إلى حيث خطبتُهنّ. صلّين من أجلي يا رفيقاتي ليقبلني المسيح ربّي وليغفر لي لأنّي بقيت ثلاثة أيّام في الحياة بعد زوجي (أبي بناتي). ولمّا قالت الطوباويّةُ رُوْهُوم هذا، صار عويل من جميع نساء المدينة حتّى اضطرب الملك المنافق والذين معه خارج المدينة.

فلمّا جاء الرجال الذين كان قد أرسلهم اليهوديّ ليأتوا بالطوباويّة وحدّثوه بكلّ هذه الأمور التي نطقت بها الشريفة وقالوا إنّ عويل النساء إنّما كان من أجلها، همّ بقتلهم لأنّهم سمحوا لها أن تنطق بهذا الكلام وتُضلّ المدينة بسحرها.

بعدئذٍ خرجت من المدينة حاسرة الرأس، مع بنتيها، وأتت ووقفت أمام الملك ساخرة دون خجل وهي تمسك بنتيها بيدها وهنّ مزيّنات كأنّهنّ مستعدّات للزفاف. وحلّت ضفائرها ولفّتها على يديها، وكشفت عن قَذَالها، ومدّت عُنُقَها، وخَفَضَت رأسَها أمام الملك صارخة:

– إنّني وبنتاي مسيحيّات ومن أجل المسيح نموت. فاقطع رؤوسَنا لنذهب ونلحق بإخوتنا وأخواتنا وبأبي بنتيّ.

أمّا الملك فحرّضها ثانية وقال لها: قولي فقط إنّ المسيح هو إنسان، وابصقي في الصليب وامضي إلى بيتك وبنتيك.

أمّا حفيدة الطوباويّة رُوْهُوم، وكانت في التاسعة من عمرها، فلمّا سمعت الملك يقول لأمّها أن تكفر بالمسيح وتبصق في الصليب ملأت فاها بصاقًا وتفلت على الملك.

إنّ هذه الفتاة واسمها رُوْهُوم باسم جدّتها، وكانت أمّها قد قُتِلت مع السيّدات اللواتي قُتِلن قبل يوم، قالت للملك: البصاق عليك إذ لم تخجل أن تقول لسيّدتي أن تكفر بالمسيح وتبصق في الصليب. الكفر بك وبجميع اليهود رفاقك، والكفر بكلّ من يكفر نظيرك بالمسيح وبصليبه. يعلم المسيح أنّ سيّدتي أشرف من أمّك، وإنّ عشيرتي أنبل من عشيرتك. ومع هذا فقد تجاسرت أن تقول لسيّدتي لتبصق في الصليب وتكفر بالمسيح. ألا فليُسدّ فوك أيّها اليهوديّ القاتل ربّه.

ولمّا قالت الفتاة هذا للملك، أمر فألقوا بجدّتها الأرض. ولتخويف جميع المسيحيّين، ذُبحَت عليها الفتاة، فسال دمها في فم جدّتها. ثمّ ذُبحت ابنة الطوباويّة أيضًا واسمها أُمَّة، وسال دمها هي الأخرى في فم أمّها.

ثمّ أقامها الملك عن الأرض وسألها: كيف تذوّقت دم بنتيك؟

فأجابت: إنّي تذوّقته بفمي وبنفسي كقربان طاهر لا عيب فيه، فأمر، فحُزَّ رأسُها للحال.

يا لَلموقف الرهيب، ويا لَروعة الاستشهاد والاستقبال للّقاء مع المسيح. عائلة عربيّة مسيحيّة نجرانيّة استشهدت على مذبح القداسة أمام ملك اليهود ذو نواس المنافق.

وبعد مقتل الطوباويّة رُوْهُوم، تقدّم العظماء إلى الملك وقالوا له: إنّ هذه المرأة قد أسدت أيادي بيضاء إلى كلّ أحد، أي إلى الملك والعظماء والفقراء. وهكذا فعلت حينًا مع عَدُوكَرِم الذي كان ملكًا قبلكم على هذا البلد، إذ احتاج واستقرض منها اثني عشر ألف دينار، وأخيرًا لمّا رأته وقد احتاج، تركتها مع ربَاها. وقد أعانت كثيرين في كلّ شيء. لذلك نلتمس منك أن تتفضّلَ وتمنحنا هذه النعمة فقط، وهي أن تُدفن هذه المرأة اعترافًا بأياديها البيضاء على كلّ أحد، لأنّها كانت في كلّ شيء تصنع الخير، سوى أنّها كانت مسيحيّة. فأمر بدفنها. فلفّوها بكتّان بالٍ ودفنوها على ضفّة الوادي الذي قتلت فيه رفيقاتها.

وقد تكلّلت الطوباويّة رُوْهُوم بنت أَزْمَع وابنتها التي تدعى أُمّة وابنة ابنتها واسمها رُوْهُوم، يوم الأحد الواقع في ٢٠ تشرين الثاني سنة ٥٢٣م.

وفي اليوم نفسه حفروا حفرة في الارض، أقاموا فيها رجلاً مسيحيًّا اسمه عربيّ بن دُوَيْل من عشيرة جُو، وطمروه بالتراب حتّى صدره، ثمّ قام اليهود يرشقونه بالسهام حتّى ملأوا صدره ووجهه، من قدّامه ومن خلفه. وبهذا تكلّل عربيّ المسيحيّ.

ثمّ إنّ أحد المؤمنين واسمه مَلَك بن معاوية من عشيرة يَقْبُول، والذي دعي إبراهيم لمّا نُذِر، حين رأى احتراق الكنيسة والكهنة ومعلّمه هرول إلى الكنيسة، ووقف في فنائها ونادى قائلاً:

– اسمعوا أيّها المسيحيّون والوثنيّون واليهود، كفرًا باليهود، وكفرًا بكلّ من لا يعترف بأنّ المسيح هو الإله الحقّ. وكفرًا بكلّ من يكفر بالمسيح. ولمّا قال هذا، ختم نفسه باسم الآب والابن والروح القدس، ورسم إشارة الصليب على جبينه وسارع إلى الكنيسة وهو ينادي قائلاً: اقبلوني يا معلّميّ وسادتي لأمضي معكم إلى المسيح. ثمّ ألقى بنفسه في النار واحترق مع الكهنة.

وجاء أيضًا أنّ صبيًّا في الثامنة من عمره، خرج من المدينة، وأخذ يتجوّل بين الأشلاء، فقبض عليه اليهود وجاؤوا به إلى ملكهم. فسأله ما الذي تطلبه بين الأشلاء؟

فأجابه الصبيّ: إنّني أطلب أبي، لأنّني أريد أن أموت معه.

قال له الملك بلغني أنّك عبد، وأنّ أباك هو من حضرمَوْت، وأمّك من مأرب ولست نجرانيًّا.

فأجابه الصبيّ: يعلم المسيح أنّني ابن الأشراف وابن بني الأشراف، وأنّ أبي وأمّي هما من نجران ومن عشيرة جُو، وأنّني لن أخرج من هنا حتّى تقتلوني كأبي وأمّي، لئلاّ يمضيا إلى المسيح بدوني.

ولمّا قال الصبيّ هذا، أمر الملك بحزّ رأسه.

وقالوا أيضًا إنّ سيّدتين نجرانيّتين اسم الواحدة حَبْصَة بنت حيّان، والأخرى حيّة بنت مَلَك، ربطوا بأرجلهما حبالاً وربطوهما بجملين، فجرّهما الجملان من إيلين إلى مكان يسمّى أيصَلَه، يبعد تسعة أميال عن إيلين. وفي الطريق تكلّلت المغبوطتان بالشهادة من أجل المسيح، إذ فُسخت أرجلهما من الكعب وظلّت جثّتاهما في الأرض.

ونورد هنا أسماء رؤساء القسوس الذين احترقوا في بيعة نجران:

القسّ سرجيس الروميّ، القسّ كبرئيل النجرانيّ، القسّ إيليّا من حيرة النعمان الذي كان تلميذًا للطوباويّ مار نعمان بن ميخائيل الذي رقد في دير مار بُسْ حُوْرِيم المقدّس، والقسّ إبراهيم الفارسيّ.

وأسماء رؤساء الشمامسة:

الأرخدياقون حنانيّا الروميّ، الشمّاس يونان الحبشيّ، الشمّاس شليمون النجرانيّ، الشمّاس موسى بن مازن النجرانيّ، والشمّاس موسى الذي قتل بالسيف.

وأسماء رؤساء الأوفودياقونين:

إبراهيم بن معاوية، معاوية بن أَحْوِيَة، وقيُوسُ بن سلمان، مع باقي الكهنة والنذراء والنذيرات والعلمانيّين الذين بلغ عددهم على ما قال النجرانيّون ألفي شهيد وشهيدة. صلواتهم معنا.

هكذا ننتهي من سلسلة المواقف البطوليّة التي أبداها القدّيسون بنو نجران والحِمْيَريّون العرب والتي جرت في القرن السادس الميلاديّ في مقاومة الاضطهاد اليهوديّ الذي شنّه الملك ذو نواس مسروق اليهوديّ الجاحد، تلك المواقف التي إن دلّت عن شيء، إنّما تدلّ على عمق الإيمان المسيحيّ في نفوس العرب اليمنيّين جنوب بلاد العرب وعلى الصمود في الدفاع عن كنيستهم بزهق أرواحهم النقيّة وسفك دمائهم الزكيّة.

فعلينا نحن أبناء المشرق العربيّ أحفاد أولئك الأجداد الأفذاذ أن نعش ذلك الإيمان، ونحيي ذلك التراث السامي الجليل ونبني على تلك الأسس المحفورة على الصخر صرحًا للكنيسة المسيحيّة الشرقيّة كما كانت أيّامئذٍ منارة للحضارة الإنسانيّة ولكلّ الأجيال...

المسيحيّة في مكّة

مقدّمة

يذكر فلهاوزن الألمانيّ أنّ الدين الذي أحدث أثرًا فعّالاً في الإسلام الأوّل هو المسيحيّة وليس اليهوديّة[1]. «وأنّ النسّاك النصارى وضعوا الخميرة الروحيّة في الإسلام، وأنّ الخميرة لا تأتي من إسرائيل، إنّما قام إسرائيل، على الأكثر، بتقديم الطحين الذي نريد فيما بعد[2]».

بالحقيقة أنّنا نشاهد محمّدًا في مكّة، يميل إلى الروم المسيحيّين في حروبهم مع الفرس[3]. وليس في ذلك غرابة، لأنّ الفرس من المشركين في نظر الداعي إلى وحدانيّة الله بالإسلام. ومع ذلك لا نرى وجهًا للشبه بين عيسى القرآن ويسوع الإنجيل. في القرآن لا يظهر عيسى إلاّ واحدًا من أنبياء اليهود، لا همّ له إلاّ التضييق من سعة رسالته، والتخفيف من مجد ولادته الباهر، وبهاء عجائبه الساطعة، وبالتالي لا يمكن أن تكون هذه الشخصيّة الهزيلة الضعيفة والمضطربة حتّى في تحديد نفسها، مستوحاة من المصادر المسيحيّة، إنّما من المصادر الأبيونيّة النصرانيّة، وهذا ما تقرّره النعوت النصرانيّة التي ينعتها القرآن على المسيح منها «روح الله» و«الكلمة» فإنّه لا وجه للشبه بين مدلول هذه الألفاظ في القرآن، ومدلولها في نصّ إنجيل يوحنّا الذي استعيرت منه. ولهذا فإنّنا نؤكّد أنّه «وإن استعمل التعبير النصرانيّ، فلا يفتأ يفكّر تفكيرًا يهوديًّا[3]».

أمّا وضوح العطف الصريح على المسيح وعلى المسيحيّين والمذكور في السُّوَر المدنيّة، فقد يكون أداة من أدوات الجدل دُفع محمّد إليها في يثرب بعد الهجرة خاصةً مع اليهود ولا

---

(١) فلهاوزن، **Reste Arabischen Heidentum.** ص٢٣٤.

(٢) **المصدر السابق**، ص ٢٤٢.

(٣) ويشير البطريرك ميخائيل الكبير إلى ذلك في **تاريخه** قوله: إنّ محمّدًا تأثّر أوّلاً باليهوديّة (٢: ٤٠٣).

سيّما يهود الحجاز، فشاء أن يميّز نفسه عن إسرائيل، بعد أكثر من الميل إليه، فيما سبق.

ولا يبالغ ليسنسكي[٤] في شيء عندما يقول إنّ اسم يسوع –بصورته العربيّة الإسلاميّة «عيسى»[٥]– لا يظهر مرّة واحدة في السور المكيّة القديمة، وقد احتلّتها كلّها تقريبًا ذكريات إبراهيم وموسى وقصصهما. بل إنّنا لا نرى ذكرًا لأحد أشخاص العهد الجديد إلاّ في السورة التاسعة عشرة. ففيها تبدو، لأوّل مرّة، أسماء مريم، وزكريّاء، ويحيى، وعيسى. أمّا تاريخ هذه السورة فيردّه أرباب التفسير الإسلاميّ إلى الهجرة الحبشيّة. وقد يكون محمّد عرف هذه الأخبار باختلافه إلى مستوطني مكّة من أولئك اليهود النصارى الحبشيّي الأصل، الوطنيّين «الأحابيش» المشهورين[٦]، عبيدًا كانوا أو عمّالاً، سماسرة أو تجّارًا، ولقد كانوا من الكثرة بحيث انتشروا في أحياء مكّة جميعها انتشارهم في سوقها، حتّى لقد كان في جيوش محمّد نفسه عدد من المأجورة السودان[٧].

وكذلك القول عن «الإنجيل» فإنّنا لا نرى ذكرًا له إلاّ في السور المدنيّة[٨]، بينما نرى الذكر السابق للتوراة والزبور[٩]. وإنّ لهذه الملاحظات أهمّيّتها، إذا ما أردنا قدر مظاهر العطف والميل إلى النصرانيّة البارزة في القرآن، وبالتالي قدر المبالغة بل التخيّل في مزاعم فلهاوزن، ولهذا فإنّنا لا نرى في هذه المظاهر رغبة من محمّد في الارتفاع إلى مثل أعلى يفوق مثل أنبياء العهد العتيق. بل إنّ هذا المظهر المسيحيّ في القرآن، الظاهر متأخّرًا عن زمن الهجرة، لا نراه يرمي إلاّ إلى الردّ على اليهود الذين خيّبوا آمال محمّد. أَوَلم يستحقّوا ذلك «بكفرهم وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا[١٠]».

ويستند فلهاوزن[١١]، فوق هذا، إلى اسم «الصابئ» الذي تستعمله «السيرة» وكتب «الصحيح» للدلالة على المسلمين الأوّلين[١٢]. وهو يرى فيه إشارة إلى المَنْدائيّين وغيرهم

(٤) **مجلّة المشرق**، بيروت عدد، ص ٦٩–٧١ مقالة الأب لامنس اليسوعيّ، النصارى في مكّة قبل الهجرة.
(٥) من الصعب أن ندلّ على أصل الاسم في النصوص المسيحيّة.
(٦) راجع الأب لامنس اليسوعيّ في بحثه **بمجلّة المشرق** بعنوان «الأحابيش».
(٧) إبن سعد، **الطبقات** ٢ : ٩٠. وقابل بما ورد في الجاحظ، الحيوان، ٣ : ١٢.
(٨) ولا شكّ في أنّ السورتين (الفتح) و(الحديد) متأخّرتان عن الهجرة.
(٩) راجع هذه الألفاظ : الإنجيل، التوراة، الزبور، في فهارس القرآن.
(١٠) **سورة النساء** آية ١٥٥. ومن الصعب أن لا نرى في هذه الآية إشارة جدليّة ضدّ اليهود.
(١١) فلهاوزن، **المصدر نفسه**، ص ٢٣٦.
(١٢) إبن الأثير، **النهاية** ٢ : ٢٤٨.

من أرباب النِحَل المعمدانيّة في آسية الغربيّة. أمّا نحن فنرى في استعمال الصابئ والصابئة، والصابئين، أسلوبًا طالما استعمله «صوّاغ الحديث[١٣]» سعيًا وراء «النوادر» و«الغريب» وغايتهم إظهار مصنوعاتهم بمظهر القِدَم، وهو كافٍ بزعمهم لتصحيحها وتأييد نسبتها التاريخيّة.

ولا يخفى أنّ جُمّاع كتب «المُسْنَد» و«السنن» بعد أن أطالوا ما شاؤوا في استغلال لفظة «حنيف» و«حنفاء» رأوا أن يستغلّوا كذلك لفظة قرآنيّة أخرى، فعلقوا «بالصابئين» يفسّرونها، ويعلّلون تفاسيرهم التعاليل المتشعّبة. وهذا أقرب إلى التفسير منه إلى التاريخ، وغايتهم أن يشرحوا بالحوادث، والأخبار، والأوصاف الواضحة، كلّ ما يرونه من تلميحات غامضة، ورموز ضمنيّة في بعض الآيات الموجزة، فيبدّدون الإبهام ويوضحون أمام القرّاء شيئًا من غموض بعض السور. وهذه لفظة «الركوسيّة[١٤]» اسم نِحلة نصرانيّة شرقيّة لا تظهر إلاّ في حديث عَدِيّ بن حاتم. فلو وردت في القرآن، لما تأخّر أرباب الحديث من تأليف إضبارة خاصّة تجمع كثيرًا من الأقوال والأخبار تصطبغ بطلاء تاريخيّ شفّاف وترمي إلى توضيح اللفظة والتبسُّط في شرح ما تدلّ عليه. وإذًا، فلم يكن بدّ من أن يلفت لفظ «الصابئين» نظرهم. وهكذا كان. إلاّ أنّهم بدل أن يفكّروا بالمندائيّين في بابل – ولا يظهر أنّ القرآن عرفهم قبل الهجرة[١٥]، لأنّه لا يذكر الصابئين إلاّ في السور المدنيّة– أخذوا يقابلون بين الآيات الثلاث التي تذكر الصابئين في القرآن[١٦]. وهي تميّز بينهم وبين اليهود والنصارى. على أنّها تورد ذكرهم كأنّهم من الموحّدين يؤمنون بالله واليوم الآخر، موافقين معتقدات الإسلام الأول، فلم يكن إذًا ما يمنع المفسّرين أن يحوّلوا لفظة «الصابئين» إلى نعت يجرون استعماله في عهد محمّد، للدلالة على أوّل الدائنين بالإسلام.

إنّنا لا نقف طويلاً لدى لفظة «حنيف» وهي آخر ما يعلّق به فلهاوزن من الأسانيد ظانًّا

(١٣) إبن الأثير، **النهاية** ٣ : ٥.
(١٤) راجع عن الركوسيّة **مقالات للآباء أنستاس الكرمليّ ولويس شيخو، ولامنس في مجلّة المشرق** ٦ (١٩٠٣) ٥٧٤، ٧٧٧، ٩٣٨؛ ٨ (١٩٠٥) ٥٠٤؛ ١٠ (١٩٠٧) ١١٢٠؛ ١١ (١٩٠٨) ٤٨٠ واطلب **أسد الغابة** ٣ : ٣٩٢.
(١٥) بل قد لا يكون عرفهم بعد، لأنّه ليس ما يُثبت أنّ المقصود بالصابئين المندائيّين لا غيرهم من أرباب أيّ نحلة شرقيّة.
(١٦) **سورة البقرة** آية ٥٩. وسورة **المائدة** آية ٧٣ وهي مراجعة للآية السابقة. **سورة الحجّ** آية ١٧ والآية مدنيّة.

أنّه يأتي بشيء جديد في استغلال قيمتها، بقوله إنّها تعني «النسّاك والزهّاد من النصارى»[١٧] وإن يكن المؤلّف يسنده إلى ترجمات جريئة لبعض النصوص القديمة[١٨].

إلاّ أنّنا لا نرى دليلاً يجعل الإسلام الناشئ وجهة زهديّة أو نسكيّة، كما ادّعى فلهاوزن ونستك أيضًا، وحتّى كولدسيهر الألمانيّ في «دروسه المحمّديّة في وصفهم تلك العبادات الليليّة الطويلة التي تشيد بذكرها السور المكّيّة إلاّ صدًى لعبادات النسّاك الشرقيّين، وهي، كيف ما كانت الحال، لا تعدو التوسّعات الخطابيّة في مثال أعلى للحياة الدينيّة لمحمّد، ولكنّه لم يعمل[١٩] ولا صحابته على تحقيق ذلك في القريب العاجل[٢٠]. بل إنّ الصلاة، وطرق القيام بها، لم تقرّر نهائيًّا إلاّ في المدينة. أمّا قبل هذا العهد فقد كانت عملاً موصًى به، ولكنّه كان متروكًا لحرّيّة الفرد يقوم به حيث شاء، ومتى شاء. وقد قال كايتاني:

«إنّه في أثناء العهد المكّيّ لم يكن على المسلم، إذا ما استندنا إلى نصّ القرآن وحده،

(١٧) ما زالت كلمة حنيف قائمة، إلاّ أنّنا نرى أنّها كلمة سريانيّة وتعني الكافر أو المرتدّ عن الطريق الصواب وما زال السريان بلهجتهم السواديّة أو الكتابيّة يعنون بها كما أوضحناه أوّلاً.

(١٨) إنّ هذه الفئة (الحنيفيّة) من أجرإ مخترعات أرباب الحديث وجامعي أحداث السيرة، محاولين سدّ الثُّلَم في التاريخ الدينيّ قبل الإسلام، وإيجاد أنظمة ورعيّة لدين إبراهيم القديم. ومن ثمّ إيجاد سابقين مؤمنين للدين الإسلاميّ، وقد كانت هذه اللفظة أن صادفت حظًّا عجيبًا بفضل المفسّرين الغُيُر. أمّا في القرآن فلا نراها إلاّ نعتًا تفيد معنى المؤمن الصادقة، بل معنى الموحّد على الغالب، ولهذا نراها ترادف كثيرًا لفظة «المسلم» ولا نرى أنّها دلّت، مرّة واحدة، على نحلة أو فئة خاصّة من البشر. وفلهاوزن قد يحلّ فيها معنى «المشرك» محلّ المعنى الذي يفرضه هو، بل قد يكون معنى «الشِّرك» أوفق لهذه النصوص. ولا يبعد أن تكون لفظة «حنيف» في القرآن، انحرفت عن معناها الأصليّ: «كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين» (سورة البقرة: ١٢٩ — آل عمران: ٦٠، ٨٩، النساء: ١٢٤، الأنعام ٧٩، ١٦٢، يونس: ١٠٥، النحل: ١٢١، ١٢٤ الروم: ٢٩...

(١٩) لقد كان محمّد ميّالاً إلى النوم بشهادة أرباب الحديث: الدارميّ، **المسند** (الطبعة الحجريّة) ٥؛ إبن حنبل، **المسند** ١: ١٤٥، ٣٤٣؛ إبن الأثير، **النهاية** ٣: ١٨٧؛ النسائيّ، **السنن** ١: ١١١، ١٦٨، ٢٨٠–٢٨١، الذهبيّ، **ميزان الاعتدال** ٣: ٣١٥، البخاريّ، **الصحيح** (طبعة الآستانة) ١: ٣٧، ٤٣، ٤٤، ١٧١، ٧: ١٤٨.

(٢٠) قابل، بشأن أحد الأحاديث في الموضوع، قول الذهبيّ في **ميزان الاعتدال** ١: ١٦٠، «حديث حسن غريب ولا يصحّ». وإذا ما راجع الدارس كتاب الصلاة في **صحيح البخاريّ** ٢: ٤١، تصوّر الجماعة الإسلاميّة الأولى لا تختلف في شيء عن جماعات الرهبان، تقضي لياليها في الصلوات والتراتيل... على أنّ أبا داود في السنن ١: ١٣ يقرّ بأنّ هذه الفرائض قد نسخت، وهي لا تعدو وصف المثال الأعلى كما في تفسير الطبريّ ٢٩: ٦٨، ١٢١.

إلاّ أن يؤمن بالله، ويكفر بعبادة الأوثان. وما عدا هذا الإيمان الفسيح، لا نراه مقيّدًا بشيء من الفرائض الدقيقة[٢١]، بل له ملء الحرّيّة في أعماله[٢٢]».

إذن فإنّ من يتصوّر الجماعة الإسلاميّة الأولى ساهرة لياليها الطوال بالصلوات والتهجّد حول محمّد، يخطئ خطأً تاريخيًّا بانسحابه على أثر أرباب الحديث[٢٣]، متناسيًا أنّ مؤلّفي السيرة النبويّة وكتب الطبقات كانوا يرمون، في تلك الأوصاف الجميلة للمؤمنين الأوّلين، إلى تجسيم المواعظ التقويّة الواردة في السور المكيّة، وتحقيقها بالنوادر والحوادث الواقعيّة أو لم يقرّ فلهاوزن نفسه «بأنّ القسم المكّيّ من السيرة قد غزته الأسطورة من جميع نواحيه[٢٤]».

نصارى مكّة:

لم يكن النصارى في مكّة جماعة كبيرة، عندما شرع محمّد يدعو قومه إلى عبادة الإله الواحد. بيد أنّ في تاريخ اليعقوبيّ نصًّا قد يوهم بضدّ ما نذهب إليه، وهو قوله: «أمّا من تنصّر من أحياء العرب فقوم من قريش[٢٥]» ولكن اليعقوبيّ لا يذكر من هؤلاء «القوم» إلاّ رجلين اثنين دانا بدين الإنجيل، وأحدهما وَرَقة بن نَوْفَل ابن عمّ خديجة بنت خويلد، من أكثر أرباب السيرة والتاريخ من ذكره على اضطرابهم في تحديد شخصيّته[٢٦]. وليس الاثنان بعدد خطير. ولا عجب فإنّ القرشيّين الخُلّص، تجّار مكّة الوافري الحذر، القليلي الإيمان، كانوا أبعد من أن يؤخذوا بالدين النصرانيّ، فكانوا يكتفون بما «وجدوا عليه آباءهم» —على قول القرآن[٢٦]— من دين بلديّ تقليديّ قليل المؤونة والتكاليف. ولهذا ظلّ النصارى ضئيلاً بينهم.

إنّ مدوّني أخبار الصحابة يذكرون رجلاً اسمه (شمعون[٢٧]) وهو اسم نصرانيّ إن لم يكن يهوديًّا — وليس من عادة العرب، قبل الهجرة، أن يتسمّوا بأسماء العهد العتيق[٢٨] —

(٢١) لا بالصوم، ولا بالصلوات الجامعة.

(٢٢) لامنس (**مجلّة المشرق**) مقالة في (النصارى في مكّة قبيل الهجرة) ص ٧٦–٧٧.

(٢٣) **أسد الغابة** ٣: ١٤٨، ١٦٣، ٢٥٩.

(٢٤) لامنس، **المصدر نفسه**، ص ٧٧.

(٢٥) اليعقوبيّ، ١: ٢٩٨.

(٢٦) **القرآن**، المائدة: ١٠٣، الأعراف: ٣٧، الأنبياء: ٣١، لقمان: ٢٠، الزخرف: ٢١ و٢٢.

(٢٧) **أسد الغابة**، ٣: ٢٦٠ وفيه يقال إنّه أزديّ.

(٢٨) **أبو تمّام**، **الحماسة**، (طبعة مصر) ١: ١٨٩.

ولكن قُريشيّته ليست بثابتة[٢٩]. ولعلّه من أفراد تلك الجوالي الأجنبيّة الطارئة على مكّة في سبيل العمل والكسب. وقد رأينا بينها كثيرًا من النصارى، ولا سيّما في جالية الأحباش العظيمة الخطر.

من المعلوم أنّ مكّة خضعت لسلطة ولاية اليمن الحبشيّة وهذا ما ذكره القرآن في حادثة «الفيل»، على أنّنا نجهل كم دام ذاك الاحتلال الحبشيّ في أرض تِهامة، وإن نكن على شبه ثقة من أنّه أثّر في مصلحة المسيحيّة، دين المحتلّين. وهو أمر أدركه مؤلّفو السيرة، بل بالغوا في إدراكه، فجعلوا رجال أبرهة كلّهم من المندفعين في نشر الدين المسيحيّ حتّى إنّهم حاولوا هدم الكعبة. ولم يضمحلّ أثر المسيحيّة بجلاء الحبش عن مكّة. فظلّ فيها عدد من العبيد، والعمّال والتجّار[٣٠]، فضلاً عن «الأحباش» أو «الأحابيش».

سأل يومًا عمر بن الخطّاب زائرية، وقد ملأوا المجلس: «هل فيكم أحد وقع إليه خبر من أمر محمّد في الجاهليّة، قبل ظهوره؟[٣١]». فلم يسمع جوابًا إلاّ من أعرابيّ عمره ١٦٠ سنة[٣٢] ولعلّ هذا من الأسباب التي دفعت التقليد الإسلاميّ إلى الأخذ بنوادر المعمّرين» وأخبارهم الغريبة[٣٣]، متّكلين على ذاكرتهم المتجاوزة حدود الشيخوخة المعقولة في سدّ الفراغ التاريخيّ الممتدّ من زمن «الفيل» إلى جيل «التابعين»، أو خلفاء الصحابة. وفي هذا العهد، أي بعد وفاة محمّد بنحو خمسين سنة، شعر المسلمون بضرورة كتابة سيرته. فجعلوا يتذكّرون معاصري أبرهة، وما يروون، أو ما يروى عنهم[٣٤].

---

(٢٩) **أسد الغابة** ٣ : ٤ ولا يخفى أنّ جميع المتّسمين بيوسف أو بيونس من الصحابة، (أسد الغابة ٥ : ١٣٣...) عرضة لكثير من الشكّ في وجودهم. وكذلك القول عن المتسمّين بإبراهيم (أسد الغابة ١ : ٤٠) فهم إمّا موالٍ من المدينة وإمّا من المشكوك في وجودهم إن لم نقل من المزيّفين...

(٣٠) أسد الغابة ٥ : ٤٧٥، ٤٨٨ وفيه ذكر للجواري السود في مكّة. وواحدة منهنّ كانت ماشطة خديجة ٥ : ٥٨٤. وقابل بما في في ٤ : ٣٢٠ من الكتاب نفسه.

(٣١) **أسد الغابة** ٣ : ٥٢.

(٣٢) كذا في **أسد الغابة** ٣ : ٥٣. ونشير هنا إلى أنّ رقم ١٦٠ كثير الورود في ذكر أعمار المحدّثين. راجع الذهبيّ، ميزان الاعتدال ١ : ٨٠، ٢٠ : ١٠٧، ٢٥٤. وأحيانًا يبلغ الرقم ١٨٠ سنة في الكتاب نفسه ١ : ١٠٦، ٢ : ٢٣٠.

(٣٣) إنّ الذهبيّ يشكّك بهؤلاء المعمّرين، **ميزان الاعتدال** ١ : ٢٤٨، ٤٣٤، ٣ : ١٢٥ من ذلك قوله: «إنّه رأى عائشة بالبصرة على جمل أورق في هودج أخضر...» ذكر هذا وأردف «قلت: انظر إلى هذا الحيوان المتّهم كيف يقول في حدود مائتين أنّه رأى عائشة فمن الذي يصدّقه؟» ٣ : ٢١٣.

(٣٤) من الذين ذكروا أبرهة قيس بن الخَطِيم، وجعله يمانيًّا في قوله:

فأن تلحق بأبرهة اليمانيّ ونعمان يوجّهنا، وعمرو.

وعلى هذا النحو ذكروا عن ابن إسحق «عن بعض أهل العلم» أنّه بينما كانت مرضعة محمّد السعديّة عائدة به، بعد فطامه من البادية إلى مكّة، رآه معها «نفر من الحبشة نصارى. فنظروا إليه، وسألوها عنه، وقلّبوه. ثمّ قالوا لها: لنأخذنّ هذا الغلام فلنذهبنّ به إلى ملكنا وبلدنا. فإنّ هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره». ثمّ زاد ابن إسحق: «فزعم الذي حدّثني أنّها لم تكد تنقلت به منهم[٣٥]».

وليست هذه الحادثة بالصدفة الوحيدة التي نرى فيها الأحباش في مكّة. فهنالك جماعة من الوفود يبلغون العشرين من نصارى الحبشة، يأتون مكّة في سبيل السلام على محمّد وإظهار عواطف احترامهم[٣٦]. أوَ لم يكن محمّد «رسول السودان والحُمران[٣٧]» أي رسول الإنسانيّة جمعاء؟

وليس ما يمنع القول إنّ قافلة من التجّار الأكسوميّين رأت، أثناء مرورها بمكّة، أن تشاهد محمّدًا، هذا الداعي إلى الإصلاح الدينيّ، في وقت كان يُظهر فيه ميلاً جذّابًا إلى الإنجيل وأهل الكتاب. وهكذا القول، في ما بعد، عن نصارى نجران، ونصارى الحيرة، إن جاز لنا أن نصدّق الأحاديث التقليديّة.

كانت مكّة قد أصبحت، إذ ذاك، أكبر سوق للرقيق في بلاد العرب، ولا يخفى ما في هذه التجارة من الأرباح الطائلة وإذن فلا عجب أن يكون كبار التجّار الأثرياء من قريش، ولا سيّما آل مخزوم، أخذوا بتنظيم القوافل والرحلات إلى شواطئ أفريقية ليستوردوها من الأريتره (أرتيريا) وجوارها، ما يقوم بالطلبات المتوالية عليهم. وهكذا كثر عدد السودان المسيحيّين في مكّة حتّى اختارت منهم السلطة أفضل فرق جيشها المعروفة «بالأحابيش[٣٨]».

مهما يكن من أمر فإنّ هذا الجمهور من الأحابيش المقيمين في مكّة كانوا على تعلّق بدينهم المسيحيّ، بخلاف ما يظهر من بلال مؤذّن محمّد، وأخيه من يكنى عنه مؤرّخو الإسلام بكنية «أبي رُوَيحة» ولا يخفى ما في هذه الكنية من دلالة بالنسبة إلى رجل أسود[٣٩].

---

(٣٥) **سيرة ابن هشام** ص ١٠٧. وفي طبقات ابن سعد ١ : ٧١ يتحوّل هؤلاء النصارى الأحباش إلى يهود.

(٣٦) **سيرة ابن هشام** ص ٢٥٩.

(٣٧) راجع الأحاديث بهذا الشأن.

(٣٨) لامنس، **المصدر نفسه**، ص ٨١.

(٣٩) لامنس، «**الأحابيش**» **المشرق**، ٣٤ (١٩٣٦) ١١.

وليس من شكّ في أنّ هؤلاء الأحباش أثّروا في لغة قريش، فزادوا في معجمها من مفرداتهم[٤٠]. حتّى إنّ محمّدًا وبعض صحابته كأبي هُرَيرة، حفظوا عددًا من التعابير الحبشيّة الجارية[٤١]، ظهر شيء منها في تلك الصلاة التي قام بها محمّد على أثر وفاة النّجاشيّ[٤٢]. هذا ما يظهر من أقوال جمّاع الأحاديث. وهم في ثرثرتهم المعتادة، ورغبتهم الشديدة في الإكثار من المعلومات، لا يتراجعون أمام إظهار النبيّ العارف بمختلف اللغات، يتكلّم بعضها ويحضّ على درس البعض الآخر. يخاطب أبا هريرة، المذكور آنفًا، وهو عربيّ، باللغة الفارسيّة[٤٣]. ويأمر زيد بن ثابت بدرس السريانيّة في المدينة[٤٤].

والتقليد التاريخيّ يكرّر ذكر العلاقات التجاريّة المتعدّدة بين قريش وبلاد الحبشة. فيقول صفوان بن أميّة متذمّرًا في مكّة: «... ونحن في دارنا هذه ما لنا بها بقاء. وإنّما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف، وفي الشتاء إلى أرض الحبشة...[٤٥]».

مكّة ومسيحيّو نجران اليمن

إذا تركنا الشاطئ الحبشيّ، نرى أنّ مكّة كانت لها العلاقات التجاريّة الزاهرة مع نجران وسائر الأوساط المسيحيّة في اليمن[٤٦]. وهو ما يبرّر ذلك المحلّ الكبير الذي يحتلّه النجرانيّون في «السيرة النبويّة» وفي تفسير القرآن[٤٧]. فعندما شاء المفسّرون أن يعيّنوا «أهل الكتاب» الظاهرين في حفلة «المباهلة[٤٨]» المعروفة، فكّروا حالاً بالنجرانيّين. ولم يكن وجودهم في مكّة، على ما يظهر، من الحوادث النادرة. وقد يعود لهم نقل تلك الأقمشة المنسوجة في مدينتهم الصناعيّة[٤٩] ونشرها بين القريشيّين حتّى أخذوا يستخدمونها في ستر

(٤٠) لامنس، **النصارى في مكّة**، ص ٨٢٠.

(٤١) مسلم، **الصحيح**، ٧ : ١٨٩، **أسد الغابة** ٥ : ٥٧٩.

(٤٢) البخاريّ، **الصحيح** (طبعة مصر) ٤ : ٢٥٤.

(٤٣) الطبريّ، **تفسير** ١ : ١٩٩.

(٤٤) إبن حنبل، **المسند** ٥ : ١٨٢.

(٤٥) الواقديّ (Kremer) ١٩٦.

(٤٦) لامنس، **يزيد**، ص ٣٢٩.

(٤٧) لامنس، **فاطمة**، ص ٧٠، ٧٦، ٩٧.

(٤٨) **سورة آل عمران**: ٥٤، لامنس، **يزيد**، ص ٣٤٤.

(٤٩) لامنس، **فاطمة**، ص ٨٥.

الكعبة، وتغطية حجارتهم المؤلّهة[٥٠]. ثمّ إنّنا نرى القريشيّين المشركين يتركون مكّة، بعد الفتح، ويلجأون إلى نجران[٥١]. ويعني ذلك أنّهم كانوا على معرفة بطريقها، وعلى أمل بوجود الملجأ والعطف بين سكّانها.

وكما كان يذهب القريشيّون إلى نجران، كان يأتي «نصارى من أهل نجران» إلى مكّة، كأولئك الذين جاؤوا ليحاوروا محمّدًا كما تقول «السيرة[٥٢]»، مستوحية خبرها، على الأرجح من «أسباب النزول» وأسباب النزول مجموعة تفاسير وشروح حافلة بالأخبار والحوادث والنوادر، يرمي فيها المفسّرون إلى شرح الآيات ووضعها في محيط تاريخيّ وجغرافيّ يسهّل فهمها، وإدراك أسباب «الوحي» بها، وقد لا نخطئ المقصد إذا قلنا إنّ هؤلاء الزوّار، أو الوفود، كانوا من ممثّلي التجارة في تلك الجمهوريّة المسيحيّة العاملة[٥٣]، وإنّ وجودهم في مكّة كان يوافق انعقاد الأسواق السنويّة المهمّة في عكاظ، وذي المَجاز. وقد ذكر من هؤلاء النجرانيّين المسيحيّين رجل تحدّث إلى محمّد اسمه عبَدَةُ بن مُسْهَر. فأسرع جمّاع الأخبار الخاصّة بالصحابة إلى تدوين هذا الاسم، وهم لا يغفلون طرفة عين عن كلّ ما يوسّع معلوماتهم ويضخّم ترجمات من يعنون بهم من الصحابة سواء أثبت وجودهم أم لا[٥٤].

ولمّا سُئل عبد عن موطنه قال إنّه «كعبة نجران[٥٥]» وهو اسم الكنيسة المهمّة في مدينته، تلك الكنيسة المشهورة في بلاد العرب كلّها، بناها أبرهة في صنعاء عاصمة اليمن وكانت تسمّى «القُلّيس» ليحوّل حجّ العرب من كعبة مكّة إلى كعبة نجران فلم يفلح. ولا يخفى

(٥٠) وهو ما يشير إليه قيس بن الخَطيم في ديوانه ٥ : ١٤،

والله ذي المسجد الحرام وما حُلِّلَ من يمنة لها حُنُفُ.

(٥١) **أسد الغابة**، ٣ : ١٥٩–١٦٠ ويذكر الجاحظ (كتاب الحيوان ٣ : ٢٧) ثلاثة أبيات لأسقف نجران، ولا يسمّيه.

(٥٢) **سيرة ابن هشام** ص ٢٥٩.

(٥٣) **أسد الغابة**، ٤ : ٢٥٦ وفيه أنّ أسقف نجران زار محمّدًا في مكّة.

(٥٤) وهم في ذلك لا يهملون شيئًا، بل لا يتراجعون أمام بعض الأساليب البعيدة عن النقد التاريخيّ كتضعيف عدد بعض الصحابة وتثليثه أحيانًا. راجع لامنس في بحثه «الأحابيش» في مجلّة المشرق ص ١١ وخاصّة الصحابة المزدوجة أسماؤهم حتّى ولد من كلّ واحد رجلان في **أسد الغابة** ٤ : ٥١، ١٠٥، ١٠٩، ١١٥، ١٢٩، ...١٤٢. وهناك صحابة أصبح كلّ منهم ثلاثة رجال في **أسد الغابة** ٤ : ٨٥، ١٨١، ١٩٣، ٥ : ٢١٩، ٢٩٤، ٢٩٥، ٤٣٠، ٥٥٣، ٥٧٧، ٥٧٨، بل أربعة في **أسد الغابة** ٤ : ١٧٠–١٧١.

(٥٥) **أسد الغابة** ٣ : ٣٢٧. وهناك ذكر «لكعبة الطائف. وقد دعي ذو الخَلَصة «كعبة اليمن». فما قيمة هذه التسمية «بالكعبة» وما معناها، إن لم تكن قالبًا متداولاً لا قيمة مهمّة له.

أنّ الأسواق التجاريّة كانت تُقام، على الغالب، مدّة الشهرين السابقين لموسم الحجّ. فكان يقصدها كثير من البدو، وعدد من التجّار يأتونها من أنحاء الجزيرة جميعها. ولم يكن من النادر أن يكون بينهم عدد من تجّار الحيرة المسيحيّين، والحيرة من أهمّ الأسواق في وادي نهر الفرات الأسفل، يقدمون إلى سوق عكاظ مع القافلة الرسميّة التي كان يرسلها، كلّ سنة، ملك فارس، وسيّد أمرائهم اللخميّين. وآخر تلك الأسواق التهاميّة في التاريخ كانت سوق ذي المَجَاز التي كان يمتدّ زمن انعقادها حتّى قبيل موسم الحجّ، وموقعها قريب من مِنى، ومِنى من أرض الحرام، كما لا يخفى. فكان كثير من التجّار والحجّاج، وسائر حاضري السوق، لا يعودون قبل أن يمرّوا في مكّة فيزور مصارفها، ومخازنها، وحوانيتها.

ويحدّثنا الحديث أنّ وفدًا من مسيحيّي الحيرة أرسله أسقفه ليسأل عن عقيدة محمّد وبعثته[٥٦]. ومهما يكن من أمر، فإنّ لنا الحقّ، بعد أن عرضنا كلّ ما تقدّم من المعلومات، أن نفرض للمسيحيّين في مكّة، مرورًا متواصلاً إن لم نقل إقامة مؤقّتة.

الأعاجم في مكّة

لم يكن الأحباش وحدهم يمثّلون العبيد المقيمين في مكّة، وإن كانوا يؤلّفون أكثريّتهم الساحقة. ويظهر أنّ محمّدًا كان على اتّصال ببعضهم بدليل ما زعم مخاصموه ومناقشوه من أنّه كان يختلف «بكرةً وأصيلاً» إلى رجال أجانب لسانهم «أعجميّ» كالروم، فيعلّمونه «أساطير الأوّلين» يدوّنها في قرآنه. وهذا قول القرآن في هذا الشأن نورده بنصّه:

قال في سورة النحل ١٠٥: «ولقد نعلم أنّهم يقولون: «إنّما يُعلّمه بشرٌ لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجميٌّ، وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين».

وجاء في سورة الفرقان ٥ و٦: «وقال الذين كفروا: إن هذا إلاّ أفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاؤوا ظلمًا وزورًا. وقالوا: أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلاً».

ونقل ابن هشام في السيرة شارحًا «سبب نزول» الآية: «وكان رسول الله (ﷺ)، فيما بلغني، كثيرًا ما يجلس عنه المَرْوَة إلى مَبْيَعَة غلام نصرانيّ يقال له جَبْر، عبد لبني

(٥٦) هذا ما يقوله الحديث زاعمًا أنّ الأسقف المذكور كان متزوّجًا، أسد الغابة ٤: ٢٤٤. بيد أنّنا نرى الراهب عدّاس النينويّ المقيم في مكّة كان يجهل بعثة محمد وحركته في أوّل الأمر، فما القول عن نصارى الحيرة؟!

الحضرميّ. وكانوا يقولونك والله ما يعلّم محمّدًا كثيرًا ممّا يأتي به إلاّ جبر النصرانيّ، غلام بني الحضرميّ. فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك من قولهم ولقد نعلم...»[٥٧].

من هؤلاء الأجانب، ذوي اللسان الأعجميّ، تذكر «أسباب النزول» موالي أو عبيدًا من عين التَمْر، في ما بين النهرين[٥٨]. ومنهم واحد كان من موالي مخزوم، كما يقول بعض جُمّاع الأحاديث[٥٩]. وليس في الوصول إلى هذا التدقيق كبير عناء. بل كان يكفي أولئك المحدّثين أن يتذكّروا كم كان لبني مخزوم من عبيد وموالٍ يستخدمونهم في مرافقهم الاقتصاديّة المتعدّدة، وأغلبهم كانوا مسيحيّين.

وإنّ لنا في أخبار حياة النبيّ الخاصّة ذكرًا لعدد من العبيد المصريّين ذكور وإناث، كانوا يعيشون في مدن الحجاز. رافق عدد منهم ماريّه الجميلة، جارية النبيّ[٦٠]. وهي قبطيّة الأصل امتلكها أوّلاً عبّاس، ثمّ أعطاها نسيبه محمّدًا[٦١]. ويذكر صاحب أسد الغابة، في حرم عبّاس، جارية أخرى، يونانيّة الأصل[٦٢]. وهناك مولاة اسمها ماريّة – وإذًا فهي يهوديّة أو نصرانيّة[٦٣]– تذكر أنّها رأت زيد بن عمرو «الحنيف» المشهور[٦٤]. ومن موالي صفوان بن أميّة السيّد القريشيّ المعروف، رجل اسمه نسطاس، أو أنستاس، ولا شكّ من نصرانيّته بدليل اسمه[٦٥]. وكذلك نذكر من المسيحيّين المدعوّ مينا أو ميناس، وهو رجل

(٥٧) **سيرة ابن هشام** ص ٢٦٠ ويرى كايتاني (Annali, 235) في ذلك، تأثير زيد بن حارثة، وهو مولًى من كلْب، وإذًا من المتنصّرين، تبنّاه محمّد. وهذا التأثير يدلّ عليه تصيبه الوافر من أخبار السيرة، (راجع، لامنس، فاطمة، ص ٢٤، ٤٠)

(٥٨) الواحديّ، **أسباب النزول** ص ٢١٢.

(٥٩) **أسد الغابة** ٣: ١٣١ وفيه ذكر جارية يونانيّة من موالي بني مخزوم ٥: ٤٦٢، ثمّ ذكر جارية يونانيّة أخرى ٥: ١٩٤.

(٦٠) **أسد الغابة**، ٤: ٢٦٨. وتجد ذكرًا لغيرها من الجواري والعبيد القبط في المدينة، أسد الغابة ٥: ١٢٨؛ ٤: ٣٤٢. ويذكر الذهبيّ (٣: ١٣٤) مولًى اسمه تادرس (فهو قبطيّ إذًا) من موالي حُزام بن حكيم المكّيّ.

(٦١) **أسد الغابة** ١: ٧٧.

(٦٢) **أسد الغابة** ١: ٢١٢، ٤: ٢٣٢.

(٦٣) وقد تقدّم لنا القول إنّ العرب الجاهليّين لم يألفوا استعمال الأسماء المعروفة في الكتاب المقدّس. ولهذا وجب أن يكون أبو حنّا المدنيّ المذكور في ابن سعد: الطبقات ٣: ٤٥ – ٤٦، يهوديّ الأصل. وفي الكتاب نفسه ٣: ٥٤، ٢١ ذكر لامرأة مدنيّة اسمها سارة وفي ١: ٤٣ انّ إحدى بنات عبد مناف اسمها حنّة. ومن المفيد أن يراجع بشأن اسم «حنّا» (J. Horovitz, Koran, Untersuch, 158).

(٦٤) **أسد الغابة** ١: ٣٨٧.

(٦٥) الأصفهانيّ، **الأغاني** ٤: ٤٣؛ إبن هشام: **السيرة**، ص ٦٤٠. **أسد الغابة** ٢: ٢٣؛ الواقديّ ٣٥٣.

«غير منسوب» – أي لا يلتحق بإحدى القبائل العربيّة – صادف محمّدًا قرب الحِجر. ونذكر يوحنّا، عبد صُهَيْب[٦٦]. وصُهَيْب نفسه لم يكن عربيًّا بل كان سريانيًّا من أبناء نينوى، نسطوريّ المذهب، روميّ الأصل، وابنه جعفر الذي كان يفتخر بأنّه تناول سوط الرسول، وقد وقع على الأرض في إحدى الرحلات. فكافأه النبيّ بأن سأل الله أن يطيل حياته. ويزيد جعفر: فعشت ثلثمائة وعشرين سنة بعد الرسول. كذا، ويضيف الذهبيّ المعروف باعتداله: «هو أسقط من أن يُشتغل بكذبه[٦٧]». ثمّ ينعته بأنّه «طير غريب متّهم الكذب[٦٨]»، بل إنّه ينفي وجوده في مكان آخر[٦٩]، وهذا أقرب إلى المعقول.

ويجب أن نذكر من المسيحيّين المقيمين في مكّة في هذه الحقبة فُرَات بن حيّان[٧٠]، أشهر من يذكر من الأدلاّء وقادة القوافل في المجاهل الصحراويّة. كان فُرَات من بني عِجْل البكريّين الذين ظلّوا مسيحيّين مدّة طويلة بعد الهجرة وكان حليفًا لآل سهم من القريشيّين. ومن مسيحيّي مكّة صُهَيْب بن سِنَان المشار إليه آنفًا والمعروف «بالروميّ» لأنّه كان أصله من نينوى العراق نسطوريّ المذهب وروميّ الانتماء، أي تابعًا لإحدى المقاطعات التابعة لإمبراطوريّة الروم: أو بيزنطية[٧١]. وكان من أصدقاء محمّد المخلصين، ولعلّه كان من عملائه، عهد كان الرسول يشتغل بالتجارة ونقل البضائع. والمعروف عن صُهَيْب أنّه بدأ شريكًا لابن جَدْعَان المثري الكبير، ثمّ انفرد عنه، وأصبح من ذوي الثروات المعتبرة في مكّة، بل المحسودة. يدلّ على ذلك ما هدّده به القريشيّون حين أراد الالتحاق بمحمّد إلى المدينة، بعد الهجرة فقالوا: «أتيتنا صعلوكًا حقيرًا، فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت، ثمّ تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك[٧٢]».

---

(٦٦) **أسد الغابة** ٣: ٣٢، ٤: ٤٢٧ السمهوديّ وفاء الوفاء ١: ٢٨٠، الذهبيّ، ميزان الاعتدال ٣: ٢٢٥– ولنضف إلى ما تقدّم ذكر امرأة فارسيّة مقيمة في مكّة، (أسد الغابة ٥: ٤٠٢)، ومولى يونانيًّا تزوّج سُمَيَّة، أمّ الصحابيّ عمّار (**أسد الغابة**، ٥: ٤٨١) وفي السمهوريّ ١: ٨٧، نبوءة لمحمّد تشير إلى تكاثر العبيد من يونان وفرس.

(٦٧) الذهبيّ، **ميزان الاعتدال** ١: ١٩٤.

(٦٨) الذهبيّ، **ميزان الاعتدال** ١: ٢٠١.

(٦٩) الذهبيّ، **ميزان الاعتدال** ٣: ٣٣٠. وقد تقدّم لنا ما يدلّ على دقّة النظر في أحكام هذا النقد البصير.

(٧٠) إبن سعد، **الطبقات** ٢: ٧. ويزعم أبو داود، في السنن ١: ٢٦٢. أنّه كان حليفًا للأنصار (كذا) في الطبقات ٢: ٧ – ٨ أنّه جُرح في بدر.

(٧١) **أسد الغابة** ٣: ٣٠ – ٣١. وفي البلاذريّ، **الأنساب**، ص ١١٠ أنّه دعي «الروميّ» لأنّه كان أحمر شديد الاحمرار.

(٧٢) **سيرة ابن هشام**، ص ٣٢١.

ولا يخفى أنّ محمدًا كان أوّل عهده، يدبّر أموال امرأته خديجة. فكان عليه أن يتردّد إلى الأسواق والمعارض. فلمّا أظهر بعثته، ظلّ على تلك العادة[٧٣]، لعلّه يجد في المجتمعات من يؤمن بدعوته. هكذا كان شأن قسس المسيحيّين ورهبانهم في زياراتهم مجتمعات البدو، وهكذا كان شأن قسّ بن ساعدة الإياديّ[٧٤] «أسقف نجران» الذي كان يأتي سوق عكاظ، على ما تقول الروايات فيعظ القوم[٧٥]. حتّى يروى أنّ محمّدًا سمع إحدى موعظاته.

كما أنّه يذكر أنّ راهبًا «يعالج العيون» عالج عيني محمّد في صغره، وشفاه[٧٦]، واسم الراهب هذا «سميع[٧٧]» وأمّا طريقة معالجته فكانت بأن وضع على عيني الصغير قليلاً من تراب جبل سينا[٧٨]. ولا شكّ في وجود المُداوين والدجّالين[٧٩] في عكاظ وغيرها من الأسواق العربيّة.

إنّ مثل هذه الأحاديث، فغايتها أن تبرّر الالتجاء إلى طبيب من غير المسلمين[٨٠]؛ مستندة إلى ما عُرف عن محمّد من ميل واضح إلى الرهبان[٨١]. ونحن نرى أنّها موضوع، في أكثرها؛ إن لم نقل كلّها، عصر كان كبار الأطبّاء جميعهم من المسيحيّين واليهود. من ذلك أنّ مجاميع «الصحيح» تفيدنا أنّ محمّدًا عهد في معالجة سعد بن أبي وقّاص، من جماعة «المبشَّرة» إلى رجل غير مؤمن هو الحارث بن كِلْدَة الثقفيّ «طبيب العرب» على الإطلاق، وكان مسيحيًّا.

---

(٧٣) وقد أشار خصومه إلى ذلك فقالوا: «ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق...». (أنظر سورة **الفرقان**: ٨، وراجع الذهبيّ، **ميزان الاعتدال** ٢: ١٠٥.

(٧٤) قِسّ بن ساعدة: خطيب جاهليّ، يُضرب به المثل في البلاغة والحكمة والموعظة الحسنة. كان من نصارى نجران ويقال إنّه من أحبارها. كان يعظ القوم في سوق عكاظ.

(٧٥) **الأغاني** ١٤: ٤١ – ٤٢. شيخو، **شعراء النصرانيّة** ص ٢١١–٢١٨، السيوطيّ، **الأحاديث الموضوعة**، ٩٥ – ١٠٠.

(٧٦) وهناك ذكر لكاهن آخر يعالج الأعين، **الأغاني** ١١: ٤٣. **السيرة الحلبيّة** ١: ١٢١.

(٧٧) وقيل إنّ اسمه «أبو عامر».

(٧٨) لامنس، **النصارى في مكّة**، المشرق ص ٩٠.

(٧٩) الجاحظ، **كتاب الحيوان** ٤: ١١٩، ويذكر ابن حنبل، **المسند**، ٤: ٤٠، طبيبًا متنقّلاً يعرض على محمّد أن يعالج عائشة فيشفيها.

(٨٠) راجع **الأغاني** ١٤: ١٧٣.

(٨١) **سورة آل عمران** ١٠٩، **المائدة** ٨٥. والأطبّاء كلّهم من النصارى أو اليهود؛ الجاحظ، **البخلاء** ص ١٠٩، وهناك رهبان يعالجون الكَلَب المقدسيّ ١٤٦.

وأعجب من ذلك كلّه، وجود ناسك عموديّ في مكّة في هذه الحقبة[٨٢]، على غرار سمعان العموديّ الكبير الذي كان يلتهب غيرة وحماسة، ويندفع من فوق عموده في مقاطعة أنطاكية، واعظًا مؤنّبًا جموع البدو المحتشدين حول مقامه الرفيع، ولا يخفى إعجاب البدو بهذا النوع من النسك المسيحيّ.

ومهما يكن من أمر فإنّ الأديرة والمناسك المسيحيّة لم تكن قليلة في بلاد العرب الغربيّة، ولا سيّما شماليّ الحجاز، على طول الطريق التجاريّة الآخذة نحو بلاد الشام[٨٣]، المحاذية لخطّ الحدود الرومانيّة في واحات وادي القرى، ومدْيَن[٨٤]، وتبُوك. وهذه الواحة الأخيرة كانت مركزًا لحامية من رجال الغساسنة ظلّت في خدمة البيزنطيّين، حتّى بعد معركة مُؤْتَة[٨٥].

وفي السيرة الحلبيّة[٨٦]، ذكر لراهب كان في مرّ الظهران، أي في منطقة مكّة. ونحن نعرف أنّ رجال الإكليروس بين مسيحيّي العرب كانوا كلّهم من الرهبان[٨٧]. وذلك أنّ الرهبان، وقد تعوّدوا شظف الحياة التقشّفيّة، كانوا وحدهم يقوون على ذلك الجهاد المتواصل بأدلّ واجباتهم في مناطق الصحراء.

تجّار الشام في مكّة

لا ننسَ تجّار الشام المسيحيّين ورحلاتهم إلى الحجاز، ناقلين الحبوب، والزيوت، والخمور إلى المجتمع القريشيّ[٨٨] المقيم في «وادٍ غير ذي زرع[٨٩]». وهؤلاء أهل يثرب

(٨٢) **المفضّل، الفاخر** ص ٢٣٥ – ٢٣٦.

(٨٣) لامنس، **المصدر نفسه**، ص ٩١.

(٨٤) **تفسير الطبريّ**، ٧: ٤.

(٨٥) **أسد الغابة** ٥: ١٧٦.

(٨٦) **السيرة الحلبيّة** ١: ٧٥.

(٨٧) راجع لامنس، **يزيد**، ص ٣٤٠، **الأغاني** ١٤: ٤٩، **أسد الغابة** ٣: ٦٣، وفي النسائيّ، **السنن** ١: ١١٤، ذكر لراهب عربيّ من طيّ يقوم بمهمّة الخوري. ويذكر الهمدانيّ، صفة جزيرة العرب ٥٣، بعض الرهبان في جزيرة سوقطرة.

(٨٨) من هؤلاء التجّار تميم الداريّ، الشاميّ الأصل الذي كان يبيع الزيت والمصابيح. راجع **أسد الغابة** ٥: ١٤٥ والأزرقيّ ٣٧٥ ومنهم كيسان الصحابيّ بائع الخمور، الدمشقيّ الأصل، أطلب أسد الغابة ٤ ص ٢٥٩.

(٨٩) **القرآن** ١٤: ٤٠.

أنفسهم، على خصب واحتهم وصلاحها لزرع الشعير[٩٠]، كانوا يستوردون قمحهم من الشمال: من البلقاء ومن حوران[٩١]. بيد أنّ التجارة المحلّيّة في المدينة كان يحتكرها اليهود، وهم أبعد همّة، وأقوى جلدًا، وأكثر مالاً من وطنيّيتهم الأنصار المخلدين إلى الراحة وعدم المبالاة. أمّا نقل القمح إلى مكّة، وهي سوق أوسع مجالاً وأبعد شهرة من سوق المدينة، فكان يستقلّ به «الأنباط» أي سكّان سوريّة الأصليّون، وكانوا في أكثريّتهم من المسيحيّين. وقد كان لهم مستودعات ومخازن تصلح حوانيت للبيع أحيانًا، وقد تصلح إبّان الاحتفالات الدينيّة، كنائس ومعابد.

وقد ذكرت لنا كتب الحديث وصول شمّاس إلى مكّة، شمّاس أجنبيّ، دون شكّ، لأنّ جماله الغريب ترك أثرًا بعيدًا في سكّان العاصمة القريشيّة[٩٢]، حتّى إنّ أصحاب المجامع دوّنوه معجبين[٩٣]. أمّا اسم «شمّاس» فكثيرًا ما دلّ في الأحاديث القديمة، على الكاهن المسيحيّ[٩٤]. وتميّز هذه الأحاديث، على ما دخلها من الغريب، بين هؤلاء الشمامسة والرهبان «أصحاب الصوامع[٩٥]».

إنّ عدّاس النينويّ هذا كان مسيحيًّا، ومَوْلى عُتبة بن ربيعة الأمويّ، الذي استقبل النبيّ في الطائف، وهو راهب من نينوى[٩٦]، كما جاء في «السيرة الحلبيّة[٩٧]» وقد صوّره صاحبها راهبًا شيخًا تلجأ إليه خديجة فتستفتيه في بعض الشؤون. أمّا الراجح في كلّ هذا فهو أنّ عدّاسًا كان من بين النهرين[٩٨]، ولا نعلم ما جرى له حتّى بيع عبدًا في بلاد العرب. بيد أنّ كتب الحديث تغدق عليه «الترضية»، وتدوّن اسمه بين أسماء

(٩٠) **أسد الغابة** ٢: ١٨٩.

(٩١) **سيرة ابن هشام** ص ٩١١. ويظهر ممّا ينقل الذهبيّ، **ميزان الاعتدال** ٣: ٢٤٤ أنّ خبز القمح كان نادرًا في المدينة على عهد الرسول.

(٩٢) **سيرة ابن هشام** ص ٤٨٩ و٣٤٩. **أسد الغابة** ٣: ٣٧٥.

(٩٣) **أسد الغابة** ٤: ١٤٨.

(٩٤) قابل بما ورد عن أبي بكر في وصيّته: سترى رجالاً «قد فحصوا رؤوسهم فهم الشمامسة قد حلقوا رؤوسهم»، وهناك ذكر لأسقف يخلع ثوبه الأسود ويلبس ثيابًا بيضاء لإقامة الرتبة (**أسد الغابة** ٣: ٤١).

(٩٥) أصحاب الصوامع فإنّه يعني الرهبان، وراجع في حلق الرأس عند الرهبان، ابن الأثير، **النهاية** ١: ٢٧١.

(٩٦) السمهوريّ، **وفاء** ٢: ١٨٦ وهو يسمّيه «عديس».

(٩٧) **السيرة الحلبيّة** ١: ٢٦٠.

(٩٨) وإذًا فلا بدّ من أن يكون أدرك الفتح. أمّا الواقديّ، ص ٢٨ و٢٩ فيزعم أنّه قُتل في بدر.

الصحابة[٩٩]، زاعمة أنّه «حوّط بحجارة» كلّ مسجد وكلّ مصلًّى صلّى فيه النبيّ في جبل سراة[١٠٠]، معوّضًا بذلك عن إعراض أهل الطائف عن القيام بهذا الواجب التقويّ.

الكُهّان والأساقفة

وهناك طبقة أخرى في المجتمع العربيّ يظهر الحديث بها اهتمامًا جدّيًّا، هي طبقة «الكهّان». وما ذاك إلاّ لأنّهم يمثّلون دورًا مهمًّا في «دلائل النبوّة» أي في مجموعة المظاهر والآيات التي تدلّ، في نظرهم، على ظهور محمّد. وعلى سبيل هذا يذكر الحديث الكاهن النصرانيّ مأمون بن معاوية، وهو من أشهر الاختصاصيّين بفنّه وباستخراج دلائل الزجر والعرافة. كان له طائر[١٠١] خاصّ يزوره في أوقات متناسبة فيوليه من الوحي ما يمكّنه من معرفة الغيب وفهم حوادث المستقبل. وفي إحدى هذه الزيارات، وكانت يوم الجمعة، أعلن الطائر للكاهن أنّ مجيء محمّد صار قريبًا. بيد أنّ من نقص التدقيق في هذه الأسطورة[١٠٢] المنسوبة إلى صحابيّ مخترَع من أولئك المعمّرين البالغين ١٦٠ سنة أنّ الراوي يُهمل ذكر مقام العرّاف النصرانيّ هل كان في مكّة أم في غيرها من قرى تِهامة[١٠٣].

ومهما يكن من آراء النقد في هذه الأساطير الموضوعة، والتي نرى فيها كثيرًا من رجال الدين المسيحيّ، فليس لنا ما يجيز الزعم بأنّه كان في مكّة نظام مرتّب للإكليروس المسيحي[١٠٤].

(٩٩) الواقديّ (ص ٢٨ – ٢٩) يزعم أنّه قتل في بدر. والمقدسيّ ٥ : ١٢٢ لا يعدّه بين المسلمين.

(١٠٠) **أسد الغابة**، ٣ : ٣٨٩ – ٣٩٠.

(١٠١) هو التابع أو الروح الخاصّ بالكاهن يلهمه بما يقول. ولا يندر أن يتّخذ هيئة الطيور، راجع ابن سعد، **الطبقات** ١ : ١١، ١٢٦.

(١٠٢) قابل بما يروى عن الكاهن النصرانيّ سَطيح في ابن هشام، **السيرة** ٩، ٣٨، ٤٥، ٤٧.

(١٠٣) **أسد الغابة** ٣ : ٥٣.

(١٠٤) إرجع إلى شيخو، النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة ١ : ١١٧. ويجب أن يُقرأ نصّ الأغاني (١٣ : ١٠٩) «لا سقف عليه» بدلّ: «لأسقُف عليه»، وكذلك أنّ أبا قيس صُرمة المذكور هناك (ص ١٢٠) كان أنصاريًّا لا قريشيًّا. فمن الحقّ أنّ «التقويم» النسطوريّ يعيّن مركز أسقفيّة في المدينة وفي عكاظ، ولكنّه لا يقول شيئًا بشأن مكّة. على أنّ هذا «التقويم» نفسه مزوّر، يرقى إلى عصر قريب منّا كلّ القرب. أمّا التقليد في الكلندار السريانيّ فيخبرنا أنّ أوّل كنيسة شيّدت على اسم العذراء مريم كانت في يثرب المدينة وما زالت هذه الكنيسة تعيّد لهذه الذكرى في كلّ ١٨ حزيران من كلّ عام.

جاء في أخبار الفيّوميّ من أنّ عبد المطّلب، جدّ محمّد، تحدّث إلى أسقف، في فناء الكعبة. ويزيد المؤلّف شارحًا لفظة أسقف: أي رئيس النصارى. وكان من نتائج هذا الحديث أنّ الأسقف أخذ يفصّل لجدّ محمّد حياة حفيده المقبلة مرحلة مرحلة[١٠٥]. لكنّنا لا نعرف أيّ خبر عن هذا الأسقف ولا إلى أيّ كنيسة من كنائس بلاد العرب كان ينتمي. وإلاّ فإنّنا نولي مخيّلات أرباب «السيرة» أهمّيّة وانتباهًا هي جدّ بعيدة عن أن تستحقّهما. وليس من غاية في دسّ هذا الأسقف الجديد في حوادث طفوليّة محمّد إلاّ ما عرفناه في إدخال زملائه أساقفة نجران والحيرة، من العمل على إظهار سائر أنحاء الجزيرة بأجمعها متأثّرة بظهور نبيّها العربيّ الوطنيّ.

وكمثل هذا الاهتمام ما يجب أن نوليه للقب «القسّ» الذي أُلصق باسم ورقة بن نوفل[١٠٦]، فلا نحفل كثيرًا بمعنى هذه الكلمة، ولا نعمل على استنتاج المهمّ منها. وكذلك نقول عن لفظة «راهب» في لقب أبي عامر المدنيّ، والد حنظلة، شهيد أُحُد و«غسيل الملائكة».

عامّة السكّان

وكان من جملة سكّان مكّة، أرباب الصنائع المختلفة كالقصّابين، والحدّادين والحجّامين، وكلّهم كان العرب يدعونهم «بالعلوج[١٠٧]» على أنّهم يمتدحون مهارتهم في الصناعات، كما نعرف من حادثة أبي لؤلؤة على عهد عمر بن الخطّاب. ولنا في متفرّق كتب الأحاديث ذكر لبعضهم، عبيدًا أو موالي اشتهروا بالتجارة[١٠٨]، وصنع الأسلحة[١٠٩]، وإصلاح الأحذية[١١٠]، بل إنّ هناك ذكرًا لعبد من السودان كان يصنع التماثيل في المدينة[١١١]. وهناك نجّار من الأقباط، أو من الروم، قام بتسقيف الكعبة، قبل

(١٠٥) **السيرة الحلبيّة** ١ : ١١٨.

(١٠٦) كلمة القسّ مأخوذة من كلمة قشيشو السريانيّة وتعني الشيخ أو الكبير أو الزعيم وبهذا المعنى يكون ورقة شيخًا أو كبير القوم ولا تعني القسيس أيّ رجل الدين المسيحيّ.

(١٠٧) **أسد الغابة** ٤ : ٧٥.

(١٠٨) **أسد الغابة** ٤ : ٧٦، ٢٢٦. ٥ : ٥٠٧ ولم يكن في المدينة على عهد محمّد سوى نجّار واحد (السمهوريّ، **الوفاء** ١ : ٢٨٠).

(١٠٩) **أسد الغابة** ٤ : ٣٤٨.

(١١٠) **أسد الغابة** ٥ : ١٢٤.

(١١١) **أسد الغابة** ٥ : ٥٩١.

دعوة محمّد بعدّة سنوات. وكانت الكعبة لا تزال «لا سقف عليها[١١٢]». ثمّ إنّ أسرة بني مخزوم، من عرفناها بالغنى والسهر على مصالحها التجاريّة والاقتصاديّة، كانت تستخدم الكثير من العبيد الأحباش في صناعاتها المختلفة محوّلة الموادّ الأوّليّة التي كانت تستقدمها من اليمن، حتّى إذا دنت ساعة الخطر واضطرب الأمن، أسرع المخزوميّون فسلّحوا هؤلاء الصنّاع، وقد عرضوا على محمّد معونة هؤلاء «الجنود» بضعة أيّام قبل معركة حنين. فرفض محمّد الاستعانة بالسودان[١١٣]. ولعلّه شكّ في إخلاصهم. وقد خبرهم يوم معركة أُحُد.

وكان من عادة محمّد، قبل الهجرة، أن يزور الحوانيت والأكواخ التي كان يشتغل فيها الصنّاع المسيحيّون. فيحادثهم بشؤون الدين، حتّى اتّهمه أعداؤه بأنّه يستوحي منهم تلك الأخبار التي كان يردّدها على مؤمنيه وسامعيه. فاضطرّ محمّد إلى تبرير نفسه بحماسة، ذاكرًا أنّ ما يقوله مجلوّ «بلسان عربيّ مبين» بينا لسان أولئك الأجانب «أعجميّ» غير فصيح. هذا ما يُستنتج من بضع آيات حفظت صدى هذه المشاحنة في القرآن، جاء فيها: «قُل نزّله روح القُدُس من ربّك بالحقّ ليثبت الذين آمنوا وهدًى وبشرى للمسلمين. ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلّمه بشر لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجميّ وهذا لسان عربيّ مبين[١١٤]». وفي سورة غيرها: «وقال الذين كفروا إنْ هذا إلاّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلمًا وزورًا[١١٥]».

على أنّ القريشيّين لم يكتفوا بهذا الردّ اللغويّ. وهم إنّما كانوا يتحقّقون أمرًا واقعًا باختلاف إلى معامل المسيحيّين وأكواخهم، ثمّ ينتقدون أخباره وأحاديثه أنّها قديمة معروفة لا ابتكار فيها ولا طرافة فهي من «أساطير الأوّلين». ولنا في القرآن الشواهد الكثيرة على هذا الموقف: «وقالوا، أساطير الأوّلين اكتتبها، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً[١١٦]». «ومنهم من يستمعُ إليك وجعلنا على قلوبهم أكِنّةً أن يفقهوه، وفي آذانهم وَقرًا وإن يروا كلّ آيةٍ

(١١٢) **سيرة ابن هشام** ص ١٢٢. **أسد الغابة** ١: ١٦٣. **السيرة الحلبيّة** ١: ١٥٥، ابن الأثير، **النهاية** ١: ٢٨٢، السمهوريّ، **الوفاء** ١: ٢٨٠، بيد أنّ اسم بَقُوم (باخوميوس) المطلق على هذا النجّار يميل بنا إلى ترجيح أصله القبطيّ.

(١١٣) **أسد الغابة** ٤: ٣٤٨.

(١١٤) **سورة النحل**: ١٠٤ — ١٠٥.

(١١٥) **سورة الفرقان**: ٥.

(١١٦) **سورة الفرقان** آية ٦.

لا يؤمنوا بها حتّى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين[١١٧]». «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إنْ هذا إلاّ أساطير الأوّلين[١١٨]». إلى غير ذلك من الآيات المماثلة[١١٩]. أمّا محمّد فقد اكتفى بالردّ اللغويّ المتقدّم حتّى إذا كثر أتباعه، وشعر بقوّته أخذ يتحدّى «الأنس والجنّ» أن يأتوا بمثل آية من آياته.

إنّ هذه الآيات تؤكّد لنا وجود عدد من الأجانب في مكّة كان يختلف إليهم محمّد، وأنّهم كانوا من الموحّدين[١٢٠]. ولم ينكر أن يكون استقى منهم معلوماته بحجّة أنّ لسانه عربيّ فصيح ولسانهم أعجميّ. ولم ينكر محمّد صفتهم التوحّديّة، ولا اختلافه إليهم. إنّما أنكر أن يكون استقى منهم معلوماته بحجّة أنّ لسانه عربيّ فصيح ولسانهم أعجميّ. أمّا الفرق بين ما أتى به من المعلومات التاريخيّة والعقائديّة في القرآن، وبين ما كان ممكنًا أن يتناوله من أولئك الأجانب، في زعم أعدائه، فلا يهمّنا الآن، وإن يكن محمّد رأى في أقواله خاصّة تلك الميزة اللغويّة والبيانيّة الفارقة التي جعلت من القرآن آية بل «معجزة» لا يمكن المقلّدين أن يتخطّوها. على أنّنا نشكر له ما أفادنا، بطريق العرض، من معلومات عن أصل أصحابه الموحّدين، وكلّهم أجانب عن البلاد العربيّة المعروفة: الحجاز ونجد. ولم يكن محمّد ليطلب العربيّة الفصحى من مسيحيّي الحيرة ونجران، فكيف «بأنباط» الشام المتأثّرين بالآراميّة، أو ببدو الحدود البيزنطيّة بين الشام وأعالي العراق كعشائر بني كَلْب[١٢١]، ولغتهم خليط غريب من العربيّة واللهجات الآراميّة حتّى إنّه لم ينبغْ شاعر واحد منهم باللسان العربيّ قبل الهجرة. أمّا زهير بن جَناب فأقرب إلى الأسطورة المتولّدة في العصر الأمويّ منه إلى التاريخ الصحيح[١٢٢].

(١١٧) **سورة الأنعام** آية ٢٥.

(١١٨) **سورة الأنفال** آية ٣١.

(١١٩) **سورة النحل**: ٢٦، **سورة المؤمنين**: ٨٥، **سورة النمل**: ٧٠، سورة **الأحقاف**: ١٦، **سورة القلم**: ١٥، **سورة المطفّفين**: ١٣.

(١٢٠) ولا يمكن أن نجعلهم من اليهود، لقلّة العبيد اليهود.

(١٢١) وإليهم كان ينتسب زيد بن حارثة الذي تبنّاه محمّد ومن الراجح أنّ زيدًا كان أكبر سنًّا من «أبيه» لأنّه تزوّج حاضنته السوداء أمّ أيمن.

(١٢٢) ولا شكّ في أنّ شعره منحول. وهناك كلبيّ آخر اسمه دحية بن خليفة كان يتمثّل بالملك جبرايل، ولكنّه لم يظهر إلاّ في المدينة. ومن المفيد أن يراجع بشأن لغة كلب (**الأغاني** ٢٠: ٢١).

وكان هؤلاء الأجانب العائشون في مكّة فوق مهارتهم بالصناعات اليهوديّة، قد احتكروا أنواع الفنون على ضآلتها في ذاك المجتمع، ومظاهر المهن الحرّة، وكلّ ما كان يفرض معارف وضعيّة خاصّة، أو ثقافة علميّة، نادرة بين العرب إذ ذاك.

هذا وقد حفظ جمّاع الأخبار والأحاديث كابن رَسْتة[١٢٣] وابن قُتيبة[١٢٤]، لائحة بالمهن والصناعات التي كان يمتهنها «أشراف» قريش من الأمويّين والمخزوميّين ومن إليهم. وإذا بينهم الحدّادون، والخيّاطون، والقصّابون، والأطبّاء والجرّاحون، وأطبّاء الأسنان، كانوا كلّهم من المسيحيّين في مكّة، وكان لمهارتهم فضل يذكر في مجتمع بدويّ، سريع الهيجان، عرضة للغزو على مدى أيّامه. وقد نسب المؤرّخون للجرّاحين عمليّات لا بأس بدقّتها. من ذلك أنّهم كانوا يبدّلون بالأنوف المقطوعة[١٢٥] أنوفًا من الذهب أو الفضّة[١٢٦]. وكانوا يُذهّبون الأضراس ويثبّتون المتقلقل منها بالخيوط الذهبيّة[١٢٧].

ولمّا كانت مكّة مدينة تجاريّة ووسطًا اقتصاديًّا مهمًّا، كان لا بدّ من الكتّاب والحسبة. وهو أمر لم ينتبه له التفسير القرآنيّ عندما فسّر لفظة «أميّ»، بجاهل القراءة والكتابة. ومن المعروف أن أسرى بدر من القريشيّين تحوّلوا إلى معلّمين يدرّسون أبناء الأنصار، مزارعي يثرب، المنتصرين عليهم[١٢٨]. فكان جميعهم، حتّى الفقراء منهم، يتمكّنون من القيام بهذه المهنة الجديدة.

كلّ هذا يدلّ على أنّ الكتابة كانت رائجة، إن لم نقل واسعة الانتشار في مكّة. بيد أنّ مؤرّخي العصر لا يذكرون اسم معلّم واحد من القريشيّين. ذلك أنّ القراءة والكتابة

(١٢٣) **في جغرافيّته**، ص ٢١٥.

(١٢٤) **كتاب المعارف** (الطبعة المصريّة) ص ١٩٣–١٩٤.

(١٢٥) نرى، في تاريخ ذاك العصر، كثيرًا من المدعوّين «بالخطيم» أي صاحب الأنف المضروب، كقيس بن الخُطَيم الشاعر اليثربيّ، **الأغاني** ٩٣:١٠٣، **أسد الغابة** ٣:١٠٢، ١٠٧ ومنهم من دعي «بالأَسْلَت» أي ذي الأنف المقطوع، ابن دريد، **الاشتقاق** ص ٢٦٦. أو زيد، **النوادر** (طبعة بيروت) ص ١١٤.

(١٢٦) ترى مناقشة لطيفة بهذا المعنى في ابن الأثير، **النهاية** ٣:١٩٩، ٤:٢٠٥–٢٠٦، الترمذيّ: **الصحيح** (طبعة الهند) ٢:٢٠٩، البغويّ: **المصابيح** ٢:٨٥، **أسد الغابة** ٣:٥١، ١٢٩، ٤٠٠، ابن حنبل: **المسند** ٤:٣٤٢، ٥:٢٣.

(١٢٧) لامنس، **النصرانيّة في مكّة**، **مجلّة**، **المشرق**، بيروت.

(١٢٨) إبن سعد، **الطبقات** ٢:١٤. وقد يكون في ذلك حملة أنصاريّة موجّهة إلى القريشيّين، ولا يخفى ما كان يحيط بمهنة معلّم الأولاد من الازدراء في القرن الأوّل للهجرة.

كان يعلّمهما الأجانب وحدهم. وكان من رغبة القريشيّين في التعلّم أنّ بعضهم كان يقصد المعلّمين حتّى مدينة الحيرة المسيحيّة[١٢٩].

ولنشرْ أخيرًا إلى وجود جبّانة خاصّة بالمسيحيّين في مكّة[١٣٠]، وهذا دليل جديد على وجود مجتمع مسيحيّ في عاصمة القريشيّين.

مجتمع النساء

ولننتقل إلى عنصر ثانٍ من عناصر السكّان. فنرى أنّ عدد النساء كان وافرًا في البيوتات القريشيّة. ذلك أنّ السياسة العامّة، والحاجة إلى محالفة أسياد القبائل البدويّة، كانت تدفع رجالات قريش إلى الإكثار من الزواج[١٣١].

وهناك عادة أخرى كانت تدفع المجير أو المحالف إلى التزوّج بأرملة «الحليف» المتوفّى[١٣٢]، فيؤمّن لها حياتها.

لو تأمّلنا كنية أمّ عائشة وبنفس الوقت زوجة أبو بكر الصدّيق وهي «أمّ رومان» فتكون والحالة هذه مسيحيّة الذي نخاله أنّه مصحّف عن اسم «رومانوس» المسيحيّ[١٣٣]. وفي الواقع أنّ بني رومان كانوا جزءًا من قبيلة طيّ المسيحيّة. ولا سند للاشتقاق اللغويّ الخياليّ الذي يذكره ابن دريد[١٣٤]. بيد أنّه ليس لنا في ترجمة امرأة أبي بكر ما يشير، وإن إشارة ضئيلة إلى أصل مسيحيّ[١٣٥]. ولكن مهما يكن من أمر فإنّ «الأحلاف» المسيحيّين لم يكونوا بالعدد القليل في بيوتات القريشيّين في مكّة...

ولم يكن الخلفاء عثمان ومعاوية ويزيد ليندموا على زواجهم بمسيحيّات من بني كلب[١٣٦]. ولعلّهم ذكروا، في ذلك، مثل شيخهم أبي سفيان في تزوّجه بمسيحيّة[١٣٧]،

(١٢٩) إبن قُتيبة، **المعارف** (الطبعة المصريّة، ص ٨٧).

(١٣٠) الأزرقيّ، ص ٥٠١.

(١٣١) كان لصفوان بن أميّة ستّ نساء عندما أسلم. (راجع أسد الغابة ٥:٥٠١).

(١٣٢) إبن سعد، الطبقات ٥:١٨٦، ابن قُتيبة، **المعارف**، ص ٥٧.

(١٣٣) يذكر الهمدانيّ (**صفة جزيرة العرب**، ١٨٠) رجلاً باسم ابن رومانوس من قبيلة كلب، وأكثريّتها مسيحيّة.

(١٣٤) إبن دريد، **الاشتقاق**، ص ٢٢٨.

(١٣٥) **أسد الغابة** ٥:٥٨٣، وفي موضع آخر (**أسد الغابة** ٥:١٠٧) ذكر لعدد من نساء المسيحيّين في اليمن، تزوّجن رجالاً مسلمين في مصر، بعد الفتح بقليل.

(١٣٦) لامنس، **يزيد**.

(١٣٧) شيخو، **النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة**، ص ١٢٠.

وفي تزويجه ابنته أم حبيبة من أحد المسيحيّين[١٣٨]. وكان محمّد نفسه قبل أن يختار عثمان صهرًا له[١٣٩]، قد زفّ إحدى بناته إلى عُتْبَة بن أبي لَهَب. ولكنّ هذا لم يُنتج سوى مرارة مؤلمة، أثّرت بمحمّد طويلاً. ولعلّ من آثارها تلك الآيات الشديدة التي خلّدت بالخزي ذكرى أبي لَهَب. وقد ظلّ الخصام غامض الأسباب، صعب الشرح، على رغم ممّا حاوله المفسّرون من شروح وتأويل[١٤٠]. أمّا ما يظهر جليًّا فهو أنّ عُتْبَة طلّق ابنة محمّد عندما اعتنق المسيحيّة. وأدلى إليه بهذا التصريح الجريء: «يا محمّد، أشهد أنّي مسيحيّ قد كفرت بربّك، وطلّقت ابنتك[١٤١]». هذا ما نقله صاحب الأغاني. وقد يكون في الحكاية تحامل على أسرة أبي لَهَب[١٤٢]. ولا أعرف سندًا آخر لمسيحيّة عُتْبَة.

قريشيّون مسيحيّون

على أنّ هناك رجلاً قريشيًّا لم يشكّ أحد بمسيحيّته، هو عثمان بن الحويرث الأَسَديّ. إنّما يتّفق المؤرّخون المكّيّون على جعله يدين بالمسيحيّة في أرض الإمبراطوريّة البيزنطيّة[١٤٣]. ولا عجب، وقد عرفنا نزعتهم إلى إقصاء كلّ من دان بالمسيحيّة من كبار قريش، حتّى ليجعلون قيصر بيزنطية نفسه يهتمّ بهؤلاء المتنصّرين[١٤٤]. وهكذا خرّجوا مسيحيّة زوجا سَوْدَة وأمّ حبيبة اللتين تزوّجهما محمّد بعد ذلك، فقالوا إنّ زوجيهما الأوّلين تنصّرا في أرض الحبشة[١٤٥].

(١٣٨) إبن سعد، الطبقات ٨: ٦٨؛ ابن هشام، السيرة ص ١٤٣ – ١٤٤؛ إبن قتيبة، المعارف (الطبعة المصريّة ٤٢) يقال عن هذا الزوج إنّه «غرق في الخمر ويقال بل غرق في البحر» (البلاذريّ، الأنساب، ص٢٨٤) وهل يكون لهذا «الغرق في البحر» من أثر في تكوين أسطورة الهجرة إلى الحبشة؟ وراجع، في نصرانيّته، السيرة الحلبيّة ١: ٣٥٩. أمّا «الغرق في الخمر» فقد قيل عن الأسود وحشيّ إنّه مات غرقًا في الخمر (إبن الأثير، النهاية ٣: ١٥٩).

(١٣٩) وقد بلغ من حبّ محمّد لعثمان أنّه قال: (لو كان لي أربعون بنتًا زوّجت عثمان واحدة بعد واحدة حتّى لا يبقى.

(١٤٠) لامنس، **النصرانيّة في مكّة**، **المصدر السابق**.

(١٤١) لامنس، **المصدر السابق**.

(١٤٢) وكثيرًا ما تحيّز صاحب الأغاني إلى العلويّين، على خلاف ما يزعم نولدكه، راجع الذهبيّ، ميزان الاعتدال ٢: ٢٢٣، مستغربًا هذه النزعة في رجل أمويّ الأصل.

(١٤٣) اليعقوبيّ، **تاريخه** ١: ٢٩٨.

(١٤٤) راجع **الأغاني** ١٣: ١١٢. وقابل مجادلة مضحكة في **أسد الغابة** ٤: ١٤٣، وهي مستوحاة من أسطورة امرئ القيس.

(١٤٥) البلاذريّ، **الأنساب** ١٣٣، ١٣٧. **سيرة ابن هشام** ص ١٤٣ – ١٤٤. **أسد الغابة** ٣: ١٣١. ٥: ٤٥٧ و٥٧٣. إبن الأثير، **النهاية** ٢: ٢٤٨.

أمّا عثمان ابن الحويرث فالحقّ أنّه دان بالمسيحيّة قبل رحيله إلى بلاد بيزنطية، ولا شكّ أنّ صفته المسيحيّة دفعته إلى تلك الرحلة، لاجئًا، في تحقيق أهدافه، إلى القيصر، ملاذ مسيحيّي الشرق والمحامي عنهم.

ولنا ما يؤيّد أنّ تجّار الشام المسيحيّين كانوا يدعون علنًا في يثرب، إلى إيمانهم، ولا من يمنعهم أو يقلقهم في دعوتهم[١٤٦]. وليس ما يدلّ على أنّ وطنيّي ابن جُدْعَان وأبي أُحَيْحَة كانوا أقلّ تساهلاً من أنصار المدينة. فقد رأينا محمّدًا يختلف إلى أماكن النصارى علنًا، ويباحثهم دون أن يعترضه معترض. هذا إذا استثنينا أولئك الذين أشرنا إليهم، مستندين إلى القرآن، والذين كانوا ينتقدون صاحب الدين الجديد تقليده، وإيراده «الأساطير» القديمة المعروفة، ونقله عن الأجانب آيات قرآنه[١٤٧]. وقد كان من هؤلاء من يلفت نظر الموحّدين فيصرفهم عن الانخداع بأقوال «الغلام» أو «الفتى» الداعية الجديد[١٤٨]. مؤيّدين سموّ العقائد الإنجيليّة على ما كان يأتي به من أقوال صائحين بعدّاس: «ويحك يا عدّاس، لا يصرفنّك عن دينك. فإنّ دينك غير من دينه[١٤٩]».

كل هذا يجري على غير اهتمام من السراة القريشيّين، أبناء تلك الأريستوقراطيّة الماليّة المماثلة «بالملأ» أو «دار الندوة» التي لم تتأثّر بهذه المشاحنات، كما أنّها لم ترَ بأسًا بدعوات القسس ومواعظهم، زمن الأسواق المنعقدة حول مدينتهم مكّة.

وهناك أَسَديّ قريشيّ آخر لا يتردّد المؤرّخون لحظة في إقرار مسيحيّته، ولا يحاولون – كما حاولوا بشأن الأَسَديّ عثمان بن الحويرث – أن يجعلوه متنصّرًا خارج الجزيرة العربيّة، هو ورقة بن نوفل الشهير[١٥٠]، نسيب خديجة، أولى نساء محمّد. ذلك أنّهم كانوا بحاجة إلى هذه الصراحة في إقرار مسيحيّته، موافقة للدور المهمّ الذي اختاروه لتمثيله. فهو يمثّل لدى الإسلام الناشئ، العالم المسيحيّ بأجمعه، فيقرّ بصحّة رسالة محمّد[١٥١]، باسم

(١٤٦) **أسد الغابة** ٥: ١٧٢. الواحديّ، **أسباب النزول** ص ٥٨.

(١٤٧) سورة النحل: ٥، **سورة الفرقان**: ٥... وغيرها من الآيات... البلاذريّ، **الأنساب**، ٦٤.

(١٤٨) لامنس، **المصدر نفسه** ص ٢٧١.

(١٤٩) **سيرة ابن هشام**، ص ٢٨٠، **أسد الغابة** ٣: ٣٩٠.

(١٥٠) أطلب ما نسب إليه من شعر مهلهل مضطرب.

(١٥١) **أسد الغابة** ٣: ٢٠٧.

أولئك «الذين أوتوا نصيبًا من العلم» على حسب لغة القرآن[١٥٢]. ولم يكن من اللائق أن يُعهد بهذا الدور المهمّ في «دلائل النبوّة» إلى أحد المبتدئين بالمسيحيّة أو إلى من تكون مسيحيّتهم عرضة للشكّ والتردّد. وهكذا أصبح ورقة يمثّل، في عراقة مسيحيّته، جمهور أهل الكتاب.

أمّا لماذا فضّله مؤرّخو السيرة على رفيقه المعروف «الحنيف» زيد بن عمرو، وقد طالما تردّدوا بين الرجلين في نسبة الأشعار الحنيفيّة المزعومة[١٥٣]، فهو ما لا يتّسع بنا المجال لمناقشته[١٥٤].

ولا يخفى أنّ التعابير «نصيب من العلم» و«نصيب من الكتاب» من خصائص السور المدنيّة، وإذًا فهي ترقى إلى ما بعد الهجرة. وحينئذ أخذ محمّد، في احتكاكه باليهود، يعلن الفرق بين التوراة والإنجيل، وكلاهما «نصيب من الكتاب» الذي يكمّله القرآن في نظره.

وفيما سبق، كانت خديجة «وزير صدق» إلى جنب محمّد في الحالات الصعبة، وكثيرًا ما كانت تراجع السور القرآنيّة بإشراف ورقة بن نوفل مع محمّد في الليالي الطوال خاصّة بعد زواجها واطمئنانه على مستقبل حياته العائليّة.

وأيضًا تخبرنا «السيرة» أنّ خديجة سألت عن أمر الوحي العبد المسيحيّ عدّاسًا[١٥٦]، وعلى أنّ مؤرّخي السيرة خانتهم الذاكرة – أو خانت عدّاسًا نفسه – فزعموا عن لسانه، أنّه لم يعرف محمّدًا إلاّ في الطائف، بعد أن مرّ على الحادث الأوّل نحو عشر سنوات. ولا يخفى أنّ عدّاسًا كان من عبيد الأمويّين، وكان مقيمًا في مكّة منذ السنين الطوال. فكيف لم يرَ محمّدًا، وقد لهجت به وبتعاليمه مكّة بكاملها، على قول مؤرّخي السيرة أنفسهم؟ وعندما سمع عدّاس محمّدًا، في الطائف، يذكر اسم يونس، صاح به بداهة: «وما يدريك ما يونس؟[١٥٧]» وهذا دليل على ندرة الأسماء الكتابيّة بين العرب الجاهليّين،

(١٥٢) أو «أوتوا العلم» أو «أوتوا نصيبًا من الكتاب» **سورة آل عمران**: ٢٢، **سورة النساء**: ٤٧، ٥٤، **سورة الحجّ**: ٥٣...

(١٥٣) السمهوريّ، **الوفاء** ٢: ٢٨٢. لامنس، **يزيد**، ص ٢٩٠–٢٩١.

(١٥٤) وقد يكون من أسباب هذا التفضيل القرابة بين خديجة وورقة.

(١٥٥) البلاذريّ، **الأنساب**، ص ٦٦–٦٧...

(١٥٦) البلاذريّ، **الأنساب**، ص ٦٦–٦٧.

(١٥٧) **أسد الغابة** ٣: ٣٩٠. وفيه أنّ محمّدًا ذكر اسم يحيى مؤكّدًا أنّه لم يُسمَّ به أحد قبل ذاك (في البلاد العربيّة)، **أسد الغابة** ٥: ١٠٠.

حتّى إنّ اسم إسماعيل جدّهم[١٥٨]. وقد عرف محمّد قصّته متأخّرًا، في أثناء حديثه مع الموحّدين[١٥٩] الأحناف.

ومهما يكن من صحّة تدخّل عدّاس، فإنّها لم تكفِ المؤرّخين الرسميّين، فاتّجهوا جهة ورقة بن نوفل يضخّمون شخصيّته. ويطوّلون في أسطورته[١٦٠]. وإذا بمجاميع الأحاديث القانونيّة تطلق عليه لقب «القسّ» وتظهره بمظهر العالم المتبحّر المطّلع على دقائق اللاهوت والآداب المتعلّقة بالمسيحيّة والعلوم الكتابيّة فتقول: «استحكم في المسيحيّة»، واتّبع الكتب من أهلها حتّى علم علمًا من أهل الكتاب[١٦١]»، بل إنّه كان باستطاعته أن يقرأ الكتب بلغتها الأصليّة، إذ كان متضلّعًا من العبريّة نفسها[١٦٢]، وهكذا نراه يستكمل معدّات النقد الكتابيّ من لاهوت وتفسير، ومعرفة باللغات والآداب الكتابيّة، فهو على أتمّ ما يمكن اضطلاعًا بأصول الوحي، ومن ثمّ ضمانة لصحّة ما يرى في بعثة محمّد. ولم يكن من المعقول أن نرى في الحُنَفاء منهم كزيد بن عمرو، بعد أن جعلتهم السيرة كلّهم «أمّيين» فوجب إذًا أن يكون ورقة من المسيحيّين، بل من العريقين بالمسيحيّة. ولم يكن بالإمكان أن يحلّ محلّه أحد أولئك المثقّفين بالديانة اليهوديّة لفرط ما أظهروا من الحقد على محمّد والنفور من تعاليمه الجديدة، بشهادة القرآن نفسه.

ولم يكن ورقة من عامّة المسيحيّين، أولئك التجّار والمهنيّين الذين رأيناهم[١٦٣]، يعيشون أحرارًا في المجتمع المكّيّ ولكنّهم يظلّون أجانب عن السلطة والسيادة، لا يسمّون إلاّ «بالعلوج» ولا يتمكّن الكثير منهم من التعبير بالعربيّة الفصحى[١٦٤]. بل كان من قريش «صَلِيبة» من رجال الأرستقراطيّة الذين لهم مركزهم في المجتمع الأعلى، في «الملأ» بفضل

(١٥٨) راجع **أسد الغابة** ٤: ٣١١. أمّا في المدينة، ذاك الوسيط اليهوديّ، فيذكر عدد من المسمّين يحيى، أسد الغابة ٥: ٩٩–١٠١.

(١٥٩) لامنس، **النصارى في مكّة**، **المشرق**، ص ٢٧٣.

(١٦٠) ويقرّ ابن الأثير، **النهاية** ١: ٢٦٦، أنّ هذه الأسطورة مضطربة. راجع نسبه المتقلقل في **أسد الغابة** ٥: ٨٨، وفيه ذكر لعدّة رجال باسم ورقة بن نوفل، وكلّهم من غير المشهورين. بل إنّ من الرواة من يزعم أنّ ورقة كان أعمى زمن التنزيل الأوّل (البخاريّ، طبعة إستانبول، ١: ٣) ولعلّهم أرادوا أن يبرّروا تردّده في الالتحاق بمحمّد.

(١٦١) البخاريّ، **الصحيح** (طبعة إستانبول ١: ٣) سيرة ابن هشام، ص ٢٤٣، البلاذريّ، الأنساب، ص ٦.

(١٦٢) **أسد الغابة**، ٥: ٤٣٦.

(١٦٣) ولنضف إليهم تاجرًا كان من موالي الهاشميّين ذكره صاحب **أسد الغابة** ٣: ٣٩٠ – ٣٩١، وزوجَي سودة وأمّ حبيبة اللتين تزوّجهما محمّد بعد ذلك.

(١٦٤) راجع **سورة النحل** آية ١٠٥.

كرم محتدهم وشرف حسبهم[١٦٥]. كان منهم عثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل هذا وكلاهما من نسل قُصَيّ، جدّ الأسر الأرستقراطيّة في مكّة. يظهر ذلك أيضًا من أخبار «السيرة» وفيها يكثر ورود اسم ورقة، يذكره جُمّاع الأخبار كلّما أمكنهم ذلك، معظّمين شأنه في أوائل زمن «الوحي» أو بعثة محمّد.

أمّا عثمان فقد نفعته مسيحيّته في الالتجاء إلى القيصر، حتّى إنّه كاد يتسلّط مطلقًا على مقدّرات مكّة مدينته، لولا ما اتّصف به وطنيّوه المكّيّون من نزعة أساسيّة إلى الديمقراطيّة البالغة حدّ الفوضى أحيانًا. هذه النزعة وحدها لا مسيحيّة ابن الحويرث، هي التي عملت على إخفاق الرجل في مقاصده[١٦٦].

ومن المفيد أن نذكر أنّ أبا سفيان، وهو المعروف بسموّ نظره ورفعة مركزه بين قومه حتّى كان «لا يسقط له رأي في الجاهليّة»، لم يتراجع عن اختيار أصهره وأحماه من المسيحيّة. ولقد تبعه محمّد نفسه في هذا السبيل، كما قدّمنا. أمّا ما يلاحظه فلهاوزن من أنّ «حُنَفاء» الحجاز يظهرون عطفًا على المسيحيّة وميلاً إليها أكثر ممّا يبدون بشأن اليهود[١٦٧]، فلا أرى مندوحة عن القول بعدم قيمته العلميّة لأنّ كل ما عندنا من أسانيد تقليديّة عن «الحُنَفاء» و«الحنيفيّة» متضرّع رأسًا من القرآن[١٦٨]. والحال أنّ المسيحيّين، في هذا الكتاب، يظهرون بمظهر أفضل بكثير من مظهر اليهود، أولئك «المغضوب عليهم»[١٦٩]. ولم يكن بوسع كتب «الصحيح» إلاّ أن تؤيّد هذا التفضيل الذي يوليه «الحُنَفاء» الدين المسيحيّ. ولا شكّ في أنّنا نجتنب كثيرًا من الأخطاء والأوهام، لو انتبهنا دائمًا لأصل «السيرة الجوهريّ» ألا وهو القرآن.

(١٦٥) ولم ينل الحنيف زيد بن عمرو مثل هذا الشرف لأنّه كان من فرع بني عَديّ. وانظر كيف يتخلّص المحدّثون من زيد ورفيقه ورقة عندما تنتهي حاجتهم إليهما: (لامنس، **يزيد**، ص ٢٩٠–٢٩١).

(١٦٦) راجع لامنس، المكّيّون (مكّة) ص ٢٧٠.

(١٦٧) وهناك اسم «حنّة» أطلق على أخت الهاشم، وابنة له أيضًا (اليعقوبيّ، **التاريخ ١** : ٢٧٩، ٢٨٣) ويُذكر في مكّة رجل من الموحّدين **والكتاب نفسه ٢** : ٦، ١٤.

(١٦٨) لامنس، **النصارى في مكّة**، **المشرق**، ص ٢٧٥.

كما في السورة الأولى «**الفاتحة**» من القران. ولم يُظهر النصارى نحو المسلمين شيئًا من بغض اليهود وحقدهم. وقد جاء في **سورة المائدة الآية ٨٥**: «لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود، والذين أشركوا. ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهبانًا وأنّهم لا يستكبرون.

بنو أسَد والمسيحيّة

كان بنو أسَد أقرب الأسر القريشيّة إلى المسيحيّة والدائنين بها. فإليهم كان يُنتسب من – برأينا – المسيحيّون في هيئة المجلس الأعلى، أو «الملأ» الساهر على مقدّرات مكّة. وكان غير واحد من مواليهم يشاطرهم في هذه المعتقدات و«مُوْلي القوم منها» بل «من أنفسهم» كما يقول المثل القديم[١٧٠].

وكثيرًا ما طُبّق هذا المثل حتّى بشأن العقائد الدينيّة. وفوق ذلك الأسديّون – وقد ظهروا أقرب من سائر وطنيّيهم إلى التأثّر بالمؤثّرات الدينيّة – يمنحون لقب «الأحلاف»[١٧١] لعدد من مسيحيّي غسّان[١٧٢].

وإذ ذكرنا أنّ الأجانب عن مكّة كانوا ينزلون غالبًا في الضواحي والأحياء البعيدة في «ظواهر» المدينة كما كان يُقال؛ أو في «الشِعاب» أو الأودية المتفرّجة المستديرة بالبلدة. فينصبون فيها خيامهم[١٧٣]، من أغصان أو من قماش، حول الكهوف والمغاور، «السقائف» التي كان يتقلّب فيها، بعضهم فوق بعض، رجال السودان، والعبيد، وباعة الخمر، وبنات اللهو[١٧٤]، والكثير من بدو تِهامة وأبناء الأزْد الجبليّين[١٧٥]، ومن أولئك الذين كانوا ينتظرون فرصة سانحة ليؤجّروا سُراة مكّة قوّة سواعدهم، ونصال سيوفهم.

وإذا عرفنا أنّ الغساسنة النصارى، «أحلاف» الأسديّين، كانوا ينزلون في «البطحاء» أو «الأباطح» أي في قلب المدينة منزل الأسر الكريمة، وأنّهم كانوا يقيمون في جوار مكّة، في أقدس بقعة من مكّة[١٧٦] أدركنا أيّ تأثير كان لهم، وبأيّة عناية كان يحيطهم أبناء مكّة.

(١٧٠) **أسد الغابة ٥** : ٤٢٥.

(١٧١) راجع مجلّة المشرق، مقالة الأب لامنس، **النصارى في مكّة قبيل الهجرة**، ص ٢٧٥ وما بعدها.

(١٧٢) ورد في **أسد الغابة ٥** : ١٥، ذكر صحابيّ غسّانيّ يكنّى بأبي مريم، وإذًا هو مسيحيّ، ولكن المصدر لا يذكر هل صحب النبيّ في مكّة أم بعد الهجرة.

(١٧٣) وكثيرًا ما ذكرت «خيام التجّار»، **أسد الغابة ١** : ٣٨١. **سيرة ابن هشام**، ص ١٧١.

(١٧٤) **أسد الغابة ٥** : ٣٨٩. وقابل بهذا النصّ في ما خصّ المدينة «سقيفة طويلة فيها بغايا» (السمهوريّ، **الوفاء ١** : ١١٣).

(١٧٥) وكان يسكنها أيضًا بعض القريشيّين من الطبقة السفلى في المجتمع، وهم الذين يدعون «قريش الظواهر» أو «قريش الضواحي» راجع ابن الأثير، **النهاية ٣** : ٤٤، ٥٩.

(١٧٦) **مسجد الحرام**، الأزرقيّ، ص ٤٥٨، ٤٦٠. وكان المجال ضيّقًا حتّى إنّ البيوت كانت تزدحم بعضها فوق بعض وتقترب شيئًا فشيئًا، فتضيّق «فناء» مكّة.

ولا شكّ في أنّ نفوذ الدولة الغسّانيّة كان يؤثّر في أرباب المتاجر المكّيّة، فيدركون ما يستفيدونه من محاسن آل جفنة ورعاياهم[١٧٧]. وإن يكن الشعراء يبالغون عندما يلقّبون هؤلاء الأمراء «ملوك الشام»، فليس من شكّ في أنّهم كانوا ذوي تأثير بليغ بسهرهم على الحدود البيزنطيّة، وحفظهم للطرق النافذة إلى بلاد الروم، فمراقبتهم جميع القوافل في الذهاب والإياب، وهو أمر لم يكن ليخفى على دهاء القريشيّين أرباب الأمر والنهي في تلك (الجمهوريّة التجاريّة) مكّة وضواحيها.

التعصّب الدينيّ والقوميّ

لم يكن في ذاك العهد أثر لفكرة النجس الناتج من وجود رجل غريب الدين في منطقة موقوفة على دين آخر. إنّما كان العرب على كثير من التساهل، بل على كثير من عدم الاهتمام بكلّ ما من شأنه احتكار الفكرة الوطنيّة القوميّة أو العاطفة الدينيّة[١٧٨]. ولا يمكن أن يُدلّ دلالة واضحة على التعصّب الجنسيّ والدينيّ بين العرب، إلاّ بعد انتشار مذاهب التفسير القرآنيّ[١٧٩]، وعمل أئمّة التحليل والتحريم المثقّفين على طريقة أرباب التلمود. أمّا في ذاك العهد القديم فلم يكن من النادر أن نرى من «أحلاف» أبناء قصيّ من يدخلون دار الندوة[١٨٠]، على كونهم غرباء عن قريش[١٨١]، فيتمتّعون بحقوق القُرَيشيّين ويجلسون إلى جنب شيوخ مكّة، وفي كلّ ذلك من رحابة الصدر، وسعة العقل، والتساهل الدينيّ في مواطني محمّد المشركين ما ظهر شيء من أثره في بعض السور المكّيّة القديمة.

وكان من أعمال القُريشيّين أنّهم أسرعوا إلى استقبال الموحّدين الهاربين من المدينة، ففتحوا مداخل جيشهم، في وقعة أُحُد، أمام أبي عامر الراهب ورفاقه من نصارى يثرب[١٨٢]. ولا يخفى ما في هذه المعلومات من دلالة على الميل إلى النصارى سواء أكانوا

(١٧٧) كانوا في الحجاز يهابون هذه الدولة؛ إبن الأثير، **النهاية** ٤ : ١٥٨. البخاريّ، **الصحيح** (طبعة إستانبول) ٧ : ٢٧، سيرة ابن هشام، ص ٩١١.

(١٧٨) وكذلك القول عن بغض الأجنبيّ، بالمعنى السياسيّ، فهو لا يرقى إلى ما قبل زمن الخلافة (راجع **يزيد** للأب لامنس ص ٣٠٤).

(١٧٩) **سورة التوبة**، آية ٢٨.

(١٨٠) الأزرقيّ، ص ٤٦٥. وهناك ذكر لبعض أحلاف قريش الأجانب يصبح لهم حقوق القريشيّين أنفسهم. الجاحظ، **الرسائل**، ص ٦.

(١٨١) ومنهم غساسنة من «أحلاف» **الأمويّين** (الأزرقيّ، ص ٤٥٨، ٤٦٠).

(١٨٢) **سيرة ابن هشام**، ص ٥٦١ – ٥٦٣.

أجانب أم قريشيّين. ذاك أنّ الإنجيل لا يفرض على أتباعه شيئًا من التميّز عن وطنيّيهم أو الانفصال عنهم في طرق معيشتهم، كما نرى عند اليهود المقيّدين بأحكام التلمود الصارمة في ما يخصّ الطهارة والنجاسة، والمزهوّين بسموّهم على «الأُمّيّين» أبناء القبائل غير اليهوديّة التي كانوا يعدّونها أجنبيّة عنهم. فلا يرَون حقًّا عليهم لأحد أفرادها، على نحو ما جاء عنهم في القرآن: «ذلك بأنّهم قالوا: ليس علينا في الأمّيّين سبيل[١٨٣]». وقد يُكرهون على تأدية هذا الحقّ للأمّيّ فيؤدّونه ما دام صاحبه قويًّا على المطالبة به. وهذا قول القرآن: «ومن أهل الكتاب... من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك إلاّ ما دُمتَ عليه قائمًا[١٨٤]». وكم كان الفرق جليًّا بين هؤلاء المقيّدين بأحكام التلمود الصارمة، المنفصلين عن جمهور العرب، المترفّعين عليهم بتشريعهم الدينيّ والمدنيّ الخاصّ، الفائزين، مقابل ذلك، بازدراء البدو هواة التساهل والتفلّت من القيود، وبين أولئك المسيحيّين الذين لم يكن دينهم يفرّق معيشتهم عن عيشة سائر العرب، فلا يصرفهم عن حياة القبيلة العامّة، ولا يفرض عليهم تشريعًا خاصًّا مختلفًا عن تشريع الجدّ قُصيّ، وبالتالي لا يدفعهم إلى جحود شيء من القوميّة العربيّة، كما كان الحال مع اليهود.

قريش ومحمّد

بيد أنّ هناك مشكلة دقيقة قد تتعارض ظاهرًا وما بسطناه من تساهل العرب وميلهم عن التعصّب في ما خصّ الشؤون الدينيّة. ألا وهي تلك المقاومة العنيفة التي قاوم بها القريشيّون ابن وطنهم محمّدًا. فكيف التوفيق بين الأمرين؟ ذلك أنّ الداعية الجديد لم يختصّ بدعوة دينيّة محضة، بل كان يرمي، كما يقول مناوئوه، إلى أهداف اجتماعيّة كان من شأنها قلقلة النظام السائد إذ ذاك و«تفريق الجماعة» على قولهم[١٨٥]. ولم تكن تهمة كهذه ألصقت بأحد من المسيحيّين، ولا من دعاة المسيحيّة، قبل ذاك العهد. بل إنّ كثيرًا من المسيحيّين كانوا، في تساهلهم العجيب، يوفّقون بين عقائدهم التوحيديّة، وإكرام الكعبة وغيرها من أماكن العبادة الوثنيّة[١٨٦]. وهؤلاء شعراؤهم يحلفون بالله،

(١٨٣) **سورة آل عمران**، آية ٦٩.

(١٨٤) **سورة آل عمران**، آية ٦٨.

(١٨٥) **سيرة ابن هشام**، ص ٢٢٥.

(١٨٦) وكان نصارى العرب يحملون صلبانًا من الذهب. (راجع ابن الأثير، **النهاية** ٤ : ١٩٤).

وباللات، وبالأنصاب، وبالبيت الحرام، دون تردّد[١٨٧]. وهذه جماهيرهم تحجّ إلى مكّة ومِنى وسائر المواسم والمناسك. وهنا لابدّ من درس هاتين اللفظتين وإقرار ما بينهما من صلة، فإنّ «الموسم» كان يشمل أعمال السوق التجاريّة خاصّة، بينما كان «المنسك» يختصّ بشؤون العبادة. وكان الأمران يتوافقان ويجريان معًا كما في عكاظ[١٨٨]، وذي المجاز، ومِنى. ولم يكن حضور الموسم يفرض ضرورة الاشتراك في العبادة.

ولا شكّ في أنّ المصالح التجاريّة جرّت مسيحيّي مكّة، مقيمين ومارّين، إلى عَرَفة ومِنى. ولكن ليس ما يدلّ على أنّهم كانوا يشتركون في الذبائح الدينيّة أو في الطواف حول الحجر المؤلّه، في «مشاعر» تِهامة «ومساجدها»، وفي «العمرة» المكيّة. ومهما يكن من أمر فإنّ تحريم الاشتراك في القدسيّات، لم يكن أُقرّ بعد بالدقّة والصرامة اللتين نعرفهما اليوم، بل إنّ المسيحيّين من البدو لا يظهرون على شيء من الاهتمام بهذا التحريم. ولا يخفى أنّهم كانوا ينتمون إلى كثير من الفِرَق والبدع المنفصلة المتفرّعة عن المذاهب المسيحيّة الشرقيّة[١٨٩] حتّى لا نعرف بينهم جماعة صحيحة المعتقد. وكانوا يضيفون إلى تفرّقهم المذهبيّ تبدّدهم في أطراف الجزيرة، في أماكن بعيدة كلّها عن المركز الكنسيّ الثابت، وعن النظام الإكليريكيّ المقرّر ومن ثمّ فقد كان من الصعب على رجال الدين أن يراقبوا سلامة العقائد الإيمانيّة، ويسهروا على تطبيق القوانين البيعيّة. وهو ما يشرح نوعًا ما عدم مقاومة المسيحيّين للدين الجديد.

يظهر أنّ الكعبة ظلّت، حتّى عهد محمّد، لا تنتمي إلى إله معروف، فلا تحمل اسمًا خاصًّا. أمّا ما ذكره فلهاوزن من أنّها كانت تنتمي إلى هُبَل – وهو إله شماليّ الأصل لا يُذكر إلاّ في أنساب الكلبيّين[١٩٠] – فلا سند له يقوى على النقد المعقول. ونحن لا نرى أثرًا لهُبَل في اسم واحد من أعلام الأشخاص المضافة إلى أسماء الآلهة، خلافًا لما نتحقّقه بشأن المثلّث القريشيّ: اللات، والعزّى، ومناة، ولهذا قد يكون في قول البلاذريّ ما

(١٨٧) كالمتلمّس، وطرفة في: **شعراء النصرانيّة قبل الإسلام** ص ٣١٩.

(١٨٨) كان فيها منسك أيضًا كما في سائر الأسواق الجاهليّة. وكان من مرتادي عكاظ، الغساسنة (ابن سعد، **الطبقات** ١: ١٤٥).

(١٨٩) يذكر **الأغاني** (١٦: ٧٣) أنّ أحباش اليمن يدعون المسيح «نبيّهم». وتشير **السيرة الحلبيّة** (١: ١٤٤) إلى بدعة نصرانيّة اسمها «الإسرائيليّة» كانت تؤلّه مريم العذراء.

(١٩٠) **أسد الغابة** ٤: ٢٠٧.

يرجّح نسبة الهيكل إلى مناة «أعظم أصنامهم عندهم[١٩١]» على أنّنا لا نجزم بشيء. ولم تكن التحرّيات القديمة والأبحاث المستطيلة لتكشف عن العلم الخاصّ بالكعبة، عن شخصيّة ذاك الإله الذي طالما دعاه الربّ «بربّ البيت» و«ربّ مكّة» فحلفوا به في شعرهم، حتّى المسيحيّون منهم، جامعين بينه وبين الله والصليب[١٩٢]. ومن الضروريّ أن ننتبه لما قد يكون في هذه الأيمان من أعمال التحريف والتصحيف والوضع يقوم بها طلاّب الغريب والنوادر، أو «علماء» الشعر في العصر العبّاسيّ(١٩٣). ولا يبالغ الناقد مهما ينسب إلى هؤلاء من أعمال النحل والوضع والكذب في ذاك العصر الوافر الخصب بالآثار الأدبيّة، والقليل الأمانة والتحرّج. فلنحذر السير واثقين بين هذه المتاهات والمزالق، ولننتبه دائمًا لغاية إقرار السيطرة القريشيّة التي أصبحت شيئًا فشيئًا عقيدة قوميّة سامية فرضت إرادتها على مظاهر الحياة العقليّة، مبرّرة جميع الوسائط في سبيل الوصول إلى الهدف وتأسيس الخلافة العربيّة على أسس أصيلة دينيًّا وتاريخيًّا[١٩٤]. هذه العقيدة دفعت جُمّاع الأحاديث، ورواة الحوادث التاريخيّة، إلى أن جعلوا من الكعبة هيكلاً وطنيًّا جمع حوله وفود العرب من أنحاء الجزيرة كلّها. فرأينا القبائل، حتّى أبعدها منازل عن الحجاز، تأتي مكّة في المواسم فتقرّ ضمنيًّا أو صراحة، بسيادة أربابها من القريشيّين؛ بل لم يتراجع المؤرّخون عن أن يجعلوا بين تلك الوفود أبناء تغلب المسيحيّين من أقاصي ما بين النهرين[١٩٥]. ويستفيد الواضعون من هذا الزعم فيتخيّلون فروضًا وتحريمات تُسنّ على التغلبيّين، وهي في الحقيقة من آثار تسلّط العبّاسيّين وتعصّبهم[١٩٦].

ومهما يكن من تساهل العرب وعدم تقيّدهم بالدين الواحد، فإنّه يصعب علينا أن نقدّر ما دفع شاعرًا نصرانيًّا كعَدِيّ بن زيد، الحيريّ الأصل، والمُلحق بديوان كسرى في

(١٩١) البلاذريّ: **الأنساب** ص ٢٣. خلافًا لما يزعم ابن سعد: **الطبقات** ٢: ١٠٥، إذ ينسب الكعبة إلى عُزّى ناسيًا أنّه سبق فنسبها إلى هُبَل (ص٩٩ من المجلّد نفسه).

(١٩٢) **الأغاني** ٢: ٢٤ وقابل ذلك في **مجلّة المشرق** ١٦ [١٩١٣] ٦٧٨، ٦٧٩. وهناك بعض الصحابة يحلفون بآلهة القريشيّين، أبو داود السنن ٢: ٤٥؛ النسائيّ ٢: ١٤٠.

(١٩٣) كما في **شعراء النصرانيّة**، ٢٧٩.

(١٩٤) لامنس، يزيد، ص ٣٨، وأيضًا **المشرق**، لامنس، **النصارى في مكّة قبيل الهجرة**، ص ٢٨٠.

(١٩٥) **في جغرافيّة ابن الفقيه** ١٩، ذكر لأحد ملوك الحيرة المسيحيّين يقصد الكعبة، وهناك ملك لخميّ آخر يُرسل أبناء بكر وتغلب يجدّدون اتّفاقهم في الكعبة (**الأغاني** ٩: ١٧٨) وفي كلّ ذلك أثر النزعة نفسها.

(١٩٦) أطلب إقرار الذهبيّ، **ميزان الاعتدال** ٢: ١١٣.

المدائن، إلى القسم «بربّ مكّة» إلى جنب الصليب[١٩٧]، لولا ما نعرف من هذه النزعة القوميّة العبّاسيّة الرامية كما قدّمنا، إلى إقرار سيادة الهيكل الوطنيّ وشموله أنحاء الجزيرة العربيّة بكاملها.

في سبيل هذه الغاية، كان المُحَدِّثون والمؤرّخون لا يتراجعون أمام شيء. مهما يكن من عظم وضعه وفظاعة تزويره. وهذا ابن إسحق، مؤلّف سيرة الرسول لم يكن يرى إنّما في «إعطائه الشعراء الأحاديث يقولون عليه حكمًا صارمًا، فقال: «وهو صالح الحديث ما له عندي ذنب إلاّ ما قد حشا في السيرة من الأشياء المنكرة المنقطعة والأشعار المكذوبة[١٩٩]». وكفى بذلك ذنبًا شنيعًا. وقد انتبه ابن هشام، وهو أقرب إلى الأمانة من سالفه، إلى هذه المدسوسات، فأشار إلى بعضها بلطف، وأنكر البعض الآخر بصراحة. وكان من المفسّرين من «ذكر أنّه يحفظ خمسين ألف بيتٍ من الشعر شواهد للقرآن» (كذا) فهل تؤخذ بهذا القول، فنظهر أقلّ حذرًا ونقدًا للحقائق من الذهبيّ الذي، بعد أن ذكر الأمر، زاد بلهجة الشاكّ: «فالله أعلم[٢٠٠]».

فإن كان، والحالة هذه، من قيمة تاريخيّة لهذه الآثار، لشعر عَديّ بن زيد وشعر زملائه المسيحيّين في العصر الجاهليّ، فإنّها تدلّنا بعض الدلالة على أنّ ربّ البيت، أو ربّ مكّة، أو إلاه الكعبة غير المسمّى، يجب أن يكون هو «الله» ذاك الإله «الأكبر» الذي يحلف به كلّ شعراء الجاهليّة على السواء. وإذن فيكون المسيحيّون منهم في حلّ من الإشراك، إذ كانوا يكتفون بالترفّع عن القيام بالطقوس الوثنيّة[٢٠١]». هذا موقف مؤرّخي السيرة في اهتمامهم بشأن «الحنيفيّين» وتخليصهم من الشِّرْك، على تعلّقهم بديانة الكعبة. ولماذا لا يكون موقف المسيحيّين مشابهًا له بالنظر إلى هيكل مكّة نفسه؟

والنتيجة، لم يكن من جماعة مسيحيّة وطنيّة، بل نصرانيّة، قد لا يتجاوزون المئة من القريشيّين الصحيحين والباقي من «الأحلاف» الملتحقين بالأسر المكّيّة، وكثيرًا من العبيد،

(١٩٧) في قوله (**الأغاني** ٢ : ٢٤):

سعى الأعداء لا يألون شرًّا عليك، وربّ مكّة، والصليب

(١٩٨) الذهبيّ: **ميزان الاعتدال** ٣ : ٢٢.

(١٩٩) الذهبيّ: **ميزان الاعتدال** ٣ : ٢١.

(٢٠٠) الذهبيّ: **ميزان الاعتدال** ٣ : ١٨.

(٢٠١) أمّا في شعر الأخطل وأمثاله، فالأيمان لا تعدو القوالب التعبيريّة. راجع **الأغاني** ٧ : ١٧٣.

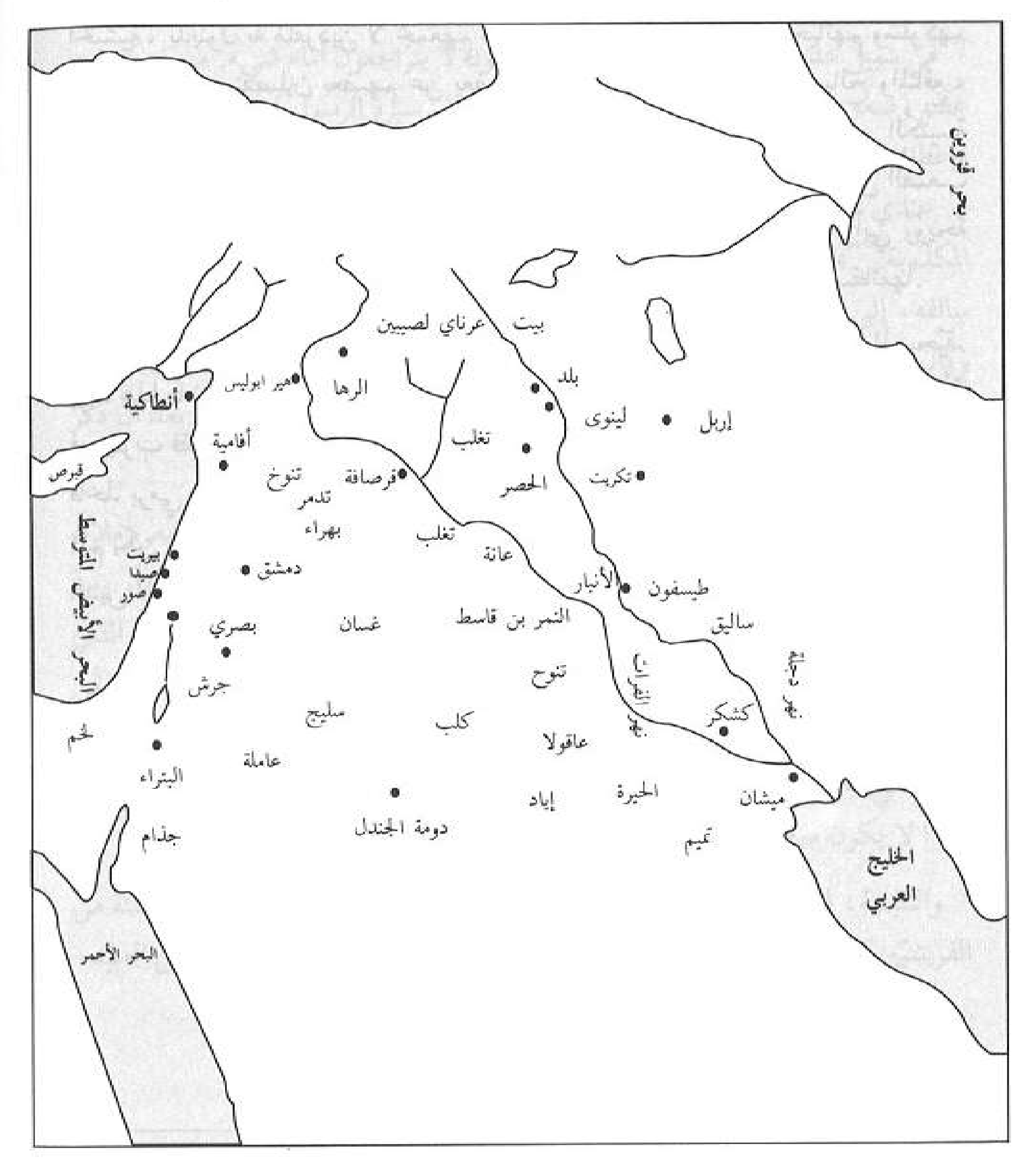
والأسرى، والصعاليك، وباعة الخمر، والتجار، الذين كانوا يمرّون بمكّة وجوارها فيقيمون مدّة عقد الأسواق، أو يدخلون مأجورين في الجيش المكّيّ، أو يقومون ببعض المهن البسيطة، وهم على الغالب من الأحباش ينتمون إلى دين خليط من المسيحيّة واليهوديّة الحبشيّة، يدينون به منفردين لا تجمعهم سلطة دينيّة، ولا تشرف على حياتهم وسلوكهم إدارة قانونيّة، منفصلين بعضهم عن بعض بفروق اللهجات، وتدابر المصالح والمنافع، وتنابذ الأنساب، وتباغض البدع والانشقاقات العقائديّة التي كانت تقسم الكنيسة الشرقيّة، حين كان الإمبراطور هرقل يحامي عن بدعة المشيئة الواحدة. وإنّه لمن الصعب أن نتصوّر مسيحيّي السوريّين البيزنطيّين يختلطون برفاق بلال ووَحْشي، وأبي رُوَيحة وسائر الأجلاق من الحبش الذين كانوا يأهلون أكواخ «الظواهر» وكهوفها وسقائفها.

وعليه، فإنّ هذه البيّناتِ لم يستفد محمّد منها معلومات واضحة دقيقة عن المسيحيّة. يؤيّد هذا ما نراه من الغموض والتردّد في المعلومات المسيحيّة البادية في السور المكّيّة. أمّا في يثرب فقد اصطدم بمقاومة اليهود. وسرعان ما شعر بعدم اتّفاقه مع المسيحيّين واليهود. فأخذ يرمي إلى إقرار دين إبراهيم، والد إسماعيل جدّ العرب، ومؤسّس الكعبة الذي «لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، بل حنيفًا مسلمًا، وماكان من المشركين[٢٠٢]». وهكذا يتحوّل الدين الموسويّ – لا المسيحيّ – إلى شريعة جديدة في سبيل حاجة العرب[٢٠٣].

(٢٠٢) **سورة البقرة**، الآية ١٢٩، ١٣٤. **سيرة ابن هشام**، ص ٣٨٤. إن مسيحيّي نجران كانوا يقولون بمسيحيّة إبراهيم، وهو أمر ضروريّ لشرح الآيات المذكورة.

(٢٠٣) **سورة البقرة**، الآية ١٣٧.

القبائل العربيّة التي انتشرت بها المسيحيّة في الشام والعراق والجزيرة العربيّة قبل الإسلام



– مدينة : دمشق
– القبائل : غسّان

المسيحيّة في شبه الجزيرة العربيّة قبل الإسلام

تمكّنت المسيحيّة من النفاذ إلى شبه جزيرة العرب. وقد اعتنقت جماعات من سكّانها هذا الدين. وتردّ مصادر التاريخ الكنسيّ دخول المسيحيّة إلى هذه البلاد إلى أيّام الرسل والمبشّرين الأوائل. ومن الإشارات الدالّة على ذلك تأكيد عمرو بن متّى على دور القدّيس ماري أحد السبعين[١] الذي يُنسب إليه تنصير بلاد بابل والعراقَيْن والأهواز واليمن وبلاد العرب سكّان الخيم ونجران وجزائر بحر اليمن وبحر الهند[٢]. ولو شئنا لطال بنا ذكر أقوال جميع المؤرّخين المشرقيّين السريان والغربيّين واليونان واللاتين[٣] وغيرهم ممّن يُرجعون انتشار هذه الديانة في بلاد العرب إلى فجر ظهورها. ونكتفي بالتنويه في هذا الصدد بماري بن سليمان[٤] **والتاريخ السِعِرْتي**[٥].

ومن البديهيّ أنّنا لا نستطيع موافقة المؤرّخين على ما ذكروا ما لم تدعَمْ حججهم شواهد تاريخيّة جدّيّة. لذلك سنسعى إلى البحث عن أقدم الشواهد للوقوف على بداية انتشار المسيحيّة في بلاد العرب، بشكل لا يقبل الشكّ ولا التأويل. ولنا في الواقع أكثر من رواية عن دخول المسيحيّة إلى هذه البلاد. وهي تؤكّد على أقدميّة الحضور المسيحيّ باليمن. لهذا السبب ارتأينا أن نبدأ دراستنا لهذه المسألة انطلاقًا من اليمن ثمّ نتطرّق إلى الجهات الأخرى بشبه الجزيرة العربيّة.

(١) «السبعون» هم المبشّرون الذين توزعوا بعد قيامة يسوع المسيح، بثلاثين سنة، في مختلف الجهات.
(٢) عمرو بن متّى، **أخبار كرسيّ فطاركة المشرق**، ص ١.
(٣) أنظر عن المؤرّخين اليونان واللاتين القائمة التي أوردها لويس شيخو في كتابه **النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة**، ج ١، ص ٥٢ – ٥٥.
(٤) ماري بن سليمان، **أخبار كرسيّ فطاركة المشرق**، ص ٥.
(٥) Chronique de Séert, T. I, p. 226-228.

١ – انتشار المسيحيّة في جنوب الجزيرة العربيّة قبل الإسلام[٥]

أ – أصول المسيحيّة في اليمن:

تتّفق جلّ الدراسات الجدّيّة[٦] في هذا الموضوع على أنّ أوّل عمليّات التبشير في اليمن المرتكزة على أساس تاريخيّ صحيح تعود إلى القرن الرابع. ويعتمد هذا الرأي على الرواية اليونانيّة المتعلّقة بالأسقف الآريوسيّ تاوفيل Thèophile. وتقول هذه الرواية إنّ الإمبراطور قسطنسيون Constance (٣٣٧ – ٣٦١م) المتشيّع للآريوسيّة[٧] أرسل قبل سنة ٣٥٦م[٨] وفدًا من الرومان إلى ملك حِمْيَر. وكان يترأس هذا الوفد تاوفيل. وخلال فترة وجوده بالمنطقة بشّر بالدين المسيحيّ رغم معارضة الطوائف اليهوديّة. وشيّد ثلاث كنائس، الأولى في حاضرة الحميريّين ظَفَار، والثانية في عدن على الساحل حيث كان ينزل البيزنطيّون للمتاجرة، والثالثة عند مدخل الخليج العربيّ في فَرْضَة يُحتمل أنّها هُرْمُز.

يؤدّي بنا الاعتماد على هذه الرواية إلى بعض الاستنتاجات:

أوّلاً: دخول المسيحيّة الآريوسيّة إلى بلاد اليمن في القرن الرابع الميلاديّ. والآريوسيّة من الطوائف المسيحيّة الشرقيّة التي تنسب إلى الكاهن المصريّ آريوس (ت ٣٣٦ م) الذي بدأ في نشر آرائه حول طبيعة الابن قبل سنة ٣٢٠م بقليل في الإسكندريّة. ولقد كفّره من أجلها مجمع عُقِدَ في الإسكندريّة حوالى سنة ٣٢٠ – ٣٢١م. كان آريوس يقول: «إنّ الله واحد غير مولود، لا يشاركه شيء في ذاته. فكلّ ما كان خارجًا عن الأحد إنّما هو مخلوق. أمّا «الكلمة» فهو وسط بين الله والعالم. فالكلمة «مخلوق» بل إنّه مصنوع، وإذا قيل إنّه «مولود» فبمعنى أنّ الله «تبنّاه». ويؤدّي ذلك إلى أنّ «الكلمة» غير معصوم

---

(٥) د. سلوى بالحاجّ صالح – العايب، **المسيحيّة العربيّة وتطوّراتها**، دار الطليعة، بيروت، ص ٦٧ – ٧١.

(٦) R. Aigrain, Arabie, p. 1237-1238; A. F. L. Beeston, Judaïsme and christianity in pre-islamic = Yemen, dans J. Chelnod, L'Arabie du Sud, T. III, pp. 271-278; T. Andrae, Les origines de L'islam et le christianisme, p. 15-16; J. Ryckmans, Le christianisme en Arabie du sud prè-Islamique, p. = 412-414; A. Fliche, V. Martin, Histoire de l'Eglise, T. III, p. 495.

(٧) لم يقتصر خبر تشيُّع قسطنسيون للآريوسيّة على المصادر اليونانيّة. بل ذكرته أيضًا بعض المصادر السريانيّة، منها تاريخ يعقوب الرهاويّ (ت ٧٠٨م) الذي ترجمه من السريانيّة إلى العربيّة الأب يوسف حبّي ونُشر في مجلّد من «التواريخ الصغيرة» عنوانه **تواريخ سريانيّة** (Chronica Minore III)، بغداد، ١٩٨٣.

(٨) زمن خروج الوفد الرومانيّ إلى بلاد حمير غير دقيق وأثير حوله نقاش. وقد رجّحنا النتيجة التي توصل إليها ريكمانس لاعتماده على أحدث الاكتشافات الأثريّة والنقائش.

طبعًا، ولكنّ استقامته حفظته من كلّ خطأ وزلل. فهو دون الله مقامًا». وهكذا فإنّ هذا المذهب يقوم على إنكار اللاهوت في المسيح وتصوّره إنسانًا محضًا، مخلوقًا ومُهمًّا وعظيمًا. ولذلك أجمع الآباء في نيقية على تكفيره وعلى الاعتراف بأنّ المسيح إله وأنّه هُمُؤوسيوسي Homoousios أيّ من جوهر أبيه، متساوٍ معه في الذات والجوهر. وخرجوا بالصيغة العقيديّة الواضحة التي لم تزل عليها الأجيال المسيحيّة في سرّ الثالوث وهي «أنّ الله واحد في ثلاثة أقانيم»[٩]. وما يلفت الانتباه قول البيرونيّ إنّ رأي الآريوسيّة في المسيح أقرب إلى ما عليه أهل الإسلام[١٠].

ثانيًا: استنادًا إلى بعض المعلومات الواردة في الرواية يمكننا تفسير دخول المسيحيّة إلى اليمن في هذه المرحلة باتّصالها بالتجارة البحريّة البيزنطيّة في البلاد، واقتصارها على السواحل. ولعلّه لهذا السبب نتردّد في تقييم نتائج هذه الحملة فيما يخصّ نجاح تاوفيل في نشر النصرانيّة بين عرب اليمن وملوكها خصوصًا وأنّ المسيحيّة لم تتمكّن من الثبات والصمود أمام تقوّي نفوذ اليهوديّة في تلك الفترة ممّا أدّى إلى خمود الحركة المسيحيّة لمدّة قرن على الأقلّ (القرن الخامس الميلاديّ)[١١].

هذا ما تراه المصادر المسيحيّة اليونانيّة فيما يتعلّق بنشر المسيحيّة في اليمن. أمّا المصادر النسطوريّة فلها رأي آخر في الموضوع إذ تُرجع تاريخ دخول المسيحيّة إلى نجران إلى بداية القرن الخامس بواسطة تاجر نجرانيّ يدعى حيّان كان قد تنصّر في الحيرة ثمّ عاد إلى موطنه وبشّر فيه[١٢]. إلاّ أنّ هذه الروايات لا تشير إلى وجود تنظيم كنسيّ ملموس بنجران في القرن الخامس الميلاديّ.

وبالرغم من تشكيك أهل الاختصاص في مصداقيّة الروايات العربيّة حول جذور المسيحيّة في اليمن ونعتها بـ«السقم» و«الغموض» لاحتوائها على عناصر أسطوريّة لا تنكر، فإنّ ذلك لا يمنعنا من الاطّلاع على هذه الروايات والتدقيق في أخبارها ومعرفة مدى اطّلاع الطرف العربيّ على تاريخ المسيحيّة في اليمن ونوعيّة الحجج والأدلّة التي يقدّمها.

---

(٩) H. Marrou, Arius et le concile de Nicée, p. 290-309.

(١٠) البيرونيّ، **الآثار الباقية**، ص ٢٨٨.

(١١) J. Ryckmans, ibid, p. 418-420; L. Duchesne, ibid, T. III, p. 580.

(١٢) H.N. Chronique de Séert, p. 330-331. ماري بن سليمان، **المصدر السابق**، ص ٣٣؛ عمرو بن متّى، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٢٧ – ٢٨.

يورد الطبريّ في **تاريخه** روايتين حول بداية تنصّر أهل نجران فحواهما أنّ مصدر المسيحيّة في هذه المدينة رجلان واحد يدعى فيمون من أهل الشام والآخر أحد أشراف نجران هو عبد الله بن ثامر[١٣]. وما يمكن الاحتفاظ به من هذه الروايات هو اسم نجران فهي تدلّ دلالة واضحة على دخول المسيحيّة نجران دون غيرها من مناطق اليمن. لكن مقابل ذلك، لا نستطيع استنتاج أيّ تحديد زمنيّ.

وللأحباش[١٤] روايات عن انتشار المسيحيّة في اليمن خلاصتها أن قدّيسًا يدعى أزقير أقام كنيسة ورفع الصليب وبشّر بالمسيحيّة في نجران وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس. ويتبيّن من تفاصيل الرواية الحبشيّة أنّ القبائل العربيّة خارج نجران عارضت عمليّة التبشير المسيحيّة[١٥].

تلك هي أهمّ الروايات عن بداية انتشار المسيحيّة بجنوب غرب شبه جزيرة العرب. وهي تؤدّي بنا إلى الخروج بعدّة ملاحظات، أهمّها أنّ نجران من أقدم المراكز التي عرفت المسيحيّة بالمنطقة وذلك منذ بداية القرن الخامس وعلى حساب الوثنيّة واليهوديّة، لكنّها لم تتغلّب على اليهوديّة إذ بقيت مقهورة أمام تقوّي هذه الديانة.

ومنذ القرن السادس انطلقت الحملات التبشيريّة المونوفيزيّة في اليمن. إذ تمّ تعيين أسقف مونوفيزيّ في اليمن يدعى سيلفانوس Silvanus حوالى سنة ٥٠٠م من قبل الإمبراطور أنسطاس Anastase المونوفيزيّ (٤٩١ – ٥١٨م)[١٦] ومن الشواهد على انتشار المونوفيزيّة في اليمن منذ أوائل القرن السادس اهتمام الآباء المونوفيزيّين بأمور كنيسة اليمن مثل مار فيلكسينس المنبجيّ (ت ٥٢٣م) الذي كتب رسائل عديدة إلى الحميريّين وأهل نجران[١٧]. ومار يعقوب السروجيّ (ت ٥٢١م) الذي كتب أيضًا رسائل عديدة إلى الحميريّين[١٨].

(١٣) الطبريّ، **المصدر السابق**، ج ١، ص ١١٩ – ١٢٣.

(١٤) دخلت المسيحيّة إلى الحبشة انطلاقًا من الإسكندريّة منذ القرن الرابع. أنظر:
A. Fliche, V. Martin, ibid, T. III, p. 495-496

(١٥) J. Ryckmans, ibid, p. 435-443.

(١٦) H. Gregoire, Mahomet et le Monophysisme, p. 115.

(١٧) أفرام برصوم الأوّل، **اللؤلؤة المنثور**، ص ٢٣٢.

(١٨) أفرام برصوم الأوّل، **المرجع نفسه**، ص ٢٢١ – ٢٢٣.

وتحقّ لنا الإشارة في نطاق دراستنا لتطوّر المسيحيّة في اليمن إلى اضطهاد الملك اليهوديّ ذي نواس للمسيحيّين باليمن. إنّ مجرّد إلقاء نظرة على المصادر المتعلّقة بهذا الاضطهاد[١٩] والدراسات التي اهتمّت به[٢٠] لتبيّن لنا غموض الأسباب التي دفعت بذي نواس إلى تقتيل نصارى اليمن وخصوصًا نصارى نجران[٢١] والضبابيّة التي أحاطت بهذا الحادث الذي تمّ على مرحلتين الأولى في سنة ٥٢٣م والثانية في سنة ٥٢٤م.

لكنّ ما يتّضح جليًّا في هذا الموضوع، أنّ اضطهاد ذي نواس شمل مراكز مسيحيّة عديدة باليمن وهي: ظَفَار ومَخَا[٢٢] ومأرب ونجران. كما شمل مناطق أخرى من جنوب غربيّ البلاد العربيّة مثل حضرمَوْت وهَجْرين. وعن هذا الموضع الأخير يقول ياقوت إنّ الأمر يتعلّق بمدينتين مُتقابلتين في رأس جبل حصين بحضرموت يُقال لواحدة خِيْدُون وللأخرى دَمُون (دَلْمون). وساكن خِيْدُون الصَّدَف[٢٣] وساكن دَمُون بنو الحارث بن عمرو المقصور بن حُجْر آكل المُرار من كندة[٢٤].

(١٩) أهمّها: A. M oberg. The Book of the Himyarite. نَشَرَ هذا الكتاب مع ترجمته الإنجليزيّة سنة ١٩٢٤ المستشرق السويديّ A. Moberg. يوضّح الناشر أنّ الكتاب أُلّف في أواسط المائة السادسة لكنّ ما يؤسف له هو فقدان اسم مؤلِّفه والعديد من الفصول. ٢٤ فصلاً برمّتها لم يبق منها سوى عناوينها. أمّا الفصول الباقية فبعضها كامل والبعض الآخر بقيت منه نبذات يتخلّلها نقصان. ورسالة شمعون الأرشميّ (ت ٥٤٠م) إلى شمعون رئيس دير الجَبُول في سوريّة الشماليّة لإطلاعه على ما أصاب نصارى نجران. لهذه الرسالة عدّة نسخ نشرت باللاتينيّة. أنظر. Assèmani, B.O, T.I, p. 366-379 وبالعربيّة في مجلّة المشرق سنة ١٩٣٣، ص ٣٢٢ – ٣٢٩. كما لخّصها وحلّل محتواها:
R. Duval, Ancienne littérature chrétienne, T. II, p. 136-140.

(٢٠) J. Ryckmans, La persécution des chrétiens himyarites au sixième siècle, R. Dagfous, Le Yemen islamique des origines jusqu'à l'avènement des dynasties autonomes; T. Andrae, Les origines de l'Islam et le christianisme.

(٢١) يبدو أنّ حملة الاضطهاد الأولى (٥٢٣م) التي عانى منها نصارى اليمن هي محاولة انتقام ذي نواس من الحبش المسيحيّين وردّ غزواتهم عن أراضي اليمن. أمّا الحملة الثانية التي لحقت نصارى نجران فلا نستبعد أن تكون لها خلفيّات سياسيّة واقتصاديّة. فقد كان ذو نواس يخشى وجود قوّة سياسيّة أرستقراطيّة مناهضة لديانته اليهوديّة.

(٢٢) ورد اسم هذه المدينة بفتح الميم في معجم البلدان لياقوت، «مَخَا» وهو مرفأ باليمن بين زَبِيْد وعَدَن. ج ٥، ص ٦٧.

(٢٣) يختلف النسّابة في أصل بني الصَّدَف. فقد نُسبوا إلى كندة. كما نُسبوا إلى حضرمَوْت وحِمْيَر. فمن نسبهم إلى كندة قال: «الصَّدَف هو مالك بن مَرْتَع بن معاوية. (أنظر ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**)، وقال: «عمرو بن مالك بن أشرس بن شبيب بن سكون» (أنظر القلقشنديّ، **نهاية الأرب**، ج ٢، ص ٣٠٤). ومن نسبه إلى حضرموت قال «الصَّدَف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر».

(٢٤) ياقوت، **المصدر نفسه**، ج ٥، ص ٣٩٢ – ٣٩٣.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ ذا نواس ركّز على بني الحارث بن كعب بنجران في اضطهاده للمسيحيّين. وممّا يلفت الانتباه في شأن بني الحارث الوصيّة التي تركها الشهيد الحارث بن كعب لعشيرته والتي صرّح بها أمام النجرانيّين وأمام ذي نواس. إذ قال: «أيّها المسيحيّون والوثنيّون واليهود اسمعوا: إذا كفر أحد بالمسيح وعاش مع هذا اليهوديّ، سواء أكانت زوجتي أم من أبنائي وبناتي أم من جنسي وعشيرتي، فإنّه ليس من جنسي ولا من عشيرتي وليس لي أيّة شركة معه، وليكن كلّ ما أملكه للكنيسة التي ستُبنى بعدنا في هذه المدينة. وإذا عاشت زوجتي أو أحد أبنائي وبناتي بأيّة وسيلة كانت، ولم يكفروا بالمسيح فليكن كلّ ما أملكه لهم ولنخصّص للكنيسة ثلاث قرًى من مُلكي تختارها الكنيسة نفسها»[٢٥].

وسواء لحق التحريف بهذه الوصيّة تعمّدًا أو تناسيًا من قبل النقلة فإنّ أهمّيّتها تكمن في إثبات تنصّر بني الحارث بن كعب وفي فهم أسباب تشبّثهم بالمسيحيّة رغم اضطهاد ذي نواس.

ويحقّ التصريح من ناحية أخرى بأنّ المسيحيّة كانت ديانة القَرَسانيّين بمدينة مَخا وبني الصَّدَف وبني الحارث بن عمرو المقصور بن حُجْر آكل المُرار الكِنْديّين في هَجْرين بحضرمَوْت. ومن المهمّ التنبيه إلى أنّ تنصّر الكنديّين ظاهرة قديمة تعود إلى عهد تسلّطهم على وسط شبه جزيرة العرب وشمالها أي قبل عودتهم إلى موطنهم الأصليّ (حضرموت) في النصف الثاني من القرن السادس بقيادة عمرو بن أبي كرب بن قيس بن سلمة بن الحارث بن عمرو بن حُجْر آكل المُرار[٢٦].

ولا بدّ هنا من التمييز بين الأحياء الكِنْديّة المتنصّرة العائدة إلى موطنها في منتصف القرن السادس وبين بطون كندة التي لم تهاجر من موطنها بالجنوب وكانت قد اعتنقت الديانة اليهوديّة مثل بني الحارث الأصغر[٢٧].

---

(٢٥) وردت هذه الوصيّة في رسالة شمعون الأرشيميّ الثانية التي أرسلها سنة ٥٢٤ م. إلى شمعون رئيس دير الجَبُول. وقد عثرنا على هذه الرسالة مترجمة من السريانيّة إلى العربيّة في كتاب: **الشهداء الحميريّون** العرب في الوثائق السريانيّة لأغناطيوس يعقوب الثالث، ص ٣٠ – ٣١. وتوجد وصيّة الحارث بن كعب في مخطوط عربيّ تحت رقم «٣١٢٠» بمكتبة باريس، وتحت رقم «١١٨٨» بمكتبة برلين. وقد حرصنا على الحصول على النصوص الثلاثة لمقارنتها بعضها ببعض.

(٢٦) إبن الكلبيّ، **نسب معد واليمن الكبير**، ج ١، ص ١٠٥; E. I., art. "Kinda", T. V, p. 121.

(٢٧) Ibid. p. 122-123.

هذه هي إذن أهمّ ملامح المسيحيّة العربيّة بجنوب غرب شبه الجزيرة العربيّة إلى حدود الربع الأوّل من القرن السادس الميلاديّ، حاولنا وضعها قدر الإمكان في إطارها التاريخيّ المتميّز بتسلّط اليهود. وسنرى في الفصل التالي مدى تأثير الظروف السياسيّة والدينيّة الجديدة (بعد تسلّط الحبش على اليمن) على المسيحيّة العربيّة.

ب – تجديد المسيحيّة في اليمن وتغلّب العقائد المونوفيزيّة في مدّة ولاية الحبش (٥٢٥ – ٥٧٥م)[٥]:

تميّز تاريخ المسيحيّة في اليمن خلال ولاية الحبش عليها، بدايةً من سنة **٥٢٥**[٢٨]، وبعد القضاء على الملك اليهوديّ ذي نواس، بظاهرتين بارزتين، أوّلهما انتعاش المسيحيّة وانتشارها من جديد بسرعة كبيرة. كما يتأكّد من النقاشات التي تشتمل على صيغ مسيحيّة صريحة[٢٩] ومن شواهد المصادر العربيّة على جهود الحبش في سبيل نشر ديانتهم وتدعيمها بين سكّان اليمن. فقد أقاموا في صنعاء، حاضرة ملكهم، كنيسة عظيمة وهي الكنيسة التي عرفها العرب باسم القُلَّيس وذكروها في تواريخهم ووصفوها في كتبهم[٣٠].

أمّا الظاهرة الثانية التي تسترعي الانتباه في هذه الفترة من تاريخ المسيحيّة في اليمن فتخصّ طبيعة المذهب الذي نشره الأحباش. يحقّ التصريح بأنّ الأمر يتعلّق بالمذهب المونوفيزيّ وبالتحديد اليعقوبيّ[٣١].

كما ظهرت في اليمن خلال القرن السادس فرقة مونوفيزيّة هرطقيّة وهي فرقة اليوليانيّة Juliansime نسبة إلى مؤسّسها يوليانس الهاليكارناسيّ Julien d'Halicarnasse أسقف

---

(٥) د. سلوى **بالحاج**، المصدر نفسه، ص ٧٢ – ٧٣.

(٢٨) ليست هذه المرّة الأولى التي يتدخّل فيها الحبش في شؤون اليمن ويحتلّون مواضع من سواحله الغربيّة والجنوبيّة ويتوغّلون إلى داخل البلاد. ولا نرى ضرورة لتحليل مراحل هذا الاحتلال في الربع الأوّل من القرن السادس الميلاديّ. فقد أوفى ريكمانس بالغرض في دراسته: La persécution des chrétiens himyarites... p. 5, 21 وكذلك راضي دغفوس في دراسته: Le Yemen Islamique..., p. 89-126.

(٢٩) أنظر عن هذه النقائش دراسة: J. Ryckmans, ibid, p. 440.

(٣٠) الطبريّ، **تاريخ**، ج ٢، ص ١٣٠؛ **تفسير الطبريّ**، ج ٣، ص ٢٩٣؛ ياقوت، **المصدر نفسه**، ج ٣، ص ٤٤٧.

(٣١) أصبحت كنيسة الحبشة يعقوبيّة في القرن السادس. أنظر:
Assémani, B.O., T. I, p. 385; Michel le Syrien, ibid, T. II. p. 185

هاليكارناس في آسيا الصغرى زمن ساويرس بطريرك أنطاكية. ويعود تاريخ نشأة هذه الفرقة إلى سنة ٥٢٠م. وهي تتميّز بالقول بالطبيعة الواحدة في المسيح (الطبيعة الواحدة بعد التجسّد[٣٢] مثل بقيّة المونوفيزيّين)، إلاّ أنّها تؤمن بـ «لا فَسَاديّة» جسد المسيح أيّ أنّها تعتبر جسد المسيح غير مائت[٣٣]. لذلك لُقّب أتباع هذه العقيدة بـ Aphthartôlatres أو Aphthartocètes أو Phantasiaste أو اليوليانيّين[٣٤].

توجد أقدم الشواهد على دخول اليوليانيّة إلى بلاد اليمن في **التاريخ السعرتيّ**. فقد جاء فيه أنّ لاجئين من اليوليانيّين هربوا إلى الحيرة في عهد الجاثليق شيلا (ت ٥٢١م) غير أنّ النساطرة أجلَوهم عنها. ومضى نفر منهم إلى نجران فأقاموا فيها وزرعوا هناك العقيدة اليوليانيّة[٣٥]. أمّا ميخائيل الكبير فيؤكّد أنّ العقيدة اليوليانيّة تمكّنت من التأثير على النفوس البسيطة في بلاد البيزنطيّين والفرس والحبش والحميريّين[٣٦]. كما يُخبرنا في موضع آخر بإرسال الفرقة اليوليانيّة حوالى سنة ٥٥٠م. أسقفًا يدعى سرجيوس Sergius إلى بلاد حِمْير وبقي هناك يرعاهم لمدّة ثلاث سنوات ثمّ خلفه أسقف آخر يدعى موسى[٣٧].

إعتمادًا على هذه النصوص يمكننا التأكيد على وجود طائفة يوليانيّة عربيّة مُنظّمة في اليمن منذ منتصف القرن السادس إلى جانب العقيدة اليعقوبيّة. فهل بقيت هذه العقائد متغلّبة بين صفوف مسيحيّي اليمن بعد انتهاء ولاية الحبش بسبب تدخّل الفرس وسيطرتهم على البلاد؟

---

(٣٢) التجسّد هو حلول كلمة الله في الجسد. فالمسيح هو الكلمة المتجسّد. أنظر: **المعجم اللاهوتيّ للكتاب المقدّس** لكزافييه ليون دوفور.

(٣٣) H. N. Chronique de Séert, T. II, p. 121 عرض ساويرس الأنطاكيّ عقيدة عدوّه يوليانس بالشكل التالي:

"Si, dit-il, Emmanuel fut immortel avant la résurrection, comme a osé le dire Julien, la mort rédemptrice a été une vaine. Car c'est à un corps mortel qu'il appartient de Mourir".

أورد هذه المقولة H. Grégoire في دراسته: Mahomet et le Monopyhsisme, p. 116.

(٣٤) E. Honigman, Evêques et évêchés monophysites, p. 125-131; Grégoire, ibid, p. 116.

(٣٥) H.N. Chronique de Séert, T. II, p. 135, 144.

(٣٦) Michel le Syrien, ibid, T. II, p. 251.

(٣٧) Michel le Syrien, ibid, T. II, p. 264.

ج – وضعيّة المسيحيّة في اليمن خلال ولاية الفرس من سنة ٥٩٧م. إلى ظهور الإسلام(*):

إنطلق الحكم الفعليّ للفرس في اليمن سنة ٥٩٧م. لمّا نوّبوا عليه حاكمًا وهو فَهْرِز Wahriz[٣٨]. فكيف ستكون علاقتهم بمسيحيّي البلاد وموقفهم من العقائد المنتشرة فيها؟

يتبيّن من خلال تتبُّع وضعيّة المسيحيّة باليمن في عهد الفرس أنّ سياستهم تجاه معتنقيها اتّسمت بكثير من التسامح. وهو ما يتأكّد من استمرار بناء الكنائس بالبلاد لا سيّما بناء كعبة نجران التي لا نستبعد أن تكون كنيسة تحمل تسمية وثنيّة إذ لدينا من الحجج ما يؤكّد ذلك. من أبرز الشواهد على كون كعبة نجران كنيسةً تعليق الأصفهانيّ في كتاب الأغاني على لفظة كعبة الواردة في شعر الأعشى إذ قال: «والكعبة التي عناها الأعشى ها هنا يقال إنّها بيعة بناها بنو عبد المدان على بناء الكعبة وعظّموها مضاهاة للكعبة وسمّوها كعبة نجران، وكان فيها أساقفة يُقيمون وهم الذين جاءوا إلى النبيّ محمّد ودعاهم إلى المباهلة»[٣٩]. وما يدعّم هذا الرأي تسمية ياقوت كعبة نجران **في معجمه** بـ «دير نجران» وهي تسمية مسيحيّة واضحة[٤٠].

وقد نسبت المصادر العربيّة بناء كعبة نجران إلى أشخاص مسيحيّين وهم عبد المسيح بن دارس بن عَدِيّ بن مَعْقَل أو إلى صهره يزيد بن عبد المَدَان الديّان الحارثيّ أحد أعضاء الوفد النجرانيّ الذي قدم إلى الرسول محمّد[٤١]. وممّا يدعّم فكرة بناء كعبة نجران في عهد الحكم الفارسيّ باليمن شهادة أحد الشعراء المعاصرين لعهد الرسول وهو الأعشى، ميمون بن قيس البكريّ، إذ قال في قصيدة له مخاطبًا ناقته:

فَكَعْبَةُ نَجْرَانَ حَتْمٌ عَلَيْكِ	حَتَّى تُنَاخِي بِأَبْوَابِهَا
نَزُورُ يَزِيدَ وَعَبْدَ المَسِيحِ	وَقَيْسًا هُمُ خَيْرُ أَرْبَابِهَا[٤٢]

(*) د.سلوى بالحاج، **ذات المصدر** ص ٧٣ – ٧٧.

(٣٨) دخل الفرس بلاد اليمن بطلب من أمراء حمير الذين كرهوا حكم الحبش. عن تفاصيل هذا الدخول، انظر:
R. Dagfous, ibid, p. 132-174; E. I. art. "Yaman", T. VI, p. 1218-1222

(٣٩) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج ١١، ص ٣٥٩.

(٤٠) ياقوت، **معجم البلدان**، ج ٢، ص ٥٨.

(٤١) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج ١٢، ص ٧، **المصدر نفسه**، ج ٥، ص ٢٦٨ – ٢٦٩؛ ابن سعد. **الطبقات الكبرى**، ج ١، ص ٣٩٣.

(٤٢) ديوان **الأعشى**، ص ١٢٢؛ الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج ١٢، ص ٧.

أمّا مسألة تأثير الحكم الفارسيّ على طبيعة مسيحيّة اليمن فحولها أكثر من رأي. فأندري يُقرّ بسيطرة المسيحيّة النسطوريّة على اليمن من مدّة ولاية الفرس إلى ظهور الإسلام. وقد قال في هذا الصدد ما تعريبه: «في الفترة التي ظهر فيها محمّد، بدت كنيسة جنوب بلاد العرب نسطوريّة». وهو مدين في هذا الاستنتاج إلى ما أورده ابن العبريّ في **تاريخه** عن وجود أسقف نسطوريّ يدعى إِيْشُوْعِياب Eyho'yab ضمن الوفد النجرانيّ الذي حضر لدى محمّد للتفاوض معه[٤٣].. وهو الأسقف المذكور في البلاذريّ[٤٤]. لكن هنري غريغوار يرفض استنتاج أندري تمامًا ويؤكّد أنّ أغلب النجرانيّين بقوا يدينون باليوليانيّة إلى زمن الرسول محمّد. وحجّته في ذلك أنّ الجاثليق النسطوريّ تيموثاوس Timothée (٧٨٠ – ٨٢٣م) وجد النجرانيّين المطرودين من موطنهم منذ عهد عمر بن الخطّاب، والمستقرّين بوسط العراق، على مذهب يوليان وسعى إلى إدخالهم في العقيدة النسطوريّة[٤٥]. وهو ما سندرسه بأكثر دقّة في القسم الثالث من بحثنا.

أمّا نحن فلا ندّعي أنّنا عثرنا على حجّة جديدة تُرجّح أحد الرأيين لكنّنا تولّينا تحليل النصّ المتعلّق بالوفد النجرانيّ الذي حضر لدى الرسول محمّد، لنستقرىء ما جاء فيه من تفاصيل. عسانا نعثر على ما يفيدنا في تحديد مذهب الأسقف وهويّته فضلاً عن مذهب أعضاء الوفد النجرانيّ المرافق له.

تقول في هذا الصدد رواية بسند بن إسحاق إنّ الأسقف أبا حارثة بن علقمة البكريّ كان يلقى المساعدة من ملوك الروم النصارى لبناء الكنائس. وقد بسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم[٤٦]. إنّ ما يمكن استخلاصه من هذه الرواية أنّ أبا حارثة كان ملكانيًّا ولا نستبعد مساعدة البيزنطيّين لنصارى نجران من أجل نشر عقيدة مناهضة لسياسة الفرس الدينيّة القائمة على بثّ النسطوريّة. والملاحظ أنّ هذا الاستنتاج يدعمه قول ثانٍ لابن إسحاق نعرضه حرفيًّا كما أورده ابن هشام نظرًا إلى أهمّيّته: «كانت تسمية الأربعة عشر الذين يؤول إليهم أمرهم: العاقب وهو عبد المسيح، والسيّد وهو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، وأوس، والحارث، وزيد، وقيس،

(٤٣) T. Andrae, ibid, p. 23-25.
(٤٤) البلاذريّ، **الفتوح**، ص ٨٩.
(٤٥) H. Grégoire, ibid, p. 118.
(٤٦) إبن هشام، **السيرة النبويّة**، ج ١، ص ١٥٨ – ١٥٩.
(٤٧) **المصدر نفسه**، ج ١، ص ١٦٠.

ويزيد، ونبيه، وخويلد، وعمرو، وخالد، وعبد الله، ويَحْنَس في ستّين راكبًا. فكلّم رسول الله، منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والأيهم السيّد وهم من النصرانيّة على دين الملك..»[٤٧].

يؤكّد هذا النصّ مرّة ثانية انتماء نصارى وفد نجران للمذهب الملكانيّ (الأرثوذكسيّة). وهكذا نكاد نوقن بأنّ نصارى نجران كانوا ثلاثة أصناف عند مجيء الإسلام: مونوفيزيّون (يعاقبة ويوليانيّون) وملكانيّون ونساطرة، وعلى ظنّنا أنّ نساطرة العراق انتهزوا فرصة دخول الفرس اليمن لينشروا هناك عقيدتهم ولعلّهم كانوا سبقوا إلى بثّها قبل ذلك فعزّزوها. وربّما نجد في توجيه الرسول دعوته إلى أساقفة نجران بالجمع[٤٨] دليلاً على تعدّد المذاهب النصرانيّة هناك.

وتتمثّل الظاهرة الثانية التي تميّزت بها كنيسة نجران عند ظهور الإسلام في بروز إكليروس محلّيّ. ويكفي للدلالة على وجوده ذكر أسماء الأساقفة الذين احتفظت بهم ذاكرة أئمّة النسب والمؤرّخين وهم: الأسقف إيليّا بن ذُهَل بن عمرو بن عامر بن ماء السماء[٤٩] وعبد المسيح بن نَهْد بن زيد من قُضاعة[٥٠]. ويمكن إرجاع تاريخ تكوّن هذا الإكليروس إلى ما بعد ولاية الأحباش على اليمن (بعد ٥٢٥م) إذ كان أساقفة نجران وشمامستها في عهد اضطهاد النصارى من سكّانها أجانب من الحيرة وفارس والحبشة والروم.

لكن ما المغزى من بروز ذلك الإكليروس المحلّيّ؟ هل هو علامة على الاستقلاليّة عن الكنيسة الأمّ لا سيّما كنيسة مصر والحيرة والحبشة أم هو مؤشّر على فتور العلاقات بين الكنيسة الابنة والكنيسة الأمّ عند ظهور الإسلام؟ نظنّ أنّ الاحتمال الثاني هو الأقرب إلى الواقع إذ كان اليمن في الفترة القريبة من ظهور الإسلام تحت حكم الفرس الذين لا يهمّهم كثيرًا شأن المسيحيّة بل رُبّما ناهضوا تدخّل الروم والحبش لأجل تدعيمها باليمن. وربّما جاز القول إنّ خروج الحبش من اليمن كان سببًا في انعزال المسيحيّين فيه عن العالم المسيحيّ وقد يكون ذلك سببًا في إضعافهم. وتجدر الإشارة عند هذا المستوى إلى أنّ تركّز النصارى بنجران لا يعني انعدامهم بالمدن اليمنيّة الأخرى إذ كانت توجد كنائس بعدن

(٤٧) **المصدر نفسه**، ج ١، ص ١٦٠.
(٤٨) اليعقوبيّ، **تاريخ**، ج ٢، ص ٩٠.
(٤٩) إبن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ج ٢، ص ٣٣١؛ إبن دريد، **الاشتقاق**، ج ٢، ص ٤٣٤.
(٥٠) إبن الكلبيّ، **نسب معدّ واليمن الكبير**، ج ٣، ص ٥٤.

وصنعاء[٥١] والجزر المتاخمة للساحل الغربيّ لليمن كجزيرة الفراسانيّين التغالبة المسيحيّين، إلاّ أنّ كنيسة نجران كانت أشهرها لعراقتها ونشاطها.

وقد رأينا من اللازم قبل ختم هذا العنصر، أن نُعرِّف العشائر اليمنيّة التي كانت ثابتة على مسيحيّتها عند ظهور الإسلام. فبالإضافة إلى العشائر التي ذكرناها في عهد ذي نواس، تؤكّد المصادر العربيّة على نصرانيّة بني الحارث بن كعب الذين ذكرهم الجاحظ في رسالته **الردّ على النصارى** إذ قال: «كانت النصرانيّة غالبة على ملوك العرب وقبائلها، على لخم وغسّان والحارث بن كعب بنجران وقضاعة وطيء في قبائل كثيرة وأحياء معروفة»[٥٢]. كما تؤكّد مصادر عربيّة أخرى على نصرانيّة بني عبد المَدَّان بن الديّان من بني الحارث بن كعب وعلى عظمة شأنهم بمدينة نجران عند ظهور الإسلام[٥٣]. وقد علقت بالذاكرة العربيّة أسماء العديد من أشراف بني عبد المدان ووصفت مجدهم وعظمتهم وسط العرب. ومن ذلك ما جاء في شعر لزينب بنت مالك بن جعفر ترثي فيه يزيد بن عبد المَدَّان قائلة:

بَـكَـيْـتُ يَـزِيـدَ بْـنَ عَـبْـدِ المَدَا ... نِ حَـلَّـتْ بِـهِ الأَرْضُ أَثْـقَـالَـهَا
شَـرِيكُ المُلُـوكِ وَمِـنْ فَـضْـلِـهِ ... يَـفْـضل فِـي المَجْدِ أفضالَـهَا[٥٤]

ومن بين نصارى نجران أيضًا عند ظهور الإسلام تذكر المرويّات العربيّة بني الأفعى الأمّة التي كانت بنجران قبل بني الحارث بن كعب[٥٥] وبني عبد يسوع من بني عمرو بن قيس بن مسعود من شيبان: تقول رواية ابن الكلبيّ في شأنهم إنّ عمرو بن قيس أصاب دَمًا فأتى نجران فتزوّج بنت عبد المسيح بن دارس بن يَعْفُر بن عربيّ من كندة، فوَلَدَ مُعاوية ورجلين آخرينَ فتنصّر معاوية وبنوه[٥٦].

---

(٥١) تؤكّد المصادر الإسلاميّة والمسيحيّة على بروز صنعاء كمركز نسطوريّ حتّى بعد الإسلام. أنظر ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٣، ص ٤٢٦ و Assémani, B.O., T. IV, p. 609.

(٥٢) الجاحظ، **الردّ على النصارى**، ص ١٥.

(٥٣) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج ١١، ص ٣٥٨ – ٣٥٩، وج ١٢، ص ٣ – ٤، ١٦؛ القلقشنديّ، **نهاية الأرب**، ص ٢٦.

(٥٤) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج ١٢، ص ١٨.

(٥٥) الطبريّ، **تاريخ**، ج ٣، ص ٣٢١.

(٥٦) إبن الكلبيّ، **جمهرة النسب**، ج ٢، ص ٢٢١.

ويحقّ القول إنّ تنصُّر بني عبد يسوع كان قريب عهد من الإسلام إذ إنّ حلولهم بنجران كان في عهد عبد المسيح بن دارس المعاصر ليزيد بن عبد المعاصر للرسول. ومن المرجّح أنّ النصرانيّة كانت غالبة على قبيلة خَثْعَم اليمنيّة[٥٧] إذ قال ياقوت في وصفه ديرَ نجران إنّ خَثْعَم قاطبة كانت تَحُجُّ إليه[٥٨]. وبالإضافة إلى ذلك قد يصحّ القول أيضًا إنّ النصرانيّة بقيتِ في حِمْيَر عند ظهور الإسلام. وهو ما يُفهم من قول الشافعيّ «إنّ عامّة ذمّة أهل اليمن من حِمْيَر»[٥٩]. ولئن لم يمدّنا الشافعيّ بفكرة واضحة عن ديانة حِمْيَر فلا يُستبعد أن يكونوا من المسيحيّين خاصّة إذا أخذنا في الاعتبار انتشار المسيحيّة بينهم منذ بداية القرن السادس.

كما نجد المسيحيّين من قبيلة النَّخع اليمنيّة[٦٠] مثل زرارة بن قيس النَّخعيّ الذي قدم على الرسول مع وفد قبيلته. وفي رواية لسيف بن عمر أوردها الطبريّ في **تاريخه** إشارة تجعلنا نعتقد في انتشار المسيحيّة في قبيلة النَّخع. فقد قال جمع من النَّخع لعكرمة، أحد قوّاد أبي بكر الصدّيق عُهدت إليه مهمّة إخماد رِدّة أهل اليمن، «كنّا في الجاهليّة أهل دين، لا نتعاطى ما تتعاطى العرب بعضها من بعض...».

بعد هذا العرض المطوّل نسبيًّا عن ظروف نشأة المسيحيّة وتطوّرها في جنوب غربيّ البلاد العربيّة يمكن إثارة الملاحظات التالية:

أوّلاً: دخلت المسيحيّة بلاد اليمن بصورة ثابتة منذ القرن الرابع الميلاديّ وتواصل انتشارها فيها على مراحل عديدة خلال القرنين الخامس والسادس.

ثانيًا: دخلت المسيحيّة هذه البلاد عبر خطوط تبشير عديدة انطلقت من سوريّا ومن مصر والعراق والحبشة. واخترق بعضها الصحراء العربيّة وسلك البعض الآخر البحر.

ثالثًا: ارتبط انتشار المسيحيّة في بلاد اليمن بالعلاقات التجاريّة والديبلوماسيّة التي جمعتها بالشام والعراق وبتعرّضها للاحتلال الحبشيّ.

---

(٥٧) كانت خثعم تسكن في اليمن ما بين بيشة وتربة: البكريّ، **المصدر السابق**، ج ١، ص ٦٣.

(٥٨) ياقوت، **معجم البلدان**، ج ٢، ص ٥٣٨.

(٥٩) الشافعيّ، **كتاب الأمّ**، ج ٤، ص ١٠١.

(٦٠) كانت ديار النخع في الأطراف الشماليّة من اليمن. والنخع بطن من مذحج وهو جَسْرُ بن عمرو بن علّة بن جَلْد بن مذحج: ابن الكلبيّ، **النسب الكبير**، ج ١، ص ٢٦٣.

رابعًا: أدّى تعدّد خطوط التبشير المسيحيّ في اليمن إلى تعدّد أصول المسيحيّة. فهي يونانيّة (بيزنطيّة) وسريانيّة.

خامسًا: مُنيت المسيحيّة العربيّة في اليمن وحضرمَوْت بانتكاسات شديدة على يد اليهود لا سيّما في الربع الأوّل من القرن السادس. ثمّ تجدّدت بفضل الحبش. ولم تقع محاولات للقضاء عليها أو مناهضتها مع الفرس لكنّها دخلت في عهدهم مرحلة من الجمود والانكماش، وهو ما لاحظناه من خلال تعطّل الاتّصالات بين مسيحيّي اليمن وكنائس مصر والشام والحبشة. وفي ضوء هذه المعطيات يتّضح أنّ المسيحيّة لم تكن الديانة الأكثر انتشارًا في اليمن عند ظهور الإسلام عدا في بعض المواطن مثل نجران وصنعاء وعدن.

ولئن كانت الأوضاع السياسيّة في اليمن مسؤولة عن جمود المسيحيّة وتوقّف نموّها، فإنّ تعدّد المذاهب المسيحيّة والاختلافات بينها هي السبب الأوّل عن عدم نضج الكنائس اليمنيّة وانصهارها في كنيسة واحدة قويّة.

٢ – المسيحيّة في الأطراف الشرقيّة لشبه الجزيرة العربيّة: نشأتها وتطوّرها[٥]

لم يكن الحضور المسيحيّ في الأطراف الشرقيّة لشبه الجزيرة العربيّة أقلّ أهمّيّة منه في القسم الجنوبيّ الغربيّ منها، إذ كانت تلك الأطراف بمثابة الامتداد الجنوبيّ لفضاء الكنيسة النسطوريّة. لذا يجدر بنا أن نتبسّط في تاريخ انتشار المسيحيّة في تلك المناطق.

ورد في تقاليد الكنيسة النسطوريّة أنّ الراهب عبد يشوع بشّر بالمسيحيّة في جهات البحرين في أواخر القرن الرابع الميلاديّ. وكان هذا الراهب من بلاد مِيسَان بأقصى جنوب العراق ورئيسًا لبعض الأديرة في عهد الجاثليق تُومَرْصا (ت ٣٩٢ أو ٤١م)[٦١] ثمّ تأذّى ببعض المشاكل ففرّ إلى جزيرة بالبحرين وأقام فيها مُنفردًا وبنى ديرًا وعَمَّدَ أهلها[٦٢].

ليس ثمّة ما يدفعنا إلى الشكّ في التقليد النسطوريّ القائل بالتبشير في شرق بلاد العرب. ففي حوزتنا شواهد تاريخيّة ثابتة تطلعنا على نشاط الكنيسة النسطوريّة منذ بداية

(٥) د. سلوى بالحاج، **المصدر نفسه**، ص ٧٧ – ٨١.

(٦١) ورد تاريخ وفاته هكذا في تعليق محقّق وناشر كتاب **Chronique de Séert** ج ٢، ص ٣٠٦. أما ماري ابن سليمان، فيذكر، أنّ تومرصا، كان جاثليقًا في عهد الملك يزدجرد الأوّل (ت ٤٢٠م). **المصدر السابق**، ص ٢٨.

(٦٢) **Chronique de Séert, T. 2, p. 310-311**؛ ماري بن سليمان، **المصدر السابق**، ص ٢٨.

القرن الخامس ونجاحها في تركيز أسقفيّات على طول الساحل الشرقيّ العربيّ من مصبّ الفرات إلى عُمان.

كان للنساطرة ببلاد البحرين وجزائرها أساقفة. ويظهر أنّ المسيحيّة انتشرت أوّلاً في قَطَر (بيت قطراي بالسريانيّة) إذ أصبحت مركز أسقفيّة منذ سنة ٢٢٥م[٦٣]. ثمّ نجد ذكر الأساقفة في جزيرة سماهيج[٦٤] (مشمهيج بالسريانيّة) منذ مطلع القرن الخامس: منهم الأسقف باطاي الذي كان حاضرًا في مجمع ساليق المنعقد سنة ٤١٠م. وقد عارض باطاي مشروع التغييرات التي مسّت الكنيسة النسطوريّة فاستُبدل بالأسقف إلياس في السنة نفسها. وتذكر المجامع النسطوريّة أسقفًا آخر للجزيرة سنة ٥٧٦م. وهو الأسقف سرجيوس[٦٥]. كما ذكر أسقفان لجزيرة دارين (داراي بالسريانيّة) وهما بولس سنة ٤١٠م. ويعقوب سنة ٥٨٥م[٦٦]. إلاّ أنّنا نعتقد أنّ هؤلاء الأساقفة كانوا للمسيحيّين من غير العرب القاطنين في تلك الجُزر، إذ يستفاد من المصادر العربيّة أنّ العرب كانوا يسكنون بالبادية داخل منطقة البحرين أساسًا[٦٧].

وبالنسبة لداخل بلاد البحرين فإنّ أقدم معلوماتنا عن انتشار المسيحيّة فيها تعود إلى النصف الثاني من القرن السادس، وهي تتعلّق بمدينة هَجَر، فقد كان لها أسقف يدعى إسحاق سنة ٥٧٦م.، وهو في الوقت ذاته أسقف مدينة الخط[٦٨].

لعلّه بات من الواضح إثر ذكر هذه المراكز المسيحيّة أنّ الحضور المسيحيّ في البحرين إنّما هو حقيقة تاريخيّة ثابتة. على أنّه يحقّ لنا التساؤل عن مدى تغلغل هذه الديانة بين عرب المنطقة.

لا نستبعد أن يكون لنشاط النساطرة بالبحرين تأثير على أهلها من بني عبد القيس وبكر بن وائل وبني دَارْم التميميّين[٦٩]. وفي المصادر العربيّة ما يؤكّد ذلك. فقد أشار

(٦٣) W. Young, Patriarc, Shah and Caliph, p. 38

(٦٤) سماهيج جزيرة تقع في الخليج بين البحرين وعُمان. أنظر: ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٣، ص ٢٤٦.

(٦٥) **Synodicon oritentale**, p. 273, 277, 387, 616: W. Young, ibid, p. 38.

(٦٦) **Synodicon oritentale**, p. 666, 671.

(٦٧) البلاذريّ، **الفتوح**، ص ١٠٦.

(٦٨) **Synodicon oritentale**, p. 386, 482.

(٦٩) البلاذريّ، **الفتوح**، ص ١٠٦؛ ياقوت، **المصدر السابق**، ج ١، ص ٣٤٧.

البلاذريّ وياقوت إلى وجود نصارى بالبحرين عند ظهور الإسلام. وقد جاء ذكرهم مقرونًا دائمًا بالمجوس واليهود، ممّا يدلّ على أنّ المسيحيّة لم تكن غالبة على كلّ سكّان المنطقة[٧٠].

أمّا عن التركيبة القبليّة لمسيحيّي البحرين فقد تجلّى لنا من مصادر أخرى أنّ المسيحيّة كانت منتشرة أساسًا في بني عبد القيس مثلما أورد ابن حَزْم ذلك، وأنه كان بشيء من المبالغة. فقد قال: «يقال إنّ إياد كلّها، وربيعة كلّها وبكرًا، وتغلب، والنمر، وعبد القيس، كلّهم نصارى...»[٧١]. والأغلب على الظنّ أنّ أقسامًا منها فقط كانت مسيحيّة. كما أنّنا استنتجنا انتشار المسيحيّة في صفوف عبد القيس من خلال ذكر بعض أشرافهم المسيحيّين كالجارود بن بِشْر بن المَعْلِيّ الذي قدم في وفد عبد القيس إلى الرسول[٧٢]، ورئاب بن البرّاء من عشيرة شنّ العَبْديّة[٧٣].

ولئن كان انتشار المسيحيّة النسطوريّة في بني عبد القيس أمرًا مفروغًا منه فإنّه لا يصحّ في رأينا الاستنتاج من ذلك أنّ كلّ بطون عبد القيس كانت مسيحيّة، كما ذهب إلى ذلك لويس شيخو. وهكذا نستطيع من خلال هذا التحليل الوجيز لوضعيّة المسيحيّة بالبحرين استنتاج أنّها دخلت البحرين بواسطة دُعاة أتوها من العراق وأنّ قسمًا من سكّان هذه البلاد، حضرًا وبدوًا، كانوا يتبعون مذهب النسطوريّة. وحسبنا أنّنا ضربنا أمثلة تدلّ على ذلك.

وكما نشط النساطرة في إقليم البحرين، فإنّهم نشطوا أيضًا في بلاد عُمان، وهم يدعونها في مصادرهم مُزون، كما دعاها أيضًا العرب ونبّه إليه ياقوت في معجم البلدان: «والمُزون البعد. ويجوز أن يروى بفتح الميم إذا نُظر إلى الموضع لا إلى الفعل وهو من أسماء عُمان..»[٧٤]. وقال البكريّ قبله: «مُزون هي مدينة عُمان.. وكانت الفرس تُسمّي عُمان مُزون»[٧٥].

(٧٠) البلاذريّ، **المصدر السابق**، ص ١٠٧؛ ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٣، ص ٣٤٨.

(٧١) إبن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ج ٢، ص ٤٩.

(٧٢) إبن هشام، **المصدر السابق**، ج ٤، ص ١٦٤؛ الطبريّ، **المصدر السابق**، ج ٣، ١٢٦ (ذكر الطبريّ الجارود ابن عمرو بن حنش بن المَعْليّ).

(٧٣) إبن قُتيبة، **المعارف**، ص ٥٨؛ إبن حزم، **المصدر السابق**، ص ٢٨٢؛ أبن دريد، **المصدر السابق**، ص ٣٢٥؛ المسعوديّ، **مروج الذهب**، ج ١، ص ٧٠؛ الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج ١٦، ص ٢٦٠.

(٧٤) ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٥، ص ١٢٢.

(٧٥) البكريّ، **المصدر السابق**، ص ١٢٢٢.

ويقدّم الهمدانيّ «مُزون» اسم منطقة حدّدها بين شحر والقَطِيف والأَحْسَاء[٧٦].

وهكذا نرى أنّ أغلب تفاسير الجغرافيّين العرب تتّفق على أنّ مُزون من أسماء عُمان القديمة وتتوافق مع المصادر السريانيّة التي تجعل المُزونيّين Mazoïnoie بجوار سكّان قَطَر Qétroié[٧٧].

ونلاحظ لدى قراءتنا للمجامع النسطوريّة وجود أسماء أساقفة كانوا في عُمان Mazôn منذ الربع الأوّل من القرن الخامس. فممّن ذُكروا: الأسقف يوحنّان Yohannon الحاضر في مجمع داد يشوع المنعقد سنة ٤٢٤م، وداود سنة ٥٤٤م، وشموئيل Samuel سنة ٥٧٦م[٧٨].

فلا غرابة إذن أن نتحدّث عن انتشار المسيحيّة النسطوريّة خلال القرنين الخامس والسادس بين أهل عُمان من الأزْد[٧٩] ومن خالطهم من بني ناجية بن جَرْم من قُضاعة وبني راسب بن الخَزْرَج بن جَجّة بن جَرْم وبني قُدامة بن جَرْم، وبني مَلْكان بن جَرْم. وكلّ هؤلاء كانوا يُسمّون «أَتْلاد عُمان». ويُضيف البكريّ عن بني ناجية أنّ أُسامة بن لؤيّ بن غالب القرشيّ تزوّج امرأةً جَرْميّة وهي ناجية بنت جَرْم، بعُمان، فصار بنوه حيًّا حريدًا شديدًا ولهم منعة وثروة، يقال لهم بنو ناجية[٨٠]. وفي هذا المجال يذهب ابن حَزْم إلى الرأي ذاته إذ يقول إنّ غالب بن أسامة بن لؤيّ أمّه ناجية بنت جَرْم بن ربّان وإليها نُسب وُلْدُ زوجها فهم بنو ناجيه[٨١].

ولنا على مسيحيّة بني ناجية قبل الإسلام شاهد في ما رواهُ الطبريّ بإسناد أبي الطُّفيل ما حرفه، قال: «كنت في الجيش الذين بعثهم عليّ بن أبي طالب إلى بني ناجية، فقال: فانتهينا إليهم، فوجدناهم على ثلاث فرق، فقال أميرنا لفرقة منهم: ما أنتم؟ قالوا: نحن قوم نصارى، لم نرَ دينًا أفضل من ديننا، فثبتنا عليه، فقال لهم: اعتزلوا. وقال للفرقة

(٧٦) الهمدانيّ، **صفة جزيرة العرب**، ص ٢١٥ – ٢١٦.

(٧٧) S.O. p. 482.

(٧٨) S.O. p. 285, 332.

(٧٩) وهم من القحطانيّين من نسل كهلان، وقد عُرفوا بأزْد عمان، تمييزًا لهم عن أزْد شنوءة وأزْد السراة وأزْد غسّان.

(٨٠) البكريّ، **المصدر السابق**، ص ٤٦، ٤٧.

(٨١) إبن حَزْم، **المصدر السابق**، ج١ ص ١٧٢. ويذكر الطبريّ الشيء ذاته في رواية بإسناد ابن إسحاق وابن الكلبيّ... **تاريخ**، ج ٢ ص ٢٦١.

الأخرى، ما أنتم؟ قالوا: نحن كنّا نصارى فأسلمنا، فثبتنا على إسلامنا، فقال لهم: اعتزلوا. ثمّ قال للفرقة الأخرى الثالثة ما أنتم؟ قالوا: نحن قوم كنّا نصارى، فأسلمنا، فلم نَرَ دينًا هو أفضل من ديننا الأوّل، فقال لهم أسلموا، فأبَوْا...»[٨٢]. لقد نقلنا هذه الفقرة على طولها لأنّها حجّة واضحة على اعتناق كلّ بني ناجية دين النصرانيّة قبل الإسلام. وهي تسمح لنا بملاحظة النجاح الذي حقّقته المسيحيّة النسطوريّة في عُمان. وقد رأينا من اللازم قبل مواصلة دراسة تنصُّر أهل عُمان تنبيه القارئ إلى الخطإ الذي وقع فيه لويس شيخو عندما اعتبر بني ناجية المذكورين في نصّ الطبريّ من نسل تميم بن مرّة[٨٣] بالرغم من أنّ الرواية تُقدّمهم على أنّهم أصحاب الخِرِّيت بن راشد الناجي الذي لا نشكّ في نسبته إلى بني أسامة بن لؤيّ وانتمائه إلى أهل عُمان عند ظهور الإسلام[٨٤].

أمّا عن انتشار النسطوريّة بين الأزْد ففي حوزتنا حجّة مباشرة لتأكيد ذلك وهي تتمثّل في ثبوت مسيحيّة بعض الأزْد مثل كعب بن سور، قاضي البصرة[٨٥]، الذي ذكر في معركة الجمل (سنة ٣٥هـ) وأكّدت رواية سيف أنّه كان نصرانيًّا في الجاهليّة[٨٦]. وممّا يزيد في تأكّدنا من تنصُّر قسم من الأزْد رسالة بعثها الجاثليق النسطوريّ إيشوعياب الثالث Echo'yab III (سيم جاثليقًا سنة ٦٥٠م) إلى أهل عُمان ينصحهم فيها بالتمسّك بديانتهم وقبول شروط المسلمين[٨٧].

بهذا نكون قد وضّحنا وضعيّة المسيحيّة بالأطراف الشرقيّة لبلاد العرب خلال القرنين الخامس والسادس إلى مجيء الإسلام. وقد تميّزت هذه الوضعيّة بالملامح التالية:

أوّلاً: بات من الثابت أنّ المناطق الشرقيّة للبلاد العربيّة عاشت التجربة المسيحيّة منذ القرن الخامس.

(٨٢) البكريّ، **تاريخ**، ج ٥، ص ١٢٥ – ١٢٦.

(٨٣) لويس شيخو، **النصرانيّة**، ص ١٤٠.

(٨٤) الطبريّ، **تاريخ**، ج ٣، ص ٣١٥ – ٣١٦.

(٨٥) كانت قبيلة أزد عمان من أهمّ قبائل البصرة في الإسلام وكثر عدد الأزد القادمين من عمان إلى البصرة زمن زياد بن أبيه. أنظر عن هذا الموضوع: البلاذريّ، **الفتوح**، ص ٣٤٠، البلاذريّ، **أنساب الأشراف**، ج ٤ – ١، ص ١٨٧.

(٨٦) الطبريّ: **تاريخ**، ج ٤، ص ١٠١، ٣٥٢.

(٨٧) Isoyahbi III, L'ber Episrularum, C.S. Ch. or. S. Syr. II, p. 251, edt. E. Duval, Paris. 1905.

ثانيًا: سيطر المذهب النسطوريّ فقط وغابت التعدّديّة المذهبيّة في المنطقة.

ثالثًا: رغم أنّ المسيحيّة النسطوريّة كانت ممثّلة بصورة جيّدة في المنطقة الشرقيّة للبلاد العربيّة (أساقفة...) فإنّ أسقفيّات البحرين وعُمان لم تتمكّن من الانصهار في كنيسة عربيّة إقليميّة مُستقلّة عن الكنيسة الأمّ بالعراق، عند ظهور الإسلام.

رابعًا: ليس كلّ العرب معتنقين للمسيحيّة.

٣ – المسيحيّة في وسط الجزيرة العربيّة: نجد واليمامة[٠]

قد لا نُخطئ الحقيقة إن قُلنا إنّه كان للمسيحيّة حضور بوسط الجزيرة العربيّة قبل الإسلام استنادًا إلى شهادة أحد أشهر المختصّين في التاريخ الكنسيّ وهو دوشِسن Duchesne، وقد أكّد هذا الباحث دخول المسيحيّة إلى نجد في زمن لا يمكن أن يكون قبل القرن السادس[٨٨]. إلاّ أنّه اكتفى بهذه الإشارة دون إيراد تفاصيل تساعدنا على فهم تسرّب هذه الديانة إلى وسط بلاد العرب وعلى تكوين فكرة عن أهمّيّة حُضورها هناك.

وممّا يؤكّد رأي دوشِين الأبنية التي بناها المسيحيّون في الفضاء العربيّ كدير سعد بين بلاد غَطَفان والشام[٨٩] ودير عمرو في جبال طيء قرب قرية يقال لها جُوُّ[٩٠]. فمن البديهيّ، أمام هذه الحقائق، أن نبحث عن مدى تأثير المسيحيّة بين القبائل الساكنة بنجد واليمامة عند ظهور الإسلام. وهذه القبائل هي أساسًا طيء وغَطَفان وأسَد وتميم وفَزَارة وحنيفة[٩١].

يتجلّى من المعلومات المتوافرة عن القبائل العربيّة بنجد أنّ بني آكل المُرار الكِنْديّين[٩٢] النصارى[٩٣] قاموا بدور تبشيريّ مُهِمّ بوسط شبه الجزيرة العربيّة وشمالها خلال فترة

(٠) د. سلوى بالحاج، **المصدر نفسه**، ص ٨١ – ٨٤.

(٨٨) Mgr. Duchesne, Histoire ancienne de L'Eglise, T. III, p. 574.

(٨٩) ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٥١٦؛ الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج ١٢، ص ٢٥٧.

(٩٠) ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٥٢٤.

(٩١) البكريّ، **المصدر السابق**؛ ياقوت، **المصدر السابق**، ج ١، ص ٩٤ – ٩٩.

(٩٢) بنو آكل المرار ينتمون إلى بطن معاوية الكنديّ. أنظر: E. I, art "Kinda" وبيغوليفسكيا، **المرجع السابق**، ص ١٧٠ – ١٨٠.

(٩٣) تنصّرت فروع عديدة من كندة. لكنّنا سنركّز في هذا الفصل على نصرانيّة بطون فرع معاوية دون فرع الأشرس من كندة الذي ينتمي إليه السكاسك والسكون، إذ تعرّضنا لهذين البطنين خلال دراستنا للمسيحيّة بدومة الجندل، في معرض حديثنا عن المسيحيّة بالشام. وتجدر الملاحظة أنّ قبيلة كندة لم تكن على دين واحد بل كانت فيها الوثنيّة واليهوديّة والمجوسيّة إلى جانب المسيحيّة. أنظر: E. I, art "Kinda"

سيطرتهم على هذه المناطق من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس (٤٥٠ – ٥٥٠م).

ومن أبرز الشواهد على تنصُّر بني آكل المُرار الكتابة التي وضعتها هند الكبرى بنت الحارث الكنديّة في صدر ديرها حيث تفتخر فيها بكونها «أمَةَ المسيح وأمّ عبده (أي عمرو بن هند) وبنت عُبيده (أي الحارث بن عمرو بن حُجْر ملوك كندة)»[٩٤]. كما نجد في رسالة عبد المسيح بن إسحاق الكنديّ التي وجّهها إلى صديقه عبد الله بن إسماعيل الهاشميّ في أيّام المأمون (سنة ٢٤٧هـ م ٨٦١م) إشارة إلى عراقة نصرانيّة كندة إذ قال فيها: «فقد علم كلّ ذي علم ولبّ كيف كانت ملوك كِنْدة الذين هم ولدونا وما كان لهم من الشرف على سائر العرب. لكنّنا نقول ما قاله رسول الحقّ بولس ألا من يفتخر فليفتخر بالله والعمل الصالح فإنّه غاية الفخر والشرف. فليس لنا اليوم فخر نفتخر به إلاّ دين النصرانيّة الذي هو المعرفة بالله وبه نهتدي إلى العمل الصالح ونعرف الله حقّ معرفته ونتقرّب إليه وهو الباب المؤدّي للحياة والنجاة من نار جهنّم»[٩٥].

بالإضافة إلى كندة تشهد المصادر العربيّة على تنصُّر أحياء من طيء. وهو ما ذكره اليعقوبيّ في **تاريخه** إذ قال: «تنصّر من أحياء العرب.. من اليمن طيء ومَذْحج وبَهْراء وسَلِيح وتَنُوخ وغسّان ولَخْم»[٩٦]. ويوضّح الجاحظ في رسالته الردّ على النصارى قائلاً: «كانت النصرانيّة غالبة على ملوك العرب وقبائلها، على لَخْم وغسّان والحارث بن كعب بنجران وقُضاعة وطيء في قبائل كثيرة وأحياء معروفة»[٩٧]. إنّ قول كلّ من اليعقوبيّ والجاحظ يحملنا على الاعتقاد في تنصُّر أحياء كثيرة من طيء. ويهمّنا في هذا الفصل تحديد بطون طيء المتنصّرة بمنطقة نجد[٩٨].

كان عَدِيّ بن حاتم سيّد طيء من جملة الداخلين في المسيحيّة، ويُذكر أنّه كان ركوسيًّا.

(٩٤) ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٥٤٢.

(٩٥) **رسالة عبد الله بن إسمعيل الهاشميّ إلى عبد المسيح بن إسحاق الكنديّ** يدعوه فيها إلى الإسلام **ورسالة الكنْديّ إلى الهاشميّ** يردّ بها عليه ويدعوه إلى النصرانيّة في أيّام أمير المؤمنين الخليفة العبّاسيّ المأمون سنة ٢٤٧ هجريّة و ٨٦١ ميلاديّة. ص ١٣٥.

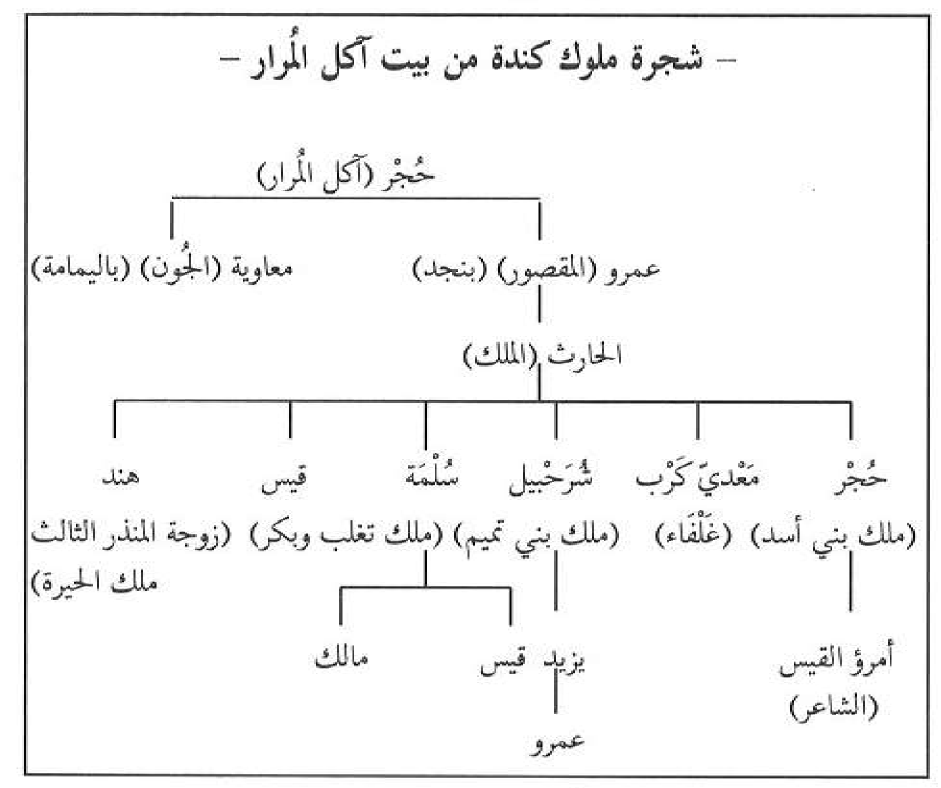
(٩٦) اليعقوبيّ، **تاريخ**، ج ١، ص ٢٩٨.

(٩٧) الجاحظ، **الردّ على النصارى**، ص ٥.

(٩٨) أشرنا عند دراستنا للمسيحيّة بين عرب الشام والعراق إلى تنصُّر بطون من طيء تسكن الحميرة وبقاع من سوريًا. أنظر: ص ٣٣، ٤٢، ٥٧.

وقد ذكر أهل الأخبار أنّ الرُّكُوسيّة هي بين النصرانيّة والصابئة[٩٩]. لكنّ ذلك لا يعني أنّ المسيحيّة كانت الغالبة في جبلَي أجَأ وسَلْمى، إذ كان الطائيّون في هذين الجبلين معروفين بعبادتهم للصنم الفَلْس[١٠٠]. لذلك نرجّح أنّ المقصود بطيء في قول الجاحظ واليعقوبيّ هو أحياء طيء المقيمة بالحيرة والشام دون طيء نجد.

أمّا عن الحضور المسيحيّ في اليمامة فنكاد نوقن بالرغم من صعوبة رسم خطّ دقيق لمسار انتشار هذه الديانة بأنّها تسرّبت إليها انطلاقًا من الشمال، مرورًا بنجد، إذ نستبعد تمامًا دخولها من السواحل الشرقيّة بسبب وجود حواجز طبيعيّة تتمثّل في عروق صخريّة تتخلّلها كثبان رمليّة جرداء، تجعل التنقّل بين الجهتين عمليّة صعبة[١٠١].



المصدر: ابن الكلبيّ، **النسب الكبير**، ج ١، ص ١ – ١١٧.

(٩٩) **تاج العروس**، «مادّة ركس»، ج ٤، ص ١٦٣.

(١٠٠) الطبريّ، **تاريخ**، ج ٣، ص ١١١ – ١١٥.

(١٠١) الهمدانيّ، **صفة جزيرة العرب**، ص ٢٦٧.

ونجد الكِنْديّين يقومون مرّة أخرى بدور المبشّر للديانة المسيحيّة باليمامة. فقد كان يُسيطر على هذه المنطقة بطن بني الجُون الكِنْديّين[102] النصارى قبل هجرتهم إلى موطنهم الأصليّ بحضرموت حيث وجدوا عند مجيء الإسلام[103].

إلاّ أنّه ليس لدينا شواهد على أنّ هؤلاء الكِنْديّين النصارى قد نجحوا في نشر ديانتهم بين سكّان اليمامة ولا سيّما بني حنيفة باستثناء حالة واحدة واضحة تتمثّل في تنصُّر سيّد بني حنيفة وهو هوذة بن عليّ الذي مدحه الأعشى في شعره قائلاً:

بِهِمْ يُقَرِّبُ يَوْمَ الفِصْحِ ضَاحِيَةً   يَرْجُو الإِلَهَ بِمَا أَسْدَى وَمَا صَنَعَا[104]

لكنّنا لا نعرف إلى أيّ مدًى يعبّر تنصُّر سيّد بني حنيفة عن تنصّر قومه ورعيّته، سوى بعض الفرضيّات المتعلّقة بخليفة هوذة، مسيلمة الذي سمّى نفسه بـ «الرحمان»[105]. وهو نعت من نعوت الله في النصرانيّة من أصل سرياني[106] (rahmono)[107]، ولعلّنا نجد في هذه التسمية مظهرًا من مظاهر التأثّر بالنصرانيّة.

تؤدّي بنا دراسة انتشار المسيحيّة في وسط شبه جزيرة العرب إلى التأكيد على ظاهرة هامّة ميّزت العرب النصارى وهي اعتناؤهم (كندة) بنشر الديانة المسيحيّة داخل بلادهم. ونذهب في اعتقادنا إلى أنّ المسيحيّة التي نشرتها بطون كندة قد تكون النسطوريّة آخذين بعين الاعتبار ما ورد على لسان الهاشميّ في رسالته إلى عبد المسيح بن إسحاق الكنديّ كما بيّنّا ذلك في الصفحات السابقة.

ويبدو أنّ مجهود العرب في تنصير بني جنسهم بقي منقوصًا ولم يكتمل عند مجيء الإسلام إذ لم نلاحظ أيّ تنظيم كنسيّ بين عرب نجد واليمامة[108].

---

(١٠٢) الجون هو مُعاوية بن حُجْر كان سيّد العرب باليمامة في النصف الثاني من القرن الخامس. أنظر:
E. I, art "Kinda" T. V, p. 121.

(١٠٣) E. I, art "Kinda" T. V, p. 122 ؛ وبيغوليفسكيا، **المرجع السابق**، ص ١٧٩ – ١٨٠.

(١٠٤) يتحدّث الأعشى في هذا البيت عن أسرى تميم الذين أطلق سراحهم هوذة يوم عيد الفصح. أنظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ١، ص ٣٧٨ – ٣٧٩.

(١٠٥) الطبريّ، **تفسير**، ج ١، ص ٤٤؛ البلاذريّ، **الفتوح**، ص ١٤٦؛ القرطبيّ، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ١٠٦.

(١٠٦) الأب رفائيل نخلة اليسوعيّ، **غرائب اللغة**، ص ١٨٢.

(١٠٧) rahmono = اللفظة بالأبجديّة اللاتينيّة.

(١٠٨) أنظر ص ٨١ – ٨٢.

٤ – المسيحيّة في الحجاز[109] إلى ظهور الإسلام(*)

لن نحاول البحث عن آثار للمسيحيّة بين عرب الحجاز. فهذه مسألة حُسمت وقدّم أهل الاختصاص رأيهم فيها. ولم يؤدِّ اطّلاعنا على المصادر السريانيّة والعربيّة إلى اكتشاف معلومات جديدة. لكن تبقى بعض الجوانب التي تتطلّب منّا التعليق عليها. ومن هذه الجوانب مثلاً أسباب غياب التبشير المسيحيّ في الحجاز.

كتب دوشين مبديًا رأيه في هذا الموضوع فقال: «وصلت الحملات التبشيريّة إلى نجد، لكن في فترة متأخّرة ليست قبل القرن السادس. أمّا الحجاز فلم تصلها تلك الحملات أبدًا»[110]. وأقرّ هنري لامنس H. Lammens في بحثه المسهب عن جذور المسيحيّة في مكّة بأنّ العدد الكبير للمسيحيّين فيها ليسوا سوى أجانب[111]. أمّا المسيحيّون من أهالي البلاد فهم حالات نادرة جدًّا[112]. وكانت اليهوديّة مُسيطرة على أغلب مدن وقرى الحجاز، فيثرب وخيبر والطائف وفَدَك وتيماء كانت كلّها مراكز يهوديّة. ونجد في المُنمّق[113] بابًا بأبناء اليهوديّات من قريش، غير أنّ ذلك لا يعني غياب العنصر المسيحيّ في بعض هذه المدن. فقد كان في تَبُوك نصارى من كَلْب[114].

وقد أشار القرآن في مواضع عديدة من الآيات المدنيّة إلى النصارى، غير أنّ تلك الإشارات جاءت عامّة تتحدّث عن طبيعة المسيح وعن المسيحيّة عامّة لا عن نصارى يثرب بالذات. ولم يُشِرْ أهل السير إلى مقاومة نصارى يثرب الرسول مثلما فعل يهودها. وهو

---

(١٠٩) نلاحظ أنّنا استعملنا لفظة الحجاز حسب مفهومها الواسع أي ذلك الإقليم الواسع الذي يقع بين هضبة نجد وسواحل البحر الأحمر ويشغل منطقة تهامة بما فيها مكّة. يمكن الرجوع فيما يخصّ تحديد هذا الإقليم إلى: صالح أحمد العليّ، **الدولة في عهد الرسول**، ج ١، ص ٢٧٢ – ٢٧٣.

(*) د. سلوى بالحاج، **المصدر نفسه**، ص ٨٥ – ٨٨.

(١١٠) Mgr Duchesne, ibid, T. III, p. 574.

(١١١) هم غير أهالي مكّة، لكن بين عرب الحِيرة ونجران وأحابش وعبيد أفارقة وروم. أنظر:
H. Lammens, L'Arabie occidentale avant l'hégire.

(١١٢) بالرغم من إشارة اليعقوبيّ إلى وجود النصرانيّة بين قريش إذ قال: «أمّا من تنصّر من أحياء العرب فقوم من قريش»، فإنّه لا يذكر فيما بعد سوى قرشيَّين هما ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث. أنظر اليعقوبيّ، **تاريخ**، ج ١، ص ٢٩٨.

(١١٣) إبن حبيب، **المنمّق** (مخطوط، المكتبة الوطنيّة العراقيّة).

(١١٤) إبن خلدون، **العبر**، ج ٢، ص ٥٢١.

ما يدلّ على أنّ الحضور المسيحيّ كان ضعيفًا في يثرب. غير أنّ هذا لا يعني عدم وجود النصارى في هذا الموضع الزراعيّ المهمّ. وهو ما يُفهم من بيت الشاعر حسّان بن ثابت في قصيدة رثى بها الرسول:

فَرِحَتْ نَصَارَى يَثْرِبَ وَيَهُودُهَا لَمَّا تَوَارَى فِي الضَرِيحِ المُلْحَدِ(١١٥)

ومن المفارقات أنّنا نجد بمحيط المدن السالفة الذكر في وادي القرى وعلى طول الطريق التجاريّة المؤدّية إلى الشام، رهبانًا نصارى وأديرة ومناسك. وبرز من بينهم رهبان بني عُذْرَة الذين ذكرهم الشاعر جعفر بن سُراقة في شعره:

نَحْنُ مَنَعْنَا ذَا القُرَى مِنْ عَدُوِّنَا وَعُذْرَةَ إِذْ نَلْقَى يَهُودًا وَيَعْشَرَا
مَنَعْنَاهُ مِنْ عُلْيَا مَعَدَّ وَأَنْتُمْ سَفَاسِيفُ رَوْحٍ بَيْنَ قُرْحَ وَخَيْبَرَا
فَرِيقَانِ رُهْبَانٌ بِأَسْفَلِ ذِي القُرَى وَبِالشَّامِ عَرَّافُونَ فِيمَنْ تَنَصَّرَا(١١٦)

وبالإضافة إلى ما ذكرنا فإنّ البيت الشعريّ الأخير يسمح لنا باستنتاج وجود علاقة بين مسيحيّة الحجاز ومسيحيّة سوريًا.

وهكذا فإنّ الحقيقة التي تبرز من خلال تعرُّضنا للحضور المسيحيّ في الحجاز هي أنّ المسيحيّة لم تكن ممثّلة في تلك المنطقة تمثيلاً هامًّا لا من حيث العدد ولا من حيث التنظيم. فلا أثر فيها لنظام دينيّ ولا لأسقفيّات. ولسائلٍ أن يسأل لماذا غابت الحملات التبشيريّة في الحجاز بالرغم من أنّ كلّ المعالم الجغرافيّة (منطقة غير منعزلة ومتّصلة بأكبر معاقل المسيحيّة في الشرق أي الشام ومصر) والعقائديّة (أهمّيّة الحضور اليهوديّ) ترشّحها لتكون أوّل من يتقبّل التبشير المسيحيّ ببلاد العرب؟ ومن المفارقات أنّ العكس هو الذي حصل!

أمام هذا الوضع نجد أنفسنا مدفوعين إلى سؤال آخر: لماذا شكّل يهود الحجاز حاجزًا دون انتشار المسيحيّة؟ فلا هم اعتنقوها ولا هم روّجوها. وبالمقابل قام اليهود في مناطق أخرى مثل منطقة Adiabène في شمال شرقيّ الجزيرة الفراتيّة(١١٧) بدور مناقض فكانوا

(١١٥) **ديوان حسّان بن ثابت**، ص ٥٩.

(١١٦) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج ٨، ص ١٣٩.

(١١٧) J. M. Fiey, Jalons pour une histoire de l'Eglise en Iraq, p. 48. من الملاحظ أنّ هذا الاستنتاج ليس لفيي وإنّما لـ Jacob Neusner في دراسته: A. History of the Jews in Babylonia.

أوّل من اعتنق هذه الديانة وعَمِلَ على نشرها. ولعلّنا نجد في أوضاع اليهود ما يُفسّر هذا التناقض. فمن خلال متابعتنا لهذه الأوضاع لاحظنا أنّ يهود الشتات Diaspora هم الأقرب إلى التفاعل إيجابيًّا مع الديانة المسيحيّة، وكلّما تعلّق الأمر بمجموعات يهوديّة مُستقرّة في أوطانها، فخورة بقوميّتها (يهود الوطن) كان الاتّجاه رفض هذه الديانة والحفاظ على العقائد القديمة. ففي القدس مثلاً كان يهود الشتات أكثر استعدادًا من سكّان «اليهودا» La Judée للتفاعل مع المسيحيّة(١١٨). وفي الحجاز نلاحظ أنّ القبائل اليهوديّة كانت تتميّز أيضًا بالاستقرار والانغلاق والثروة والاعتزاز بالدين اليهوديّ ممّا عسّر اختراقها من قبل التبشير المسيحيّ القادم من الخارج، وهو ما لن يتمكّن منه حتّى الإسلام لاحقًا رغم فتوّته وانطلاقه من الجزيرة نفسها ومن صلب العرب أنفسهم.

من خلال ما تعرّضنا إليه من معطيات تهمّ الحضور المسيحيّ ببلاد العرب يمكننا إبداء الملاحظات التالية:

أوّلاً: إنّ المسيحيّة لم تدخل بلاد العرب قبل القرن الرابع على عكس زعم لويس شيخو الذي حاول إثبات دخولها هذه البلاد منذ القرن الأوّل الميلاديّ.

ثانيًا: كان دخول المسيحيّة إلى بلاد العرب ناتجًا عن اتّصالها بطرق القوافل البرّيّة والبحريّة المرتبطة بالبلاد التي انتشرت فيها المسيحيّة وبمجيء التجّار النصارى والمبشّرين مع القوافل الوافدة عليها. ويفسّر أيضًا بفرار بعض الرهبان إليها.

(١١٨) Les Actes des Apôtres, 1/6.

الجزيرة العربيّة وعشائرها
في القرنين السادس – السابع الميلاديَّين



المرجع : صالح أحمد العليّ، **الدولة في عهد الرسول**، ج ٢، ص ٥١٤.

الشعائر والطقوس الدينيّة عند العرب النصارى قبل الإسلام(*)

إنّ غايتنا الأساسيّة من دراسة الوضع الدينيّ عند العرب المسيحيّين قبل الإسلام هي معرفة عمق الشعور الدينيّ لديهم من خلال تحديد مدى تأثّرهم بطقوس الديانة المسيحيّة ومعتقداتها. ومن أهدافنا أيضًا استجلاء مدى تأثير السلوك العربيّ في الطقوس المسيحيّة وبالتالي الوصول إلى وضع صورة واضحة لهويّة المسيحيّة العربيّة.

لقدحاولنا أثناء دراستنا لهذه المسألة إبراز وجه الاتّفاق والاختلاف بين مختلف المسيحيّات العربيّة (النسطوريّة، اليعقوبيّة...) من الناحية الطقسيّة، إلاّ أنّه استحال علينا ذلك إلى درجة كبيرة إذ لم نجد من المعلومات الضافية ما يؤمّلنا للقيام بهذا العمل. لكنّ نُتف الأخبار المنثورة في مرويّات الأقدمين من العرب والسريان وفي الشعر، تُظهر لنا بعض خصائص الحياة الدينيّة عند العرب النصارى فركّزنا عليها الاهتمام عساها تُساعدنا على الخروج ببعض الاستنتاجات.

سعى الأساقفة والقساوسة والشمامسة إلى تعليم العرب الشعائر والطقوس المسيحيّة منذ بداية تنصّرهم. وقد لمسنا ذلك من خلال المرويّات عن علاقة الأسقف أحودامه بعرب العراق والجزيرة الفراتيّة[1]. تقول هذه المرويّات إنّ أحودامه بنى للعرب كنائس خاصّة بهم ووضع فيها هياكل ومذابح لتقديم القرابين. إلاّ أنّه ليس لدينا معلومات أخرى عن كيفيّة تقديم العرب المسيحيّين قرابينهم، وهل يحترمون في ذلك قوانين الكنيسة أم لا؟

ومن ناحية أخرى، فقد وفّرت لنا المرويّات العربيّة معلومات عن ممارسة نصارى الحيرة

(*) د. سلوى بالحاج، المصدر نفسه، ص ٨٩ – ١٠٠.

(١) F. Nau, Histoire d'Ahoudemmah, p. 28.

سرّ القربان، مثلما أخبر صاحب **الأغاني** عن عَدِيّ بن زيد وهند بنت النعمان، كيف دخلا يوم خميس الفصح كنيسة الحيرة «ليتقرّبا»[٢].

ومما يدلّ على انتشار هذه الممارسة الطقسيّة انتشارًا واسعًا بين مسيحيّي الحيرة ما أخبر به ابن الكلبيّ في إحدى رواياته إذ قال: «إنّ النعمان دخل دير هند الصغرى في بعض أعياده، فرأى امرأةً تأخذ قربانًا أخذت بقلبه، فدعا الراهب الذي قرّبها وسأله عنها»[٣]. والملاحظ أنّ العرب كانوا يدعون القربان «الشّبْر»[٤].

ومن ناحية أخرى فقد كان العرب النصارى يقيمون الصلاة مثل بقيّة المسيحيّين وهو ما لمسناه في رواية عن دير اللّجّ، أوردها العمريّ نقلاً عن أبي الفرج الأصفهانيّ، وتقول هذه الرواية: «إنّ النعمان ملك الحيرة، كان يركب كلّ يوم أحد وفي كلّ عيد معه أهل بيته وخاصّته من آل المنذر ومن ينادمه من أهل بيته، عليهم حلل الديباج المُذهّبة، وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب، وفي أوساطهم الزنابير المحلاّة بالذهب المفصّصة بالجوهر، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان الذهب. فإذا قضوا صلاتهم انصرف إلى مستشرفه على النجف فيشرب منه بقيّة يومه إلى أن يمسي»[٥].

وفي رواية لابن إسحاق عن صلاة وفد نجران عند مجيئهم إلى الرسول، يتبيّن أنّ العرب المسيحيّين كانوا يصلّون باتّجاه المشرق مثل بقيّة المسيحيّين[٦].

وجاء في أخبارٍ عن دير هند الصغرى أنّ النعمان كان يُصلّي ويتقرّب فيه وأنّه علّق في هيكله خمسمائة قنديل من ذهب وفضّة. وكانت أدهانها في أعياده من زئبق وبان وما شاكلها من الأدهان، ويوقد فيه من العمود الهنديّ شيئًا يجلّ عن الوصف[٧].

ما نلاحظه من هاتين الروايتين أنّ الحيريّين كانوا يعظّمون الأحد ويقيمون الصلاة الأسبوعيّة (الأحد) وصلاة الأعياد.

---

(٢) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج ٢، ص ١٠٧.
(٣) العمريّ، **مسالك الأبصار**، ج ١، ص ٣٢٢؛ الشابشتيّ، **الديارات**، ص ٢٤٤.
(٤) إبن منظور، **لسان العرب**، ج ٦، ص ٥٨.
(٥) العمريّ، **المصدر السابق**، ج ١، ص ٣٢٦.
(٦) الطبريّ، **التفسير**، ج ٣، ص ١٠٨.
(٧) العمريّ، **المصدر السابق**، ج ١، ص ٣٢٣.

كما نلاحظ أنّ العرب المسيحيّين بدوًا كانوا (سكّان الجزيرة الفراتيّة) أم حَضَرًا (الحيريّون). كانوا يمارسون طقوسهم الدينيّة في الكنائس. فقد عُرفت الباعوثا كأكبر وأشهر كنائس العرب النصارى بالحيرة[٨]. كما كانت الكنائس كثيرة في فضاء الغساسنة مثل معبد القدّيس سرجيوس بالجابية وكنيسة بُصرى المشهورة[٩]. وتكرّر في الشعر القديم ذكر نواقيس كنائس الغساسنة. قال المتلمّس يذكر خروجه إلى بلاد غسّان حيث كثرت الكنائس والنّواقيس:

حنّت قلُوصي بها واللّيل مُطّرقُ   بعد الهُدوّ[١٠] وشاقتها النواقيس[١١]

ولئن كانت معلوماتنا مقتضبة في ما يتعلّق بطقْسَي القربان والصلاة عند العرب المسيحيّين فقد توفّرت لدينا تفاصيل أكثر عن صيامهم، منها الإشارات المتعلّقة بصوم العرب الرحّل بالجزيرة الفراتيّة الذين نصّرهم أحودامه والتي تبيّن أنّ هؤلاء العرب كانوا يحبّون الصيام أكثر من كلّ المسيحيّين إلى درجة أنّهم يسبّقون صيام الأربعين يوْمًا (الصيام الكبير Le carême) بأسبوع قبل كلّ المسيحيّين. وكان الكثير منهم لا يأكل الخبز طوال فترة الصوم. ليس الرجال فقط وإنّما النساء أيضًا[١٢].

ومن الأصوام المشهورة عند العرب المسيحيّين وخاصّة العباديّين بالحيرة «صوم العذارى» وهو يقع يوم الاثنين بعد عيد الدِّنْح[١٣] ويدوم ثلاثة أيّام وفطره يوم الخميس. ويروي البيرونيّ أنّ السبب في منشئه أنّ ملك الحيرة قبل الإسلام اختار من أبكار نساء العِباديّين عدّة نسوة ليتّخذهن، فصمن ثلاثة أيّام بالوصال فمات ذلك الملك في آخرها ولم يمسسهنّ، وقيل بل صامته العذارى المسيحيّات من العرب شكرًا لله حيث انتصر العرب على العجم يوم ذي قار فنُصروا عليهم ولم يظفر الفرس بالعذراء العَنْقَفير بنت النعمان[١٤].

---

(٨) الحسن الهمدانيّ، **صفة جزيرة العرب**، ص ١١٧.
(٩) Le Bas-Waddington, Inscriptions de Syrie, n° 1915, 2124.
(١٠) بعد الهدوّ، أي عند السحر، لأنّ عادة الرهبان أن يقرعوا نواقيسهم للصلاة قبل الفجر.
(١١) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج ٢٣، ص ٥٥١.
(١٢) Hist d'Ahoudemmah, p. 28.
(١٣) الدنحُ أو الدِنْحُ: لفظة سريانيّة الأصل بمعنى الظهور أي ظهور المسيح يسوع يوم عماده. البيرونيّ، **الآثار الباقية**، ص ٢٩٣.
(١٤) البيرونيّ، **المصدر السابق**، ص ٣١٤.

أمّا ياقوت فقد نسب منشأ هذا الصوم إلى غير ذلك. فقال إنّ أحد الملوك أراد أن يعبث براهبات دير العذارى في الحيرة فصلّين إلى اللّه ليبعد عنهنّ شرّه فمات في الليلة الثالثة[١٥]. والجدير بالملاحظة أنّ هذا الصوم ليس خاصًّا بالعرب فقط بل يُعتبر من الأصوام العامّة عند النساطرة[١٦].

ويؤخذ من الشعر القديم والمرويّات التاريخيّة أنّ العرب المسيحيّين كانوا يُعظّمون أعيادهم. وما نعرف عن الحيريّين أنّهم كانوا يحتفلون بعيد «خميس الفصح» La pâque وهو بعد الشعانين بثلاثة أيّام. وقد جاء ذكر هذا العيد في سياق قصّة لقاء عَدِيّ بن زيد العباديّ بالأميرة هند بنت النعمان وذلك حين رآها في خميس الفصح تتقرّب من بيعة توما[١٧].

ومن عادة أشراف الحيرة في أعيادهم أنّهم يلبسون الديباج المذهّبة ويضعون على رؤوسهم أكاليل الذهب وفي أوساطهم الزنانير المحلاّة بالذهب المفصّصة بالجوهر ويحملون بين أيديهم أعلامًا فوقها صلبان الذهب[١٨].

وعُرف الغساسنة أيضًا باحتفالهم بعيد الفصح وهم ممّن أشار إليهم في عيدهم حسّان بن ثابت إذ قال:

قَدْ دَنَا الفِصْحُ فَالوَلاَئِدُ يَنْظِمْـ ـنَ سِرَاعًا أَكِلَّةَ المُرْجَانِ
يَتَبَارَيْنَ في الدّعَاءِ إلَى اللّـ ـهِ وكُلُّ الدُّعَاءِ للشَّيْطَانِ
ذَلكَ مَغْنًى لآلِ جَفْنَةَ فِي الدّيْـ ـرِ وَحَقٌّ تَصَرُّفُ الأَزْمَانِ
صَلَوَاتُ المَسيحِ فِي ذَلِكَ الدّيْـ ـرِ دُعَاءُ القِسّيسِ وَالرُّهْبَانِ[١٩]

كما كانوا يحتفلون بعيد السباسب ووصفهم النابغة الذبيانيّ في عيدهم قائلاً:

(١٥) ياقوت، **معجم البلدان**، مادّة «دير العذارى»، ج ٢، ص ٥٢٢.

(١٦) E. Tisserant, L'Eglise nestorienne, p. 317.

(١٧) الأصفهانيّ، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ١٠٧.

(١٨) العمريّ، **المصدر السابق**، ج ١، ص ٣٢٦.

(١٩) الأصفهانيّ، **المصدر السابق**، ج ١٥، ص ١٢١.

رِقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ يُحَيُّونَ بالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ
تُحَيِّيهُمُ بِيضُ الوَلاَئِدِ بَيْنَهُمْ وَأَكْسِيَةُ الإِفْرِيجِ فَوْقَ المَشَاجِبِ[٢٠]

والسباسب هو يوم السعانين أو الشعانين عند المسيحيّين وهو الأحد السابق لأحد الفصح. والشعانين لفظة مشتقّة من «هوشعنا» العبرانيّة وهي الكلمة التي حيِّي بها أهل أورشليم المسيح يوم دخوله المدينة والهيكل ظافرًا بعد أن أقامَ لعازر من الموت[٢١].

وورد عند اللغويّين العرب أنّ السباسب هي الأغصان يريدون بها سعف النخيل الذي قطعه اليهود يوم استقبلوا المسيح عند دخوله أورشليم، وقد دعَوْا أيضًا هذا العيد بعيد الزيتون[٢٢].

نلاحظ أنّ الغساسنة اليعاقبة لا يختلفون عن العِباديّين النساطرة في الخروج إلى أعيادهم إذ كانوا، هم أيضًا، يلبسون ثِيَابًا خاصّة منها «الإضريح» وهو كساء أحمر من الخزّ ويقال أيضًا الخزّ الأصفر وقيل بل هو كساء يُتّخذ من المرعز من أجود صوفها[٢٣].

ومن العادات الدينيّة التي علّمها الأسقف أحودامه للعرب إيتاء الزكاة. وكانت صدقتهم توزّع على كلّ الناس وفي كلّ مكانٍ لكن بصورة خاصّة على الأديرة مثل دير مار متّى ودير كوختا Kôktâ ودير بيت مار سرجيس وعلى طائفة الرهبان الموجودين بجبل سِنْجَار Sigar بالجزيرة الفراتيّة. وكان هؤلاء العرب يقدّمون أيضًا هبات هامّة للكنائس والرهبان والفقراء والغرباء[٢٤].

ومن عاداتهم أيضًا زيارة الأماكن المقدّسة لا سيّما معبد القدّيس سرجيس في الرُّصافة. ومن أكثر العرب تعلّقًا بهذا القدّيس عرب سوريّا. فكان الغساسنة يحجّون إلى معبده. وقد قال جرير يؤيّد تعلّق غسّان بمار سرجيس واستشفاعهم به.

يَسْتَنْصِرُونَ بِمَارِ سَرْجِيسَ وَابْنِهِ بَعْدَ الصَّلِيب وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِ[٢٥]

(٢٠) النابغة، **الديوان**، ص ١٦.

(٢١) مجلّة **المشرق** (١٩٢٥)، ص ٢٤٣.

(٢٢) **تاج العروس**، ج ٤، ص ٢٩٤.

(٢٣) النابغة، **الديوان**، ص ١٧.

(٢٤) F. Nau, ibid, p. 27-28 ؛ الشابشتيّ، **الديارات**، ص ٤٢٣، ٤٢٤.

(٢٥) **ديوان جرير**، ص ٣٠٨.

كما كانت قبيلة تغلب تحجّ إلى قبر هذا القدّيس، على رأس كلّ العرب يوم ١٩ هَتُور Hatour حسب الرزنامة العربيّة اليعقوبيّة Synaxaire arabe jacobite في ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر أي في الفترة التي تسمح فيها الأمطار الأولى للرحّل الذين كانوا يصيّفون في الشمال بالعودة مع مواشيهم إلى وسط الصحراء(٢٦).

لا يمثّل يوم ١٥ نوفمبر حفلاً دينيًّا كبيرًا بالنسبة للقبائل العربيّة فحسب بل يمثّل «موسمًا» دينيًّا وتجاريًّا وترفيهيًّا. فهو المناسبة القارّة التي تتلاقى فيها قبائل العراق وسوريا(٢٧).

ومن عادات العرب المسيحيّين تعظيم الصليب وهو ما لاحظناه في أيمانهم. وعلى ذكر القسم فإنّ العرب المسيحيّين كانوا يُقسمون بالله والصليب والمعموديّة والمسيح. قال عَدِيّ ابن زيد:

أَنـنـي والـلّـهِ، فَـاقْـبَـلْ حَـلْـفِـي لأبيل(٢٨) كُـلَّـمـا صَـلَّـى جَـارْ(٢٩)

وأقسم الأسود بن المنذر بـ «الصليب والمعموديّة»(٣٠) وأقسمت هند بنت النعمان بـ «الصليب» لمّا رفضت المغيرة بن شُعْبَة إذ جاءها خاطبًا فقالت له «والصليب لو علمت أنّ فيّ خصلة جمال أو شباب رغّبتك فيّ لأجبتك»(٣١). ومن عادة الحيريّين النصارى للتوثيق من قسمهم أنّهم يحلفون في البيعة. وقد قام بهذا كلّ من عَدِيّ بن زيد وعَدِيّ بن مرينا مثلما ورد في رواية **الأغاني**: «... وقام عَدِيّ بن زيد إلى البيعة فحلف أن لا يهجو عَدِيّ بن مرينا أبدًا، ولا يبغيه غائلة أبدًا فلمّا فرغ عَدِيّ بن زيد قام عَدِيّ بن مرينا وحلف»(٣٢). وممّا يستدعي الانتباه في أيمان العرب النصارى أنّهم كانوا يحلفون بالأصنام والأوثان وبمكّة إلى جانب حلفهم بالصليب والقربان والمعموديّة والمسيح... فحلف عمرو بن عبد الجنّ الجَرْميّ بالعُزّى وبالنسر وما يضحّى إليهما من الضحايا وبقربان المسيح. فقال:

(٢٦) H. Charles, ibid, p. 33.

(٢٧) E. I, art. "Mawsim", T. II, p. 484.

(٢٨) الأبيل (هو حبر النصارى) أحد أسماء المسيح. ومعناه الناسك والزاهد بالدنيا. ودعوه بأبيل ودعوه بأبيل الأبيلين لأنّه كان بزهده قدوة الرهبان. أنظر ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١١، ص ٦.

(٢٩) الأصفهانيّ، **الأغاني**، ج ٢، ص ٩٤.

(٣٠) **المصدر نفسه**، ج ٢، ص ٨٩.

(٣١) **المصدر نفسه**، ج٢، ص ١٠٩.

(٣٢) **المصدر نفسه**، ج ٢، ص ٩؛ الطبريّ، **تاريخ**، ج ٢، ص ١٩٤.

أَمَـا وَدِمَـاءٍ مَـائِـرَاتٍ تَـخَـالُـهَا عَلَى قُلَّةِ العُزَّى أَوِ النَّسْرِ عَنْدَمَا
وَمَا قَدَّسَ الرُّهْبَانُ فِي كُلِّ هَيْكَلٍ أَبِيلَ الأَبِيلِينَ المَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَا(٣٣)

وجمع عَدِيّ بن زيد في القسم، في شعره، بين الصليب وبين مكّة أكبر معبد للعرب، وهو نصرانيّ والمخاطب هو النعمان نصرانيّ أيضًا:

سَـعَـى الأَعْـدَاءُ لا يَـأْلُـونَ شَـرًّا عَـلَـيَّ وَرَبِّ مَـكَّـةَ وَالصَّـلِـيـبِ(٣٤)

يدلّ شعر عمرو بن عبد الجنّ وعَدِيّ بن زيد على أنّ العربيّ مهما تديّن بغير دين العرب لا بدّ أن يغلب عليه دين العرب الذي به اعتزازهم ومنه يستمدّون جامعتهم ويستوحون قوّتهم.

كما كان المسيحيّون العرب يحجّون إلى مكّة(٣٥). ولا شكّ أنّ العرب المسيحيّين قبل الإسلام، وإن كانوا يعتبرون بيت المقدس قبلتهم الدينيّة، فقد كانوا يعتبرون مكّة قبلتهم «القوميّة». وإن كانوا يستمسكون بالصليب رمزًا للخلاص الدينيّ، فإنّهم يستمسكون بالكعبة رمزًا لانتمائهم العروبيّ.

ولعَدِيّ في السجن قصيدة فيها ما يدلّ على استناده إلى أبناء عرقه أكثر من إخوانه في الدين، وهي التي يقول في مطلعها:

لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى المَنُونِ بِبَاقِ غَـيْـرُ وَجْـهِ المُسَبِّحِ الخَلَّاقِ

....

يَا أَبَا مُسْهِرٍ فَأَبْلِغْ رَسُولاً إِخْوَتِي إِنْ أَتَيْتَ صَحْنَ العِرَاقِ
أَبْلِغَا عَامِرًا وَأَبْلِغْ أَخَاهُ أَنَّنِي مُوثَقٌ شَدِيدٌ وَثَاقِي
فِي حَدِيدِ القِسْطَاسِ يَرْقُبُنِي الحَا رِسُ وَالمَرْءُ كُلَّ شَيْءٍ يُلَاقِي

....

فَارْكَبُوا فِي الحَرَامِ فُكُّوا أَخَاكُمْ إِنَّ عِيرًا قَدْ جُهِّزَتْ لِلانْطِلَاقِ(٣٦)

(٣٣) الطبريّ، **تاريخ**، ج ١، ص ٦٢١ – ٦٢٢.

(٣٤) الأصفهانيّ، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٩٣.

(٣٥) ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٤، ص ٤٦٥.

(٣٦) الأصفهانيّ، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٩٦ – ٩٧.

وقوله: «في الحرام» يعني شهر الحرام. فهو يطلب من إخوته أن ينطلقوا في الشهر الحرام إلى مكّة ويحرّضوا العرب على النعمان ويضطرّوه إلى إخراج عَدِيّ من السجن.

فعَدِيّ وإخوته المسيحيّون لم يستعينوا على عدوّهم النعمان المسيحيّ بسلطة الدين المسيحيّ الجامع بينهم، وإنّما استعانوا عليه بقوّة العصبيّة «القوميّة» التي تجمع بينهم وبين سائر عرب الجزيرة.

ونودّ أن نختم هذا الفصل المتعلّق بملامح المسيحيّة العربيّة بالتعرّض إلى ظاهرة نظنّها جديرة بأن تُدرس في حدّ ذاتها وهي نشاط العرب المسيحيّين في بناء الكنائس والأديرة.

أكّد ياقوت في **معجمه** أنّ في العرب المسيحيّين أهل ثلاثة بيوتات يتبارون في بناء البِيَع وربّها أهل المنذر بالحيرة وغسّان بالشام وبنو الحارث بن كعب[٣٧].

وكان الزُّبْرُقان بن بدر التميمي لمّا وفد على الرسول محمّد يذكر كنائس قومه:

نَحْنُ الكِرَامُ وَلاَ حَيٌّ يُعَادِلُنَا مِنَّا المُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ البِيَعُ[٣٨]

وذكر ابن الكلبيّ بيعة بني عَدِيّ بن الذُّهَيْلِ اللخميّين بالحيرة[٣٩]. وبيعة بني مازن بالحيرة أيضًا لقوم من بني عمرو بن مازن من الأَزْد وهم من غسّان[٤٠].

وقد أشار الشاعر لَقِيط بن يعمر الإياديّ إلى بيع بني قومه في قيصدته العينيّة التي كتبها ليحذّرهم من غزوة كسرى فقال:

تَامَتْ فُؤَادِي بِذَاتِ الجِزْعِ خَرْعَبَةٌ مَرَّتْ تُرِيدُ بِذَاتِ العَذْبَةِ البِيَعَا[٤١]

كما ذكر المؤرّخون والجغرافيّون عددًا كبيرًا من الأديرة التي بناها العرب المسيحيّون. فمن ذلك ما ذكرته المرويّات السريانيّة عن دير مار إيليّا[٤٢] في جنوب الموصل. وقد بناه راهب يدعى إيليّا أصله من عرب الحيرة. وكان أحد تلاميذ أبراهام الكبير الكشكريّ

(٣٧) ياقوت، **معجم البلدان**، ج ٢، ص ٥٣٨.

(٣٨) إبن هشام، **سيرة الرسول**، ج ٤، ص ٢٠٨.

(٣٩) البلاذريّ، **فتوح البلدان**، ص ٣٥٨.

(٤٠) البلاذريّ، **المصدر نفسه**، ص ٢٤٥.

(٤١) البكريّ، **معجم ما استعجم**، ص ٧١.

(٤٢) هو إيليّا المذكور في كتاب: Jesudenah, le livre de chasteté.

النسطوريّ الملقّب بأبي الرهبان (ت ٥٨٨م). وتلقّى العلم في مدينة نصّيبين ثمّ انخرط في سلك الرهبانيّة في دير أبراهام بجبل إزلا Mont Izla. وبعد موت معلّمه خرج إيليّا إلى منطقة الموصل وأسّس فيها ديره. يقول **التاريخ السِعِرْتيّ** إنّ ذلك حصل في عهد الملك الفارسيّ هُرْمُزْد الرابع أي فيما بين سنتي ٥٧٩ و٥٩٠م[٤٣]. أمّا عمرو بن متّى فيجعل ذلك في عهد البطريك إيشوي الأوّل Isho'yawi أي فيما بين سنتي ٥٨٢ و٥٩٥م[٤٤]. وهكذا نستطيع القول إنّ بناء الدير حصل فيما بين سنتي ٥٨٢ و٥٩٠م.

واشتهر من عائلة مار إيليّا راهب آخر يدعى عَمْرو بن عَمْرو لكن بعد ترهّبه أصبح اسمه حنانيشوع Henanijésus، وممّا يميّز هذا الراهب تمثيله أبناء عقيدته النسطوريّة أحسن تمثيل خلال السجال الذي دار بينهم وبين ممثّلي الطائفة المونوفيزيّة بين يدي الملك الفارسيّ خسرو سنة ٦١٥م. والجدير بالملاحظة أنّ هذا الراهب العربيّ ألّف العديد من الكتب ولم يبقَ منها سوى أجزاء قليلة[٤٥].

وممّن اشتهر من رهبان الحيرة سائح يعرف باسم مار يوحنّا العربيّ Jean L'Arabe. قال صاحب **كتاب العفّة** عنه، إنّه: «كان من الحيرة عربيّ الأصل من أسرة شريفة وبعد أن درس في مدرسة نصّيبين ترهّب[٤٦]. ولم يشيّد يوحنّا ديرًا إنّما شُيّد له ذلك فيما بعد وفوق المغارة التي دفن فيها في المعرّة في جبل إزْلا. ويحتفل السريان المسيحيّون الغربيّون بتذكاره يوم ٢٩ آب / أوت»[٤٧].

وإلى جانب الأديرة التي تولّى بناءها الرهبان تذكر المرويّات العربيّة أديرة أخرى أقامها عرب نصارى لغرض التعبّد. ومن هذه الأديرة تلك التي بناها اللخميّون مثل دير حنظلة المنسوب إلى حنظلة بن عبد المسيح بن مالك بن رَبِي بن نَمَارة بن لَخْم..(٤٨) وقد وُجد في صدر الدير مكتوبًا بالرصاص في ساج محفور ما يلي: «بنى هذ الهيكل المقدّس...

(٤٣) Chronique de Séert, T. II, p. 215.

(٤٤) عمرو بن متّى، **أخبار كرسيّ فطاركة المشرق**، ص ٤٩.

(٤٥) P.O.T. XIII, p. 534-536.

(٤٦) Jesudenah, ibid, p. 236.

(٤٧) Analecta Bollandiane (1963), p. 395: Jesudenah, ibid, p. 249.

(٤٨) كذا سرد نسبه ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٥٠٧.

محبّة لولاية الحقّ والأمانة... حنظلة بن عبد المسيح. يكون مع بقاء الدنيا تقديسه وكما يذكر أولياءه بالعصمة... يكون ذكر الخاطئ حنظلة»[٤٩].

ومن الأديرة المنسوبة إلى اللخميّين دير علقمة، وهو علقمة بن عديّ بن الذميل بن ثوب بن أسس بن رَبِي بن نَمَارة بن لَخْم. وقد ذكره عَدِيّ بن زيد العِباديّ في شعره، فقال:

نَادَمْتُ فِي الدَّيْرِ بَنِي عَلْقَمَا — عَاطَيْتُهُمْ مَشْمُولَةً عَنْدَمَا[٥٠]

وقد ساهم الملوك المناذرة في بناء الأديرة، ومن ذلك دير اللجّ الذي بُنِي بظاهر الحيرة بأمر من الملك النعمان بن المنذر أبو قابوس (٥٨٥ – ٦٠٧م) وتولّى بناءه مهندسون مسيحيّون ودُعي في بعض التواريخ بـ (دير اللجّة) ونُسب فيها إلى اللجّة بنت النعمان، وروي أنّ النعمان كان يأتيه للتعبّد والاستشفاء[٥١].

ويذكر ياقوت ديرًا آخر من بناء آل المنذر وهو دير مارت مريم يقع بين الخورنق والسَّدير[٥٢]. ومن أديرة العائلة المالكة (المناذرة) بالحيرة دير هند الكبرى. وهي هند بنت الحارث بن عمرو بن حُجْر آكل المُرار الكنديّ. وهي زوجة الملك النعمان الثالث (٥١٤ – ٥٦٣م) المعروف بابن ماء السماء[٥٣]. وهو يسمّى دير هند الأوّل تمييزًا له عن دير هند الصغرى، هند بنت النعمان بن المنذر بن امرىء القيس وديرها من أكبر أديرة الحيرة. وورد أنّ والدها النعمان بناه لها لتتعبّد فيه. لكن، بعد مقتل زوجها عَدِيّ بن زيد، ترهّبت وحبست نفسها في الدير[٥٤].

لم يقتصر بناء الأديرة على العائلة المالكة بالحيرة بل عني مسيحيّو تَنُوخ أيضًا بتشييدها. فمن ذلك دير حنّة وهو دير قديم بناه حيّ من تَنُوخ يقال لهم بنو ساطع[٥٥]. وعرف مسيحيّو غسّان بالحيرة ببنائهم للأديرة مثل دير الجَرَعَة، بناه عبد المسيح بن عمرو بن بَقِيْلَة الغسّانيّ

(٤٩) البكريّ، **معجم ما استعجم**، ج ٢، ص ٥٧٧.
(٥٠) ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٥٢٤.
(٥١) **المصدر نفسه**، ج ٢، ص ٥٣٠.
(٥٢) **المصدر نفسه**، ج ٢، ص ٥٣١.
(٥٣) ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٢٤؛ الشابشتيّ، **الديارات**، ص ٣٨٨، ٣٩٠.
(٥٤) ياقوت، **المصدر نفسه**، ج ٢، ص ٢٥؛ الشابشتيّ، **المصدر نفسه**، ص ٢٤٤ – ٢٤٥، ٣٢٠، ٣٨٨، ٣٨٩.
(٥٥) البكريّ، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٥٧٨؛ ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٦٤٠.

شيخ العِباديّين في عصره وكبير أهل الحيرة في أخريات أيّامه. وعرف هذا الدير بدير الجَرَعَة نسبة إلى موضع يعرف بهذا الاسم قرب الكوفة بين النجف والحيرة[٥٦].. ومن أخبار هذا الدير ما ذكره العمريّ عن الأصفهانيّ قال: «كان عبد المسيح قد بنى ديرًا في بقعة في الحيرة يقال لها الجَرَعَة. وكان يترهّب فيه حتّى مات. ثمّ خرب الدير. وظهر فيه أَزَج معقود من حجارة وظنّوا فيه كنزًا ففتحوه، فإذا سرير من رخام عليه رجل ميّت، وعند رأسه، لوح كتب عليه:

حلبت الدهر أشطره حياتي — ونلت من المنى فوق المزيد
وكدت أنال في الشرق الثريّا — ولكنْ لا سبيل إلى الخلود[٥٧]

وممّا جاء من أخبار قبائل العِباد أنّ بني مرينا كانوا أصحاب دير يعرف باسمهم أي دير بني مرينا[٥٨]. ومن أديرة العرب المعروفة هناك دير منسوب إلى حنظلة بن أبي عفراء بن النعمان وهو عمّ إياس بن قُبَيْصة. وكان من رهط أبي زبيد الطائيّ ومن شعراء الجاهليّة ثمّ تنصّر وفارق قومه ونزل الجزيرة مع النصارى حتّى فقه دينهم وترهّب إلى أن مات. ويقع ديره بالجزيرة على شاطئ الفرات أسفل من رحبة مالك بن طوق[٥٩].

ومن أديرة بني إياد اشتهر دير الأعور بناحية الحيرة. وقد بناه رجل من إياد من بني أميّة بن حُذاقة بن زهر بن إياد، وكان يدعى الأعور وفيه قال أبو دؤاد الإياديّ:

وَدَيْـرٌ يَقُـولُ لَـهُ الزَّائِرُو — نَ وَيْلُ أُمِّ دَارِ الحُذَاقِي دَارَا[٦٠]

ومن أديرتهم دير قرّة أسّسه رجل من إياد يقال له قرّة من نسل بني أميّة بن حُذاقة بن زهر بن إيا[٦١]، ودير الجماجم بناه بلال الرَّمَّاح بن مَحْرَز من بني سلامان بن بَجَل بن عون مناه[٦٢]، ودير السَّواء وهو من أديرة الحيرة الضاربة في القدم، وكان من منازل إياد

(٥٦) ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٥٠٣.
(٥٧) العمريّ، **مسالك الأبصار**، ج ١، ص ٣١٤.
(٥٨) لا نعرف عن أصل بني مرينا سوى ما قاله أبو الفرج الأصفهانيّ من أنّ بني مرينا من العباديّين، **الأغاني**، ج ٩، ص ٧٩.
(٥٩) ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٥٠٦.
(٦٠) ياقوت، **المصدر نفسه**، ج ٢، ص ٤٩٩؛ ابن الكلبيّ، **نسب مَعَدّ واليمن الكبير**، ج ١، ص ٥٥.
(٦١) إبن الكلبيّ، **المصدر السابق**، ج ١، ص ٥٥؛ ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٣، ص ٥٢٦.
(٦٢) إبن الكلبيّ، **المصدر السابق**، ج ١، ص ٥٨؛ ياقوت، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٥٠٤.

في موضع بسَنْداد. واختلفت الأقوال في معنى «السَواء» فقيل إنّ السَواء أرض نسب إليها الدير كما قيل إنّه اسم امرأة منهم. ويرى البعض أنّه اسم رجل من إياد ينسب إلى بني أميّة بن حُذاقة[٦٣]. والراجح من الآراء أنّ السَواء معناه العدل، ودير السَواء معناه دير العدل لأنّ العرب المسيحيّين كانوا يتحالفون عنده فيتناصفون[٦٤]. وتسمية هذا الدير بمعنًى من معاني العدل هو خير شاهد على ما كان للأديرة من حرمة في نفوس العرب المسيحيّين حيث كانوا يعقدون فيها عقودهم ويحلفون بها على نحو ما كان عليه الوثنيّون.

ننهي هذا الفصل بالوقوف عند بعض الاستنتاجات، فنلاحظ :

أوّلاً: إنّ العرب المسيحيّين كانت لهم معرفة دقيقة بمقدّمات دينهم وطقوسه لا سيّما عرب العراق والشام. كما أنّهم تأثّروا بها إلى حدّ ما قبل ظهور الإسلام.

ثانيًا: وجود نزعة واضحة عند العرب المسيحيّين إلى الترهّب (ظاهرة شرقيّة)، وكانت حياة الترهّب تشمل عددًا وفيرًا من النساء العربيّات (هند الصغرى، أبكار العِباديّين العذارى...) والرجال العرب. وأشهر هؤلاء الرهبان مار إيليّا وحنانيشوع النسطوريّان ويوحنّا العربيّ اليعقوبيّ.

ثالثًا: إنّ العرب المسيحيّين كانوا مضطربين في بعض سلوكهم بين العادات المسيحيّة والعادات العربيّة (من خلال مثال القسم).

* * *

تعرّضنا في الجزء الأوّل من هذا البحث إلى وضع الديانة المسيحيّة بين العرب قبل الإسلام، سواء كان ذلك في بلاد الشام أو في العراق أو في شبه الجزيرة العربيّة. وعلى أساس هذا العرض الذي تناولنا فيه ظروف اعتناق جزء من القبائل العربيّة للمسيحيّة وكيفيّة تفاعلهم معها ومع مختلف مذاهبها المنتشرة في الشرق يمكننا الخروج بالاستنتاجات التالية التي تُحدّد ملامح المسيحيّة العربيّة قبل الإسلام.

أوّلاً: تعود النشأة الحقيقيّة للمسيحيّة العربيّة وتحوّلها إلى ظاهرة سواء كان ذلك في الشام أو العراق أو اليمن إلى القرن الرابع الميلاديّ. وقد تواصل اعتناق العرب لهذه الديانة إلى بداية القرن السابع، لكن يُعتبر القرن السادس الفترة التي دخلت فيها أكبر نسبة من العرب في المسيحيّة بفضل جهود الكنيستين النسطوريّة واليعقوبيّة.

(٦٣) إبن الكلبيّ، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٣٤٨؛ ذكره ابن الكلبيّ بالسين المرفوعة (السُواء).

(٦٤) ذكر ياقوت أنّ «السَواء» بالمدّ، العدل، **المصدر السابق**، ج ٢، ص ٥١٧ – ٥١٨.

ثانيًا: تنصّر العرب في هذه المناطق عن طريق النسّاك والرهبان في الشام، والأساقفة والرهبان في العراق. أمّا في الجزيرة العربيّة فقد تسرّبت المسيحيّة عن طريق التجّار القادمين من الشام والعراق، إضافة إلى محاولة احتواء المجال العربيّ لأغراض اقتصاديّة وسياسيّة من قبل الإمبراطوريّتين البيزنطيّة والفارسيّة. وهكذا فقد كان للتجارة والهجرة والجوار دور حاسم في انتشار المسيحيّة بين العرب.

ثالثًا: لم يكن تنصُّر العرب خاضعًا في كلّ الفترات لسياسة شاملة ومُخطّطة تهدف إلى تنصيرهم، بل كان وليد مجهودات فرديّة في منطقة خاصّة في الشام. ولم يتّخذ شكل حملات تبشيريّة مُنظّمة من قبل الكنائس (النسطوريّة واليعقوبيّة) في العراق خاصّة إلاّ مع القرن السادس. وإلى ذلك كان للضغط البيزنطيّ والحبشيّ في إطار الصراع الدوليّ الدائر آنذاك في منطقة الشرق الأوسط دوره في تنصير العرب.

رابعًا: وعلى العموم فقد تعمّقت المسيحيّة لدى الحضر ولدى من لهم تنظيم سياسيّ يفوق القبيلة (ملك) كالغساسنة وأهل الحيرة، ولدى سكّان نجران الذين كانوا من ذوي الحضارة رغم تنظيمهم القبليّ، ولدى كلّ من لهم علاقة مع العالم الخارجيّ أي عرب الأطراف المنظّمين. ولم يكن هناك قبل الإسلام عرب منظّمون إلاّ على الأطراف.

أمّا على المستوى القبليّ، فقد انتشرت المسيحيّة على وجه الخصوص في قبائل قُضاعة وربيعة واليمن. وارتبط ذلك بهجرتها إلى الشام والعراق. وبالمقابل فقد كان انتشار المسيحيّة محدودًا للغاية في قبائل مُضَر التي لم تشملها الهجرة، فضلاً عن أنّها كانت تستوطن وسط شبه الجزيرة العربيّة وغربها وهي من المناطق التي لم يكن تأثير المسيحيّة فيها قويًّا. وهو ما جعل تلك القبائل تحافظ على معتقداتها الوثنيّة.

وعلى العموم فإنّ القبائل المذكورة تنصّرت بأشرافها وعامّتها. وقد كان لتنصُّر الأشراف أهمّيّة في تثبيت الديانة المسيحيّة في صلب القبيلة، وهو عامل سيكون له دوره في تعامل الإسلام مع تلك القبائل.

وما دمنا نتحدّث على المستوى القبليّ فلا بدّ من ملاحظة وهي أنّ المسيحيّة لم تتمكّن مثلاً من السيطرة على قبائل بأكملها. فلم تكن الرابطة الدمويّة للقبيلة العنصر الحاسم في تنصّرها بل إنّ انتشارها الجغرافيّ هو الذي أثّر في تنصُّر بعضها وفي تمسّك البعض الآخر بالديانة العربيّة الغالبة وهي الوثنيّة.

خامسًا: لم تكن المسيحيّة الأرثوذكسيّة هي التي سيطرت على القبائل العربيّة المُتنصّرة بل إنّ المذاهب الأساسيّة التي انتشرت بين صفوفها هي النسطوريّة واليعقوبيّة. وقد سيطرت الأولى في المراكز الحضريّة في الجزيرة الفراتيّة والعراق والأطراف الشرقيّة للبلاد العربيّة ونسبيًّا في اليمن ووسط الجزيرة العربيّة، بينما سيطرت الثانية على عرب الشام والجزيرة الفراتيّة واليمن. ولعلّ ميل اليعاقبة إلى نشر عقيدتهم بين العرب يعود إلى أنّ اليعقوبيّة لم تكن مذهبًا فلسفيًّا وعقائديًّا فحسب، بل ارتبطت كذلك باتّجاه سياسيّ انعكست فيه إلى حدّ ما النزعة الانفصاليّة داخل الولايات التي رجح فيها عدد السكّان غير اليونان في الإمبراطوريّة البيزنطيّة كالسريان الذين كانوا قريبين من حيث اللغة إلى العرب فحملوا إليهم عقيدتهم بدون مشقّة[٦٥].

وإلى جانب هذين المذهبين تواجدت مذاهب أخرى أقلّ أهمّيّة مثل الملكانيّة واليوليانيّة والآريوسيّة.

ومن خصائص المسيحيّة العربيّة انقسامها المذهبيّ. فإنّ المذاهب المتكوّنة منها كانت في صراع مع بعضها البعض، بل إنّ الصراع كان يشقّ أحيانًا المذهب الواحد (انقسام المونوفيزيّة إلى يعقوبيّة ويوليانيّة و...) وهو عامل من عوامل إضعاف المسيحيّة العربيّة وعدم تماسكها. وقد كان الانقسام المذهبيّ في صلب المسيحيّة العربيّة يمثّل في الواقع امتدادًا للانقسامات القائمة في صلب الديانة المسيحيّة. فقد كان لكلّ مذهب من مذاهبها امتداده في صفوف العرب المتنصّرين.

سادسًا: من خصائص المسيحيّة العربيّة تلاشي تنظيمها كلّما ابتعدت القبائل المتنصّرة عن المراكز المسيحيّة بالعراق والشام واقتربت من الأطراف الشماليّة للبلاد العربيّة. فأغلب القبائل المتنصّرة بالشام والجزيرة الفراتيّة والعراق كان لها أساقفتها وإكليروسها (أسقفيّة الغساسنة، أسقفيّة التغالبة، أسقفيّة القبائل أو العرب...). وكان لأساقفة العرب حضور ملموس على الصعيد الدينيّ إذ نجدهم من بين الأساقفة الموقّعين على قرارات المجامع الدينيّة في سبع مناسبات. بينما لا نعرف عن مسيحيّة القبائل المنتشرة بالقرب من الحدود

(٦٥) أنظر في هذا الصدد قول المسعوديّ: «وإنّما تختلف لغات هذه الشعوب (أي العرب) من السريانيّة اختلافًا يسيرًا»، **مروج الذهب**، ج ١، ص ٢٠١ وكذلك:
F. Nau, "L'Araméen chrétien (Syriaque)", dans la revue, Histoire des religions, T. 90 (1929), 280-284

الشماليّة لشبه الجزيرة العربيّة إلاّ ما قيل عنها في الشعر والمرويّات الأدبيّة والتاريخيّة، أمّا داخل البلاد العربيّة فإنّ الطائفة المسيحيّة العربيّة المُنظّمة حقًّا هي كنيسة الحِميريّين وأساسًا النجرانيّين.

سابعًا: بقيت الديانة المسيحيّة في مستوى الديانة القبليّة ولم تتطوّر إلى مستوى الديانة القوميّة عند العرب قبل الإسلام، أي لم تتحوّل إلى ديانة عربيّة متأصّلة في العرب في كيانهم العقائديّ وفي حياتهم اليوميّة، في عاداتهم وتقاليدهم. ويعزى ذلك إلى الصراعات السياسيّة والاختلافات المذهبيّة التي حالت دون تكوّن قوّة عربيّة مسيحيّة تستقطب بقيّة العرب المسيحيّين وتعزّز المسيحيّة بينهم.

ويحقّ التصريح بأنّ ذلك كاد أن يتحقّق مع الغساسنة الذين تميّزوا بحماستهم لعقيدتهم اليعقوبيّة ومساهمتهم في نشرها، لولا عداوة الكنيسة الملكانيّة والإمبراطوريّة البيزنطيّة اللتين ساهمتا في القضاء على مملكة الغساسنة المسيحيّة. ويشبه دور الغساسنة في الشام ما قام به مسيحيّو نجران من جهود في التبشير بالديانة المسيحيّة والدفاع عنها في اليمن. إلاّ أنّ قوّة الحضور اليهوديّ في ذلك البلد عرقل تطوّر المسيحيّة العربيّة اليمنيّة.

وإن سلّمنا بهذا الأمر، فالسبب في إضعاف المسيحيّة العربيّة كقوّة لها ذاتها وكيانها المستقلاّن وفي عدم تكوّن مجموعة عربيّة مسيحيّة مُوحّدة لا يعود إلى أسباب ذاتيّة متعلّقة مثلاً بطبيعة تفاعل العرب مع هذه الديانة الدخيلة عليهم، بل يعود في رأينا إلى الأخطار الخارجيّة التي أحاطت بالعرب المسيحيّين والتي تتمثّل أساسًا في اليهود والكنيسة الملكانيّة والإمبراطوريّة البيزنطيّة.

ومن ناحية أخرى فقد ظلّت المسيحيّة العربيّة في موقع دون الديانة الوثنيّة التي كانت غالبة على العرب، لكنّها كانت أكثر انتشارًا من اليهوديّة بين العرب. كما أنّ تنصّر الأقوام العربيّة لم يتمّ على حساب اليهوديّة وإنّما على حساب الوثنيّة.

وعلى خلفيّة هذه الصورة نتساءل إلى أيّ مدًى كانت المسيحيّة العربيّة قادرة على منافسة الدين الإسلاميّ الجديد؟

الخلاصة

كان المسيحيّون العرب والسريان معادين بالتأكيد للدولتين الفارسيّة والبيزنطيّة، لأنّ الدولة البيزنطيّة كانت تسعى منذ القرن الرابع الميلاديّ (خاصّة أيّام الإمبراطور تيودوسيوس) إلى محاربة جميع المذاهب المسيحيّة المخالفة لعقيدتها... ففي مجزرة بيزنطيّة واحدة قتلت الدولة مئتي ألف قبطيّ من أنصار الطبيعة الواحدة.

ولم تنتشر اليعقوبيّة إلاّ في المجتمعات العربيّة - السريانيّة وبين الأقباط وفي أرمينيا، وهي جميعًا مجتمعات كانت تسعى إلى التخلّص من الحكم البيزنطيّ والساسانيّ.

وكان النصارى المشارقة (النساطرة) يتعرّضون دائمًا للاضطهاد والظلم من البيزنطيّين.

يقول البطريرك ميخائيل السريانيّ الكبير بهذا المجال: «لأنّ اللّه هو المنتقم الأعظم، الذي وحده على كلّ شيء قدير، والذي وحده إنّما يبدّل ملك البشر كيفما يشاء، ويرفع الوضيع بدلاً من المتكبّر، ولأنّ اللّه قد رأى ما كان يقترفه الروم من أعمال الشرّ، من نهب كنائسنا ودياراتنا، وتعذيبنا بدون أيّة رحمة، فإنّما قد أتى من مناطق الجنوب ببني إسماعيل لتحريرنا من الروم... وهكذا كان خلاصنا على أيديهم من ظلم الروم وشرورهم، وحقدهم واضطهادهم وفظاعتهم نحونا».

ويقول المستشرق الهولّنديّ دي غوج: منذ أبعد الأزمنة كانت في عهد بيزنطية جالية عربيّة وسريانيّة متمركزة في القسطنطينيّة، فإنّ الشعب كان بمعظمه ساميًّا وحتّى عربيًّا، ولذلك لم يكن من أثر الفتح العربيّ الاستيلاء على قطر غريب الغاية منه جباية الضرائب من سكّانه، وإنّما تحرير جزء من الوطن العربيّ الذي كان رازحًا تحت طغيان الاحتلال الأجنبيّ، وبالتالي استعادة عدد عظيم من المواطنين العرب والسريان المسيحيّين المهيّئين نفسيًّا لإشراكهم بالدفاع عن مجد اللّه ونبيّه.

ونضيف: بالحقيقة كانت الدولة البيزنطيّة عاملاً مساعدًا للانقسامات الكنسيّة والمذهبيّة

فشنّت اضطهادًا سافرًا على المسيحيّين العرب والسريان المخالفين لها بالعقيدة وهكذا فعلت الدولة الساسانيّة بمسيحيّي العراق النساطرة.

فكما أنّ الأقباط كانوا يعانون الأمرّين من البيزنطيّين، لم يكن حال الغساسنة بأفضل منهم. فقد أقال الرومان البيزنطيّون المنذر بن الحارث الغسّانيّ وقبضوا عليه بمناسبة تدشين كنيسة ونفوه إلى صقلّية عام ٥١٨م، وكان لابنه النعمان الذي خلفه نفس المصير، ممّا يدلّ على أنّ الثقة بين رومة والغساسنة انعدمت. فحلّ الرومان هذه الدويلة. واختارت القبائل قادة لها وحاولت أن تعيش حياة قبليّة مستقلّة.

أمّا اللخميّون والمناذرة، فكانوا يقاسون الاضطهاد الدينيّ والعنصريّ من الفرس الساسانيّين. فإثر خلاف النعمان الثالث مع خُسْرَو كسرى فارس، أسروه ونقلوه إلى بلادهم فمات فيها سنة ٦٠٢م. وانتهت هكذا إمارة اللخميّين، وأصبحت مقاطعة فارسيّة يحكمها حاكم فارسيّ ولم تعد تستطيع أن تلعب دورها كإمارة أو دولة شبه مستقلّة.

وهكذا كانت المجتمعات العربيّة في جنوب العراق وغرب الفرات وجنوب سوريّة، على علاقة سيّئة بالبيزنطيّين والساسانيّين ممّا حملهم على التمرّد والتذمّر من سلطتهما القاسية.

وهكذا نكون قد عرضنا مواقف الأنظمة السياسيّة والاجتماعيّة في البلدان العربيّة من العرب المسيحيّين منذ القرن الأوّل لانتشار المسيحيّة اعتمادًا على ما كتبه الأخباريّون والمؤرّخون العرب، وغير العرب، الذين بيّنوا دور المسيحيّين في بناء الحضارة العربيّة قبل الإسلام واستمرّت معهم إلى ما بعد الإسلام.

هذه الصفحات التي نبسطها بين أيدي المطالعين ما هي إلاّ لبنة صغيرة في صرح تاريخنا العربيّ المسيحيّ الذي يجب أن ننشره للأحفاد الذين يتشوّقون لمعرفة تاريخ الآباء والأجداد وما قدّموه من مآثر ومواقف وإنجازات على الصُعُد الاجتماعيّة والثقافيّة كافّة إضافة إلى السياسيّة.

والله وليّ التوفيق

الخاتمة

عزيزي القارئ الرفيق

شكرًا لمرافقتك لي بقاربي العتيق، الذي أقلّنا في محيط الزمن السحيق، بين مصادر التاريخ العميق، ومراجع الأدب الرقيق، فتجوّلنا في بوادي العرب السمراء، وخيَم القبائل الهيفاء، وواحات نجران الخضراء، بين روابي الحيرة الرمضاء، ووديان الشام الفيحاء، مستكشفين في بطون الماضي الجليل، مستنطقين مجاهيله المظلمة على ضوء الشموع الوقورة.

تعرّضنا في هذا الكتاب المتواضع إلى ظروف نشأة المسيحيّة العربيّة في بلاد المشرق (الهلال الخصيب، وشبه الجزيرة العربيّ). ورسمنا أهمّ ملامحها بخطوط عريضة، ورصدنا كيفيّة تفاعلها – رغم بساطته – مع أبناء البلاد التي انتشرت فيها أوّلاً، وعاينّا أحوالها البدائيّة داخل المجتمع العربيّ البدويّ والحضريّ.

وعلى أساس هذه الدراسة – القاصرة – يمكننا الخروج بالاستنتاجات التالية التي تحوصل أكثر من أربعة قرون من التواجد المسيحيّ العربيّ قبل الإسلام.

أوّلاً: مثلت المسيحيّة العربيّة – رغم حداثتها – وصارت واقعًا اجتماعيًّا – كالملح في الطعام – وثقافيًّا – كالنور الذي ينير الظلمة – وروحيًّا – كالنفس من الجسد – فرض نفسه في بلاد المشرق طيلة أربعة قرون ونيّف، وخصوصًا منذ القرن الثالث إلى القرن السابع. لكنّ المسيحيّة العربيّة كانت مع ذلك ظاهرة متواضعة نسبيًّا على الصعيدين العدديّ والتنظيميّ. كما كانت مسالمة، لا تحدوها مطامح أو مطامع سياسيّة، ورغم ذلك تعرّضت لمخاطر التلاشي والذوبان.

ثانيًا: كانت المسيحيّة العربيّة منذ نشأتها شديدة التأثّر، والارتباط بالتيّار السريانيّ. وكانت المسيحيّة العربيّة بطائفتيها النسطوريّة واليعقوبيّة (الأرثوذكسيّة)، منظّمة، لها أساقفتها وإكليروسها، لكنّها لم تكن عربيّة الرئاسة إذ سُلّط عليها أساقفة من السكّان

الأصليّين لبلاد الشام والعراق، والظاهر أنّ هذا العامل شكّل خطرًا عليها لكونها تسبّب فريد اغترابها بين صفوف العرب، وربّما قوّى الإحساس لديهم بأنّها ديانة دخيلة عليهم، صعبة التطبيق، مثاليّة الأصول، طوباويّة الحياة، فلم يتقبّلها الأعراب البداة إلاّ ظاهريًّا، فيصحّ فيهم القول: إنّهم آمنوا، ولكنّهم لم «يتمسحنوا».

من هنا أتى هذا الكتاب، صورة غير متكاملة المناظر إن لم نقل واضحة المشاهد، على أمل أن تجري بين الفينة والفينة «تضبيطات» خاصّة للصورة والإطار كيما تكتمل حيث كلّ من يراها كأنّه يقرأها كصحيفة مملوءة سطورًا وخطوطًا عريضة شاحبة الألوان والظلال تستند إلى المصادر الموثوقة والمراجع الدقيقة. إنما هي بعد غير مكتملة تحتاج إلى الكثير من التحليلات والاستنتاجات لتظهر ككنيسة لها مزاياها العرقيّة الخاصّة، وتكون أساسًا لقيام كنيسة واحدة وراعٍ واحد.

والله من وراء القصد

دير يسوع الملك
عيد الرسولين بطرس وبولس
٢٩ حزيران ٢٠٠٥

جريدة المصادر والمراجع

أوّلاً: المصادر القديمة

الأزرقيّ

١ – أخبار مكّة

إبن سلام (أبو عبيدة القاسم) (ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م.)

٢ – الأموال، تحقيق خليل هراس محمّد، نشر المكتبة الأزهريّة، بلا تاريخ.

إبن الفقيه

٣ – كتاب البلدان،

إبن هشام

٤ – السيرة،

إبن القفطيّ (جمال الدين أبي الحسن عليّ بن يوسف) (٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م.)

٥ – أخبار الحكماء، طبع ليبزك، (١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢)

إبن عبد ربّه

٦ – العقد الفريد

إبن الأثير (أبو الحسن عليّ بن الكرم محمّد) (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م.)

٧ – الكامل في التاريخ، المطبعة المنيريّة، مصر (١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م.)

٨ – النهاية

إبن العبريّ (المفريان غريغوريوس يوحنّا هارون) (٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م.)

٩ – تاريخ الدول السريانيّ، ترجمة الشمّاس بطرس قاشا، (مخطوطة) في مكتبتي الخاصّة.

١٠ – التاريخ الكنسيّ، ترجمة الشمّاس بطرس قاشا، (مخطوطة) في مكتبتي الخاصّة.

١١ – مختصر تاريخ الدول.

أبو الفرج الأصفهانيّ (عماد) (٣٥٦ هـ / ٩٦٦م.)

١٢ – الأغاني تصحيح أحمد الشنقيطيّ، مطبعة التقدّم بمصر، بلا تاريخ.

أبو القاسم صاعد الأندلسيّ

١٣ – طبقات الأمم،

أبو الفداء

١٤ – تاريخ الأمم،

إبن سعد

١٥ – الطبقات،

البلاذريّ (أحمد بن محيي بن جابر) (٢٧٩ / ٨٩٢ م.)

١٦ – فتوح البلدان، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد، القاهرة، بلا تاريخ

إيشوعدناح البصريّ

١٧ – العفّة، تحقيق القسّ (البطريرك بولس شيخو)، نشره باسم «الديورة في مملكتَي العرب والفرس» الموصل (١٩٣٠).

الثعالبيّ

١٨ – ثمار القلوب.

الرهاويّ المجهول

١٩ – تاريخ الرهاويّ، ترجمة الشمّاس بطرس قاشا، (مخطوطة) موجودة في مكتبتي الخاصّة.

الواقديّ

٢٠ – أسد الغابة في أخبار الصحابة.

الميدانيّ

٢١ – مجمع الأمثال.

ميخائيل الكبير (البطريرك) (+ ١١٩٩)

٢٢ – تاريخ ميخائيل، ترجمة الشمّاس بطرس قاشا، (مخطوطة) موجودة في مكتبتي الخاصّة.

المسعوديّ (عليّ بن الحسين) (ت ٦٥٢ هـ)

٢٣ – التنبيه والإشراف، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٧ م.

٢٤ – مروج الذهب،

قدامة بن جعفر

٢٥ – كتاب الخراج،

يوحنّا الأفسسيّ

٢٦ – سِيَر النسّاك، (مخطوطة) ترجمة والدي الشمّاس بطرس قاشا (في مكتبتي الخاصّة).

ياقوت الحمويّ (١١٧٩ – ١٢٢٩)

٢٧ – معجم البلدان،

أنطونيوس

٢٨ – سيرة مار شمعون،

الشابشتيّ (أبو الحسن عليّ بن محمّد) (٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م.)

٢٩ – الديارات، تحقيق كوركيس عوّاد، طبعة أولى، بغداد، ١٩٥١.

البكريّ

٣٠ – معجم ما استعجم،

الطبريّ (أبو جعفر محمّد بن جرير) (١٣١٠ هـ / ١٩٢٢)

٣١ – تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمّد أبو فضل إبراهيم، طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٠ – ١٩٦٣.

العمريّ (إبن فضل الله) (٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م.)

٣٢ – مسالك الأبصار في الممالك والأمصار، مطبعة دار الكتب المصريّة (١٩٢٤)

عمرو بن متّى

٣٣ – أخبار بطاركة كرسيّ المشرق، نشر جيسموند (رومة ١٨٩٠)

ماري بن سليمان

٣٤ – أخبار بطاركة كرسيّ المشرق، نشر جيسموند (رومة ١٨٩٠)

السيوطيّ (جلال الدين)

٣٥ – المزهر

ثانيًا: المراجع العربيّة الحديثة

أبو سيف يوسف

٣١ – الأقباط والقوميّة العربيّة.

أحمد أمين

٣٢ – فجر الإسلام

أدي شير (المطران) (+ ١٩١٥)

٣٣ – كلدو وآثور، جزءان، الموصل، مطبعة الدومنيكان

٣٤ – تاريخ السعرديّ، باريس ١٩١٠.

أسد رستم (الدكتور)

٣٥ – الروم،

بولس بيجان

٣٦ – أخبار الشهداء والقدّيسين

جواد عليّ (الدكتور)

٣٧ – المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (عشرة أجزاء) شركة الرابطة للطبع والنشر، بغداد، ١٩٥٣.

جورج قنواتي (الأب الدومنيكيّ)

٣٨ – المسيحيّة والحضارة العربيّة، بيروت ١٩٨٥.

بطرس نصري (القسّ الكلدانيّ)

٣٩ – ذخيرة الأذهان في تاريخ المشارقة والمغاربة من السريان، (جزأان) الموصل، مطبعة الآباء الدومنيكان (١٩١٣ – ١٩١٤).

جرجي زيدان

٤٠ – الآداب العربيّة

قعوار

٤١ – أيّام العرب السالفات.

لويس شيخو (الأب اليسوعيّ)

٤٢ – شعراء النصرانيّة قبل الإسلام، بيروت،

٤٣ – مجاني الأدب (ستّة أجزاء)

يوسف رزق الله غنيمة

٤٤ – الحيرة، المدينة والمملكة العربيّة، بغداد (١٩٣٦)

يعقوب الثالث (البطريرك أغناطيوس) (+ ١٩٨٠)

٤٥ – يعقوب البرادعيّ.

٤٦ – الشهداء الحميريّون.

سلوى بالحاج صالح العاريب

٤٧ – المسيحيّة العربيّة وتطوّراتها، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٩٧).

ثالثًا: الكتب المترجمة

نينا فكتورفنا بيغوليفسكيا (مستشرقة روسيّة)

٤٨ – العرب على حدود بيزنطة وإيران، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت (١٩٨٥).

روبنسن دوڤال (مستشرق فرنسيّ)

٤٩ – الآداب السريانيّة، ترجمة الأب لويس قصّاب (بغداد ١٩٩٢).

لابور (مستشرق فرنسيّ)

٥٠ – النصرانيّة في فارس.

ج. أولندر (مستشرق ألمانيّ)

٥١ – ملوك كندة.

تيودور نولدكه (مستشرق ألمانيّ)

٥٢ – إمارة غسّان.

رابعًا: المقالات:

مجلّة المشرق (بيروت)، يوسف يعقوب مسكونيّ، نصارى كسكر وواسط قبل الإسلام.

مجلّة المشرق (بيروت)، ميخائيل عوّاد، دير قنّى.

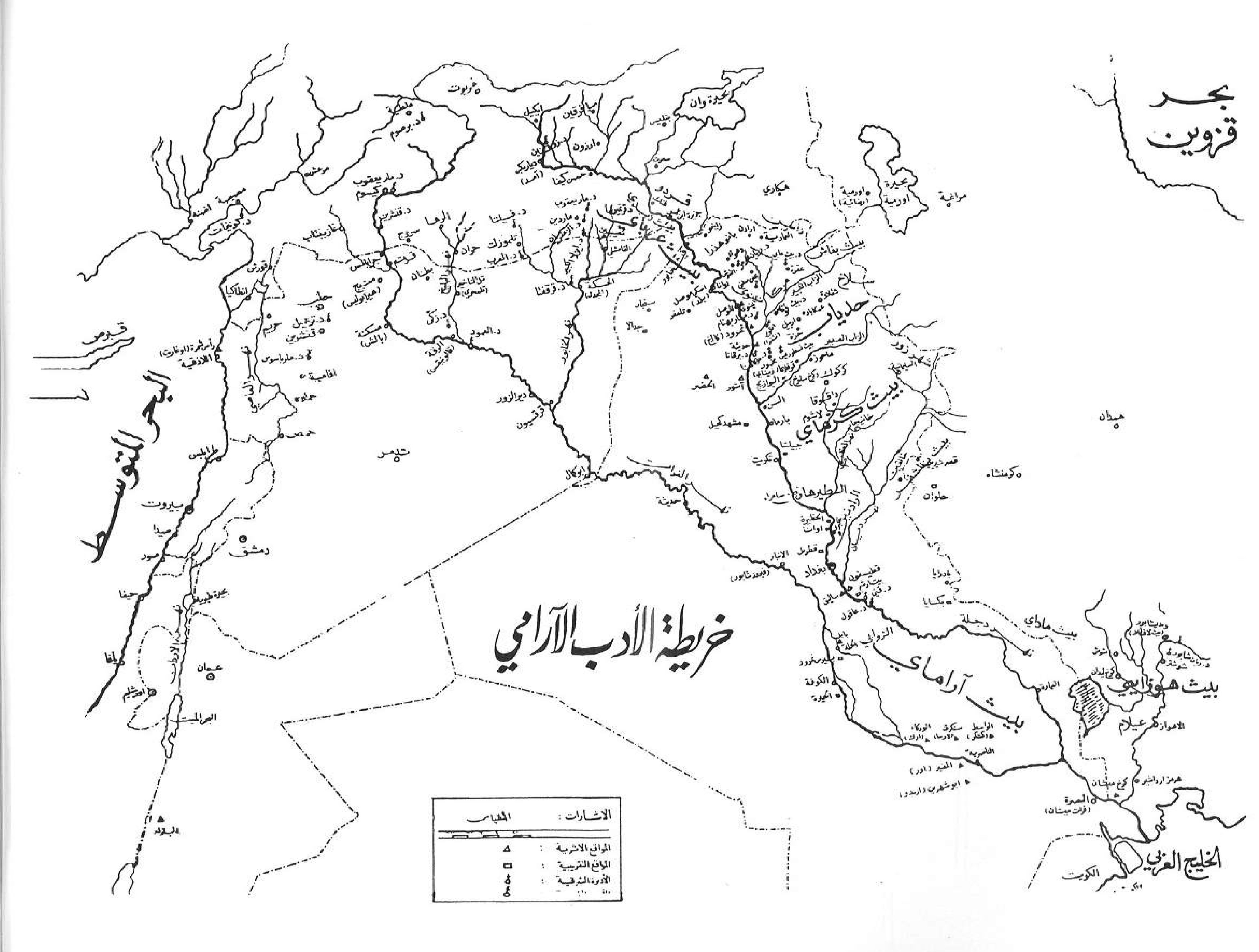
مجلّة المشرق (بيروت)، يوسف غنيمة، مدارس الحيرة.

مجلّة المشرق (بيروت)، يوسف غنيمة، المناذرة ملوك الحيرة.

مجلّة المشرق (بيروت)، القسّ يوحنّا عزّو، شهداء نجران.

الفهرس

أنجزت المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان
طبع هذا الكتاب في شهر تموز
سنة ٢٠٠٥



خريطة الأدب الآرامي
بحر قزوين
البحر المتوسط
الخليج العربي
بيت آراماي
بيت كرماي
حدياب
بيت هوزايي
عيلام
بحيرة وان
بحيرة اورمية
مراغة
هكاري
همدان
كرمنشاه
حلوان
بيت مادي
دجلة
بغداد
تكريت
سامراء
الانبار
الكوفة
الحيرة
البصرة
الكويت
الاهواز
سنجار
الحضر
آشور
الرها
حلب
تدمر
حمص
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
دمشق
حيفا
يافا
عمان
اورشليم
البحر الميت
الاردن
انطاكيا
اللاذقية
قبرص
دير الزور
الحسكة
ماردين
الاشارات :
المقياس
المواقع الاثرية
المواقع التقريبية
الأديرة الشرقية

ΔΕΙΠΝΟΣ

منشورات المكتبة البولسية
جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب. ١٢٥
هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٤٤٤٩٧٣
زحلة – الحمراء بلازا – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧